

ول
وايرل ديورانت

قصة الحضارة

عصر فولتير



قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر قولتير

تاريخ الحضارة في أوروبا الغربية من ١٧١٥ إلى ١٧٥٦
مع التنويه الخاص بالهجرة بيت الديم والفلسفة

مراجعة
عالم أدم

ترجمة
فؤاد أندراوس

الجزء الأول من المجلد التاسع



حقوق الطبع محفوظة

دار الحديث : ص.ب. ٨٧٣٧، ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلس: ١٢٤٣٠
العنوان البرقي: دار الحديث - بيروت - لبنان

إلى حفيدنا المحبوب

جم

محتويات الكتاب

٥	كلمة اعتذار
٧	مقدمة
٩	الفصل الاول : فرنسا : الوصاية : ١٧١٥ - ٢٣
٩	١ - فولتير الشاب
١٢	٢ - الصراع على الوصاية
١٨	٣ - ازدهار ثم انهيار
٢٧	٤ - الوصي
٣٤	٥ - المجتمع في عهد الوصاية
٣٨	٦ - فانتو والفنون
٤٤	٧ - المؤلفون
٤٨	٨ - الكردينال العجيب
٥١	٩ - فولتير والباستيل

الكتاب الاول

انجلترة ١٧١٤ - ٥٦

٦٥	الفصل الثاني . الشعب
٦٥	١ - التمهيد للثورة الصناعية
٦٥	أ (المؤيدون
٦٩	ب (الصناعة
٧٢	ج (الاختراع
٧٥	د (رأس المال والعمال
٧٨	هـ (النقل والتجارة
٨٠	و (المال

٨٥	٢ - مظاهر الحياة فى لندن
٨٩	٣ - المدارس
٩٢	٤ - الاخلاق
١٠٠	٥ - الجريمة والعقاب
١٠٨	٦ - آداب السلوك
١١٨	٧ - تشستر فيلد

الفصل الثالث . الحكام

١٢٩	١ - جورج الاول
١٣٦	٢ - جورج الثانى والملكة كارولين
١٣٨	٣ - روبرت ولبول
١٤٣	٤ - بولنبروك
١٤٦	٥ - كيف تنزلق الدول الى الحرب
١٤٩	٦ - ارلنـدة
١٥٤	٧ - اسكتلنـده
١٥٧	٨ - الامير تشارلى الجميل
١٦٣	٩ - صعود وليم بت

الفصل الرابع . الدين والفلسفة

١٦٧	١ - الموقف الدينى
١٦٧	٢ - التحدى الربوبى
١٧٢	٣ - الدفع الدينى
١٧٧	٤ - جون وسلى
١٨٤	٥ - فى النحل والبشر
٢٠١	٦ - ديفد هيوم
٢٠١	أ (الفيلسوف الشاب
٢٠٤	ب (الغض من شأن العقل
٢١٠	ج (الاخلاق والمعجزات
٢١٤	د (الداروينية والمسيحية
٢١٩	هـ (الشيوعية والديمقراطية
٢٢٣	و (التاريخ
٢٢٧	ز (الفيلسوف العجوز

- ٢٣٢ ١ - دولة القلم
- ٢٣٥ ٢ - الكسندر بوب
- ٢٥٥ ٣ - أصوات الوجدان
- ٢٦٢ ٤ - المرح
- ٢٦٩ ٥ - الرواية
- ٢٧٠ ١ (صموئيل رتشر دسن
- ٢٧٧ ب (هنرى فيلدنج
- ٢٨٦ ج (طوبياس سمولت
- ٢٩٣ ٦ - الليدى مارى

- ٣٠٧ ١ - المصورون
- ٣١٢ ٢ - وليم هوجارث
- ٣٢٢ ٣ - الموسيقيون
- ٣٢٦ ٤ - هندل
- ٣٢٦ ١ - نشأته
- ٣٣٠ ب (غزو انجلترا
- ٣٣٨ ج (هزيمته
- ٣٤٢ د (الاوراتوريو
- ٣٤٧ هـ (بروميثيوس
- ٣٥٣ ٥ - فولتير فى انجلترا

كلمة اعتذار

يجب أن 'يلقى' اللوم لطول هذا المجلد على المؤلفين للذين أغراهما بالاسهاب الشديد افتتانهما بموضوعه المحورى - ونعنى به الصراع الغالب ، المتصل ، بين الدين والعلم ، مضافا اليه الفلسفة ، ذلك الصراع الذى استحال الى مسرحية حية فى القرن الثامن عشر ، وتمخض عن علمانية عصرنا الممترة . فكيف حدث أن شطرا كبيرا من الطبقات المتعلمة فى أوروبا وأمريكا فقد الايمان بلاهوت ظل خمسة عشر قرنا يقدم خوارق الدعائم والاسانيد للقانون الاخلاقى القلق ، المتنافر ، الذى أرسيت فوقه الحضارة الغربية ؟ وأى آثار - فى الاخلاق والادب ، والسياسة - سيسفر عنها هذا التغيير ، الاساسى رغم صمته ؟

لقد ازداد التفصيل فى كل مجلد بتكاثر أحداث الماضي وشخصياته التى لا تزال اليوم حية فى تأثيرها وتشويقها . ولعل هذا التكاثر ، بالاضافة الى تعدد الموضوعات - التى تنتظم جميع مناحى الحضارة فى أوروبا الغربية من ١٧١٥ الى ١٧٥٦ - ينهض عذرا عن طول القصة وتشعبها . وهكذا فجر « عصر فولتير » ضفافه وفاض بجزء عاشر ننوى اصداره عن « روسو والثورة » يبلغ بالقصة عام ١٧٨٩ . وسيتناول هذا الجزء العاشر التغيير الذى أحدثته حرب السنوات السبع فى خريطة العالم ، والسنين الاخيرة التى اختتمت بها حياة لويس الخامس عشر ، ١٧٥٦ - ٧٤ ، وعصر جونسون ورينولدز فى انجلترا ، وتطور الثورة الصناعية وازدهار الادب الالمانى من لسنج الى جوته ، والفلسفة الالمانية من هردر الى كانط ، والموسيقى الالمانية من جلوك الى موتسارت ، وانهيار الاقطاع فى فرنسا لويس السادس عشر ، وتاريخ تلك الامم المحيطة بالقارة - وهى السويد ، والدنمرك ، وبولنده ، وروسيا ، وتركيا ، وايطاليا ، والبرتغال ، واسبانيا - التى أرجأنا تناولها فى هذا المجلد قصدا فى المساحة من جهة ، ولعدم تورطها مباشرة فى الصراع العظيم بين العقل والايمان من جهة أخرى (الا عن طريق البابوية) . وسينظر هذا المجلد الختامى فى مراحل ذلك الصراع

اللاحقة ، متمثلة فى ثورة روسو على العقلانية ، وجهد إيمانويل كانط :
البيطولى لانقاذ اللاهوت المسيحى عن طريق الأخلاق المسيحية . وسوف
تمتكمّل لوحة عصر فولتير فى ذلك الجزء العاشر من « قصة الحضارة »
وتعرض خاتمة هذا المجلد التاسع الدفاع عن الدين ، أما خاتمة « روسو
والثورة » التى تلقى نظرة محيطية على المجلدات العشرة كلها ،
فستتصدى لسؤال يبلغ بموضوع الكتاب ذروته : ما هى عظات التاريخ
وعبره ؟ .

ولقد حاولنا أن نصور الواقع بالمزج بين التاريخ والسير . وستثير
هذه التجربة نقد الناقدين - ولا ضير فى هذا ، ولكنها تحقق هدف
« التاريخ المتكامل » . ذلك أن الأحداث والأشخاص تسير جنباً الى جنب
خلال الزمن دون اعتبار لايها كانت الأسباب وأيها النتائج ، والتاريخ
يتكلم فى الأحداث ، ولكن خلال الأفراد . وليس هذا المجلد سيرة
لفولتير ، انما هو يستخدم حياته الجواله الثائرة نسبجا يربط بين الأمم
والأجيال ، ويقبله بوصفه أعظم الأعلام دلالة وأكثرهم إيضاحاً فى
الفترة بين موت لويس الرابع عشر وسقوط الباستيل . فمن من بين
جميع الرجال والنساء الذين عاشوا فى تلك الحقبة المضطربة أنصع من
فولتير صورة فى ذاكرة الناس ، وأحظى بقراءتهم الكثيرة لأعماله ،
وأبقى تأثيراً فيهم اليوم ؟ يقول جيورج برانديس « ان فولتير خلاصة
قرن من الزمان (١) » . ويقول فكشور كوزان « ان الملك الحقيقى
للقرون الثامن عشر هو فولتير (٢) » . فلنسر اذن خلف ذلك اللهب
المتوهج خلال القرن الذى عاش فيه .

الفصل الأول

فرنسا : للوصاية

١٧١٥ - ٢٣

١ - فولتير الشاب : ١٦٩٤ - ١٧١٥

لم يكن اسمه بعد فولتير ، بل كان حتى اطلاق سراحه من
الباستيل في ١٧١٨ يدعى فرانسوا ماري آرويه . وقد ولد بباريس في
٢١ نوفمبر ١٦٩٤ ، وأصبح خلاصتها المصفاة حتى ١٧٧٨ . أما الرجل
الذي يفترض أنه أبوه ، واسمه فرانسوا آرويه ، فكان محاميا ميسور
الحال ، عرف الشاعر بوالو والغانية نينون دلائكلو ، وكتب وصيتهما ،
وعرف المسرحى بيير كورنيس ، ووصفه بأنه « أثقل من لقي من الناس
ظلا (١) » . وأما أمه ، ماري مارجريت دومار ، فكان يجرى في
عروقتها قدر طفيف من الدم النبيل ، وكانت ابنة موظف في « البرلمان »
وأخت المراقب العام للحرس الملكى ، ومن طريقهما استطاعت الوصول
الى بلاط لويس الرابع عشر . وقد جعلت حيويتها وذكائها المرح من
بيتها صالونا صغيرا . وذهب فولتير الى أنها ملكت كل ما وهبت أسرته
من ذكاء ، كما ملك أبوه كل ما أوتيت من دراية مالية ، وقد استوعب
الابن الموهبتين جميعا فيما ورثه . وماتت أمه في الأربعين وهو لم
يجاوز السابعة . وكان اكبر ابنائها الخمسة أرمان ، الذى كان غيورا
على لاهوت الجانسنيين حريصا على ميراث الأسرة . أما أصغر الأبناء
فرانسوا ماري ، فكان معتلا فى عامه الأول ، حتى أن أحدا لم يصدق
أن سكتب له الحياة . وقد ظل حتى الرابعة والثمانين يتوقع موته
المبكر ويذيعه على الناس .

وكان من بين أصدقاء الأسرة عدة « آباء » abbés وهو لقب
كان يخلع على أى كنسي علمانى ، سواء كان قسيسا مرسوما أو لم يكن .
وقد أصبح كثير من هؤلاء الآباء رجال دنيا لا دين ، لمعوا فى المجتمع
رغم تمسكهم برداء الكهنوت ، ومنهم من ألفوا المشاركة للسفارة فى

مجالس خلت من الوقار ، ومنهم من عاش كما يشتهي متمسكاً وان حافظ على مظهر لقيه . مثال ذلك الابيه دشاتو نوف ، آخر عشاق نينون دلائكو وأول معلم لفولتير . وكان رجلاً واسع الثقافة ، رحب الأفق ، وقد أشرب تلميذه وبنية نينون وارتياحية مونتيني . وفى رواية قديمة مشكوك فيها انه قدم للصبي ملحمة هازلة تدعى « الملحمة الموسوية » كانت تتداول فى مخطوطات مرية ، ومؤداها ان الدين ، اذا استثنينا الايمان بكائن أعظم ، ليس الا ذريعة يتذرع بها الحكام لاختضاع المحكومين وارهابهم (٢) .

بدأ تعليم فولتير حين اصطحبه معلمه « الابيه » فى زيارة لنينون ، وكانت الغانية الشهيرة يومها (١٧٠٤) فى الرابعة والثمانين . ووجدها فرانسوا « يابسة كالمومياء » ولكنها مازالت فياضة برقة المرأة وعطفها . وقد تذكر فى تاريخ لاحق صنعها فقال « لقد طاب لها أن تذكرنى فى وصيتها ، فتركت لى ألفى فرنك لاأشتري بها كتباً (١٣) » . وماتت بعد ذلك بقليل .

ورغبة فى موازنة هذا الغذاء ألحق الصبى وهو فى العاشرة طالباً مقيماً بكلية لوى - لجران اليسوعية على شاطئ باريس الايسر ، التى اشتهرت بأنها أفضل مدرسة فى فرنسا . وكانت تضم بين تلاميذها الألفين من أبناء الأشراف كل من أطاق أن يتعلم ، وفى السنوات السبع التى أنفقها فولتير فى مدرسته صنع الكثير من الأصدقاء الأرستقراطيين الذين احتفظ طوال حياته بالآلفة الطبيعية معهم . وقد تلقى تدريبات حسناً فى الدراسات الكلاسيكية ، والأدب ، ولا سيما المسرحية ، ومثل فى مسرحيات عرضت هناك ، وكتب هو نفسه تمثيلية وهو بعد فى الثانية عشرة . وكان متقدماً فى دراسته ، وظفر بجوائز كثيرة وأبهج معلميه وأفزعهم . فلقد أعرب عن عدم ايمانه بالبحيم ، وسمى السماء « عنبر نوم الدنيا الكبير (٤) » . وتنبأ أحد معلميه فى حزن بأن هذا المفكر الصغير سيحمل لواء الربوبية الفرنسية - أى الدين الذى يرفض كل لاهوت تقريباً فيما عدا الايمان بالله . على أنهم احتملوه بما عهد فيهم من صبر وأناة ، وبادلهم هذا الصنيع باحتفاظه - طوال هرطقاته كلها - باحترام وعرفان بالبحيم

دافئتين لليسوعيين الذين راضوا عقله على الوضوح ودربوه على النظام
كتب وهو فى الثانية والخمسين يقول :

« تلقيت العلم سبع سنين على يد رجال بذلوا جهودا مضنية لم
ينالوا عليها جزاء ليربوا عقول الشباب وأخلاقهم ... ولقد اشرىونى
ميلا الى الادب ، وعواطف ستكون عزاء لى الى نهاية عمرى . وما من
شيء سيمحو من قلبى ذكرى الأب بوريه ، الذى هو عزيز بالمثل على
كل من أخذوا عنه العلم . فان أحدا من المعلمين لم يحب تلاميذه فى
للدروس والفضيلة كما فعل ذلك الأب ... وقد أسعدنى الحظ بتلقى
العلم على أكثر من أب يسوعى جعلته أخلاق الأب بوريه .. فما الذى
رايته خلال السنين السبع التى قضيتها مع اليسوعيين ؟ أكثر ضروب
للحياة جدا وقصدا وتنظيما ، أوقاتهم كلها قسمة بين رعاية يبذلونها
لنا وممارسات لمهنتهم الشاقة . وانى لامتشهد بالآلاف الذين علموهم
كما علمونى وليس بين هؤلاء فرد يكذبنى (٥) » .

ويعد أن تخرج فرانسوا نوى أن يجعل الادب مهنته ، ولكن أباه
أصر على أن يدرس القانون ، محذرا أباه من احتراف الادب الذى هو
كلمة المرور السحرية الى الفقر والعوز . وظل فرانسوا ثلاث سنين
« يدرس قوانين تيودوسيوس وجستنيان سبيلا لمعرفة مهنة المحاماة
الباريسية » على حد قوله . وقد كره « كثرة الأشياء عديمة الجدوى
التي أرادوا أن يشحنوا بها ذهنى ؛ ان شعارى هو : التركيز على
صميم الموضوع (٦) » . وبدلا من أن يستغرق فى مجموعات القوانين
والمواقب القانونية ، سعى لصحبة جماعة من شكاك الاببيقوريين كانوا
يجتمعون فى التاميل - وهو بناء تخلف من دير قديم لفرسان الهيكل
(الداوية) فى باريس . وكان امامهم فيليب جفاندوم ، كبير رؤساء
اديار فرنسا ، صاحب الموارد الكنسية الضخمة والايمان الدينى الهزيل ،
ومعه الآباء سيرفيان ، ودبوسى ، ودشوليو ، ومركز دلاقار ، وأمير
كوتلى ، وغيرهم من الاعيان الذين يتمتعون بدخل ميسر وحياة
مرحة ... وكان الابيه دشوليو يجهر بأن الخمر والنساء أطيب النعم
التي جادت بها على الانسان طبيعة حكيمة خيرة (٧) . وقد لاسم
فولتير بين نفسه وبين هذا النظام دون عناء ، وصدم أباه بالمهر خارج

البيت مع أمثال هؤلاء السمل المعريدين حتى العاشرة مساء ، وكانت
تعد يومها ساعة متأخرة تأخيرا منكرا .

وعين فولتير ملحقا للسفير الفرنسي بلاهاى (١٧١٣) ، ربما
بناء على طلب الأب . ويعرف العالم كله كيف وقع الفتى البالغ الحساسة
فى غرام أولمب دنوايه ، وكيف لاحقها بأشعاره ، وقطع لها العهد
بعبادتها الى الأبد . كتب لها يقول : « لم يوجد حب يعدل حبى ، لأنه
لم يوجد انسان أجدر بالحب منك (٨) » . وأبلغ السفير آرويه الأب
بان فرانسوا لم يخلق للدبلوماسية . فاستدعى ولده الى وطنه ، وحرمه
من ميراثه ، وهدد بفضه على مركب الى جزر الهند الغربية . وكتب
فرانسوا من باريس الى « بامبيت » بأنه قاتل نفسه أن لم تبادر بالحضور
اليه . واذا كانت أعقل منه يستنتج اثنتين ، ووجنس واحد ، فقد ردت
عليه بان من الخير له أن يصلح أباه ، ويصبح محاميا فالحا . وصفح
عنه أبوه شريطة أن يدخل مكتب محام وقيم معه ، فوافق . اما بامبيت
فتزوجت كونتا . ويبدو أنها كانت آخر مغامرات فولتير الغرامية .
لقد كان انسانا مرهف الشعور كائ شاعر ، كله أعصاب وحساسية ، ولكنه
لم يكن عارم الشهوة ، وسوف يقع بعد ذلك فى غرام مشهور ، ولكنه
لن يكون تجاذبا بين جسدين بقدر ما هو تالف بين عقليين . لقد فاضت
طباقة من خلال قلمه . كتب الى المركيزة ديمور وهو لم يجاوز الخامسة
والعشرين يقول « ان الصداقة اثمن ألف مرة من الحب . ويخيل الى
أننى لم أخلق قط للغرام . فأننى أجد فى الحب شيئا سخيلا نوعا ما . .
وقد قررت أن أطلقه الى الأبد (٩) » .

وفى أول سبتمبر ١٧١٥ مات لويس الرابع عشر ، فتفتست لويوا
البروتستنتية وفرنسا الكاثوليكية الصعداء . لقد كان موته خاتمة ملك
ونهاية عصر : ملك اتصل اثنتين وسبعين سنة ، وعصر - عصر القرن
العظيم - بدأ بأمجاد الانتصارات الحربية ، وبهاء الروائع الأدبية ،
وفخامة فن الباروك ، وانتهى بتحلال الفنون والآداب ، وارهاق الشعب
واقفاره ، وهزيمة فرنسا وإذلالها . وتطلع الجميع فى أمل وشك الى
الحكومة التى ستخلف الملك المهيب الذى راح غير مبكى عليه .

٢ - الصراع على الوصاية : ١٧١٥

كان هناك ملك جديد ، هو لويس الخامس عشر ، ابن حفيد

لويس الرابع عشر ، ولكنه لم يكن قد جاوز الخامسة . مات جده ، وأبوه ، وأمه ، وأخوته ، وأخواته ، وأخيرا جد أبيه . فمن يكون وصيا عليه ؟ .

لقد سبق وليان للعهد الملك الشمس الى الموت : ابنه لويس الذى مات فى ١٧١١ ، وحفيده دوق برجنديا الذى مات فى ١٧١٢ . وقبل حفيد آخر باسم فيليب الخامس ملكا على اسبانيا ، شريطة تنازله عن جمع حقوقه فى عرش فرنسا ، وبقي على قيد الحياة بعد موت الملك الشيخ ابنان غير شرعيين ، وكان قد اعترف ببنوتهما شرعا ، وأصدر مرسوما بأن يرثا تاجه فى حالة عدم وجود أمراء يجرى فى عروقهم الدم الملكى . أما أكبرهما وهو لوى أوجست ، دوق مين ، البالغ آنئذ الخامسة والأربعين ، فكان رجلا هزيل الجسم لطيف المعثر زادت قدمه المشوهة من حياته وجبته ، ولعله كان يقنع بما تتيح له ضيعته الكائنة بضاحية سو (خارج باريس مباشرة) ، والتي بلغ ثمنها ٩٠٠.٠٠٠ جنيه ، من ترف ودعة ، لولا أن زوجته الطموح كانت تحته على أن ينافس غيره من الساعين للوصاية على العرش . ذلك أن دوقه مين لم تنس قط أنها حفيدة كونديه الكبير ، فاحتفظت فى سو ببلاط أشبه ببلاطات الملوك ، بسطت فيه رعايتها على الفنانين والشعراء (ومنهم فولتير) ، وأحاطت نفسها بحاشية مريحة وافية تمهيدا للملك وسبيلا للوثب اليه ، وكان لها مفاتنها ، امرأة لا عيب فى جسمها ولا شائبة فى هندامها ، شديدة القصر والنحافة حتى ليخالها الناظر صبية ، ذكية ماهرة ، تلقت تعليما كلاسيكيا طيبا ، وأوتيت بديهة حاضرة وحيوية لا تعيا وان أعيت غيرها . وكانت واثقة أن زوجها سيكون وصيا رائعا ما دام خاضعا لسلطانها . وبلغت بالحاحها من اقناع القوى المحيطة بالملك المحتضر مبلغا كفى لاستخلاص وصية منه (١٢ أغسطس ١٧١٥) تركت لدوق مبن الاشراف على شخص الصبى لويس ، وتعليمه ، وعلى جنود القصر ، ومنحته كرسيًا فى مجلس الوصاية . ولكن ملحقا للوصية (٢٥ أغسطس) عين فيليب الثانى ، دوق أورليان ، رئيسا للمجلس .

وأما فيليب هذا فكان ابن فيليب الاول (المسيو) الاخ الخنثوى للملك الشيخ من زوجة ثانية - هى شارلوت اليزابث أميرة البالاتين

للخشنة الواقعية النزعة . وكان تعليم الفتى قد نيط بأب دينى تصفه « مذكرات » سان - سيمون ، كما تصفه « المذكرات السرية لفترة الوصاية » « لدكلو » بأنه « بالوعة نتنة » من الرذائل . فلقد كان جيوم دبوا هذا ابنا لصيدلانى اقليمى ، بذل جهدا كبيرا فى الدرس ، وكسب قوته بالاشتغال مدرسا خصوصيا ، وتزوج ، ثم ترك زوجته برضاها ليفتح بكلية سان - ميشيل بباريس ، حيث كان يدفع نفقات تعليمه بإداء الأعمال الحقيبة بهمة لا تفتر . فلما تخرج قبل وظيفة مساعد لمسان - لوران ، ضابط بيت « الميسو » وجز شعر راسه ليرهب ، ورسوم كاهنا صغيرا ، ناسيا فيما يبدو زوجته . فلما مات سان - لوران عين دبوا مدرسا خصوصيا للوصي المستقبل . يقول دكلو - الذى قل أن توخى النزاهة وعدم التحامل « أن الآبيه أحس أن تلميذه سيحتقره عما قليل ما لم يفسد أخلاقه ، فلم يدخر وسعا فى تحقيق هذا الهدف ، وأفلح فى هذا فوق ما دبر لسوء الحظ (١٠) » . أما سان - سيمون الذى كان يكره الموهبة المجردة من عراقة الأصل ، فكان يجد متعة فى وصف دبوا ، قال فيه :

« رجل قصير القامة ، حقير الهيئة ، ذابل الوجه ، مخلوع القلب ، يلبس باروكة صفراء باهتة ، له وجه عرسة يضيئه بعض الذكاء . لقد كان - فى كلمتين مألوفتين - وغدا أصيلا . اضطرعت فى داخله دون هوادة كل الرذائل لتظفر بالسيادة ، حتى ملأ ذهنه الضجيج المتصل - آلهته الحرص والفجور والطمع ، ووسائله الغدر والمسلق والتذلل ، ودينه الفسوق المطلق ، ورأيه الذى دان به كانه المبدأ العظيم هو أن الاستقامة والأمانة من الأوهام التى يتجمل بها الناس دون أن يكون لها وجود ... كان فيه ذكاء ، وعلم ودراية بشئون الدنيا ، ورغبة شديدة فى ارضاء الناس والتودد اليهم ، ولكن هذا كله أفسدته رائحة كذب وزيف انبعثت رغم ارادته من ممام جسده كلها ... شرير ... خائن ، عاق ، خبير بأخبث الخبائث ، صفيق أشد الصفاقة حين يكشف أمره . يشتهى كل شيء ، ويحسد كل شيء ، ويود أن يظفر بكل شيء (١١) » .

وكان سان - سيمون وثيق الصلة بأسرة فيليب ، وعلينا ألا نتعجل

فى تكذيبه ، ولكن لابد أن نضيف أن هذا الابيه كان دارسا كفلسا ،
ومساعدا قديرا ، ودبلوماسيا حكيما موفقا ، وأن فيليب لخبرته بالرجل
ظل وفيا له الى النهاية .

أما التلميذ ، الذى ربما كان نسبه من ناحية الاب قد أفسده ، فقد
تلقف تعليمات أستاذه وبزها عقلا ورذيلة . أبهج معلمه بذاكرته القوية ،
وفطنته العقلية ، وذكائه الثاقب ، وفهعه وتذوقه للأدب والفن . وأتاه
دبوا بفونتنيل ليعلمه أصول العلوم ، وبهومييرج ليعلمه أصول الكيمياء ،
وسيكون لفليب فيما بعد مختبره الخاص كما كان لتشارلز الثانى ملك
انجلترا ولغولتير فى سيريه ، وسيلتمس فى التجارب الكيميائية بعض
الراحة من حياة الزنا والفجور . وكان يرسم صورا لا بأس بها ، ويعزف
على القيثارة ، ويحفر الرسوم للكتب ، ويجمع التحف جمع ذواق
خبير ولم يتعمق واحدا من هذه الميادين ، فقد كانت اهتماماته شديدة
التنوع ، وملاهيته تستأثر بوقته . وكان بريئا كل البراءة من الايمان
الدينى ، وحتى أمام الناس « تظاهر باستهتار مخز بالدين (١٢) »
وفى هذا ، كما فى إباحته الجنسية ، كان رمزا وحافزا لبلده وللقرن
الذى عاش فيه .

لقد كان كاكثرا خليطا مضطربا من الشخصيات . يكذب فى يسر
وفى ابتهاج خبيث عند الحاجة أو للنزوة الطارئة ، وينفق ملايين
الفرنكات المنتزعة من شعب مملق على ملاهيته وهواياته الشخصية ؛ على
أنه كان جوادا عطوفا ، بشوشا متسامحا ، « بطبيعته طيب القلب
عطوف ، رموف (كما قال سان - سيمون (١٣)) أكثر وفاء لأصدقائه
منه لخليلاته . وكان يشتمل بالشراب كان السكر شعيرة يؤديها كل ليلة
قبل أن يمضي الى فراشه (١٤) . فإذا وبخته أمه أجابها « من السادسة
صباحا حتى الليل يفرض على العمل الطويل المضنى ، ولولا أنى الهو
بعد ذلك لما أطقته ، ولت كمدا (١٥) » .

وربما كان له من اجهاض حبه الاول عذر فى اسرافه فى الجنس .
ذلك أنه شغف حبا بالكنيسة سيرى ، وكانت وصيفة شرف لأمه ، عريقة
المولد . فراح ينظم لها القوافى ، ويغنى لها ، ويزورها مرتين فى

اليوم ، وأراد أن يتزوجها . ولكن لويس الرابع عشر عيس ، وزكى له ابنته غير الشرعية ، دوقة بلوا ، تزكية قوية . وأطاع فيليب (١٦٩٢) ، ولكنه واصل تعلقه الشديد بالآنسة سيري حتى ولدت له ابنا . فنفاها الملك الغاضب من باريس . وبعث لها فيليب بالمال الكثير ، ولكنه حاول أن يكون وفيًا لزوجته ، دون أن يوفق في ذلك طويلا . ومنحته ابنة ، هي دوقة بيرى المستقبل ، التي أصبحت أعلى حب له . وأمر مأساة في حياته .

وبعد موت أبيه (١٧٠١) خلفه فيليب على لقب الدوقية وثروة الأسرة ، دون أن يلتزم بشيء ، إلا أن يستمتع بحياته في السلم ويخاطر بها في الحرب . وكان قد قاتل قبل ذلك ببسالة ضد الحلف الأعظم (١٦٩٢ - ٩٧) ، وأصابته من جراء ذلك جراح كبيرة . ثم نال الآن مزيدا من الامتياز ببسالته المستهترة في حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٢ - ١٣) . فلما نجا من الموت كافا نفسه بوليمة من البغايا . وكان في آثامه كلها ، وفي غير استهتاره الدينى ، يحتفظ بلطف في السلوك وتهذيب وأدب في الحديث يذكر الناس بشباب « الملك الشمس » الحال .

ولم يخطر ببال فيليب أن من حقه أن يطالب بالوصاية على العرش . إلا بعد أن أزيح جميع الورثة المباشرين من الطريق ، أما بالموت وأما بالمعاهدة . واتهمته الشائعات بأنه سمم أمراء البيت المالكي ليخلو له الطريق الى الملك ، ولكن الأجيال التالية وافقت لويس الرابع عشر على رفضه هذه الغربة . وبدأت عدة جماعات ترى فيه شرا أهون من دوق مين ودوقتها . فالبروتستانت الفرنسيون الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية تحت الاكراه بالتهديد تمنوا ارتقاءه الى منصب الوصي لما توسموا فيه من ميل ملحوظ الى التسامح . كذلك الجانسنيون الذين قاسموا من الاضطهاد الملكى والمراسيم البابوية ، وكذلك اصحاب « العقول القوية » أو أحرار الفكر الذين أبهجتهم فكرة حكم رجل حر الفكر لفرنسا ، وكذلك جمهور باريس الذى سئم صرامة الملك المتوفى وتزمتة الذى جاء متأخرا ، وكذلك جورج الأول ملك إنجلترا ، الذى عرض على فيليب المعونة المالية فرفضها ، وأهم من هؤلاء جميعا أن « نبلاء السيف » -

أى الأسر النبيلة التى أنزلت عن سلطانها القديم يأمر ريشليو ولويس الرابع عشر ليصبح أفرادها طفيليات تعيش عائلة على البلاط - هذه الأسر راودها الأمل بأنّها عن طريق فيليب ستثار لنفسها من الاهانة الملكية ، اهانة الخضوع للأبناء غير الشرعيين فى الحكم ، وللتجار فى الادارة . وحث سان - سيمون فيليب على التخلّى عن تبطله وفجوره ، وعلى الكفاح فى سبيل حقه فى الوصاية ، وكان هو نفسه واحداً من أكبر النبلاء مقاما .

وأما فيليب فكان يحب اللهو أكثر من السلطة ، ولعله كان يؤثّر أن يترك وشأنه . أما وقد راح أصحابه يحضونه ، فقد همز همته لتفوز فورة قصيرة ، فاشترى هو - أو هم - تأييد جنود القصر الملكى (تحت بصر دوق مين) ، وكسبوا كبار السياسيين والعسكريين بوعدهم بالوظائف ، واسترضوا البرلمان بآمال رد امتيازاته السابقة . وفى ٢ سبتمبر ١٧١٥ - غداة موت لويس الرابع عشر - دعا فيليب برلمان باريس ، وقادة النبلاء ، وكبار موظفى الدولة ، للاجتماع فى قصر العدالة . وذهب دوق مين مؤملا الظفر بمنصب الوصي ، ولكن جسارة دوق أورليان ، وكذبه ، وفصاحته ، كلها غلبته فى هذه اللعبة . قال فيليب فى معرض بذل الوعود « لن يكون لى هدف غير التخفيف من آلام الشعب ، وتوطيد النظام الحسن من جديد فى مالية الدولة ، والمحافظة على السلام فى الوطن وفى الخارج ، وإعادة الوحدة والهدوء الى الكنيسة ، وسيعيننى على هذا اعتراضات هذا المحفل الجليل الحكيم ، وهانذا التمسها سلفا (١٦) » . أى أنه عرض أن يرد للبرلمان « حق الاعتراض » (على المراسيم الملكية) الذى أنكره الملك السابق وأغفله . وتحقق النصر لهذه الحركة البارة ، وبائع البرلمان فيليب بالاجماع تقريبا وصيا على العرش وأعطاه الاشراف الكامل على مجلس الوصاية . واحتج دوق مين بأن هذه الترتيبات تخالف وصية الملك الراحل ، وأنه والحالة هذه لا يمكن ان يظل بعد ذلك مسئولا عن شخص الملك الصبى ، وأنه مضطر الى طلب اعفائه من ذلك الواجب . فأخذه فيليب والبرلمان عند كلمته ، وانكفأ مين ساخطا عاجزا الى ضيعته فى سو ، والى تقريعات زوجته العنيفة . وأصبح فيليب أورليان وصيا على عرش فرنسا ثمانية أعوام ، وكان يومها فى الثانية والأربعين .

٢ - قصة الحضارة

٣ - ازدهار ثم انهيار : ١٧١٦ - ٢٠

كانت مهمته الاولى اعادة النظام والاستقرار الماليين الى الدولة .
لقد ورث حكومة مقلسة ، بلغ دينها ٢٤٠٠.٠٠٠.٠٠٠ رطل ، اضيف
اليه دين قصير الاجل بلغ ٥٩٠ مليون جنيه على شكل « سندات على
الدولة » - وهى كمبيالات ملكية تتداولها الأمة ، ولم تكد تساوى آنئذ
ثلث قيمتها الاسمية . وكان صافى إيرادات الحكومة عام ١٧١٥
لا يتجاوز ٦٩ مليون جنيه ، ومصروفاتها ١٤٧ مليوناً . وكان أكثر
الدخل المنتظر فى ١٧١٦ قد أنفق مقدماً (٤٧) .

وأشار سان - سيمون بأن تشهر الحكومة افلاسها . ولكن الدوق
أدريان موريس دنواى احتج . ووفق الوصي بين الرايين بأجراءات
اقتصاد واصلاح معتدلة . فخفض الجيش الى ٢٥.٠٠٠ مقاتل ، وأغشى
الجنود المسرحون من الضرائب ست سنوات ، وأغفى آباء الاطفال
الثمانية إعفاء دائماً . وخفضت ضرائب « التالى » ، والجاييل ،
والرموس ، وغيرها من الضرائب . وندد بالفساد الذى استشرى فى
جميعها ، وعولج بعض هذا الفساد ، ورفعت مئات من شاغلى الوظائف
الحكومية الزائدين عن الحاجة - ومنهم ٢٤٠٠ فى باريس وحدها .
وانشئت « غرفة عدالة » (مارس ١٧١٦) دعى للمثول أمامها كل
المالكين ، والتجار ، وأصحاب مصانع الذخيرة ، وغيرهم ممن اشتبه
فى أنهم غشوا الحكومة . وهنا أقام نواى ، الذى ألف الاجراءات
العسكرية ، حكم ارهاب حقيقياً ، فوعد بالرافة كل من يكشف عن زملائه
من المذنبين ، ووعد المبلغون بخمسة المبالغ التى تسترد بفصل
مساعدهم . وشرعت عقوبة الاعدام لكل من يعوق عمل المبلغين ،
وتقررت مصادرة الاملاك والحكم بالتشغيل على سفن الاسرى والعبيد
مدى الحياة عقاباً لمن يدلون بشهادة زور عن وضعهم المالى . وشنق
بعض من حكم عليهم ، ووضع البعض الآخر فى المشهرات أمام جمهور
مبتهج ، وانتحر بعض رجال المال بعد أن يسوا من تبرئة أنفسهم . على
أن النتائج لم تكن متناسبة مع هذه الوسائل . ذلك أن أكثر المذنبين
اشتروا الاعفاء من الفحص أو الادانة برشوة موظفى الخرفة ، أو أصدقاء
الوصي ، أو خيلاته . وتفاقم الفساد حتى بلغ حداً كان أفراد الحاشية

يسعون فيه الى الرشوة بدلا من أن يعرضها المذنبون عليهم ، من ذلك أن أحد رجال المال حكم عليه بغرامة قدرها ١٢٠٠.٠٠٠ فرنك ، فوعده أحد رجال البلاط برفع الغرامة لقاء مبلغ ٣٠٠.٠٠٠ جنيه . قال له رجل المال « سيدى الكونت العزيز ، لقد تأخرت كثيرا ، لأننى أبرمت للتو اتفاقا مماثلا مع زوجتك لقاء نصف هذا المبلغ (١٨) » . وأعلن المرسوم الذى ألغى غرفة العدالة (مارس ١٧١٧) ، فى صراحة ندر أن تتحلى بها الحكومات ، أن « الفساد استشرى حتى وصلت عدواه الى جميع الطبقات تقريبا ، بحيث لا يمكن توقع العقوبات العادلة على مثل هذا العدد الغفير من المذنبين دون الاخلال بالخطر بالتجارة والنظام العام والدولة » . وكان صافى ربح الحكومة حين انتهى التحقيق نحو سبعين مليون فرنك (١٩) .

فلما خاب أمل الوصي فى هذه النتائج ، استمع الى رجل اسكتلندى ممتاز اقترح عليه نظاما جديدا للمالية . واسم الرجل جون لو ، وقد ولد لمصر فى من أدنيره فى ١٦٧١ ، ودرس علم المصارف فى لندن ، وشهد افتتاح بنك إنجلترا فى ١٦٩٤ ، واشتبك فى مبارزة بسبب الحب ، وقتل غريمه ، ثم فر الى القارة يحمل على رأسه حكما بالاعدام . وكان وسيما ، بشوشا ، مولعا بالعلوم الرياضية ، ضارب بنجاح فى سوق النقد الأجنبى ، وأعانتته قدرته على حساب ارتباطات أوراق اللعب وتذكرها على كسب قوته فى مختلف الاقطار . وقد راقب الطرق التى تعمل بها المصارف فى أمستردام ، وهامبورج ، والبنديقية ، وجنوة . وفى أمستردام على الأخص أخذ بسحر نظام الائتمان ، الذى أتاح للمصرف أن يصدر أوراقا نقدية بأضعاف القيمة الذهبية لرصيده ، بحيث شغل عشرة جولدونات بنطاء جولدن واحد ، وبهذه الطريقة حفز الأنشطة الصناعية والتجارية ، ويسرها ، وضاعفها . ورأى هناك كيف يمكن ، فى مصرف يثق به رجال الاعمال ، اجراء المعاملات بمجرد نقل الارصدة المصرفية ، دون عناء حمل الفضة أو الذهب أو مبادلتها . وسأله نفسه : لم لا يمكن انشاء مصرف قومى ونظام الائتمان كهذين فى فرنسا ؟ وراح يفكر فى وضع « نظامه » - وهو الاسم الذى أطلق عليه بعد ذلك .

وكان محور فكرته زيادة توظيف الناس والمواد باصدار أوراق النقد ، بضمان الحكومة ، لمثلئى قيمة الاحتياطيات القومية من الفضة والذهب .

والارض ، ويخفض معدل الفائدة ، تشجيعا لرجال الاعمال على اقتراس المال للمشروعات والطرق الجديدة فى الصناعة والتجارة . وبهذه الطريقة تخلق النقود الاعمال ، وتزيد الاعمال من التوظيف والانتاج ، وتزداد الايرادات والاحتياطيات القومية ، ويتيسر اصدار المزيد من النقود ، ويتصاعد الخير والنفع . ولو امكن اقناع الشعب - عن طريق المدفوعات من الفوائد - بايداع مدخراته فى مصرف قومى بدلا من اختزان المعدنين النفيسين ، لاضيفت هذه المدخرات الى الاحتياطيات ، وأصدر المزيد من العملة ، وهكذا يشغل المال العاطل ، ويزداد رخاء البلاد .

وفى عام ١٧٠٨ شرح لو أفكاره للحكومة الفرنسية ، فرفضها لويس الرابع عشر . فلما أصبح فيليب أورليان وصيا ، عرض لو أن ينقذ بنظامه هذا مالية فرنسا المقلسة . وتساعل : لم تنفرد فرنسا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، دون سائر دول أوربا الكبرى بخلوها الى ذلك الحين من المصارف القومية ؟ ولم تردت فرنسا فى مهاوى الركود الاقتصادى برغم ما تميزت به تربتها من خصب واهلها من ذكاء ؟ ووافق فيليب على السماح له بأن يؤسس « مصرفا عاما » (١٧١٦) على أن يكون هذا مشروعاً أهلياً . وقبل المصرف الودائع ، ودفع الفوائد ، وأقرض القروض ، وأصدر أوراق نقد - من فئات عشرة ومائة ألف فرنك - مرعان ما أصبحت وسيطاً مفضلاً فى المبادلة بفضل قيمتها الثابتة ، المربوطة بوزن ثابت من الفضة . وكانت هذه الاوراق النقدية اول نقود ورقية قانونية ، وهكذا وضع مصرف لو ، وفروعه الاقليمية ، اول طرق الائتمان المنتظمة فى فرنسا . وفى ابريل ١٧١٧ تقرر قبول أوراق المصرف سداداً للضرائب .

وفى سبتمبر تقدم لو الى مرحلة من أفكاره أشد مغامرة . ذلك أنه حصل من الوصي على امتياز شركة جديدة سماها « شركة الغرب » لاستغلال حوض المسبى بأكمله ، وكان يومها خاضعاً لفرنسا . وباع للجمهور ٢٠٠ر٠٠٠ سهم فى شركة الغرب هذه سعر السهم منها ٥٠٠ جنيه ، وكان الثمن عالياً ، ولكن يجوز دفع ثلاثة أرباعه سنداً حكومياً بقيمتها الاسمية ، التى بلغت ثلاثة أمثال قيمتها الفعلية .

ويبادر الجمهور الى شراء الاسهم كلها مغتبطا بهذه الفرصة التي اتاحت له أن يستبدل بالأوراق المنخفضة القيمة أسهما في مشروع يرجى من ورائه الربح . وأصدر لو - في تفاؤل متزايد - تعليماته لمصرفه بأن يشتري الاحتكار الملكي للتبغ ، وجميع الشركات الفرنسية التي تشتغل بالتجارة الخارجية ، ثم ضم هذه الشركات الى شركة الغرب فالف منها « شركة جزر الهند » التي ستحتكر كل التجارة الخارجية . وبدا لبعض رجال الأعمال ان الاشتراكية في التجارة الخارجية نذير بالاشتراكية في الانتاج والتوزيع الداخليين ، فبدأت تختمر حركة معارضة للو .

وفى ٤ ديسمبر ١٧١٨ أعيد تأسيس مصرف لو باسم « المصرف الملكي » ، واعترف بأوراقه أوراقا نقدية قانونية ، واعطى الاشراف الكامل تقريبا على مالية الامة . وأصدر لو اصدارا جديدا من الاسهم في شركة الهند بسعر السهم منها ٥٥٠ جنيه . وسرعان ما تم الاكتتاب . وزاد توقع الناس للارباح المرتفعة في تقديرهم لقيمة الأسهم ، فتبادلوها بأسعار مطردة الزيادة في موجة مضاربة ، حتى طلبت بسعر ٢٥٠٠ رة جنيه ، أي بتسعة أو عشرة أمثال قيمتها الاسمية . وتصادف أن مرت بباريس في ١٧١٨ الليدي ماري ورتلي مونتاجيو ، فابتسمت لرؤية فرنسا تترك المصرف في حياتها الاقتصادية لرجل بريطاني . وسمح لو نفسه لخياله بأن يشطح متجاوزا صواب حكمه . فلم يكتف المصرف الملكي الجديد بتسليم دار سك النقود وكل جبايات الضرائب ، بل تلقى الدين القومي باعطائه حصص في شركة جزر الهند نظير كل قيمة اسمية قدرها ٢٥٠٠ رة جنيه في تعهدات الحكومة ، وخيل اليه أن رأس المال العاطل سيصبح بهذه الطريقة عاملا في مشروعاته الموسعة . ثم عرض تحفة المصرف على الوفاء بديونه لمزيد من الخطر باعطائه منحة للوصي قدرها ٢٤٠٠ سهم .

وظلت ثقة الناس به كاملة برغم هذه المغامرات الطائشة ، واشتدحت حماسهم للشركة ، وزايد المشترون بأسعار أعلى وأعلى على أسهمها . وزاد المزيفون هذه الضجة بانزال شهادات أسهم مزيفة الى السوق . وظل شارع كاتكمبوا ، الضيق القذر ، الذي اختار « النظام » فيه مكانه ، سدى سمانين المركز المالي الرئيسي لباريس (أشبه ببول سنثريت في

نيويورك) . وتجمع فيه المشترون والبائعون من جميع الطبقات ، والدوقات والمومسات ، والباريسيون والريفيون والاجانب ، فى أعداد مطردة وانفعال اشدت يوما بعد يوم . ومات البعض تحت الأقدام وسط الزحام ، أو داستهم مركبات النبلاء . وكان المريشال الشيخ « دفيلا » يمر بالمكان راكبا ، فتوقف ليحاضر الجمع المحتشد عن جشعه المفرط . وكانت الأكشاك الصغيرة المقامة فى هذا الزقاق تغل كل شهر ايجارا أكثر مما تغله البيوت فى عشرين عاما . وشكا السكان من شدة الضجيج الذى لا يحتمل . ومع ذلك لم يتوقف المشترون عن المزايدة بأصوات مرتفعة ، وكان سعر السهم يزداد كل يوم تقريبا ، بل أحيانا كل ساعة ، فبيع بعض الأسهم فى نهاية عام ١٧١٩ بمبلغ ١٢ر٠٠٠ جنيه ، وبلغت القيمة السوقية لكل الاسهم المعروضة آنئذ ثمانين ضعف قيمة كل الذهب والفضة المعروفين فى فرنسا (٢٠) . واذا كان المطلوب دفعه من ثمن السهم لا يتجاوز عشرة فى المائة من قيمته الاسمية ، فان نقل الاسهم من مالك لآخر كان سريعا ، وحقق البعض ثروات فى يوم واحد . فكسب مصرف ١٠٠ مليون جنيه ، وخادم فى فندق ثلاثين مليونا (٢١) . وسمع الناس لأول مرة كلمة « المليونير (٢٢) » .

وكان لو رجل الساعة . ففى ١٧٢٠ عين مراقبا عاما للمالية . وكان أساطين النبلاء والنبيلات يذرعون حجرة انتظاره ملتسمين نصحه فى شئون المال أو تاييده فى دسائس البلاط . وقد كتب فولتير مستعيدا ذكرى ذلك العهد فقال « رأيتة يعينى يخترق إبهاء الباليه - رويال ومن ورائه الأدواق والاشراف - وماريشالات فرنسا ، وأساقفة الكنيسة (٢٣) » . وقبلت إحدى الدوقات يده فى تذلل .

بيد أنه لم يبد عليه أن انتصار أفكاره الظاهر أفسده ، أو ان استفحال سلطانه الشخصى أطغاه ، والواقع أنه ربح للقيمة المفرطة التى أوصل جشع الجمهور أسهم الشركة إليها (٢٤) . ولم يستغل مركزه ليثرى . وقد صرح سان - سيمون ، الذى كان يعارض هذا « النظام » بقوله :

« لم يكن فى طبعه جشع ولا لؤم . فلقد كان رجلا رقيقا طيبا »

محترما ، لم تفسده زيادة الثقة وكثرة المال ، ولم يكن فى مسلكه ، ولا فى بطائنه ، ولا فى ملئدة طعامه ، ولا فى إثائه ، ما يصدم الناس . وقد احتمل بصبر وثبات عجيبين كل المضايقات التى سببتها عملياته ، حتى اذا قارب النهاية . . . أصبح سريع الغضب حاد الطبع » .

ولكن بعض النبلاء لم يرضوا عنه لأنه أجنبى وبروتستنتى ، ولاحظوا أنه هو وزوجته الانجليزية لم يكونا متزوجين زواجا شرعيا رغم ما بدا من اخلاصهما الواحد لصاحبه . ورغبة منه فى التخفيف من هذا العداء ، قبل المواطنة الفرنسية والمذهب الكاثولى الرومانى .

واستعمل سلطانه مهمازا يحفز به رضاء وطنه الثانى ، فخفض الضرائب ، وإنهى النظام السقيم الفاسد الذى كانت الوكالات الاهلية تتبعه فى جمع الضرائب ، وأظهر نحو جماهير الشعب عطفًا لم يعهد فى رجال المال . وقسم ضياعا كبيرة ملكا للكنيسة أو النقابات ليزرعها الفلاحون ، لا بل اقترح عقب تعيينه مراقبا عاما الزام الكنيسة ببيع جميع الاملاك التى اقتنتها بعد عام ١٦٠٠ - أعنى نصف جميع ممتلكاتها الفرنسية (٢٥) - وسبق طورجو بالغائه الرسوم المفروضة على نقل الاغذية والسلع داخل فرنسا ، ونظم بناء الطرق والكبارى والقنوات أو ترميمها ، واستقدم مهرة الصناع من الخارج ليؤسسوا صناعات جديدة ، وشجع التوسع الصناعى بتخفيضه نسبة الفائدة على القروض ، وزادت المشروعات الفرنسية ستين فى المائة فى مدى العامين (١٧١٩ - ٢٠) اللذين بلغ فيهما قمة سلطته ، وأحيا البحرية التجارية وضاعفها بالتوسع فى التجارة مع آسيا وأفريقيا ، وأمريكا ، وكانت السفن الفرنسية التى تحمل التجارة الخارجية ، تبلغ ست عشرة فى مارس ١٧١٩ ، فأصبحت ٣٠٠ فى يونيو ١٧٢٠ ، وعادت التجارة الخارجية الفرنسية فى عهد لو الى الأوج الذى أدركته تحت كولبير . وأقنع النبلاء الفرنسيين بتمويل انتاج البن والتبغ فى لويزيانا ، ومول هو نفسه تطوير منطقة نهر أركنساس . وفى ١٧١٨ أسست نيو أورليانز ، واتخذت لها اسما من اسم أسرة الوصي .

على أن المشروع الأمريكى لم يكتب له التوفيق رغم جهود لو

وفيليب المتعددة النواحي . فلقد كان شطر كبير من وادى المسبى لا يزال برية لم تفتح ، وعرض لو مهور العرائس و ٤٥٠ فدانا على الأمر المهاجرة الى الوادى . فلما تبين أن الهجرة أقل اغراء من المضاربة ، رحل المسجونون والمتشردون والبلغايا الى لويزيانا ، ودفع الشباب والشابات (أمثال مانون ليسكو فى رواية بروس) الى هذه المغامرة بالحيلة أو القوة . وكان هؤلاء الضحايا يطعمون أسوأ الطعام حتى مات كثير منهم فى الطريق . وأوقفت مراسيم مايو ١٧٢٠ هذا الاكراه الهمجى . أما فى المستعمرة ذاتها فان التجهيز الرديء ، والادارة السيئة ، والتمرد كلها عوقت النهوض بالاقتصاد ، وجعلت ارباح « شركة المسبى » (كما سماها الناس) أقل كثيرا مما افترضه المضاربون . واتضح أن آمال استخراج الذهب أو الاحجار الكريمة من أرض المستعمرة وهم فى وهم ، رغم أن لو نفسه راوده هذا الحلم .

ولا بد أن نبا هذه الصعوبات قد وصل الى فرنسا . وحكم اذكى المضاربين أن أسهم الشركة قد بلغت قيمتها ، أما غيرهم ممن لم يقلوا عن هؤلاء جشعا وان افتقروا الى المعلومات أو الحكم الصائب ، فقد حل بهم الخراب لأنهم تأخروا فى بيع أسهمهم . وفى ديسمبر ١٧١٩ أصبح التهاافت والتنافس على البيع أكثر مما كان على الشراء . ففى بحر شهر واحد باع الدوق بوربون أسهما بعشرين مليون جنيه ، وأمير كودنيه بأربعة عشر مليونا ، وتطلب الأمر تخصيص ثلاث عربات لحمل الذهب الذى لم يجرؤ لو على الامتناع عن دفعه ثمننا لأوراقه النقدية وأسهم الشركة (٢٦) . وأفرغ مضارب بروسيا ما يملكه منها ، ثم مضى بثلاثين مليونا من الجنيهات ذهبا . وصرف غير هؤلاء ثمن أسهمهم ليشتروا أرضا أو بيوتا أو حليا أو أشياء أخرى مما تستند قيمته على اساس مكين من حاجة البشر و غرورهم . أما المليونون الذين عاقبتهم غرفة العدالة فقد انقموا لانفسهم بصرف ثمن أوراقهم وارسل الذهب خارج فرنسا . وحاول لو أن يقف تدفق الذهب من الخزائن ، فحصل من الوصي على مراسيم تحرم على الشعب تملك المعساذن النفيسة أو الاتجار فيها أو تصديرها ، وتحتم تسليم كل الذهب والفضة مما تزيد قيمته على خمسمائة فرنك الى المصرف الملكى . وخول لندوى المصرف أن يدخلوا البيوت ويفتشوا عن المعدن النفيس المخبوء ، ومثل هذا

العدوان على حرمة البيوت لم يجرؤ عليه أحد قط حتى لويس الرابع عشر . يقول سان - سيمون « لقد أخفى الكثيرون أموالهم فى تكتم شديد حتى أنهم - بعد أن ماتوا دون الافضاء بمكمن كنوزهم الصغيرة - ظلت هذه مدفونه وضاعت على ورثتهم (٢٧) » .

فلما واصل سعر الأسهم هبوطه حاول لو أن يدعمه بعرضه ٩٠٠٠ جنيهه (بأوراق النقد) ثمنا للسهم ، ولكن الزيادة المطردة فى أوراق النقد خفضت من قيمتها ورفعت من سعر البضائع . فلم يحل مايو ١٧٢٠ حتى كانت الاسعار قد ارنشعت مائة فى المائة ، والاجور خمسة وسبعين فى المائة بالمقارنة بسنة ١٧١٦ ، وفى يوليو كان زوج الجوارب الحريرية الطويلة يباع بأربعين جنيهها . وبدأ الذعر من التضخم ، فاندفع الناس الى تغيير أوراق النقد وشهادات الأسهم بالبضائع ، فجمع دوق دلافورس المقادير الكبيرة من الشموع ، وكدس المريشال ديسترى كميات ضخمة من البن والكافوا . ولكى يحد لو من هذا الهروب من النقود الى السلع ، أعلن (٢١ مايو) تخفيض ٥٠ ٪ فى القيمة الرسمية لأوراق النقد وأسهم الشركة . وكان هذا خطأ كبيرا - ربما كان السبب فيه ضغط الوصي المرتاع على لو ، وكان هو ذاته يشعر بالضغط عليه من خصوم لو من النبلاء والكهنة (٢٨) ، وحاول فيليب تخفيف الأزمة برد كل أسهمه فى الشركة الى المصرف (٢٩) .

ومع ذلك استمرت موجة البيع . ففى يوليو اضطر المصرف الى وقف الدفع على أى ورقة نقدية تزيد على عشرة فرنكات وحاصر حملة الأوراق المصرف . وطالبوا فى صخب وضجيج برد قيمة أوراقهم ذهباً أو فضة . وفى باريس اشتد تزاخم القوم حتى دبست عشر نساء تحت الاقدام وسط الفوضى ، وحملت بعد ذلك ثلاث من جثثهن فى موكب غاضب تحت نوافذ الوصي . واعتبر الشعب لو مسئولاً عن جميع الصعوبات مع أن مضاربتهم المجنونة هى التى سببت انهيار « النظام » . وحاول بعضهم القبض عليه وقتله ، فلما فشلت المحاولات هشمته مركبته تهشيماً فى فناء الباليه - رويال - وأعربت حوادث الشغب المتكررة عن شعور الشعب بأنه كان ضحية الخدع المالية ، وبأن الطبقات العليا كسبت على حساب جمهرة الأمة . وشارك البرلمان فى الحملات

على لو ، فنفى فيليب البرلمان الى بونتواز (٢٠ يوليو) ، ودافع
الشعب عن البرلمان .

وفى أغسطس هبطت أسهم شركة المسبى الى ٢٠٠٠ جنيه بعد
أن بلغت فى أوج ارتفاعها ١٢٠٠٠ جنيه ، أما الأوراق النقدية فهبطت
الى عشرة فى المائة من قيمتها الأصلية . وفى أكتوبر تسرب نبا - سرى
من قم الى قم - بأن الوصي سحب من المصرف الملكى ايان ازدهاره أورقا
بلغت قيمتها الاسمية ثلاثة بلايين من الفرنكات ، انفق أكثرها على
الهدايا السخية للاصدقاء والمحظيات وحوالى هذا التاريخ هرب أحد
صيافة المصرف الى بروميا حاملا كمية ضخمة من الذهب . فهبطت
أسهم شركة المسبى الى ٢٠٠ جنيه . وفى ديسمبر ألغى الوصي
المصرف ، وطرد لو ، وأعاد البرلمان . وفى الرابع عشر من أكتوبر غادر
لو فرنسا مع ابنه . وكان قد وظف ثروته فى شركة جزر الهند الخاسرة ،
وشارك مصير معظم حملة الأسهم ، ولم يكن قد أودع مالا فى الخارج ،
فلم يأخذ الآن معه سوى ألفى جنيه وبعض الجواهر غير القيمة . وفى
بروكسل تلقى من بطرس الأكبر دعوة بالحضور الى روسيا والاضطلاع
بشئون ماليتها ، فرفض ، واعتكف فى البندقية ، حيث لحقت به زيجته
وابنته ، وعاش مغمورا فقيرا ، وهناك مات فى ١٧٢٩ .

لقد كانت المبادئ التى أقام عليها مصرفه سليمة نظريا ، ولولا
جشع المضاربين المفرط واسراف الوصي لجعلت فرنسا قادرة على الوفاء
بالتزاماتها ولحققت لها الرخاء . وحين فحصت حسابات لو الزاغة
وجدت سليمة لا غبار عليها . وترك الاقتصاد الفرنسى مؤقتا خربا فى
ظاهر الأمر ، فحملة الأسهم والأوراق النقدية يطالبون بدفع قيمتها
والدفع مستحيل ، وتداول النقود أصابه الشلل تقريبا ، والصناعة
محجمة ، والتجارة الخارجية أصابها الركود ، والاسعار فوق طاقة
الشعب . ودعا الوصي اخوان « باريس » ليشيعوا شيئا من النظام وسط
هذه الفوضى . فطلبوا جميع أوراق النقد وعوضوا فئاتها المنوعة
بحقوق على الدخل القومى ، بخسارة على اصحابها تفاوتت من ستة
عشر الى خمسة وتسعين فى المائة ، أما الجمهور الذى استنفد مسورة
غضبه فقد أذعن لهذا الافلاس العملى فى صبر واحتمال .

على أن شيئاً بقي بعد هذا الانهيار . فالزراعة أفادت من ارتفاع قيمة محاصيلها وهبوط العملة . وأفادت الصناعة سريعا لأنها وجدت حافزا من انخفاض الفائدة وارتفاع الأسعار ، وظهرت المشاريع الجديدة فى كل مكان . وانتفعت التجارة الداخلية من خفض الرسوم الداخلية ، واستأنفت التجارة الخارجية توسعها فيما وراء البحار بعد انحسار الفوضى . وخرجت الطبقات الوسطى سليمة كبيرة - وسعيها وراء الكسب كالعهد بها طبيعى وضرورى . وتضاعف عدد المائليين وازدادوا قوة على قوة . وكسب الذبلاء لأنهم دفعوا ديونهم بعملة أرخص ، ولكنهم ظهروا بمظهر مخز لأنهم أبدوا وسط حمى المضاربة شهوة ملحة للكسب لا تقل افتضاها عنها فى أى طبقة . وظلت الوصاية ملوثة بالنكول عن التزاماتها المالية وبترفها الموصول وسط الخراب الشامل . وقال ناقد مجهول الاسم فى معرض الشكوى من الحال « لا بد من انقضاء قرون حتى يمكن استئصال الشر الذى يسال عنه لو ، لأنه عود الناس الدعة والترف ، وجعلهم غير قانعين بحالهم ، ورفع ثمن الطعام والعمل اليدوى ، وجعل جميع طبقات التجار تتطلع الى أرباح باهظة (٣٠) » ولكن تلك الروح التجارية ذاتها حفزت اقتصاد فرنسا وفكرها ، رغم هبوطها بالجوّ الاخلاقى للمجتمع الفرنسى . فما حل عام ١٧٢٢ حتى انتعش الاقتصاد الفرنسى بقدر أتاح للوصى على العرش أن يعود ، باطمئنان ضمير الحاكم ، الى أساليبه المعهودة من الحكم العطوف ، والفجور الفاضح .

٤ - الوصى

لقد نبهته أمه الالمانية الى ضرورة الحد من لطفه مع الناس ، فقالت له « ان العطف خير من القسوة ، ولكن العدالة تقوم بالعقاب كما تقوم بالشواب ، ومن المؤكد أن من لا يجبر الفرنسيين على خشيته سيخسأهم بعد قليل ، لأنهم يحتقرون من لا يخيفونهم (٣١) » . أما فليب ، الذى شكله مونتيني ، فكان يعجب بالحرية الانجليزية ، ويتكلم بتفاؤل على حكمه رعية لا تطيعه طاعة عمياء ، بل تكون من الذكاء بحيث تدعه يشرح لها الدواعى التى تبرر قوانينه . ورمز لروح نظامه بقركه فرساي وسكنى البالييه - رويال ، فى قلب باريس ومعنائها .

وكان يكره مراسم حياة البلاط والاعلان عنها ، فترك ذلك كله وراء ظهره . ورغبة في المزيد من التيسير والخلوة رتب ألا يسكن الملك الصبي فرساي بل القصر الريفي في ضاحية فانسين . وبدلاً من أن يدس له غليب السم كما أُرجفت الشائعات ، عامله أرق معاملة ، وأبدى نحوه كل الخضوع الواجب له ، واحتفظ لويس الخامس عشر طوال حياته بذكرى شاكراً للرعاية التي أغدقها عليه الوصي (٣٢) .

بعد أن دفن لويس الرابع عشر بيومين أمر فيليب بالاخراج عن جميع المسجونين في الباستيل فيما عدا أولئك الذين عرف عنهم ارتكابهم جرائم خطيرة ضد المجتمع . وكان مئات من هؤلاء الرجال قد سجنوا بمقتضى أوامر القبض المختومة lettres de cachet التي أصدرها الملك الراحل ، وأكثرهم جانستيون لم تكن تهمتهم سوى الانشقاق الديني ، ومنهم من طال العهد بهم في السجن حتى لم يعرف أحد ، حتى ولا هم أنفسهم ، السبب في سجنهم . مثال ذلك أن رجلاً قبض عليه قبل خمسة وثلاثين عاماً لم يحاكم قط أو يذنب بسبب سجنه ، فلما أفرج عنه وهو شيخ وجد نفسه حائراً مذهولاً ، فهو لا يعرف انساناً في باريس ، ولا بملك فلساً واحداً ، وعليه فقد التمس أن يبقى في الباستيل الى آخر عمره ، وأجيب الى ملتصقه .

ونفى من باريس ميشيل لوتلييه ، كاهن الملك الذي تعقب الجانسينيين من قبل . ونصح الوصي على العرش الحزبين المتخاصمين في الكنيسة بأن يهدئا من خلافاتهما . وأغضى عن البروتستانت المتسترين ، وعين عدداً منهم في وظائف ادارية . وأراد أن يجدد مرسوم نانت السماح ، ولكن اليسوعيين والجانسينيين اتحدا في التنديد بمثل هذا التسامح ، كذلك ثناه عن ذلك وزيره دويوا الذي كان يحتال للظفر بقبة الكردينالية (٣٣) . « ولم يزل البروتستانت الانصاف الذي أنكره عليهم الحزبان المتناحسان في الكنيسة الا بفضل الفلسفة (٣٤) » فلقد كان الوصي فولتيرياً قبل فولتير . ولم يكن له عقيدة دينية واضحة ، وكان على عهد لويس الرابع عشر التقى يقرأ رابليه في الكنيسة (٣٥) ، أما الآن فقد سمح لفولتير ، وفونتنيل ، ومونتسكيو ، بنشر كتب لو صدرت قبل بضعة سنوات لحرم تداولها في فرنسا لما تنطوى عليه من تهديد للإيمان المسيحي .

وكان فيليب - من الناحية السياسية - حاكما متحررا مستقيرا حتى حين زج بفولتير في السجن ، وكان يفسر قوانينه للشعب بعبارات بلغت من الاعتدال والاخلاص مبلغا حدا بميشليه الى أن يرى فيها ارهاضا بجمعية ١٧٨٩ التأسيسية (٣٦) . وامتلات مكاتب الحكومة بالرجال الأكفاء دون نظر الى عدائهم للوصي ذاته ، فعين رجل كان قد هدده بالاغتيال رئيسا لمجلس المالية (٣٧) ، أما فيليب ، الذي كان بطبيعته أبيقوريا - فكان يظل رواقيا حتى الخامسة مساء ، يقول سان - سيمون انه كان الى تلك الساعة « ينصرف بكليته الى أعمال الدولة ، واستقبال الوزراء والمجالس الخ . ولا يتناول طعامه أبدا خلال ذلك النهار ، بل يكتفى بتناول الكاكاو بين الثانية والثالثة ، حين يسمح للجميع بدخول غرفته ... وقد أبهجت الناس جدا ألفته وسهولة الوصول اليه ، ولكنهم أساءوا استعمالهما (٣٨) » . وكان فيليب أورليان ، دون سلائل هنرى الرابع جميعا ، أى جميع البوربون ، فى رأى فولتير « أشبههم بذلك الملك فى شجاعته ، وطيبة قلبه ، وصراحته ، ومرحه ، وبشاشته ، وسهولة الوصول اليه ، مع فهم أكثر تهذبا وصقلا (٣٩) » . وكان يربك السفراء والمستشارين بمعارفه الواسعة ، وفكره الثاقب ، وحكمه الصائب (٤٠) . ولكنه شارك الفلاسفة ضعفهم - وهو القدرة والرغبة فى رؤية جوانب كثيرة جدا للموضوع الواحد ، بحيث يضيع الوقت فى النقاش ويؤجل العمل الحاسم .

ولم يكن على سماحته يطيق أى اختزال للسلطة الملكية التقليدية . فلما رفض البرلمان - الذى أراد استخدام حق الاعتراض الذى وعدّه به - أن يسجل بعض مراسيمه (أى أن يعتبرها ضمن قوانين البلاد المعترف بها) ، دعاه (٢٥ أغسطس ١٧١٨) الى « سرير عدالة » مشهور - وهى جلسة يمارس فيها الملك وهو جالس على « سرير » القضاء سلطته فى الالتزام بتسجيل مرسوم ملكى . ومضى القضاء البالغ عددهم ١٥٣ ، وقورين مهيين فى عبااتهم القرمزية ، الى التويلرى سيرا على الاقدام . واتباعا لتعليمات فيليب ، أمرهم الملك الصبى بتسجيل مراسيم الوصي ، ففعلوا . وانتهاز فرصة مواصلة دوق ودوقة مين معارضته سواء فى المجلس الملكى أو بالتأمر عليه ، فحرم أبناء الملك وسفدته غير الشرعيين من وضعهم كامراء من الدم الملكى . ورد

لادواق الشرعيون الى سابق ترتيبهم وحقوقهم ، الامر الذى ابهج الدوق سان - سيمون ، الذى رأس فى هذه الخطوة اعظم انجاز للوصاية ، وكانت اسمى اللحظات فى « مذكراته » .

على ان دوق مين لم تقبل الهزيمة . فمولت بعض الطرفاء الذين راحوا يخزنون الوصي باهاجيهم اللاذعة . واحتمل هذه السهام بصبر القديس سبستيان ، النهم الا « الفليبيات » واهاجى « الاشياء التى شأنتها » المنسوبة لفلوتير . وفى ديسمبر ١٧١٨ اشتركت الدوقة فى مؤامرة مع كيلمار ، السفير الاسباني ، والبيرونى رئيس الوزراء الاسباني ، والكردينال ملشيور دبولنياك ، للاطاحة بالوصي وتنصيب فليب الخامس الاسباني ملكا على فرنسا ، على ان يكون الدوق مين كبير وزرائه . وكشف أمر المؤامرة ، وطرد السفير ، وزج بالدوق والدوقة فى سجنين منفصلين ، وأفرج عنهما فى ١٧٢١ . وادعى الدوق انه يجهل أمر المؤامرة . وعادت الدوقة الى بلاطها ومؤامراتها فى سو .

فى وسط هذه المضايقات ، وفى نطاق التقاليد وعلى قدر ما سمح به خلفه الشخصي ، قام فليب ببعض الاصلاحات المعتدلة . فشق فى حكمه القصر من المنطق أكثر مما شق فى نصف القرن الذى حكمه لويس الرابع عشر . ووفر ملايين الفرنكات بتركه قصرى مارلى وفرساي ، واحتفاظه بحاشية متواضعة العدد . وقد بقى الكثير من ابتكارات « لو » معثلا فى جباية للضرائب أشد قسرا وأكثر رحمة ، وفى طرد الجباة المتهمين بالفساد أو التبتيد . وفكر فليب فى ضريبة دخل تصاعدية : وجريها فى نورمنديه ، وفى باريس ، وفى لاروشيل ، ولكنها أبطلت بموته المبكر . وقد جاهد ليبقى فرنسا بذخوة من الحرب ، فصرح آلاف الجند ، ووطنهم فى الأراضي غير المزروعة . وأسكن الباقين فى ثكنات بدلا من ان يسكنهم فى بيوت الشعب . وبنظرة سمة فتح أبواب جامعة باريس والمكتبة لجمعية الطلبة المؤهلين دون أجر ، ودفعت الدولة مصروفات تعليمهم (٤١) . وأعان بمال الدولة الاكاديمية الملكية للعلوم ، والاكاديمية الملكية للماثورات والآداب البحتة ، والاكاديمية الملكية للعمارة ، ومول نشر المؤلفات العلمية ، وأنشأ فى اللوفر أكاديمية للفنون الميكانيكية نهوضا بالاختراع والفنون الصناعية (٤٢) . وأجرى

المعاشات على الفنانين والعلماء والأدباء ، وهيا لهم غرغا فى القصور الملكية ، وكان يحب أن يتكلم مع هؤلاء الرجال على مهنتهم المختلفة . ولم تؤت تدابير واصلحاته ثمارها كاملة من جراء كابوس الدين وانهيال ثورة لو المالية من جهة ، وعيوب الوصي البدنية والخلقية من جهة أخرى .

ومن أفجع المآسى فى تاريخ فرنسا أن هذا الرجل الذى وهب الكثير من فضائل الذهن والقلب لوطه وأضعفه فجور طبقته وفسق جيله . فهذا الابن الذى أنجبه أب منحرف جنسيا ، ورباه رجل فاجر من رجال الكنيسة ، شب وهو يكاد يكون عاجزا عن كبج جماح شهوة الجنس التى انغمس فيها . أقول ذلكوا « كان يمكن أن تكون له فضائل اذا كانت الفضائل ميسورة لانسان بغير مبادئ (٤٣) » - واذا كان قد أكره على الزواج من ابنة غير شرعية للويس الرابع عشر ، وافترق الحب أو السلى فى زوجته ، فإنه أولع بالسكر الكثير ، وبمعاشرة الخليلات فى اسراف لم يعدله فيه حاكم خارج حريم السلاطين . واختار اصدقاءه من بين المعريدين الذين كان يصفهم بكلمة *noués* (أى الفاسقين) ، والذين كانوا ينفقون الثروات على الفجور ، ويؤثثون بيوتهم بالفن الغالى ويزودونها بالمثيرات الجنسية (٤٤) . وكان فليب يلحق باصحابه فى الباليه - رويال ، أو فى فللته فى سان - كلو ، ومعظمهم من شباب الاشراف ، وفيهم أيضا بعض الانجليز المثقفين امثال اللوردين ستير وستانهوب - فى حفلات عشاء صغيرة تختلط فيها النساء المثقفات كمدام دوديفان بالممثلات ومغنيات الاوبرا ، والخليلات ، فى توفير اثاره الانثى لذكاء الرجل . يقول سان - سبمون ، ربما فى شيء من التلوين المناق :

« فى هذه الحفلات كانت تعرض أخلاق كل انسان ، الوزراء وأصحاب الخطوة كغيرهم سواء بسواء ، بحرية هى الاباحية المطلقة : غزليات البلاط والمدينة فى الماضى والحاضر ، وكل قديم من القصص والخصومات والفكاهات والسخافات ينش من مكانه ، ولم يعف من هذا النيش أحد ، وكان الدوق أورليان يدلى برأيه كالباقين . ولكن نادرا جدا ما كانت هذه الاحاديث تؤثر فيه أقل تأثير . وكان هؤلاء الاصحاب يسكرون ما شاء لهم السكر ، ويلهبون أنفسهم ، ويتكلمون ناقدرا الاشياء

دون تحرج ، ويتنافسون فى التفوق بالفحش العبارات ، حتى اذا فرغوا من احداث الكثير من الضجيج وثلثوا بالخمر ، مضوا الى فراشهم ليعاودوا اللعبة ذاتها فى الغد (٤٥) » .

وقد افصح روح فليب القلقة المنزوعة الجذور عن نفسها فى قصر تسلط محظياته عليه ، فندر أن سيطرت عليه أحدهن أكثر من شهر ، ولكن المبعديات منهن كن يترقبن الفرصة حتى يعود دورهن مرة أخرى . وكان خدمه الخصوصيون ، وحتى أصدقاؤه ، يجلبون له العشيقات الجديديات فى غير توقف . فنساء الطبقة العليا ، كالكونتيسة بارابير ، والنساء المغامرات كمدام تنسان ، والمغنيات والراقصات من الاوبرا ، والموديلات البارعات الجمال كمدام سابران (التى أشار « سمتها الرائع » و « وجهها الذى لا يدانيه فى الحسن وجه فى العالم » حتى مشاعر رجل فاضل كسان - سيمون) - هؤلاء كلهن وهبن أنفسهن للوصي لقاء برهة من السلطان ، أو لقضاء الرواتب أو الاعانات أو المجوهرات ، وكان يغدق العطايا عليهن من دخله الخاص أو من الخزانة التى على شفا الافلاس . على أنه برغم اهماله لم يسمح قط لهؤلاء النسوة بأن ينتزعن منه أسرار الدولة ، أو أن يناقشن شئونها ، فلما حاولت ذلك مدام سابران جعلها تنظر الى صورتها فى المرأة ثم سألها ، « أيمكن للانسان أن يتحدث حديثا جادا الى مثل هذا الوجه الجميل ؟ اننى لا أحب ذلك أبدا (٤٦) » . وما لبث سلطانها عليه أن زال .

هذا العرييد ذاته كان يحب أمه ، فيزورها مرتين كل يوم ، ويحتمل توبيخها الحزين فى حلم . ومع أنه لم يحب زوجته ، فأنه بذل لها العناية والمجاملة ، ووجد الوقت لينجب منها خمسة أطفال . وكان يحب ابناؤه ، وحزن حين لجأت صغرى بناته للدير ، ولم يمر به يوم دون أن يزور فى قصر الكسمبورج كبرى بناته ، التى كانت حياتها قضيحة محزنة تكاد تعدل فضيحة حياته هو .

ذلك أن زواجها بشارل ، دوق بيرى ، سرعان ما غدا تارجحا بين الحرب والهدنة . فبعد أن أمسكته متلبسا بين أحضان امرأة ، وافقت على أن ترضي عن خياناته شريطة أن يغضي عن خيانتها ، ويضيف تاريخ اخبارى معاصر أنهما « تعهدا » بأن يحمى الواحد صاحبه (٤٧) -

هذه الحفيدة - حفيدة « المسيو » ، « اللوطى » - وسليلا أسرة بافاريا ورثت الجنون فى دمها ، وجدت أن ثبات الذهن واستقرار الخلق أمر يفوق طاقتها ، وزاد وعيها بعيوبها وأخطائها من حدة طبع عات أربب كل من كان لهم صلة بحياتها . وقد استغلت نبالة أصلها استغلالا كاملا ، فكانت تركب عربتها مخترقة باريس كأنها ملكة ، وتحفظ فى اللكسمبورج بقصر مترف يخدمها فيه أحيانا ثمانمائة خادم (٤٨) . فلما مات زوجها (١٧١٤) راحت تستضيف سلسلة من العشاق . وصدمت كل انسان بسكرها وفجورها ، ولغتها النابية ، وعجيبها وغطرستها ، وكانت تختلف عليها نوبات من التقوى ، ومن الهجمات الشكاكة على الدين .

ويبدو أنها لم تحب انسانا قط محبتها لأبيها ، وأنه لم يحب انسانا قط محبته لها . ولقد شاركته ذكاه ، ورهافة حسه وظرفه كما شاركته خلقه ، وكان حسنهما فى شبابها يضارع حسن أجمل خليلاته . واتهمتهما شائعات باريس - التى لا قلب لها ولا حرمة - بمفاح القربى ، لا بل زادت بانه اقتترف هذه الخطيئة مع بناته الثلاث جميعا (٤٩) . واغلب الظن ان بعض هذه الشائعات أطلقها « شلة » مدام مين (٥٠) . وقد رفضها سان - سيمون ، وهو أقرب الناس الى الموقف ، لانها افتراءات قاسية وضيقة . أما فليب ذاته فلم يعبأ بنفيها . وخلوه التام من الغيرة من عشاق ابنته (١٥١) ، وعدم غيرتها من خليلاته (٥٢) ، لا يكادان يتفقان وطبيعة الحب المستاثرة (٥٣) .

ولم يقو على فصلها عن أبيها سوى رجل واحد - هو الكبتن ريون الضابط بحرس قصرها ، الذى سلبت فحولته لبها حتى خضعت له خضوع الاماء . ففى ١٧١٩ حبست نفسها فى اللكسمبورج مع بعض أتباعها ، وولدت ابنة للكبتن . ثم ما لبثت أن تزوجته سرا . وتوسلت الى أبيها أن يأذن لها باعلان هذا الزواج ، فرفض ، فانقلب حبها له غيظا مجنونا . ومرضت ، وأهملت نفسها ، فاصابتها حمى أذرت بالخطر ، وماتت وهى فى الرابعة والعشرين اثر مسهل أعطاها اياه طبيبها (٢١ يوليو ١٧١٩) . وقد كشف تشريح جثتها عن تشوهات فى مخها . ولم يرض أى أسقف بالصلاة عليها فى جنازتها ، وكان فليب

شاكرًا أعمق الشكر حين سمح رهبان سان - دنى بإيداع جثمانها في المدافن الملكية في كنيسة ديرهم . أما الأم فقد اغتبطت بموت ابنتها ، وأما الأب فقد دفن نفسه في فراغ السلطة .

٥ - المجتمع في عهد الوصاية

كان ازدياد الثروة في فرنسا في الفترة بين صدور مرسوم نانت (١٥٩٨) والغائه (١٦٨٥) ، وانتشار حياة الحضر ، وازمحلال العقيدة الدينية عقب الحروب الدينية والخلافات الجانسية - كان هذا كله قد جر على طبقة الاشراف تحللا في الاخلاق رمز له لويس الرابع عشر في شباب حكمه . وكان زواج الملك من مدام دمانتينون (١٦٨٥) ، واهتداؤه الى القناعة بامرأة واحدة والى حياة الفضيلة ، وما أحدثته الكوارث الحربية من تأثير منبه ، كل أولئك اكراهه بلاطه على أن يغير على الأقل من سلوكه الخارجى ، وكانت اصلاحات الاكليروس الذاتية قد أوقفت ضعف الكنيسة جيلا ، وفرض أحرار الفكر الرقابة على مؤلفاتهم ، وستر الابيقيوريون لهوهم الصاخب عن أنظار الناس . ولكن حين جاء بعد الملك الصارم التائب هذا الوصي الشاك الاباحى المتسامح ، تداعت هذه الضوابط ، وتفجر غيظ الغرائز المكبوتة في موجة من الزندقة والاستغراق في اللذات شبيهة بالفورة الشهوانية التي أصابت المجتمع الانجليزى عند عودة الملكية عقب جيل من تسلط البيورتان (١٦٤٢ - ٦٠) . وأصبح التحلل من الاخلاق شارة التحرر ورقى الثقافة ، وغدا الفجور نوعا من « الاتيكيت (٥٤) » .

كانت المسيحية آخذة في الازمحلال قبل أن تهاجمها « الموسوعة » بزمنا طويلا ، لا بل قبل أن يصوب اليها فولتير أول سهام قلمه . ففي ١٧١٧ شكا دىوى من كثرة الماديين في باريس (٥٥) ، وقال ماسيون فى ١٧١٨ « يكاد الكفر اليوم يضىء على أصحابه مظهر التميز والفخار ، انه فضيلة توصل الى العظمة ... وتجلب للمغمورين شرف الالفه بامير الشعب (٥٦) » وقد كتبت أم ذلك الامير قبيل موتها فى ١٧٢٢ تقول « لست أعتقد أن فى باريس ، سواء بين رجال الدين أو الدنيا ، حائة شخص يدينون بايمان مسبحى صادق ويؤمنون حقيقة بمخلصنا ، وهذا يجعلنى أرتعد فرقا (٥٧) » وقل من أفراد الجيل الأصغر من فكر

نفي التسويء عن الكاثوليكية الى البروتستنتية ، فقد تحولوا الى الالحاد .
النبي كان أسلم لهم . وكان مقهى بروكوب ، ومقهى جرادو ، شهابهما شان
القابل ، ملتقيات للمفكرين الملحدين .

واذا كان المروق عن الدين قد شارك في اطلاق الإستهتار الخلقي في
الطبقة العليا ، فان الفقر تعاون مع جموح الناس الطبيعي على أحداث
الفوضى الخلقية بين دهما باريس . وقد حسب العالم لأكرو ان « الأشخاص
الخطرين ، والمتسولين ، والمتشردين ، واللصوص ، والنصابين من شتى
الأنواع ، ربما الفوا سدس مجموع الشعب (٥٨) » . ولذا أن نفترض أن
الزنا كان يلطف من عناء الكدح بين فقراء المدن ، شانه بين أغنيائها .
وأفترخت الجريمة في شتى أشكالها ، من النشالين في باريس الى قطاع
الطريق العام . حقا كان لباريس شرطة منظمة ، ولكنها لم تستطع
ملاحقة الجريمة ، وكان رجالها أحيانا يقنعون بشرط من الغنيمة (٥٩) .
وفي ١٧٢١ نجحت وزارة الحرب على الأقل في القبض على كارتوتن ،
قاطع الطريق الفرنسي الأشهر (قريع جاك شبرد الانجليزي) وحاصرت
خمسمائة من رجال عصابته التي جعلت السفر خطرا حتى على الملوك .
ولم يبق على الاستقرار الخلقي للحياة الفرنسية غير طبقة الفلاحين
والطبقات الوسطى .

أما في طبقة الاشراف بباريس ، وبين أعيان المدن الطليقيين ،
ومدمني الادب أو الفن ، ورجال المال ورؤساء الدين ذوى الخيليات ،
فقد بدأ أن المبادئ الاخلاقية باتت نسيا منسيا ، ولم تذكر المسيحية
الا ساعة يلتقى فيها الناس في الكنائس أيام الاحاد . فاذا وفدت الزوجات
على باريس أو فرساي تركن وراء ظهورهن ذلك المعيار الخلقي المناقش ،
الذى حاول أن يحمى ميراث الاملاك بجعل خيانة الزوجة لزوجها
جريمة أخطر كثيرا من خيانة الزوج لزوجته ، هناك كانت الزوجة التي
تتقصر وصالتها على زوجها تعد من الطراز القديم ، وهناك ناقست النساء
الرجال في ربط الروابط وفكها . وكان الزواج يقبل للحفاظ على
الاسرة ، وأملأها ، واسمها ، اما بعد هذا فلا يطالب عرف العصر
والطبقة لا الزوج ولا الزوجة بالوفاء (٦٠) . لقد كان الزواج في العصور
الوسطى يعتمد عليه في أن يقود الى الحب ، أما الآن فننادرا ما كان

الزواج يقود إلى الحب أو الحب إلى الزواج ، وحتى في الزنا لم يكتف
هناك . كبير ادعاء للحب . على أن العهد لم يخل من زوجين وفهين
يتالقان كأنهما استثناء جرى للقاعدة وسط هذا الحشد الفاسق ، مثال
ذلك دوق ودوقة سان - سيمون ، وكولت وكونتيسة تولوز ، ومسيو
ومدام لون ، ومسيو ومدام بونشارتران ، ومسيو ومدام بيل - ايل .
وتحولت الكثيرات من الزوجات المستهترات إلى جدات حادثات مثاليات
وأنكفا بعضهن ، بعد أن بليت مفاتنهن من كثرة التداول ، إلى أديرة
مريحة حيث يفرغن لأعمال البر ويعلمن الحكمة للراهبات .

ومن أجراً نساء عصر الوصاية كلورين الكساندرين دتنسان ، التي
أطلقت فجأة من الدير وهي في الثانية والثلاثين إلى سلسلة متلاحقة
من العلاقات الغرامية . وكان لها أعضارها : فابوها زير نساء موفق
ورئيس برلمان جرينويل ، وأما لعوب طائشة ، وكلودين ذاتها كانت
وأعية بجمالها الذي يتلف على أن يباع . وكانت أختها الأكبر منها ،
مدام دجروليه ، لا تقل عنها كثيراً في فوضي علاقاتها الغرامية ، وقد
قالت في اعترافها على فراش الموت حين بلغت السابعة والثمانين معللة
مسلكتها « كنت شابة ، وكنت جميلة ، وكان الرجال يقولون لي ذلك
فأصدقهم ، وعليكم أن تحزروا الباقي بعد هذا (٦١) » . ورسم أخو
كلودين الأكبر منها قسيساً ، وشق طريقه إلى قبعة الكردينالية وإلى منصب
رئيس أساقفة ليون متوسلاً إلى هدفه بالعديد من النساء ، أما الأب
فادخل كلودين ديراً في منفلوري ليوفر مهرها . هنالك ظلت متبرمة
سنة عشر عاماً في حياة تقوى فرضت عليها كرها . وفي ١٧١٣ ، حين
بلغت الثانية والثلاثين ، هربت واختبأت في حجرة الشفالييه ديتوش ،
وهو ضابط في المدفعية ، أصبحت بمعونته (١٧١٧) أم الفيلسوف
دامبير . على أنها لم تتوقع انبعاث « الموسوعة » من هذا الوليد ،
فتركته على سلم كنيسة سان - جاك - لرون بباريس . وانتقلت إلى
ماتيو برايور واللورد بولنبروك ومارك رينيه دفواييه دارجنسون ،
وبعد أن جلست إلى مثال ينحت لها تمثالاً عارياً (٦٢) فيما روى ارتعت
بين أحضان الوصي نفسه . وكان مقامها هناك قصيراً ، وقد حاولت أن
تحول قبلايتها إلى وظيفة كهنوتية ذات إيراد لأخيها المحبوب ، وأجاب
فليب أنه لا يحب الفوائى اللاتي يتحسثن في شؤون العمل في

«الفراتى» (١٨١٩) ، «والمزمع بأن توصل أبوابه فى وجهها . ثم فخصت من
مجموعها تلك وغزت قلب دها . وسنلتى بها مرة أخرى .

وفى وسط هذا القلب الأخلاقى السريع واصلت بعض نساء باريس
تلك الفضيلة الفرنسية المميزة ، فضيلة الجمع بين أصحاب الألقاب ،
والذكاء ، والجمال ، فى الصالونات . وكان أكثر المجتمعات تهاديا فى
العاصمة يلتئم شمله فى مبنى الأوتيل دصلى الرائع العمارة ، هناك كان
يحضر الساسة والماليون والشعراء - فونتنيل فى ستيناته الصامته ،
وفولتير فى عشرياته المندفعة . وكانت جماعة أكثر جدلا تجتمع فى
الأوتيل دويون ، الذى خلده لساج فى لحظة غضب ، ذلك أنه دعى
هناك ليقرا مسرحيته «توكاريه» ، فوصل متأخرا ، فويخته الدوقة فى
خيلاء قائلة «لقد ضيعت علينا ساعة» ، فاجاب «ساجعلكم تكسبون
ضعفى هذا الوقت» ثم غادر المنزل (٦٤) . وقد مر بنا من قبل صالون
مدمام دمين فى سو . وكانت مرجريت جان كوردييه دلوييه ، التى
ستصبح البارونة دستال فيما بعد ، تخدم الدوقة وصيفة شرف ، وقد
كتبت «مذكرات» بارعة (نشرت فى ١٧٥٥) تصف المهازل ،
والنزوات ، والمهرجانات الليلية ، والحفلات التنكرية التى لم تترك
مكانا يذكر للاحاديث التى تخللت «ملاهى سو» .

ولكن الحديث كان يغلب على الصالون الذى أدارته آن تيريز
دكورسيل ، ماركيزة دلامبير ، فى الأوتيل دنفير (وتشغله اليوم المكتبة
الاهلية) . وقد واصلت هذه المرأة الغنية الصارمة ، خلال عصر الوصاية
الصاحب ، تلك العادات الرزينة الجليلة التى سادت سنوات لويس
الرابع عشر الاخيرة . فلم تشجع لعب الورق ، ولا الشطرنج ، ولا حتى
الموسيقى ، بل كانت بجملتها نصيرا للفكر . وقد أولعت ، كالمركيزة
دشاتليه ، بالعلم والفلسفة ، وكانت أحيانا (كما يقول فولتير) تتكلم
فوق ما يفقه رأسها ، ولكن الرأس كان جميلا يحمل لقباً نبيلاً ، ويحرك
مشاعر أى ميتافيزيقى ، وكانت فى كل ثلاثاء تستضيف العلماء والنبلاء ،
وفى كل أربعاء الكتاب والفنانين والأدباء ومنهم فونتنيل ومونتسكيو
وماريفو . وفى اجتماعاتها تلك كان العلماء يلقون المحاضرات ،
والمؤلفون يقرعون ما يزمعون إصداره من كتب ، والشهرة الإديسية .

تكتسب ، ومن « ندوة العقل » تلك ، قامت هذه المضيقة الكريمة الطموح بنحو عشرين حملة ناجحة لادخال من بسطت عليهم حمايتها فى عضوية الاكاديمية الفرنسية . لقد كانت واحدة من مئات النساء المهنيات ، المثقفات ، المتحضرات ، اللاتى يجعلن تاريخ فرنسا أكثر القصص فتنة فى العالم .

٦ - فانتو والفنون

عكست ثورة فى الفن ذلك التغيير الذى طرأ على السياسة والاخلاق . فبعد أن انهارت سياسة لويس الرابع عشر الامبريالية فى حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ - ١٣) ، تحولت روح فرنسا من دماء المجد الحربى الى مباحج السلام . فلم يجد مزاج العصر حاجة للكنايس الجديدة ، بل وجد الحاجة أكثر للقصور المدنية كالاوتيل ماتينيون وقصر بوربون (١٧٢١ - ٢٢) . وإذا استثنينا هذه العمائر الضخمة ، وجدنا ان المساكن والحجرات أصبحت الآن أصغر حجما ، وحليتها أكثر رقة وصقلا . وهذا الباروك يتحول الى الروكوكو* ، أى أن طراز الاشكال غير المنتظمة والحلية الكثيرة غلبت عليه أناقة تكاد تكون هشة ، تصل الى حد الخيال الجامح العابت الذى لا يمكن التنبؤ به . وأصبح الولع بالصقل البديع ، والالوان الزاهية ، وتطويرات التصميم المدهشة ، طابعا لطراز الوصاية . وتلاشت الطرز الكلاسيكية تحت فرحة الثنايا الانيقة ، وأخفيت الاركان ، ونقشت الحلى والقوالب المعمارية فى اسراف . وهجر النحت فخامه فرساي الاولمبية الى صور أصغر ، صور الحركة الرشيقة والاغراء العاطفى . وتجنب الاثاث الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة ، واستهدف الراحة أكثر من الوقار . فظهر الآن مقعد الشخصين ذو المسندين ، وهو المقعد المصمم للصديقين والحببيين اللذين يكرهان عاطف البعد . وأرسي شارل كرسان كبير نجارى الوصي ، طراز اثاث عصر الوصاية بما حوى من مقاعد ، وموائد ، ومكاتب وخزائن ذات ادراج ومرابيا ، تسطع بتطعيم الصدف وتشرق بالجمال المتعمد .

* ربما كانت هذه الكلمة rococo أصلها rocaille وهو لفظ يستعمل فى فرنسا فى القرن السابع عشر للدلالة على بناء المغارات أو تجميلها بالصخور والاصداف .

ولقد رمز فليب ذاته ، فى شخصه وعاداته وميوله ، الى الانتقال الى البروكوك . فحين نقل الحكومة من فرساي الى باريس أنزل الفن من وقار لويس الرابع عشر الكلاسيكى الى روح العاصمة الأكثر خفة ، ووجه ثروة الطبقة البورجوازية الى رعاية الفن . وكان راعيا للفن بحكم منصبه ويفرده فى هذا المضمار ، فهو غنى بثروته أصلا ، سخي فى البذل للفنانين . ولم يكن يسيغ الفخامة أو الضخامة ، ولا مواضيع التصوير التقليدية - مواضيع الدين أو الأساطير أو التاريخ ، بل الروائع الصغيرة ذات الصنعة المتقنة التى تغرى الأصابع وتفتح العيون ، أمثال علب الحلوى المرصعة بالجواهر ، والأنية الفضية ، والطاسات الذهبية ، والخزفيات الصينية الغريبة الأشكال ، ورسوم النساء الغائئات اللاتى يلبسن روبنز أو تتزيان رداء الطبيعة أو يرفلن فى أرواب فيرونيزى الفاخرة . وقد فتح أبواب مجموعته الخاصة فى الباليه - رويال على مصاريعها لجميع الزوار المسئولين ، ولولا خيلاته اللاتى يطلبن وينلن ما يطلبن منها لضارعت مجموعته أفضل نظائرها . ووفد الفنانون على قاعاته للدرس والنسخ ، وذهب فليب الى مراسهم لينظر ويتعلم . تحدث الى كبير مصوريه ، شارل أنطوان كوابيل ، فى أدب وتواضع تميز بهما فقال : « اثنى يا سيدى لسعيد وفخور بأن ألقى نصيحتك وأنتفع بدروسك (٦٥) » . ولولا ما عانى من ظمأ للجمال وتذوق عات له لكان رجلا رفيع الحضرة .

وأفصحت روح العصر عن نفسها بأجلى بيان فى التصوير . فقد نبذ الفنانون أمثال فاتو ، وباتير ، ولانكريه ، وليموان ، القواعد التى وضعها لبرون فى الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة بعد أن حررهم الوصي ورعاتهم الجدد . واستجابوا عن طرب خاطر للطلب على الصور التى تعكس فهم الوصي للجمال والمتعة ، وحسن نساء عهد الوصاية الفياض بالحيوية والمرح ، والألوان الدافئة لاثاث الوصاية وسجفها ، والحفلات المرحية فى غابة بولونيا ، والألعاب والتكريرات فى قصر سو ، والأخلاق المتراخية التى اتسم بها الممثلون والممثلات ومغنيات الأوبرا والراقصات . وحلّت الأساطير الوثنية محل قصص القديسين . القائمة المتجهمة ، وسمحت الأشكال العجيبة المستوردة من الصين ، أو تركيا ، أو فارس ، أو الهند ، للعقل الذى أطلق من عقاله بأن

يجوب فى حرية خلال احلام غريبة ودخيلة ، واخذت الرهويات الحالة مكان « التواريخ » البطولية ، وحلت صور اشخاص المشترين محسل صور مآثر الملوك وجلال أعمالهم .

وواصل بعض الرسامين الذين اشتهروا فى عصر لويس الرابع ازدهارهم فى عصر الوصاية ، ومنهم انطوان كوابيل ، فبعد ان زخرف فرساي بالطراز نفسه الذى زين به القصر القديم ، رسم فى الباليه - رويال نساء فى اثواب طويلة فضفاضة ساحرة . اما نيكولا دلارجليير ، الذى كان يبلغ التاسعة والخمسين عند موت الملك العظيم ، فقد واصل الرسم ثلاثين سنة اخرى ، وصورته معلقة فى اللوفر الذى لا تنضب صوره ، وهو يبدو فى خيلائه وفى باروكته ، بصحبة زوجته وابنته . وراح الكساندر فرانسوا ديبورت ، الذى مات عام ١٧٤٣ وهو فى الثامنة والثمانين ، يرسم الآن مشاهد طبيعية عريضة ، كلوحة « منظر الايل دفرانس » المحفوظة بمتحف كومبيين . وزخرف فرانسوا لموان ، الذى انتحر فى التاسعة والاربعين (١٧٣٧) ، كنيسة سان - سوليبس بروح الخشوع والورع ، ثم اشاع الكفء فى صالون هرقول بفرساي باجساد شهوانية سيقلدها بوشيه من بعده . وادخل كلود جيو ، مصمم مناظر المسرح وملابسه ، ونقاش المناظر الطبيعية واللوحات المسرحية ، أسلوب « المهرجانات الريقية » الذى يرتبط عندنا بتلميذه انطوان فاتو .

وانطون هذا فلمنكى ، ولد لصانع بلاط فى فالنسيين (١٦٨٤) ، وشكلته اول الامر التأثيرات الفلمنكية - صور روبنز ، وأوستاد ، وتنييه ، وتعليم مصور محلى يدعى جاك جيران . فلما مات جيران (١٧٠٢) يمم فاتو شطر باريس وهو لا يملك ثروى نقيير . وكسب قوته بمساعدة رسام للمناظر ، ثم بالعمل فى مصنع ينتج بالجملة لوحات صغيرة وصورا دينية . وكان أجره ثلاثة فرنكات فى الاسبوع مضافا اليها من الطعام ما يملك رmqه يفضي لاصابته بالسل . ولكن حمى اخرى كانت تعتمل فى صدره وتكويه كيا - وتلك هى الجوع للعظمة والشهرة . فكرس امسياته وعطلاته لرسم الاشخاص والاماكن من الطبيعة . واستهوى أحد هذه الرسوم التخطيطية جيو ، الذى كان يرسم لوحات لمسرح الكوميدي - ايتاليين ، فدعا فاتو للانضمام اليه . وجاء انطوان ، ووقع فى غرام الممثلين ، فرسم احداثا

من حياتهم البطولية ، وغرامياتهم المتقلبة الطائشة ، والعابهم ونزهاتهم الخلوية ، وفزعهم الأكبر حين قصرتهم مدام دمانتون على البانتوميم (التمثيل الايمائى) بعد أن ساءها هجاؤهم . والتقط فاتو ما فى قلقهم وعدم استقرارهم من أمي ، والتعبيرات المضحكة المرتسمة على وجوههم ، وطيأت ثيابهم الغريبة ، ثم أضفى على هذه الصور نسيجا ذا ومض لعله أثار بعض الغيرة فى نفس جيو . على أية حال تشاجر الأستاذ والتلميذ وافترقا ، وانتقل انطوان الى مرسوم كلود أودران فى اللكسمبورج . وهناك درس فى رهبة صور روبنز التى مجد بها ماري مديتشي ، ووجد فى الحدائق مناظر من الشجر والغيوم فتنت قلمه أو ريشته .

تلك كانت سنوات مرة يساق فيها الغلمان الفرنسيون على عجل الى المعركة تلو المعركة فى حرب الوراثة الاسبانية الطويلة . وكان يقدم لتضحيتهم على هذا النحو بما ينبغى من العروض الوطنية وحفلات الوداع المثيرة للأسى . وقد وصفها فاتو فى لوحته . « رحيل الجنود » برقة فى الشعور والاسلوب جعلت أودران هو الآخر يوجس من تفوق فاتو عليه . ودخل انطوان مسابقة نظمها الاكاديمية الملكية للتصوير والنحت فى ١٧٠٩ أملا فى نيل « جائزة روما » . فلم ينل الجائزة الثانية ، ولكن الاكاديمية ألحقته عضوا بها فى ١٧١٢ . وبعد جهود صغيرة كثيرة بلغ قمة مجده بلوحته « الأبحار الى جزيرة سيتير (١٧١٧) » وهى اليوم من أروع كنوز اللوفر . وصفت لها باريس كلها ، وعينه الوصي المغتبط مصورا رسميا للملك ، وكلفته الدوقة بيرى بزخرفة قصرها الريفى « لاموييت » . وراح يعمل كالمحموم ، وكأنه أدرك أن لن يفسح له فى الأجل سوى أربع سنين آخر . وقدم انطوان كروزا ، منافس فليب ذاته فى رعاية الفن ، الى فاتو المائل والسكن فى قصره المترف . هناك درس انطوان المصور (أصغر الانطوانين سنا) أروع مجموعة جمعها مواطن الى ذلك الحين . ورسم لكروزا أربع لوحات زخرفية ، سماها « الفصول » . وسرعان ما ضاق ذرعا بالتurf، فراح يتنقل من مكان الى مكان ، حتى الى لندن (١٧١٩) ، ولكن غبار الفحم والضباب رداه الى باريس ، حيث سكن فترة مع تاجر التحف جرسان . ورسم له انطوان فى ثمانية أصباح جانبى لافتة ظهر فيها باريسيون عصريون يفحصون صورة فى حانوت ، وفوق الذرعة

الواقعية العرضية ألقت طيات رقيقة لثوب امرأة ذلك الضوء الواهن. الذى تميز به فاتو . وكان سعال سله يزداد سوءا يوما بعد يوم ، فاتخذت بيتا فى نوجن ، قرب فانسين ، معللا نفسه بأن هواء الريف سيعينه على البرء . وهناك ، بين أحضان جيرسان والكنيسة ، مات (١٨ يوليو ١٧٢١) غير متجاوز السابعة والثلاثين .

وقد سرت عدوى مرضه الطويل الى خلقه وفنه . وكان ، وهو الرجل النحيل الممرض العصبى الحى ، السريع الاعياء ، النادر الابتسام ، القليل المرح - يقصي حزنه عن فنه ، فصور الحياة كما رأتها أحلامه وأمانيه - مشهدا عريضا من الممثلين المرحين والنساء اللدنات ، وأغنية للفرح الملهوف . واذا كان أضعف من أن يجرى وراء شهوات الحس ، فإنه يحتفظ وسط اباحية عهد الوصاية بلباقة فى الخلق انعكست فى مزاج إنتاجه . صحيح انه رسم بعض النسوة العاريات ، ولكنهن خلون من اغراء اللحم ، وفيما عدا هؤلاء كانت نساؤه يرتدين ثيابا مشرقة تخطر فى خفة وحذر خلال دهاليز الحب . وتنقلت فرشاته بين تقلبات الممثلين ، ومراسم الغزل ، ومشكال الجو . فأضفى على شخص « غير المكترث (٦٦) » أغلى وأشف ما استطاع تخيله من ثياب . وصور « الكوميديين الفرنسيين (٦٧) » فى مشهد درامى ، وبالتقط صورة الممثل الايطالى جوزيبى باليتى فى دور المهرج جيل (٦٨) ، غارقا فى التفكير مرتديا سراويل بيضاء . وفاجأ « عازف جيتار (٦٩) » فى لحظة اكتئاب غرامى ، ورأى « حفلة موسيقية (٧٠) » مسحورة بعزف العود . وقد وضع شخصياته أمام خلفيات حالة ، من نوافير عابثة ، وأشجار متمائلة ، وغيوم سابحة ، يتخللها هنا وهناك تماثيل ونش يردد به صدى بوسان ، كما نلاحظ فى « مهرجان الحب (٧١) » أو « الفراديس السعيدة (٧١) » كان يحب النساء على بعد متييب ، بكل أشواق رجل أوهن من أن يلمس ودهن ، وقد انفعل بأعطافهن الدافئة أقل من انفعاله ببهاء شعورهن وانسياب أثوابهن المتموج . فالقى على ثيابهن كل سحر ألوانه ، وكأنه يعرف أن المرأة باتت بفضل هذا اللباس ذلك السر الغامض الذى بعث نصف ذكاء العالم ، وشعره ، وأصغابه الشديد ، فضلا عن انجابه النوع الانسانى .

ومن ثم سكب روحه فى أشهر صورة قاطبة ، وهى « الابرار الى جزيرة سيتير » وفيها نساء رشيقات استملن لاثارة الرجال فركبن السفينة مع عشاقهن الى جزيرة صغيرة قيل ان لفينوس فيها معبدا ، وانها طلعت هناك من البحر وهى تقطر جمالا . هنا يكاد الرجال يكسفون النساء فى بهاء ملبسهم ، ولكن الشيء الذى فتن الاكاديمية فى اللوحة هو جلال الاشجار المتدلى ، والقمة الثلجية للجزيرة البعيدة تصبغها الشمس والغيوم الملامسة لها . وقد أحب فاتو هذا الموضوع الدقيق حبا أغراه برسمه فى ثلاثة مناظر متنوعة - واستجابت باريس باختيارها فاتو ليحمل راية عصر الوصاية ، ويحيى مباحج الحياة فى نظام حكم سيموت حالما يسلخ شبابه . وغدا بلقبه الرسمى « مصور الاعياد المرحية » ، رسام العشاق من أهل المدن يتنزهون نزهات حاملة فى ريف هادئ مطمئن ، ويمزجون بين « ايروس » (اله الحب) و « بان » (اله المراعى والغابات) فى الدين الوحيد الذى دان به العهد . على ان نسمة اكتئاب تهب على هذه المشاهد التى توهم بخلو البال ، فهؤلاء الفتيات الناعمات الطيعات ما كان يمكن أن يصبحن بهذه الرقة لولا انهن خبرن شيئا من الألم ، أو ربما لم يساورهن الظن فى قصر برهة الهيام بهن . تلك هى ميزة فاتو - الترجمة المرحفة للحظات الكمال التى لا بد أن تنقضي .

وعاجله الموت قبل ان ينعم بشهرته . وبعد موته اكتشف الخبراء رسومه القلمية والطباشيرية ، وفضلها بعضهم على لوحاته الزيتية ، لان الطباشير أو القلم بلغ هنا دقة فى تفصيل الايدى والشعر ، ورهافة تميز فى رسم العيون والوقف والمروحة المعابلة لم تكشف عنها قط ألوان الزيت كل الكشف (٧٣) . واغرمت نساء باريس غراما شديدا بانفسهن كما راينها فى أشواق الفنان الميت . واليست « دنيا المجتمع الراقى » نفسها بأسلوب فاتو (ألا فاتو) ، ومشت واتكات بأسلوب فاتو ، وزينت مخادعها وصالوناتها كما زينت هذه فى أشكال خياله والوانه . ودخل طراز فاتو فى تصميم الاثاث ، وفى وحدات الزخرفة الريفية و « ارباسك » الركوك الرشيق . وتلقف الفنانون أمثال لانكويه وباتير تخصص فاتو ، وصورا المهرجانات الريفية ، وأحاديث الغزل ، وحفلات الموسيقى فى المنتزهات وحفلات الرقص على الخضرة .

والمكاشفات بين العشاق بخلود الحب . ان نصف تصوير فرنسا خلال المائة السنة التالية كان ذكرى لغاتو . وقد استمر تأثيره حتى بوشيه ، ثم فراجونار ، ثم ديلاكروا ، ثم مينوار ، ووجد التأثيريون فى أسلوب ارهاصات موحية بنظرياتهم فى الضوء والظل والمزاج . لقد كان كما قال جونكور المفتون به « الشاعر العظيم للقرن الثامن عشر (٧٤) » .

٧ - المؤلفون

زكا الادب فى ظل اخلاقيات عصر الوصاية الهينة اللينة وما ساهه من تسامح ، ووجدت الهرطقة موطئا لقدمها لم تجل عنه قط بعدها . وافاقت المسارح والاوربا من عبسات الملك الراحل ومدام دمانتون ، وكان فليب ، او بعض اهل بيته ، يختلفون كل مساء تقريبا الى الاوبرا ، او الاوبرا - الهزلية ، او « المسرح الفرنسى ، او مسرح الايطاليين . واحتفظ المسرح الفرنسى بتمثيلات كورنىي ، وراسين ، وموليير ، ولكنه فتح ابوابه لتمثيلات جديدة كمرحبة فولتير « اوديب » ، التى سمع فيها صوت عصر جديد متمرد .

ونحن اذا استثنينا فولتير وجدنا اعظم كتاب هذا العصر محافظين شكلوا فى ظل الملك العظيم . فكان الان رينيه لساج المولود عام ١٦٦٨ ، ينتمى روحا واسلوبا للقرن السابع عشر وان عاش حتى ١٧٤٧ . وفد على باريس بعد ان تلقى العلم على يد اليسوعيين فى فان ، فدرس فيها القانون - وكانت خليلته تدفع له نفقات تعليمه (٧٥) . وبعد ان قضى فى خدمة جاب للضرائب فترة بغضته فى رجال المال ، تكفل باعالة زوجته وابنائها بتاليف الكتب ، ولعله كان يموت جوعا لولا ان رئيسا دينيا عطوفا أجرى عليه معاشا قدره ستمائة جنيه فى السنة . وقد ترجم بعض التمثيليات عن الاسبازية ، والتتمة التى كتبها افيلانيدا لرواية « دون كخوته » . ثم استوحى قصة « الشيطان الاعرج » لفيليت دى جويغارا ، فوفق كل التوفيق فى قصته « الشيطان الاعرج » (١٧٠٧) التى صورت شيطانا مؤذيا يدعى اسمودوس ، يحط على قمة جبل فى باريس ، ويرفع اسقف البيوت كما يشاء بعصاه السحرية ، ويكشف لصاحبه عن الحياة الخاصة والغراميات المحرمة للقطان الغافلين . والحصيلة فضح مرج لكائد البشر القذرة ، ونفاقهم ، ورذائلهم ،

وحيلهم . فترى مثلاً سيدة تفاجأ بزواجها فى الفراش مع خادمها الخاص فتجل الكثير من المشاكل جملة بصياحها بان الخادم يعتدى على عفافها ، ويقتل الزوج الخادم ، وتنقذ السيدة عرضها وحياتها ، والموتى لا يتكلمون . واندفع كل انسان تقريباً لشراء الكتاب أو استعارته ، وقد أبهجه أن يرى افتضاح غيره من الناس . كتبت مجلة فردان فى عدد ديسمبر ١٧٠٧ تقول « أن سيدين من رجال الحاشية اقتتلا بالسيوف فى مكان باربان للحصول على آخر نسخة من الطبعة الثانية (٧٦) » . وقد وجد سانت - بوف شبه خلاصة للعهد فى ملاحظة قالها أسمودوس عن شيطان من اخوانه تشاجر معه « لقد تعانقنا ، ومن وقتها ونحن خصمان لدودان (٧٧) » .

وبعد عامين كاد لساج يسمو الى مستوى مولير بهزلية تهجو رجال المال . وقد نمى الى بعض هؤلاء نبأ « توركاريه » هذه سلفاً فحاولوا منع تمثيلها ، وقد صورتهم قصة - ولعلها أسطورة - وهم يعرضون على المؤلف ١٠٠.٠٠٠ فرنك ليسحب المسرحية (٧٨) ، وأمر الخوفان ، ابن لويس الرابع عشر ، باخراجها . وتوركاريه هذا مقال وتاجر ومراب يحيا حياة الترف وسط الغافة التى جرتها الحرب . وهو لا يسخو الا على خليلته التى تبتز ماله بنفس المثابرة التى يبتز بها الناس . يقول الخادم فرونتان « عجباً لمسار حياة البشر . نحن نلتقط مغناجاً ، والمغتاج تلتهم رجل أعمال ، ورجل الأعمال ينهب غيره ، وهذا كله يؤلف أمتع سلسلة من الخدع الدنيئة يمكن تخيلها (٧٩) » .

وربما كان الهجو هنا ظالماً مرهقاً بشهوة الانتقام . وقد وفق لساج ، فى أشهر روايات القرن الثامن عشر الفرنسية ، فى رسم شخصية أكثر تعقيداً ، وبموضوعية أكبر . وروايته هذه « مغامرات جيل بلاس دى سانتلانى » التى نسج فيها أيضاً على منوال الروايات الاسبانية ، تتحرك - بأسلوب روايات التشرذ - خلال عالم من اللصوصية ، ونوبات السكر ، وخطف الناس ، واغواء النساء ، والسياسة - عالم الذكاء فيه هو الفضيلة العظمى ، والنجاح يغتفر كل شيء . و « جيل » هذا يستهل حياته فتى بريئاً ، رقيقاً ، مثالياً ، محباً للناس ، ولكنه ساذج ، ثرثار ، مغرور . يقبض عليه اللصوص ، فينضم الى عصابتهم ويتعلم حيلهم

وأساليبهم ، ويشق طريقه الى البلاط الاسبانى ، ويخدم دوق ليرما مساعدا وقوادا . يقول « قبل أن التحق بالقصر كانت طبيعته مترفة عطوفا ، ولكن رقة القلب ضعف يعدونه هناك صفة عتيقة ، لذلك أصبح قلبى أقسى من أى صخر . فهنا مدرسة ممتازة لتصحيح الاحاسيس الرومانسية للصدقة (٨٠) » . ويولى ظهره لابيويه ويرفض أن يعينهما . ويتعثر حظه ، فيودع السجن ، ويعتزم اصلاح ذاته ، ثم يفرج عنه ، فينزوى فى الريف ، ويتزوج ، ويحاول أن يكون مواطنا صالحا . ولكنه يجد هذا عبئا لا يطاق ، فيعود الى القصر وناموسه ، ويخلع عليه لقب الفروسية ، ويتزوج ثانية ، ويدهش لفضيلة زوجته ولسعادته بأطفالها « الذين أومن مخلصا بأننى أبوهم (٨١) » .

وأصبحت « جيل بلاس » احب الروايات للقراء الفرنسيين ، الى أن تحدت « بؤساء » هوجو (١٨٦٢) ضخامتها وتفوقها . وأحب لساج كتابه حبا جعله يواصل العمل فيه عشرين سنة فظهر المجلدان الاولان فى ١٧١٥ ، والثالث فى ١٧٢٤ ، والرابع فى ١٧٣٥ ، وكان آخر مجلداته لا يقل جودة عن أولها . وقد استعان على معاشه فى شبخوخته بكتابة هزليات صغيرة لمسرح شعبى يدعى « مسرح السوق » وفى ١٧٣٨ أصدر رواية أخرى تسمى « أعزب سلمنقة » ، وأطال الكتاب بسرقات صغيرة لم يعترف بها ، وهى عادة درج عليها كتاب ذلك العصر وكان قد أصبح أصم تقريبا فى الأربعين ، ولكن كان غنى قدرته أن يسمع ببوق ، فىا له من رجل محظوظ يستطيع أن يصم أذنيه حين يشاء كما نغمض أعيننا . وقرب نهاية حياته فقد القدرة على استعمال مواهبه العقلية « الا فى منتصف النهار » بحيث « بدا أن ذهنه يشرق ويغرب مع الشمس (٨٢) » ، كما قال أصدقاؤه . ومات عام ١٧٤٧ شيخا فى الثمانين .

وقصة لساج « جيل بلاس » تجد اليوم قراء أقل مما تجده « مذكرات » لوى دروفروا ، دوق سان - سيمون . وما من انسان يحب هذا الدوق الآن ، لأنه يفتقد قدرة الرجل المتواضع على اخفاء غروره . فهو لم ينس قط أنه كان واحدا من « أدواق ونيلام » فرنسا ، الذين لا يبزهم فخامة غير أعضاء الاسرة المالكة ذاتها ، ولم يفتقر قط للويس

الرابع عشر تفضيله كفاية البورجوازيين على عجز الاشراف فى ادارة الحكومة ، ولا رفعه الابناء والحفدة الملكيين غير الشرعيين فسوق « الادواق والنبلاء » فى مراسم البلاط وولاية العرش . يقول لنا فى أول سبتمبر ١٧١٥ :

« نمت الى نيا موت الملك حين استيقظت . فذهبت من فورى لتقديم احترامى للملك الجديد . ومن هناك ذهبت الى دوق أورليان ، وذكرته بوعد قطعه على نفسه ، وهو أن يسمح للادواق بأن يحتفظوا بقبعاتهم على رعوسهم حين يطلب اليهم التصويت (٨٣) » .

وقد أخلص فى حب الوصي ، وخدمه فى مجلس الدولة ، ونصحه بالاعتدال فى أمر خليلاته ، وواساه فى أحزانه وهزائمه . واذ كان على كذب من الاحداث مدى خمسين عاما ، فقد بدأ تسجيلها فى ١٦٩٤ - من زاوية طبقته - منذ مولده عام ١٦٧٥ الى وفاة الوصي عام ١٧٢٣ . أما هو فقد مد فى أجله الى عام ١٧٥٥ ، حتى أدرك عهدا لا يوافق طبيعته . وقد حكمت عليه المركزية كريكى بأنه « غراب مريض هرم ، يحرقه الحسد ويأكله الغرور (٨٤) » . ولكنها كانت تكتب مذكرات مثله ، ولم تطق تشبهه بالحياة .

فاما الدوق الثرثار فكان دائما متحيزا ، وكثيرا ما كان ظالما فى أحكامه ، ومرات مهملا فى التاريخ (٨٥) ، وأحيانا غير دقيق الرواية عن وعى (٨٦) ، كان يتجاهل كل شيء الا السياسة ، ويتوهم بين الحين والحين فى ثرثرة لا غناء فيها عن الارستقراطية ، ولكن مجلداته العشرين سجل مفصل نفيس لكاتب ذى عين لماحة ثاقبة وقلم سيال ، فهمى تمكنا من أن ترى مدام دمانتون ، وفنيلون ، وفليب أورليان ، وسان - سيمون ، رؤية ناصعة نابضة بالحياة ، وسان - سيمون يقرب فى هذا من بوربين اذ يتيح لنا رؤية نابليون . ورغبة فى اطلاق العنان لتحيزه ، حاول أن يخفى مذكرته ، ومنع نشرها قبل أن يذقضى قرن على موته ، ولم يصل منها شيء للمطبعة حتى عام ١٧٨١ ، وكثير منها لم يصلها قبل عام ١٨٣٠ . ومن بين جميع المذكرات التى تنير لنا تاريخ فرنسا تقف هذه المذكرات على القمة دون منازع .

٨ - الكريدينال العجيب

لو صدقنا سان - سيمون لكانت سيرة جيوم دبوا النقيض لاعظم مبادئ شبابنا الهاما . فقد جمع كل رذيلة ، وحقق كل نجاح الا « نجاح الاحترام » . فلنستمع مرة اخرى الى سان - سيمون يقول فى زميله عضو المجلس :

« كان ذكاؤه من النوع العادى جدا ، ومعارفه من اكثر المعارف شيوعا ، وكفايته صفرا ، مظهره مظهر العرسية ، مظهر الرجل المتحذلق ، حديثه ثقيل ، متقطع ، غامض ابدا ، زيفه مكتوب على قسماات وجهه ، ... ما من شيء فى رايه جدير بالتقديس ... يجهر باحتقاره للايمان ، والعهود ، والشرف ، والاستقامة ، والصدق ، ويلذه أن يهزأ بهذه الأشياء كلها ، تستوى فيه الشهوة والطمع ... والى هذا كله كان ناعما ، ذليلا ، لينا ، منافقا ، كاذبا فى اعجابه ، يتخذ كل لبوس ببسر كثير ... حكمه معوج برغم ارادته ... ومن عجب أنه لم يستطيع ، وفيه هذه النقائص ، أن يغوى من الناس انسانا الا دوق أورليان ، الذى اوتى نصيبا موفورا من الذكاء واتزان العقل ، ووهب الكثير من الادراك الواضح السريع لاخلق الناس (٨٧) » .

وكان هذا خليقا بان يؤدى بالمؤلف القاسي الى التشكك فى صواب غيرته . على أننا يحب أن نعترف بان دكلو يتفق مع سان - سيمون (٨٨) .

كان دبوا فى عامه الستين حين قلدته الوصاية السلطة ، متهدما بعض الشيء بعد أن أصيب بعدة أمراض تناسلية (٨٩) ، ولكنه كان قادرا على الترفيه عن مدام دتنسان حين وقعت من أحضان فليب . على أية حال لابد أنه اوتى شيئا من الفطنة العقلية ، لأنه ادار الشؤون الخارجية ادارة لا بأس بها . وقد أخذ رشوة ضخمة من بريطانيا ليصنع ما ظننه خبرا لفرنسا . ذلك أن حزب الاحرار فى انجلترا ، والامبراطور شارل السادس فى النمسا ، كانا يتآمران للتنكر لمعاهدة أوترخت واستئناف الحرب ضد فرنسا . وكان فليب الخامس يتحرق شوقا لعرش فرنسا غير قانع بعرش اسبانيا ، وخيل اليه أن ابرام اتفاق مع انجلترا سيزيح العقبات عن طريقه . فلو أن انجلترا ، واسبانيا ، والنمسا

والأراضي المنخفضة النمساوية (بلجيكا) اتحدت في حلف أعظم جديد ،
لطوقت فرنسا بالاعتداء من جديد ، ولأبطلت كل سياسات ريشليو ولويس
الرابع عشر وانتصاراتهما . ومنذئذ لمثل هذا الاتحاد أبرم دبوا وفليب
اتفاقا مع إنجلترا والأقاليم المتحدة (هولنده) في ٤ يناير ١٧١٣ .
وكان هذا الاتفاق نعمة لفرنسا ، ولتوازن القوى الأوربي ، ولبريطانيا
فلو أن فرنسا وأسبانيا تملك عليهما ملك واحد لتحدى أسطولهما الموحد
سيطرة إنجلترا على البحار . كذلك كان نعمة للملكية الهانوفرية
الجديدة غير الآمنة في إنجلترا ، لأن فرنسا تعهدت الآن بالآ تبذل مزيدا
من العون للمطالبين الاستيوارتيين بالتاج الانجليزي

وغلبيت الحكومة الأسبانية على أمرها ، ولم ترقها هذه الهزيمة
فاشترك البيروني ، وزيرها الحاكم ، في مؤامرة كيلمار ودوقة مين
للإطاحة بالوصي وجعل فليب الخامس ملكا على فرنسا . واكتشف دبوا
المؤامرة ، وأقنع الوصي على كره منه بأن يحذو حذو إنجلترا في اعلانها
الحرب على أسبانيا (١٧١٨) . وأنهت معاهدة لاهاي (١٧٢٠) هذا
الصراع . ورغبة في دعم السلام رتب دبوا زواج ابنة الملك فليب بلويس
الخامس عشر ، وبئات الوصي بأبناء فليب . وعقدت الزيجات على
جزيرة بيداسو الواقعة على الحدود (٩ يناير ١٧٢٢) واحتفل بها في
حفل لأحراق المهرطقين (٩٠) . ولما كانت الأميرة الأسبانية ماريا آنا
فكتوريا لا تتجاوز الثالثة من عمرها ، فلا بد أن ينقضي زمن قبل أن
ينجب منها لويس الخامس عشر وريثا للعرش ، فإذا حدث أن مات
الملك الصبي خلال هذه الفترة ، فإن الوصي يصبح ملكا على فرنسا ،
ويصبح دبوا وزيره الدائم .

وتسلك بدهاء خطوة فخطوة . ففي ١٧٢٠ عيّن رئيس أساقفة
على كمبرى ، وبمفارقة مضحكة من مفارقات التاريخ طلب ملك
بروتستنتي هو جورج الأول ، الى الوصي الشاك أن يقنع البابا بأن
يخلع على دبوا هذا الكرسي الرئاسي الشهير ، الذي شرفه قبيل ذلك
فنيلون ، وشارك أساقفة فرنسا بما فيهم التقى التورع ماسيون في
الاحتفالات التي أضفت هذا الشرف على رجل كان يرى فيه الكثير من
٤ - قصة الحضارة.

الفرنسيين. جماع الرخائل - لما دبوا خامس بانه لم يكافأ بما يكفى جزاء على خدماته لفرنسا ، واستخدم المال الفرنمي ليجلس على عرش البابوية مرشحا تعهد بان يبعث اليه بقبعة حمراء (أى قبعة الكردينال) . وأوفى أنوسنت. الثالث عشر بوعده وهو آسف ، وأصبح رئيس الاساقفة الكردينال دبوا (١٦ يوليو ١٧٢٢) ، وبعد سنة عين وزيراً أول للملكة براتب قدره ١٠٠.٠٠٠ جنيه . واذا كان يتقاضى ايرادا قدره ١٢٠.٠٠٠ جنيه من منصب رئيس الاساقفة ، و ٢٠٤.٠٠٠ من سبعة أديرة ، و ١٠٠.٠٠٠ من نظارته على البريد ، ومعاشا انجليزيا قدره سيمون بمبلغ ٩٦٠.٠٠٠ ، فقد بلغ ايراده السنوى الآن نحو ١.٥٠٠.٠٠٠ جنيه (٩١) . ولم يكن له من هم الا خوفه من أن ترفض زواجه - التى كانت لا تزال على قيد الحياة - ما يبعثه اليها من الرشا ، وتكشف عن وجودها ، وتبطل بذلك مناصبه الكنسية (٩٢) .

ولكن الزمن أدركه . ففى ٥ فبراير ١٧٢٣ بلغ لويس الخامس عشر سن الرشد وانتهى عهد الوصاية . وحين كان الملك لا يتجاوز الثلاثة عشرة ، وكان ينعم بالعيش فى فرساي ، طلب الى فليب أن يواصل حكمه للمملكة ، وظل دبوا أكبر مساعدى فليب . ولكن حدث فى أول أغسطس أن انفجرت مثانة الكردينال ، ومات فجأة وهو مثقل بأمواله . واضطلع فليب بالادارة ، ولكن فسحة أجله هو أيضا انتهت . ذلك أنه بعد أن اتخم بالنساء ، وتخذّر بأدمان السكر ، وكف بصره ، وفقد حتى عاداته المهذبة ، تقبل ، فى نصف وعى ، ازدراء الناس لذلك النظام الذى بدأ فى جو شامل من الود والارتياح ، وقارب نهايته فى انحدار رسمى واحتقار شعبى . وأنذره الأطباء بأن أسلوب حياته سيقضى عليه ، ولكنه لم يكثرث ، فلقد آتزع بخمر الحياة حتى الثمالة ، ومات بنوبة فالج فى ٢ ديسمبر ١٧٢٣ ، وتلقفته ذراعاً خليلته مؤقتا . وكان يومها فى التاسعة والأربعين .

على ان فليب أورليان لا يقع من نفوسنا موقع الرجل الشرير برغم تعدد آثامه . فرخائله رخائل الجسد لا النفس : كان متلافا سكيما فاسقا ، ولكنه لم يكن إنانيا ، ولا قاسيا ، ولا خسيسا ، بل كان رحيمًا ، شجاعا ، كطيفا . كسب مملكة بمقامرة ، وتركها بقلب خلى ويد مبموطة . وقد

أتاح له ثراؤه كل الفرص ، ولم تتح له سلطته أى انضباط . انه لمنظر
محزن حقا - منظر رجل لامع الذكاء ، سمح الرأى ، يكافح لاصلاح
ما أفسده فى فرنسا تعصب الملك العظيم ، ثم يترك الاهداف السامية
تغرق فى سكر لا معنى له ، ويضيع الحب فى دوامة من الفسق .

كانت فترة الوصاية ، من الناحية الاخلاقية ، أشد الفترات خزيا
وعارا فى تاريخ فرنسا . فالدين الذى كان نافعا فى القرى جلب على
نفسه العار فى القمة لانه شرف رجلا من أمثال دبوا وتسمان ، ففقد
بذلك احترام الفكر الذى أطلق عقاله ، وقد حظى الذهن الفرنسى بحرية
نسبية ، ولكنه لم يستخدمها لنشر الذكاء الرحيم المتسامح بقدر
ما استخدمها لاطلاق الغرائز البشرية من ضوابط الهيمنة الاجتماعية
التي تتطلبها الحضارة ، ونسيت الارتيابية فلسفة أبيقور ، وانصرفت
الى اللذات الأبيقورية (أى الحسية) . ولقد كانت الحكومة فاسدة ،
ولكنها حفظت السلام فترة كفت للسماح لفرنسا بأن تفيق من عهد مدمر ،
عهد الفخامة والحرب . وقد انهار « نظام » لو وانتهى بالافلاس ،
ولكنه أعطى الاقتصاد الفرنسى حافزا قويا . وشهدت تلك السنوات
الثمان انتشار التعليم المجانى ، وتحرر الفن والأدب من الوصاية
والسيطرة الملكيتين ؛ لقد كانت سنوات « الابحار الى سبتيرا » ،
و « جيل بلاس » و « أوديب » و « رسائل موتسكيو الفارسية » . ولقد
زجت الوصاية بفولتير فى السجن ، ولكنها أعطته من الحرية والتسامح
ما لن يعرفه أبدا فى فرنسا حتى فى ساعة انتصاره وموته .

٩ - فولتير والباستيل : ١٥١٧ - ٢٦

فى مذكرات سان - سيمون فقرة مميزة تصف شابا محدثا إثار
ضجيجا كثيرا أيام الوصاية :

« نفى آرويه ، وهو ابن موثق كنا نعامله أنا وأبى حتى توفى ..
الى تل فى ذلك الحين (١٧١٦) لنظمه أبياتا من الشعر فيها هجو
شديد ووقاحة بالغة . وما كنت لألهو بتدوين هذا الحدث التافه لولا أن
آرويه هذا ، الذى أصبح شاعرا وأكاديميا كبيرا باسم فولتير ، قد أصبح
كذلك شخصية فى دولة الأدب ، لا بل بلغ شيئا من الأهمية بين
بعض الناس (٩٣) » .

هذا الشاب المحدث ، الذى بلغ الآن الحادية والعشرين ، وصف نفسه بأنه « نحيل ، طويل ، للاحم فيه ولا أرداف (١٤) » ولعله بسبب هذا العيب كان يثب من مضيف (أو مضيفة) الى آخر ، ويجد الترحيب حتى فى الدوائر العليا ، بفضل شعره المتألق وذكائه الحاضر ، يتشرب الهرطقة وينشرها ، ويمثل دور زير النساء . واذ لمع فى قصر سو على الأخص ، فإنه أثلج صدر دوقة مين بهجوه الوصي . وكان فليب قد اختزل الى النصف خيول المرباط الملكية ، فعلق آرويه على هذا بأنه كان خيرا له أن يطرد نصف الحمير الذين يزحمون بلاط سموه . وأسوأ من ذلك أنه فيما يبدو اذاع أبياتا عن أخلاق دوقة بيرى (ابنة الوصي) وانكر فولتير أنه كاتبها ، ولكن الأبيات نشرت بعد ذلك فى « أعماله » وقد واصل خطة الانكار هذه الى قرب ختام حياته ، باعتبارها حماية مغتفرة من رقابة مصلته على أصحاب الأقلام . أما الوصي فكان فى وسعه أن يغتفر الهجائيات اللاذعة الموجهة لشخصه ، لأنها كثيرا ما كانت كاذبة ، ولكنه كان يجرح جرحا عميقا من المسخرات الموجهة لابنته ، لأنها كانت صادقة فى أغلبها . وعليه ففى ٥ مايو ١٧١٦ أصدر أمرا « بإرسال السيد آرويه الابن الى تل » - وهى مدينة على ثلاثمائة ميل جنوب باريس ، اشتهرت بمداينها الكريهة الرائحة ، ولم تكن قد اشتهرت بعد بالنسيج الرقيق « التل » الذى نسب اليها فى تاريخ لاحق . واقنع الأب آرويه الوصي بأن يغير المنفى من تل الى صلى - سير - لوار ، على مائة ميل من العاصمة . وذهب اليها آرويه ، واستقبله هناك الدوق صاحب لقب صلى آنكز ، سليل الوزير الأكبر لهنرى الرابع ، ضيفا فى بيته .

وقد استمتع هناك بكل شيء الا الحرية . وما لبث أن وجه شعرا « رسالة للدوق أورليان » يؤكد فيه برامته ويلتمس اطلاق سراحه . واستجاب الوصي ، وما وافى ختام العام حتى كان قد عاد الى باريس وراح يتنقل فى أرجائها تنقل الطائر وينظم الشعر ، فى بذاعة حيناً ، وفى مطبعية فى كثير من الأحيان ، وفى ذكاء دائما - حتى نسب اليه كل هجو بارع يسرى على موائد المقاهى دون معرفة كاتبه . وفى مطلع عام ١٧١٧ ظهر هجاء لاذع جدا ، بدأت كل جملة فيه بكلمة « رأيت J'ai vu » مثال ذلك :

« رأيت الباستيل وألف سجن آخر معلومة بمواطنتين شجعان
ورعايا أوفياء . رأيت الناس أشقياء يرسفون فى عبودية قاسية . رأيت
الجند يهلكون جوعا ، وعطشا . . . وسخا ، رأيت شيطانا فى زى
امراة . . . يحكم المملكة . . . رأيت البور - رويال وقد هدم . . . رأيت
- وهذا ينتظم كل ما رأيت - يسوعيا يعبد . . . رأيت كل هذه الشرور ،
وأنا لم أجاوز العشرين بعد (٩٥) » .

وواضح أن هذه الابيات كانت تعرض بلويس الرابع عشر ومدام
حمانتون ، ولابد أن كاتبها عدو جانسنى لليسوعيين لا شاك مستهتر
لا يزال يحتفظ ببعض الحب فى قلبه لجماعة اليسوعيين . أما الكاتب
الحقيقى فهو ل . لبرون ، الذى التمس بعد ذلك الصفح من فولتير
لانه تركه يتحمل تبعة كتابتها (٩٦) . ولكن السن المتقولين امتدحت
آرويه على القصيدة ، وألحت عليه الجماعات الأدبية فى القائها ، ولم
يصدق أحد أنكاره تأليفها (الا صاحبها) . واتهمته الشائعات التى
نقلت الى الوصي بكتابة عبارة لاتينية - وبحق فيما يبدو - فضلا عن
قصيدة « رأيت » المذكورة ، ومطلعها *Puero regnante* . . . يقول
كاتبها ما ترجمته « صبى (لويس الخامس عشر) يملك ، ورجل مشهور
بتسميم خصوصه وغشيان المحارم يحكم ، . . . وثقة الشعب تنتهك
(افلاس مصرف لو) . . . والبلاد يضحى بها طمعاً فى تاج ،
وميراث - يعجل ميقاته بخسه ، وفرتما على شفا الدمار (٩٧) » .
وفى ١٦ مايو ١٧١٧ أمر خطاب ملكى مختوم بأن « يقبض على السيد
آرويه ويودع الباستيل » . وفوجئ الشاعر فى مسكنه ، ولم يسمح له
بأن يأخذ غير الثياب التى يرتديها .

ولم يتسع وقته لوداع خليلته آنذاك ، واسمها سوزان دليفره ،
وأخذ صديقه لفيفر دجنونفيل مكانه على صدرها ، واغترل لها آرويه
غيانتهما فى تفلسف - « علينا أن نحتمل هذه التواقة (٩٨) » وبعد
سنوات مات لفيفر فنظم فولتير فى ذكره ابیاتا تبين موهبة الشاعر الشاب
فى قرص الشعر الجميل ، والعواطف الرقيقة التى كانت دائما اعمسقى
فى نفسه من الشكوك : « انه يتذكرك ، أنت والجميلة ايجيرى (سوزان)
فى أيام حياتنا الحلوة ، حين كنا ثلاثتنا يحب بعضنا بعضا . فالفكر

والطيش ، والحب ، وسحر الأخطاء الرقيقة ، كل أولئك ربط بين قلوبنا الثلاثة . إلا ما كان أسعدنا ، إذ لم يقو على تكدير صفونا حتى الفقر ، رفيق السعادة الحزين . كنا شبابا ، مرحين ، قنوعين ، خالين من الهموم ، لا يشغلنا التفكير في المستقبل ، رغباتنا كلها تحددنا مباحنا المراهنة - فأى حاجة بنا بعد هذا لثراء لا غناء فيه ؟ لقد كنا نملك شيئا أفضل منه جدا ، كنا نملك السعادة (٩٩) » .

وتزوجت سوزان رجلا غنيا يدعى المركز جوفرينه ، وأبت أن تدخل فولتير بيتها حين أتى لزيارتها . وعزى نفسه بهذه الفكرة ، وهى أن « كل الماسات واللآلئ التى تزينها الآن لا تعدل قبلة من قبلاتها فى الأيام الخالية (١٠٠) » - ولم يرها ثانية حتى عاد الى باريس بعد احدى وخمسين سنة ليموت ، عندها أصر وهو فى الثالثة والثمانين على زيارة المركيزة الأرملة ، وكانت قد بلغت الرابعة والثمانين . لقد كان يسكن فولتير هذا شيطان ، ولكن كان يسكنه أيضا أرق قلب فى الوجود .

على أنه لم يجد الباستيل سجنًا لا يطاق . فقد سمح له بأن يرسل فى طلب الكتب ، والأثاث ، والثياب الداخلية ، وطاقيّة النوم ، والعطر ، وإن يدفع ثمن هذا كله ، وكثيرا ما كان يتناول طعامه مع مأمور السجن ويلعب البليارد والبولنج مع السجناء والحراس ، وقد كتب فيه ملحمة « الهنريادة » . لقد كانت الألياذة من الكتب التى أرسل فى طلبها ، وسأله نفسه : لم لا يناقش هومر ؟ ولم تقصر الملاحم على الأساطير ؟ إن فى التاريخ الحى رجلا هو هنرى الرابع ، إنسان مرح ، جسر ، بطل ، فاسق ، متسامح ، كريم ، فلم لا تصلح تلك الحياة المفامسة الفاجعة لشعر الملاحم ؟ ولم يكن مسموحا للسجين بورق الكتابة لأنه قد يستحيل فى يده سلاحا فتاكًا ، لذلك كتب النصف الأول من ملحمة بين سطور الكتب المطبوعة -

وأفرج عنه فى ١١ أبريل ١٧١٨ ، ولكنه منع من البقاء فى باريس ومن شاطئيه القريبة من سو كتب الى الوصى رسائل يلتبس فيها الصفيح ، ولانبت قناة الوصى ثانية ، وفى ١٢ أكتوبر أصدر اذنا « للسيد أرويه دفولتير بالمجئ الى باريس حين يشاء (١٠١) » .

ولكن متى وكيف جاءه هذا الاسم الجديد ؟ الظاهر أن هذا كان حوالى فترة سجنه فى الباستيل ، فنحن نلقاه أول مرة فى المرسوم الذى ذكرناه آنفا . وظن بعضهم (١٠٢) انه جناس تصحيقى anagram أى تغيير فى ترتيب أحرف كلمة Arovet L(e) J(eune) باعتبار الـ U هى حرف V والـ I هى حرف J - أما المركبة ذكرى (١٠٣) فردته الى كلمة « فولتير » ، وهى مزرعة صغيرة على مقربة من باريس ورثها فولتير عن أحد أبناء عمومته ، ولم يرث معها أى حقوق سيادية ، ولكن آرويه ، كبلزاك ، اتخذ الاضافة التى يلحقها السادة باسمائهم "de" بحق العبقريّة ، ووقع - كما فى اهداء تمثيليته الاولى - بهذا الاسم « آرويه دفولتير ») ولكنه عما قليل لن يحتاج لغير اسم واحد للدلالة على نفسه فى أى بلد فى أوروبا .

وكانت تلك التمثيلية - أوديب - حدثا فى تاريخ فرنسا الأدبى . لقد كانت وقاحة صارخة من فتى فى الرابعة والعشرين ألا يكتفى بتحدى كورنىي ، الذى أخرج تمثيلية « أوديب » فى ١٦٥٩ ، بل يتحدى سوفوكليس أيضا ، الذى ظهرت مسرحيته « أوديب ملكا » فى ٣٣٠ ق م . أضف الى ذلك أن قصة فولتير كانت قصة سفاح للمحارم ، يمكن أن تحمل على محمل التعريض بالعلاقات بين الوصي وابنته - وهى بالضبط . التهمة التى سجن بسببها آرويه . وقد فسرنا هذا التفسير دوق مين واغتبطت بها ، وكان الشاعر قد فكر فى تمثيليته أثناء وجوده فى قصرها . وطلب فولتير بجرأته المألوفة الى الوصي أن يأذن له باهدائه التمثيلية ، وتردد الوصي ، ولكنه أذن باهدائها لاهمه . وأعلن أن حفلة الافتتاح ستكون فى ١٨ نوفمبر ١٧١٨ . وتكون حزبان من رواد مسارح باريس - أنصار الوصي ، وأنصار دوق مين ، وتوقع الناس أن مباراة الفريقين فى صحاح الاستهجان وهتاف الاستحسان ستجعل من التمثيل مهزلة صاخبة . ولكن المؤلف الذكى كان قد ضمن مسرحيته أبياتا تسر أحد الفريقين ، وأخرى تسر الفريق الآخر . فأرضت الفريق المناصر للوصي فقره تصف كيف طرد الملك لايوس حرس القصر الغالى النقطة (كما فعل فليب) ، وأرضي اليسوعيين أن يروا كيف أحسن تلميذهم الافادة من المسرحيات التى كانوا يخرجونها فى كلية لوى - لجران ؛ أما أحرار الفكر فقد صفقوا بحماسة لبيتين من الشعر وردا فى المشهد

الأول من الفصل الرابع ، بيتين سيصبحان الانشودة التي تتردد في حياة فولتير . « ليس كهنتنا ما يحسبه جمهور غافل ، فسادجتنا هي التي تصنع علمهم كله » وصفق كل فريق بدوره ، وفي النهاية ظفرت المسرحية باستحسان الجميع . وتقول رواية قديمة أن والد فولتير ذهب وهو على وشك الموت ليشهد التمثيلية في أولى ليالي عرضها ، وكان لا يزال يتميز سخطا على ولده الحقير السيء السمعة ، ولكنه بكى اعتزازا بروعة الشعر وانتصار التمثيلية .

وحققت أوديب فترة عرض لم يسبق لها مثيل ، بلغت خمسة وأربعين يوما . وأطراها حتى فونتنيل المكتهل ، ابن أخت كورنيي ، وان أبدى لفولتير أن بعض أبياتها « بالغة الشدة تضطرم نارا » . وأجاب الغنى المندفع بتورية فنلة : « لكى اهذب نفسي ساقرا رعوياتك (١٠٤) » وأصررت باريس على أن ترى في أوديب (المذنب بغشيان المحارم) شخص الوصي ، وفي جوكستا شخص ابنته . وتصدت دوقة برى (ابنة الوصي) للشائعات بشجاعة ، فحضرت التمثيلية عدة ليال . أما الوصي فامر بإخراجها في مسرح قصره ، ورحب بالمؤلف في بلاطه .

وبعد بضعة أشهر نشر شاعر أفاك ، لم يعلن عن اسمه ، قصائد سماها « Les Philippiques الفليبيات » ، وهي هجائيات اتهمت فليب بأنه يبيت تسميم الملك الصبى واغتصاب العرش . واشتبه الكثيرون في فولتير مؤلفا للقصائد ، فأكد براءته ، ولكنه كان قد كذب في حالات كهذه كذبا صارخا فلم يصدقه إلا أحد المؤلف . وبراه فليب لعدم كفاية الأدلة على التهمة ، واكتفى بنصحه بأن يغيب حينسا عن نعيم باريس . فعاد إلى شاتو صلي (مايو ١٧١٩) . وبعد سنة سمح له بالعودة إلى العاصمة ، وهناك ظل فتي الارستقراطية المدلل فترة من الزمان .

واذ كان مؤمنا بأن المال حجر الفلاسفة ، فقد استخدم ذكاه الحاد في فهم مشكلات المالية وحيلها . وسعى لمصادقة المصرفيين ، واجيز بمكافأة سخية للمعونة التي قدمها لآخوان باريس « للحصول على عقود

بتوريد مؤن وذخائر للجيش (١٠٥) « . وكان بطلنا من استغلاليى الحرب . وظل بعيدا عن « نظام » لو ، واستثمر ثروته بحكمة ، وأقرض النقود بالربا . وفى ١٧٢٢ مات أبوه ، واحتكم فولتير الى القضاء فى أمر الوراثة وثابر على دعواه بعزيمة ماضية ، ففاز بوراثة دخل سنوى قدره ٤٢٥٠ فرنكا . وفى تلك السنة ذاتها أجرى عليه الوصي معاشا قدره ٢٠٠٠ جنيه ، وغدا الآن رجلا موسرا . وعمما قليل سيصبح مليونيرا ، وعلينا ألا نفكر فيه ثائرا ، الا فيما يتصل بالدين .

وقد أعان على تربيته وتهذيبه سقوط مسرحيته الثانية - آرتمير - (١٥ فبراير ١٧٢٠) . فجرى من مقصورته الى خشية المسرح وناقش النظارة فى مزايا المسرحية ، وصفقوا لخطابه ولكنهم ظلوا على استنكارهم لها ، وبعد ان مثلت ثمانى مرات سحبها من المسرح ، وفى تاريخ لاحق من تلك السنة قرأ قسما من « الهنريادة » على نفر فى اجتماع ، ووجه اليها بعض النقد ، وبحركة فرجيلية القى بالمخطوطة فى النار ، وخطف اينو الأوراق من اللهب ، وشبه نفسه بأوغسطس وهو يستنقذ انيادة فرجيل ، وقال ان فولتير مدين له الآن بملحمة و « طوقى كم لطيفين (١٠٦) » . واستعاد الشاعر كبريائه فى غير مشقة حين استمع الوصي نفسه الى قراءة من القصيدة . وكان حيثما ذهب يقرأ جزءا منها . وفى ١٧٢٣ زار اللورد بولنبروك وزوجته الفرنسية فى فللتهما ، لاسورس قرب أورليان ، فأكدا له أن ملحمته تبرز « جميع الأعمال الشعرية التى صدرت فى فرنسا (١٠٧) » . وتظاهر بأنه يشك فى صدق هذا الزعم .

وتبادل خلال ذلك الفلسفات مع ذلك الشاك النبيل ، وسمع بالربوبيين الذين يكذبون صفو المسيحية فى بريطانيا . وخامرته الظنون بأن انجلترا سبقت فرنسا فى العلم والفلسفة . ولكنه كان قد انتهى الى هرطقات بولنبروك قبل ان يلتقى به أو يقرأ للربوبيين الانجليز . وفى ١٧٢٢ قبل دعوة من الكونتيسة مارى درويلموند بأن يصبحها الى الارضي المنخفضة . وكانت أرملة فى الثامنة والثلاثين ، من نساء الفكر ، ولكنها جميلة ، وقد قبل دعوتها وهو فى الثامنة والعشرين . وفى بروكسل التقى بشاعر منافس يدعى جان باتيست روسو ، اثنى على « أوديب » ولكنه وبخ فولتير على استهتاره الدينى .

أما فولتير ، الذى قلما كان يطبق النقد ، فقد علق على قصيدة لروسو عنوانها « قصيدة غنائية للأجيال القادمة » بقوله « أتعلم يا سيدى اننى لا اعتقد أن هذه القصيدة ستصل أبدا الى من وجهت اليهم ؟ (١٠٨) » وقد ظلا ينهش أحدهما الآخر حتى وفاة روسو . وبينما كان فولتير وكونتيسة يواصلان رحلتها الى هولندة كشفت له عن شكوكها الدينية ، وسألته عن آرائه . واذا كان فولتير جياشا بالشعر ، فقد رد بقصيدة شهيرة سماها « رسالة الى أورانى » لم تنشر الا سنة ١٧٣٢ ، ولم يعترف بها فولتير الا بعد أربعين سنة . وكل شاب مسيحي مرهف الحس سيتبين فيها مرحلة فى تطوره . يقول فولتير « اذن أنت تؤدين أيتها الجميلة أورانى (اسم لافروديت) وقد بعثت بأمرك فى هيئة لوكريتيوس جديد ، أن أمزق أمام عينيك بيد جريئة القناع عن الخرافات ، وأن أعرض عليك ذلك المشهد الخطر ، مشهد الأكاذيب المقدسة التى تزخر بها الأرض ، وأن تعلمك فلسفتى ازدرأ أهوال القبر ومخاوف الحياة الآخرة » .

ويسير الشاعر بـ « خطى ملؤها الاحترام » . فيقول « انى أريد أن أحب الله ، والتمس فيه أبى » ، ولكن أى نوع من الاله يقدمه لنا اللاهوت المسيحي ؟ « طاغية ينبغي أن نكرهه . خلق البشر » على صورته « ليجعلهم حقراء ، وأعطانا قلوبا آثمة ليكون له حق عقابنا . جعلنا نحب اللذة لكى يعذبنا بآلام رهيبية ... أبدية » . وما أن خلقنا حتى فكر فى اهلاكنا . فامر المياه بأن تغرق الأرض . وأرسل ابنه ليكفر عن خطايانا ، لقد مات المسيح ، ولكنه مات عبثا فيما يبدو ، اذ يقال لذا اننا ما زلنا ملوثين بجريمة آدم وحواء ، وابن الله الذى يمتدح كثيرا على رحمته ، يمثل لنا وكأنه ينتظر بروح الثائر أن يقذف باكثرنا الى الجحيم ، بما فينا أناس لا حصر لهم لم يسمعوا به قط . « لست اتبين فى هذه الصورة المخزية الاله الذى على أن أعبد ، وسأشينه بمثل هذه الالهانة والولاء » . ومع ذلك ترى الشاعر يحس النبيل والالهام الحى فى الفكرة المسيحية عن المخلص :

« انظري الى هذا المسيح ، القوى المجيد .. يدوس الموت تحت قدميه الظافرتين ، ويخرج منتصرا من أبواب الجحيم . أن مثله

مقدس ، وفضيلته الهية . ويعزى سرا تلك القلوب التى يضيئها بنوره ،
وفى افئدة الكوارث يهبها العون ، واذا كان قد أقام تعليمه على وهم
وخداع ، فان من النعم أن نخدع معه .

وفى الختام يدعو الشاعر اورانى ان نستقر على رأى فى الدين
واثقة كل الثقة بأن الله « الذى وضع الدين الطبيعى فى قلبك ، لن
يسوءه العقل البسيط الصريح . ثقى أن نفس الانسان البار ثمينة أمام
عرشه ، فى كل زمان ومكان . ثقى أن الراهب البوذى المتواضع ،
والولى المسلم العطوف ، يجدان نعمة فى عينيه أكثر مما يجده جانسنى
(قدرى) صارم ، أو بابا يلوث الطمغ روحه » .

ولما عاد فولتير الى باريس أقام فى الأوتيل دبيرنيير بشارع بون
وشرىق فولتير الحالى (١٧٢٣) . وفى نوفمبر ذهب الى اجتماع
للأعيان فى الشاتودميزون (على تسعة أميال من باريس) ، حيث كانت
اعظم ممثلات العصر آدريين لكوفرير ستقرأ تمثيليته الجديدة «ماريان»
ولكن قبل أن يحل موعد الحفل أصيب بالجدرى ، وكان فى تلك الايام
يفتك بنسبة عالية من ضحاياه . وكتب وصيته ، واعترف ، وراح ينتظر
الموت . وهرب الضيوف الآخرون ، ولكن المكيث دميزون «استدعى
الدكتور جريفيه من باريس » وبدلا من المنبهات التى تعطى عادة فى
هذا المرض ، جعلنى أشرب مائتى باينت من عصير الليمون (١٠٩) «
ولعله كان لهذه الكواب المائتين الفضل فى « انقاذ حياتى » . ولم
يتمائل للشفاء الا بعد شهور كثيرة ، والواقع أنه بعد هذا كان يعالج
نفسه علاج عليل عاجز ، يمرض تلك الحياة المتقطعة التى يحيها ذلك
البدن الهش الذى فرض عليه أن يؤوى نار صاحبه الأكلة .

وفى ١٧٢٤ بدأ تداول ملحمة الهنريادة سرا بين الصفوة المثقفة .
لقد كانت اذاعة سياسية على مستوى ملحمة . واتخذت الملحمة مذبة
القديس برتلميو نصا لها ، وتبعت الجرائم الدينية خلال العصور ؛
الأمهات يقدمن أبناءهن محرقات على مذابح الآله ملخ ، وأغا ممنون
يتنهيا لتقديم ابذته قرينا للآله التماسا لقليل من الريح ، والمسيحيون
يضطهدهم الرومان ، والمهرطقون يضطهدهم المسيحيون ، والمتعصبون

« يدعون الرب وهم يذبحون اخوتهم » ؛ والاتقياء يوحى اليهم بقتل الملوك الفرنسيين . واشادت القصيدة باليزابيث لتقدمها المعونة لهنرى خافار ، ووصفت معركة أفريه ، وشفقة هنرى ، وعشقه لجابرييل ديستريه ، وحصاره لباريس ، وامتدحت تحوله للكاثوليكية ، ولكنها انقذت البابوية لأنها « قوة لا ترحم المغلوبين ، ويلين جانبها للغالبين ، على استعداد للغفران أو الادانة حسبما تمليه المصلحة » .

وكان فولتير يأمل أن تقبل الهنريادة ملحمة قومية لفرنسا ، ولكن الكاثوليكية كانت أعز على مواطنيه من أن تجعلهم يستقبلون القصيدة ملحمة لروحهم . ثم ان أخطاءها كانت تثب الى العين الدارسة . فالتقليدات الواضحة لهومر وفرجيل - فى مشاهد القتال ، وفى زيارة البطل للجحيم ، وفى ادخال التجريدات المجسدة فى الحركة على غرار الآلهة الهومرية - كل أولئك ضحى بمفاتيح الابتكار والأصالة ، ومع أن الأسلوب كان أسلوب النثر الجيد ، فقد افتقد أخيلة الشعر المنيرة . أما المؤلف ، الذى أسكره مداد المطبعة ، فلم يخامرهم ظن فى هذا . فكتب الى تييريو يقول « ان شعر الملاحم موطن قوتى ، والا كنت واهما جدا (١١٠) » ولقد كان واهما جدا .

ومع ذلك بدأ أن المديح الذى ظفر به يبرر افتخاره بملحمته . فقد صرح ناقد فرنسي بأنها تسمو على الانبياء ، وذهب فردريك الأكبر الى « أن أى انسان تحرر من الهوى سيفضل الهنريادة على قصيدة هومر (١١١) » . ونفدت الطبعة الأولى سريعا ، ونشرت طبعة منتحلة فى هولندة وصدرت الى فرنسا ، وحظر البوليس الكتاب ، ولكن جميع الناس اشتروه . وترجم الى سبع لغات ، وسنراه يحدث ضجة فى انجلترا . وقد لعب دورا فى احياء شعبية هنرى الرابع . وجعل فرنسا تخجل من حروبها الدينية ، وتنقد النظريات اللاهوتية التى اشعلت فى الناس نيران هذه القسوة الضارية .

واستمع الآن فولتير حينما بالمشهرة والمال دون أن يكدرهما مكرر . فقد اعترف به الناس اعظم شاعر حى فى فرنسا ، واستقبل فى بلاط لويس الخامس عشر ، وبكت الملكة من تمثيلياته ، ونفحتسه بالف وخمسائة جنيه من جيبيها الخاص (١٧٢٥) . وكتب أكثر من عشرة

خطابات يشكو حياته عضوا فى الحاشية ويفاخر بهذه الحياة . وراح يتحدث فى ألفة طبيعية مع النبلاء ، سواء منهم الشريف والخسيس . ولا شك أنه أسرف فى الحديث ، وهذا أيسر شيء فى الوجود . وحدث ذات ليلة وهو فى الأويرا (ديسمبر ١٧٢٥) أن الشفالييه دروهان - شابو سمعه يسترسل فى الحديث فى بهو الانتظار فسأله فى خيلاء شديدة « مسيو فولتير ، مسيو آرويه - ما اسمك ؟ » ولا علم لنا بم أجاب الشاعر . وبعد يومين التقتا فى الكوميدى - فرانسيز ، وأعاد روهان سؤاله . ويختلف الرواة فى الجواب الذى أجابه به فولتير ، قالت رواية انه أجاب « انسان لا يتجرجر وراء اسم عظيم ، بل يعرف أن يشرف الاسم الذى يحمله (١١٢) » ، وتقول رواية أخرى انه أجاب « ان اسمى يبدأ بى ، واسمك ينتهى بك (١١٣) » . ورفع السيد النبيل عصاه ليضربه ، وأتى الشاعر بحركة ليستل سيفه . وكانت آدريين لكوفرير تشهد المعركة ، وكان لها من حضور البديهة ما جعلها تقع مغشيا عليها ، وتهادن الخصمان .

وفى ٤ فبراير كان فولتير يتغدى فى بيت الدوق صلى ، وإذا رسالة تنبئه أن بباب القصر من يريد أن يراه ، فذهب ، وإذا ستة فتاك ينقضون عليه ويضربونه فى شيء من الترفق . وحذرهم روهان الذى كان يدير العملية من مركبته قائلا « لا تضربوا رأسه ، فعمي أن يخرج منه شيء صالح (١١٤) » . واندفع فولتير عائدا الى البيت ، وطلب الى صلى أن يعينه على اتخاذ اجراء قانونى ضد روهان . ولكن صلى أبى . فاعتكف الشاعر فى ضاحية أخذ يتدرب فيها على المثاقفة . ثم ظهر فى فرساي ، مصمما على المطالبة بـ « ترضية » من الشفالييه . وكان القانون يعد المبارزة جريمة كبرى . وصدر أمر ملكى للشرطة بأن تراقبه ، ورفض روهان لقاءه . فى تلك الليلة قبضت الشرطة على الشاعر ، مما أراح كل من له صلة بالأمر ، ووجد فولتير نفسه نزيل الباستيل ثانية . وقال القائد العام لشرطة باريس فى تقريره « ان أسرة المسجين أثنت بالاجماع ... على حكمة الأمر بمنع الشاب من ارتكاب حماقة جديدة (١١٥) » . وكتب فولتير للسلطات يدافع عن مسلكه ، وعرض أن ينفى نفسه فى انجلترا مختارا اذا أفرج عنه . وقد عومل كما عومل من قبل ، فوفرت له كل أسباب الراحة والرعاية .

وقبل اقتراحه ، وأفرج عنه بعد خمسة عشر يوما ، ولكن حارسا
أمر أن يوصله الى كاليه . وأعطاه أعضاء الحكومة خطابات تعریف
وتوصية لبعض الانجليز البارزين ، وواصلت الملكة دفع معاشه . وفى
كاليه استضافه اصدقاءه ريثما يقلع المركب التالى . وفى ١٠ مايو ركب
البحر ، مسلحا بالكتب لدراسة الانجليزية ، راغبا فى رؤية البلد الذى
سمع أن الناس والعقول فيه أحرار . فلنر ماذا وجد فيه .

الكتاب الأول

انجلتره

٥٦ - ١٧١٤

الفصل الثاني

الشعب

١٧١٤ - ٥٦

كانت انجلترا التى وجدها فولنبر أمة تنمتع بربع قرن من السلام النسبى عقب جيل من انتصارانها الغالية على فرنسا ، أمة غدت الآن سيدة البحار ، وأذن فسيده التجارة ، وأذن فسيده المال ، ممسكة برافعة القوى وميزانها فوق حكومات القارة ، منتصرة فى كبرياء على أسرة من الاستيوارتيين حاولت أن تفرض عليها الكتلكة ، وعلى ملوك هانوفرين كانوا خداما لجيب البرلمان المنفخ . تلك هى انجلترا التى أحرزت قبل ذلك التفرق العالمى إلى العلم بفضل نيوتن ، وأنجبت لوك الثائر دون عمد منه ، والتى كانت نقوض المسيحية بالريوية ، والتى ستحل الشاعر الكسندر « بوب » (= بابا) محل بابوات روما أجمعين ؛ والتى سنرقب بعد قليل فى فلق عمليات ديفد هيوم العقلية المدمرة . أدها انجلترا التى أحبها الفن هوجارث وسحبها بقوة فى محفوراته ، انجلترا التى وجد فيها هندل وطننا وجمهورا مستمعا ، وحجب فيها ضوءه كل موسيقار من آل باخ أذ غدا أعظم « مايسترو » أنجبه العصر . ثم هنا ، فى هذه « القلعة التى ابتنتها الطبيعة لنفسها ضد الغارات . . هذه البقعة المباركة . . فى انجلترا هذه (١) » - بدأت الثورة الصناعية تغير وتبدل كل شيء إلا الانسان .

١ - التمهيد للثورة الصناعية

١ - المؤيدون

رسم ديفو ، بعد أن جاب أرجاء انجلترا فى ١٧٢٢ ، صورة مفعمة بمشاعر الوطنية لـ « أكثر بلاد الدنيا ازدهارا وثراء » ، صورة الحقول الخضراء والمحاصيل الوفيرة ، والمراعى تهيم فيها الخراف الذهبية الفراء ، والعشب النضر الغزير يتحول إبقارا سمانا ، والفلاحين يضجون فى ألعابهم الريفية ، وكبار الملاك فى الريف ينظمون شؤون ٥ - قصة الحضارة

الفلاحين ، والنبلاء ينظمون شئون الملاك ، وكبار حكام الأقاليم يتولون القضاء ويقررون النظام فى القرى ، ثم هى الى ذلك بلد يلوذ به بين الحين والحين الشعراء والفلاسفة (٢) . ان تجار الكلام ينزعون الى تصوير الريف بصورة مثالية اذا أعفوا من مضايقات هذا الريف ، ومثله ، وحشراته ، وكده وكدحه .

لقد كانت الحياة الريفية فى إنجلترا سنة ١٧١٥ شديدة الشبه بما كانته منذ ألف سنة . كل قرية - بل كل ببت تقريبا - وحدة مكتفية بذاتها ، تزرع طعامها ، وتصنع ثيابها . وتقطع أنسابها للبناء والوقود . من الغابات المجاورة . وكل أسرة تخبز خبزها ، وتصيد غزلانها ، وتملح لحومها ، وتصنع زبدتها ودهانها وجبنها ، وتغزل وتنسج وتخطط وتدبغ الجلد وشرق الأحذية ، وتنع أكثر أنبقتها وأدواتها واليتها . وهكذا وجد الحب والام والبناء العمل والتعبير عن ذواتهم لا فى حقول الصيف فحسب ، بل فى أساليب الشتاء الطويلة أيضا ، وكان البيد مركزا للصناعة والزراعة على السواء . فالزوجة هى الخبيرة المكرم بفنوس كثيرة ، من تمرطس الزوج وتربية نحو اثنى عشر طفلا ، الى حياكة الفساتين وصنع الجمرة . وهى تحفظ وتصرف الادوية المنزلية ، وتعنى بالحديقة والخنازير والدواير . والزواج هو اتحاد بين رفيقين متعازين والأسرة كائن حى اقتصادى كما أنها كائن حى اجتماعى ، وهذا توافق لها مبرز قوى وأساس مكين لوحدثها وتكاثرها واستمرارها .

ولو قد ترك الفلاحون أحرارا فى الأبناء شلى سالبهم القديمة فى الحقول لشعوا بما فى بيوتهم من حيوية متنوعة . لقد تذكروا أياما كان مالك الأرض فيها يسمح لهم ، أو لأسلافهم ، بأن يطلقوا قذائفهم لترعى فى حقول المنطقة المشاعة ، ربان بصطادوا السمك كما يشاءون فى غدرانها ، وأن يقطعوا الخشب فى غابقتها ، أما الآن ، واثرة عملية بدىء بذا فى القرن السادس عشر ، فقد سرور الملاك معظم الاراني المشاعة ، ووجد الفلاحون عناء فى العيش على قدر دخولهم . صحيح انه لم يكن هناك أثر لرق الأرض ، ولا لضرائب اقطاع رسمية ، ولكن الملاك المغامرين وتجار المدن الذين استثمروا مالهم فى الأرض كانوا يزرعون على نطاق أوسع ، براسمال اكبر ، وبأدوات أفضل ، ومهارة

أعظم ، وأسواق أوسع مما أتيح لصغار الزراع الذين يزرعون مساحاتهم الضيقة . وقد قدر جريجورى كنج أنه كان بانجلترا فى ١٦٨٨ نحو ١٨٠.٠٠٠ من هؤلاء الملاك «الأحرار» . وذكر فولتير حوالى ١٧٣٠ أن « فى إنجلترا عددا كبيرا من الفلاحين ممن تبلغ قيمة ملكية الواحد منهم ٢٠٠.٠٠٠ فرنك ، ولا يأنفون من أن يواصلوا فلاحه الأرض التى أغنتهم ، والتى يعيشون فيها أحرارا » ، ولكن ربما كان قوله هذا من قبيل الدعاية ، حفزا لهمم الفرنسيين ، أيا كان الأمر ، فإنه بحلول سنة ١٧٥٠ كان عدد الملاك الأحرار قد تناقص (٣) . فالملاك السمان يشترون المساحات العجاف ، والبيت الصغير وما حوله من ارض ، المقصود به اعادة الأسرة أو الأسواق المحلية ، يخلو مكانه لمزارع أكبر قادرة على الاستفادة من الوسائل والآلات المحسنة . والمزارع يصبح مساجرا أو «يدا» أجيرة ، أضف الى ذلك أن نظام الفلاحة الذى ساد إنجلترا عام ١٧١٥ قسم ارض القرية الى مناطق مختلفة حسب خصوبتها وسهولة الوصول إليها ، وتسلم كل مزارع شريطا أو أكثر فى النواحي المنفصلة ، وكان التعاون ضروريا ، وأجبرت المبادرة الفردية ، وتخلف الانتاج . وكانت حجة مسررى الأزامى أن التشغيل الواسع النطاق تحت ملكية موحدة من شأنه أن يزيد الانتاج الزراعى ، وييسر رعى الأغنام ، ويتيح ناتجا مربحا من الصوف ، ولا ريب أنهم كانوا على حق . وأغمض التقدم الاقتصادى عينا واحدة على الأقل عما أصاب الناس من اضطراب شديد فى حياتهم نتيجة الارتحال والانتقال .

وتركز التقدم فى التكنولوجيا الزراعية على المزارع الموسعة . فاستلحح حافظ الكسب الأراضى البور وزرعها ، ودرب العمال على كفاية أعظم ، وشجع اختراع الآلات والوسائل الجديدة وحفز اجراء التجارب على تربية الحيوان ، ودعم الجهد المبذول فى صرف المستنقعات والحد من تعرية القرية وتطهير الغابات . واصيف بين عامى ١٦٩٦ و ١٧٩٥ نحو مليونى فدان الى المساحة المزروعة فى إنجلترا وويلز . وفى ١٧٣٠ أدخل تشارلز تاونشند النظام الرباعى لدورة المحاصيل بدلا من الخطة المسرفة التى كان يترك بمقتضاها ثلث الأرض بورا كل سنة ؛ فزرع القمح أو الشوفان فى السنة الأولى ، والشعير أو الشوفان فى الثانية ، والبرسيم والجاودار والنباتات العلفية واللفت الأصفر والكرنب فى

الثالثة ، والملفت فى الرابعة . ثم جاء بالأغنام لتاكل اللفت أو تدوس عليه فتدفعه داخل الأرض بينما يصب روثها التربة ، وبذلك أعدت الأرض لمحصول وفير من القمح فى السنة الثانية . وسخر منه جيرانه ، وأطلقوا عليه لقبا هو « تيرنب تاونشند » (أى تاونشند اللفت) ، الى أن حملهم على تقليده زيادة فى محاصيله بلغت ٣٠ ٪ . واذ كان تاونشند فيكونتا ، فقد حذا حذوه نفر آخر من الطبقة الأرستقراطية فى تحسين أرضهم ، وشاع بين أشراف الانجليز أن يهتم الواحد منهم اهتماما شخسيا بالزراعة ، وانتقل حديث الضياع من الصيد والكلاب الى اللفت والسماد (٤) .

وكان جثرو تل محاميا ، اعتلت صحته فعاد الى مزرعة أبيه ، واستهوت ذهنه المرفه معجزة النماء وارباح الزرع ، ولكن صدمه ما رأى من طرق الفلاحة المرفهة ، - المزارعون ينثرون تسعة او عشرة أرتال من البذار على الفدان باهمال شديد يترك « ثلثى الأرض خالية من الزرع ، فى حين تكتظ البذار فى الباقي اكتظاظا يمنع الزرع من أن يزكو (٥) » . ودرس أساليب الزراعة أثناء رحلاته فى فرنسا وإيطاليا ، فلما عاد الى وطنه اشترى مزرعة ، وأذهل جيرانه بمخترعات ضاعفت من الانتاج . وقد بدأ (حوالى ١٧٣٠) بصنع محراث ذى أربعة قواطع يقتلع الحشائش ويدفنها فى التربة بدلا من مجرد ازاحتها جانبا . ولكن أكثر مخترعاته حسما (حوالى ١٧٣٣) كان آلة حفر تجرها الخيل ، تنثر الحب خلال أنابيب مسننة على مسافات وأعماق معينة فى خطين متوازيين ، ثم تغطى الحب بمسحاة متصلة بالحفار . ووفرت الآلة الحب والعمال ، وأتاحت زرع التربة المحصورة بين الخطين المبدورين وتهويتها وريها وتنقيتها من الحشائش . وقد شارك هذا التغيير فى بذر الحب ، الذى يبدو تافها ، وتحسين المحراث ، فى احداث ما سعى بعد ذلك بالثورة الزراعية ، التى يمكن أن تقاس نتائجها (حتى مع أخذ التضخم فى حسابنا) بارتفاع قيمة الأراضي التى استخدمت فيها الوسائل الجديدة عشرة أضعاف خلال القرن الثامن عشر . ومكنت الزيادة فى انتاجية التربة المزارع من أن تطعم المزيد من الصناع فى المدن ، وأتاحت ذلك العدد النامى من سكان المدن ، الذى لولاه لاستحالت الثورة الصناعية .

على أنه لا الفلاحون ولا عمال المدن كان لهم نصيب من الثروة النامية . فالملاك الفلاحون أمكن ضغطهم والتخلص منهم بالنافسة الواسعة النطاق ، والعمال الفلاحون تقاضوا من الأجور البخسة القدر الضبئل الذى أكرههم خوف التعطل على قبوله . فلنستمع الى ما يقوله العلامة الرفيع المقام تريفيان :

« كان الثمن الاجتماعى الذى دفع نظير الكسب الاقتصادى هو تناقص عدد الزراع المستقلين ، وازدياد عدد العمال الذين لا يملكون أرضا ، وكان هذا الى حد كبير شرا لابد منه ، ولو وزع الربح الزائد الذى حققته دنيا الزراعة توزيعا عادلا لخف الضرر . ولكن بينما ارتفع ايجار المالك ، وعشور القسيس ، وأرباح المزارع المالك والوسيط ارتفاعا سريعا ، فان فاعل الحقل ، الذى حرم حقوقه الصغيرة فى الأرض المشاع وحقوق أسرته بتشغيلها فى الصناعة الى جانب الزراعة ، لم يجز الجزاء الواجب بأجر أعلى ، وكثيرا ما انحدر فى المقاطعات الجنوبية الى درك التبعية والفاقة (٦) » .

ومما خفف الى حد ما من التركيز الطبيعى للثروة دفع الضرائب والاحسان المنتظم . ذلك أن أغنياء الانجليز ، بعكس النبلاء الفرنسيين كانوا يدفعون النصيب الأكبر من الضرائب التى أعالت الحكومة . فقد ألزمت « قوانين اعانة الفقراء » التى بدأت فى ١٥٣٦ كل أبرشية بانقاذ الأشخاص الذين فى خطر الموت جوعا . وكان المتعطلون من القادرين صحيا يرسلون الى الاصلاحيات ، والعجزة الى الملاجىء ، والأطفال يشغلون صبياننا لمن يرغبون فى ايوائهم واطعامهم لقاء خدماتهم . وكانت نفقات هذا النظام تؤدى من ضريبة تفرض على أسر الأبرشية . وقد ذكرت لجنة برلمانية فى تقرير لها أنه لم يبق على قيد الحياة من جميع الأطفال المولودين فى الاصلاحيات ، أو الذين استقبلتهم فى حدائق سنهم ، فى الأعوام ١٧٦٣ - ٦٥ ، إلا سبعة فى المائة فى ١٧٦٦ (٧) . حقا لقد كان قرنا قاسيا .

ب - الصناعة

عطل البيت الريفى المكتفى بذاته تخصص العمل والثورة الصناعية

سواء كان هذا التعتيل خيرا أو شرا . نلم يمول الرجل حديث العهد برأس المال مصنعا ما دام فى قدرته أن يجعل مائة أسرة تغزل وتنسج نه تحت أسقفهم ووفق نظام المنافسة الأوتوماتى ؟ لقد أنتجت هذه الصناعة البيتية فى قسم « وست رايدنج » بيوركشير ١٠٠.٠٠٠ قطعة قماش للسوق فى ١٧٤٠ ، و ١٤٠.٠٠٠ قطعة نى ١٧٥٠ ، وإلى عام ١٨٥٦ لم يرد من المصانع سوى نصف انتاج الصوف ، أما النصف الثانى فطل يرد من البيوت (٨) . على أن تلك البيوت الشاغية بالحركة كانت فى الوانع مصانع وليدة ، قرب البيت يدعو الخدم والغرباء ليناركوا فى العمل ، والحجرات الاضافية تجهز بدواليب الغزل وأنوال النسيج . فلما ازداد حجم تلك العمليات البيتية واتسعت السوق بفضل الطرق المحسنة والسيطرة على البحار ، خلقت الصناعة البيتية ذاتها الطلب على آلات أفضل . وكانت الاختراعات الأولى أدوات أكثر منها مكنة . وكان فى الامكان تركيبها فى المنزل ، مثل مكوك « كى » الطائر ، ولم يحل نظام المصنع محل الصناعة المنزلية الا حين صنع المخترعون آلات تتطلب القوة الميكانيكية .

وكان الانتقال تدريجيا ، فقد اقتضى قرنا تقريبا (١٧٣٠ - ١٨٣٠) ، وربما كانت كلمة « ثورة » لفظا أعنف مما يحتمله تغيير بطيء كهذا . ولم يكن الانتفاض على الماضي جامدا بالدرجة التى رُحبت بها فى الماضي النزعة الروائية فى كتابة التاريخ ، فالصناعة قدس قدم الحضارة ، وقد تقدم الاختراع بسرعة متزايدة منذ القرن الثالث عشر ، وكانت المصانع فى فلورنسة على عهد دانتي كثيرة كثرة الشعراء ، والرأساليون فى هولنده أيام رمبرانت كثيرين كثرة المصورين . ولكن التغيير الصناعى الذى طرا فى القرنين الأخيرين (١٧٦٠ - ١٩٦٠) اذا نظرنا اليه فى مراحلہ المتصاعدة ، من البخار الى الكهرباء الى النفط الى الالكترونيات والطاقة الذرية ، بالقياس الى معدل التغيير الاقتصادى فى أوربا قبل كولبس - هذا التغيير يشكل ثورة حقيقية لم تغير الزراعة والنقل والمواصلات والصناعة فحسب تغييرا أساسيا ، بل غيرت كذلك السياسة والعادات والاخلاق والدين والفلسفة والفن .

وقد تضافرت عوامل عديدة على فرض التغيير الصناعى . فالحروب التى أعقبت سقوط وزارة ولبسول (١٧٤٣) حثت على زيادة سرعة

الانتاج والتوزيع . ونمو السكان نتيجة لازدياد موارد الطعام أتاح سوقا داخلية متضخمة للزراعة والصناعة ، وشجع على صنع آلات أحسن وشق طرق أفضل . وقد تطلبت الآلات المهارات ، مما أفضى الى تخصص وتقسيم للعمل نهضا بالقوة الانتاجية . وقد جلب الهيجونوت وغيرهم من المهاجرين الى انجلترا ما استنقذوه من مدخراتهم كما جلبوا اليها حرفهم ، ومخترع أول آلة للنسيج (١٧٣٨) كان سليلا للمهيجونوت . وكان لتقرير البرلمان تعريفات جمركية حامية (كقانون الكاليكوت - أى الشيت - الصادر فى ١٧٢١ ، والذى حرم استعمال الشيت المطبوع المستورد) الفضل فى الحد من المنافسة الاجنبية ، واتاحة السيطرة الكاملة لصناعة النسيج الانجليزية على السوق الداخلية ، فى حين أعان نفوذ التجار المتزايد فى التشريع على توسيع الاقتصاد البريطانى . وشجعت التقاليد البيورتانية - التى ستدعمها بعد قليل حركة المثوديين - فضائل الجد والاقدام والاقتصاد فى الطبقات الوسطى والدنيا وتراكم رأس المال ، واجيز الاثراء ، وبدا أن الله اختص البورجوازية بنعمته .

واتاح تطوير التعدين فى الوقت ذاته موارد متزايدة من الفحم وقودا للصناعة . وكان الخشب الى ذلك الحين هو الوقود الأهم للبيوت والمتاجر ، ولكن الغابات كانت تتضاقل حتى أوشكت على الانقراض ، فمن بين تسع وستين غابة كبيرة عرفتها انجلترا الوسيطة ، اختفت خمس وستون بحلول القرن الثامن عشر (٩) . واقتضى الحال استيراد الخشب من اسكندناوة أو أمريكا ، وكان يكلف أكثر فاكثرا ، وظهر الطلب على وقود أرخص . ولكن تعدين الفحم كان لايزال عملية بدائية ، وكانت المناجم ضحلة ، والتهوية رديئة ، والميثان وغاز الكربون يخنقان المعدنين ، وظلت مشكلة ضخ المياه من المناجم بلا حل حتى جاءت آلات سافرى ونيوكومن البخارية . والواقع أن هذه المشكلة كانت أكبر حافز لتطوير هذه الآلات . على أن إنتاج الفحم تصاعد وانتشر رغم هذه الصعوبات ، فما وافى عام ١٧٥٠ حتى كان الفحم الذى يشعل فى البيوت والمصانع يحجب سماء لندن (١٠) .

كانت أهمية الفحم للثورة الصناعية تكمن بوجه خاص فى استعماله :

لتنقية خام الحديد ليصبح حديدا أصفى وأقوى وأطوع بفصل الفلز عن المواد المعدنية العالقة به . والتنقية استلزمت الصهر ، الذى استلزم درجة عالية من الحرارة ؛ وكانت هذه الحرارة منذ القرن الرابع عشر تنتج بإشعال الفحم النباتى (وهو الخشب المتفحم) فى أفران عالية تسلط عليها تيارات قوية من الهواء ؛ ولكن الفحم النباتى أصبح الآن أغلى ثمنا بسبب تناقص موارد الخشب . وفى ١٦١٢ أشار سيمون ستورتفانت باستخدام الفحم الحجرى وقودا صاهرا . وزعم « دد » ددلى (أى الفاشل) فى ١٦١٩ أنه خفض تكاليف صهر الحديد بهذه الوسائل الى النصف ، ولكن منافسيه الذين استخدموا الفحم النباتى تضافروا لاقصائه عن هذه الصناعة . وأخيرا (حوالى ١٧٠٩) وفق أبراهام داربى الأول ، الذى استوطن كولبروكديل حيث الفحم كثير ، فى صهر خام الحديد بنجاح وبتكاليف قليلة ، وذلك بتسخينه بفحم الكوك - أى الفحم المحرق بقدر يكفى لتخليصه من عناصره الطيارة . أما الكوك فكان معروفا منذ عام ١٥٩٠ . وطور أبراهام داربى الثانى استعمال الفحم أو الكوك فى الصهر ، وحسن الأفران العالية بمنفاج يشغله دولاى مائى ، وسرعان ما استطاع أن يفوق فى مبيعاته كل أصحاب مصانع الحديد فى إنجلترا وفى ١٧٢٨ أنشئ أول مصنع انجليزى للحديد لتميرير الحديد بين سلسلة من الأسطوانات تضغطه لاجراج الأشكال المطلوبة . وفى ١٧٤٠ اخترع بنيامين هنتمان طريقة البوتقة التى كان ينتج بها الصلب العالى الرتبة بتسخين المعدن وتنقيته فى قدور من الفخار . هذه التطورات فى المزاوجة بين الفحم والحديد هى التى يسرت اختراع آلات الثورة الصناعية .

ج - الاختراع

لم يشهد النصف الأول من القرن الثامن عشر زيادة لافتة للنظر فى سرعة الاختراع بالقياس الى القرنين السابقين ، وقد نحتاج الى نصف مجلد لنعدد الاختراعات التى ورثها هذا العصر من سابقه . مثال ذلك أن الساعة الكبيرة ، التى لا غنى عنها فى العلم والصناعة والملاحة ، أبلغت مرتبة الكمال تقريبا فى القرن السابع عشر ، وبحلول عام ١٧٥٨ وصلت الى درجة من الدقة (لا يعدو الانحراف فيها دقيقة كل ستمائة

يوم) لم تتجاوز الا فى ١٨٧٧ (١١) . وكان العمال أنفسهم يثبطون المخترعات ، وان كانوا فى كثير من الأحيان مصدرها ، خشية أن تهددهم بالتعطيل التكنولوجى ، وهكذا فرض عداء العمال هجر أول منشرة خشب انجليزية (١٦٦٣) ، ولم تجدد المحاولة بنجاح الا سنة ١٧٦٧ . وزادت الطرق الرديئة من تعطيل الاختراع الصناعى ، ولم يكن هناك كبير حافز على زيادة الانتاج ما دامت صعوبات النقل تفوق توسيع السوق . على أن النقل البحرى كان أخذا فى التحسن ، وكانت المستعمرات ، التى غلبت عليها الزراعة ، تنهافت على طلب المنتجات المصنوعة ، هنا وجد حافز متزايد على الاختراع . وقد أعان عليه دافع الربح ، ومنح البرلمان حقوق امتياز تمتد أربع عشرة سنة . وجاء حافز آخر من المنافسة الأجنبية فى تجارة الصادر ، فحثت منسوجات الهند ، التى أنتجتها عمال مهرة منخفضو الأجور أصحاب المصانع الانجليز على الاقتصاد فى الانتاج باستعمال الاجهزة المكنية المحسنة . فصناعة النسيج اذن هى التى افتتحت الاختراع فى ميدانها ذلك التغيير العظيم .

كان « المكوك الطائر » الذى ابتكره جسون كى (١٧٣٣) أول اختراع بارز فى انتاج المنسوجات ، ولنا أن نعتبر هذا التاريخ بداية للثورة الصناعية . فمن قبله كان عرض القماش المراد نسجه محدودا بطول ذراعى النسيج باستثناءات صغيرة - اذ كان عليه أن يقذف بالمكوك (وهو الاداة التى تمرر خيوط اللحام خلال خيوط السدى) من أحد جانبي النول بيد ، ويلقفه باليد الاخرى فى الجانب المقابل . ورتب كى جهازا من العجلات ، والمطارق ، والعصي ، يتيح لدقة حادة باليد أن تجعل المكوك يمرق من أحد الجانبين الى وقفة أوتوماتيكية عدد أى عرض محدد سلفا ، مما ينجم عنه وفر كبير فى الوقت . فلما حاول تركيب اختراعه فى مصنع بكونتستراتهمه النساجون بأنه يحاول حرمانهم من قوتهم اليومى . ففر الى ليدز (١٧٣٨) وعرض اختراعه المسجل على اصحاب مصانع القماش لقاء رسم ، فاخذوا اختراعه ، ولكنهم قبضوا عنه اتاوته ، فرفع أمره الى القضاء ، واستنزفت مصاريف التقاضى كل ماله . فذهب الى وطنه فى برى ، ولكن الأهالى هاجوا عليه هناك (١٧٥٣) ، ونهبوا بيته ، وهددوه بالقتل . غير أن امرأة رحبت بآلته فى حماسة وصاحت قائلة بلهجتها العامية « حسنا ، حسنا ،

ان أعمال الله عجيبة ، ولكن حيل الانسان تغلبه تعالى في النهاية (١٢) «
ووجد كى قبولا أكثر في فرنسا ، التي تبذت حكومتها اختراعه وكافاته
بمعاش . ولم يتغلب المكوك الطائر على كل معارضة ويعم استعماله
الا عام ١٧٦٠ .

وعطل صناعة النسيج أن النساجين كانوا يستطيعون نسج الخيوط
بأسرع مما يستطيع الغزالون غزلها وامدادهم بها . وكان الغزل الى
سنة ١٧٣٨ غزلا يدويا ، على دواليب مازالت تجمل البيوت التي يمتجد
الماضي . في ذلك العام سجل لويس بول ، وهو ابن مهاجر هيجونوتي ،
آلة غزل يبدو أنها مبنية على أسس اقترحها جون فنيات ، وهي مجموعة
من البكر تسحب للخارج حبال القطن أو الصوف المشدودة لتصبح خيوطا
بأى رفع مطلوب ، وتغزلها على مغازل ، وذلك كله بأقل جهد . وباع
بول وفيات براءة الاختراع الى ادورد كيف ، صديق الدكتور جونسون ،
واقام كيف خمس آلات بمصنع نورثامبتن في ١٧٤٢ - وهو الأول في
سلسلة طويلة من مصانع الغزل في انجلترا القديمة والجديدة .

أما وقد تيسر الآن علاج الحديد لصنع الآلات القوية ، وتطلبت
الأحوال الاقتصادية الانتاج الواسع النطاق ، فقد بقيت مشكلة العثور
على قوة ميكانيكية يستعاض بها ، بثمن رخيص ، عن عضلات الرجال
وصبر النساء . وأقدم الحلول استخدم القوة المائية . ففي مائة قطر كان
الدولاب المائي العنلييم ، الذي يدور على مهل مع جريان النهار ، يسير
منذ زمن سحيق المضخات ، والمنافيخ ، والبكر ، والمطارق ، لا بل
الآلات الحديدية الثقيلة منذ عام ١٥٠٠ . وظل المصدر الأهم للطاقة
الميكانيكية خلال القرن الثامن عشر . وقد عاش الى القرن العشرين ،
وما التركيبات الهيدروليكية في زماننا سوى قوة مائية حولت الى كهرباء
قابلة للنقل . ولا يمكن الركون الى القوة المحركة للرياح بهذا القدر ،
ولم ينتفع بها الا انتفاعا قليلا نسبيا في بلاد الجنوب الهادئة الريح ،
ولكن في العروض الشمالية سخرت التيارات الهوائية في ادارة طواحين
هواء توجه « قلوها » الى « عين الريح » بونش في أسفلها يدار
باليد . وقد بلغت هذه الآلة الثقيلة ، التي لا يركن اليها ، أوجها في
الأقاليم المتحدة في القرن الثامن عشر ، ثم بدأت اضمحلالها الرائع .

وكان المخترعون خلال ذلك يجاهدون ليبطئوا بالآلة البخارية درجة الكفاءة المجزية . وكانت قد قطعت قبل ذلك شوطا طويلا ، من أبواب ولعب « هيرو » التي يشغلها البخار فى القرن الثالث الميلادى ، مروراً بجيرونيم كاردان (١٥٥٠) ، وجامباتستا ديللابورتا (١٦٠١) ، وسالمون دى كلوس (١٦١٥) ، وجوفانى برانكا (١٦٢٩) ، ومركيز ورستر (١٦٦٣) ، وصموئيل مورلاند (١٦٧٥) وكريستيان هويجنز (١٦٨٠) ، ودنى بابان (١٦٨١) ، وتوماس سافرى (١٦٩٨) ، الى آلة توماس نيوكومن البخارية فى ١٧١٢ ؛ تلك قصة رويت ألف مرة . وهنا أيضا ، اى فى عام ١٧١٢ ، يمكن أن يبدأ تاريخ الثورة الصناعية ، لان آلة نيوكومن « النارية » كانت مجهزة بمكبس ، وذراع متذبذب ، وصمام أمن ، واستخدمت بنجاح فى نزح الماء فى المناجم العميقة . وقد ظلت النموذج الاساسى للطللمبات مدى ثلاثة أرباع القرن .

د - رأس المال والعمال

حين ازدادت الآلات حجما وتكلفة ، وتطلب تشغيلها القوة الميكانيكية ، وجد نفر من المغامرين أنه أربح لهم أن يستبدلوا بالصناعة فى البيوت مصانع تجمع الرجال النساء فى أبنية يحسن اختيار مواقعها قرب أنهار توفر الطاقة والنقل معا . والمصانع ، كما سلف ، لم تكن بدعا ، فقد كان منها مئات فى انجلترا اليزابيث وفرنسة كولبير . غير أن « نظام » المصانع - اذا عرفناه بأنه اقتصاد صناعى يتم فيه الانتاج بصفة رئيسية فى مصانع - لم يكد يوجد فى أى مكان قبل القرن التاسع عشر . ولكن بعد اختراعات كى وبول بدأت مصانع المنسوجات تقوم بالمزيد من الغزل والنسيج الذى كان يتم فى البيوت ، وفي ١٧١٧ أنشأ توماس لوم فى داربى مصنع نسيج طوله ٦٦٠ قدما ، يشغل ثلاثمائة عامل يقومون على ٢٦,٠٠٠ دولاى . وسرعان ما قامت منشآت مماثلة الضخامة فى ستوكبورت ، وليك ، وبرمنجهام ، وليومنستر ، ونورثامتن .

وشراء الآلات واياؤها ، والحصول على الخامات ، واستئجار العمال والادارة ، ونقل الناتج وتسويقه ، كل هذا يتطلب رأس المال . كذلك كان الرأسمالى - مقدم رأس المال أو مديره - ظاهرة قديمة ، ولكن بزيادة الطلب على رأس المال ازدادت الاهمية الاقتصادية والقوة السياسية

للرجال الراغبين فى المخاطرة بتقدمه . وقاومت الطوائف الحرفية ، التى كانت من الناحية النظرية لا تزال تحكم معظم الصناعة الاوربية ، التنظيم الرأسمالى للانتاج والتوزيع . ولكن نظام الطوائف الحرفية بنى على الحرف اليدوية لا الآلات ، وقد هبىء لتلبية الحاجات المحلية لا السوق القومية فضلا عن السوق الدولية ، ولم يستطع تلبية المطالب المتزايدة للجيوش ، والمدن ، والمستعمرات ، وقد عوقه الولاء للوسائل والقواعد التقليدية ، وأخذ ينحدر الى درك « الشلل » من معلمى الحرف الذين يستغلون الصبيان وعمال اليومية . وكان الرأسمالى أقدر على تنظيم الانتاج الكبير والتوزيع البعيد ؛ فلقد كان عليما بذلك الفن البالغ الرهافة ، فن جعل المال يلد المال ؛ وظهره برلمان تواق لأن تمون الكفاية الصناعية التجارة المترامية والحروب .

وبانتشار المصانع والرأسمالية تغيرت علاقة العامل بعمله . فلم يعد يملك أدوات حرفية ، ولا يحدد ساعات كده وظروفه . ولم يكن له غير نصيب صغير فى تقرير معدل أجوره أو نوعية ناتجه . ولم يعد حانوته مدخلا الى بيته ، ولا صناعته جزءا من حياته الاسرية . ولم يعد عمله ذلك التشكيل الفخور لأداة فى جميع مراحلها ، بل أصبح بحكم تقسيم العمل - الذى سيعجب آدم سمث كثيرا - التكرار اللا شخصي ، الممل ، لجزء من عملية لم يعد ناتجها المصقول يعبر عن حذقه وتقننه ؛ انه لم يعد صانعا ماهرا ، بل « يدا » أجيرة . وقد حدد أجره جوع رجال ينافسون النساء والأطفال على العمالة . فإذا كان عاملا فى منجم فمتوسط أجره شلن وستة بنسات فى اليوم ، وإذا كان فاعلا فى البناء تقاضي شلنين ، وسمكريا ثلاثة شلنات ، وقد اختلفت هذه المعدلات اختلافا يسيرا بين عامى ١٧٠٠ و ١٧٧٠ (١٣) . وكان النساج يتقاضى حوالى سنة ١٧٥٠ ستة شلنات فى الاسبوع ، والنساجة خمسة شلنات وستة بنسات ، والطفل شلنين وستة بنسات . أما النساء الغزالات فمن شلنين الى خمسة فى الاسبوع ، وأما البنات من السادسة الى الثانية عشرة فشلن الى شلن ونصف (١٤) . على أن الاسعار كانت منخفضة ، وظلت ثابتة حتى ١٧٦٠ (١٥) . وكان يضاف الى هسذه الأجور أحيانا علاوة للخبز والجمعة أثناء العمل ، وكان معظم عمال المناجم يعطون الفحم مجانا .

وكانت حجة أصحاب العمل أن عمالهم لا يستحقون أكثر من هذه الأجور ، لأنهم أدمنوا الكسل والسكر والاستهتار والفجور . وزعم أحدهم (١٧٣٩) أن السبيل الوحيد لجعل العمال عيوفين مجدّين « أن تفرض عليهم ضرورة الكد طوال الوقت الذى يستطيعون اقتطاعه من الراحة والنوم ليحصلوا على الضروريات العادية للحياة (١٦) » . وقال كاتب فى ١٧١٤ « ليس للفقراء ما يحفزهم للخدمة النافعة سوى الحاجة ، وهذه حال من الحكمة تخفيفها ، ولكن من حماقة شفاؤها (١٧) » أما يوم العمل العادى فيمتد من إحدى عشرة ساعة الى ثلاث عشرة ، ستة أيام فى الأسبوع ، ويهون من طول هذه الفترة ساعة ونصف لتناول الوجبات ، ولكن المتباطئين بلا مبرر فى تناولها يفقدون ربع أجر اليوم (١٨) . وشكا أصحاب العمل من أن عمالهم يتوقفون عن العمل ليختلّفوا الى المهرجانات ، أو مباريات الملاكمة التكبسية ، أو مشاهد الشنق ، أو الاحتفالات بأعياد القديسين الشفعاء . ورغبة فى حماية أنفسهم من هذه المخالفات وأشباهها كان أصحاب العمل يحبون أن يكون لديهم رصيد من العمال المتعطلين فى المنطقة ، يستطيعون أن يعتمدوا عليه فى الطوارئ أو أوقات الطلب المتزايد (١٩) . فاذا كسدت الأحوال كان فى الامكان تسريح العمال وتركهم ليعيشوا على قروض من التجار المحليين .

ونشأت فى المدن ببطء برولتاريا تابعة . وكانت تجمعات الطبقة العاملة محظورة بمقتضى قانون قديم أصدره أدورد السادس ، فجدد البرلمان هذا الحظر فى ١٧٢٠ . ولكن عمال اليومية مضوا فى تنظيم أنفسهم ، ولجأوا الى البرلمان لتحسين أجورهم ، وأصبحت اتحادات هؤلاء العمال - لا الطوائف الحرفية - هى الرائدة لحركة النقابات العمالية التى تشكلت فى انجلترا فى نهاية القرن الثامن عشر . وفى ١٧٥٦ ، بناء على التماس من عمال النسيج فى جلومترشير ، أمر مجلس العموم قضاة الصلح بالمحافظة على الحد الأدنى القانونى للأجر ، ويمنع تخفيض الأجور فى الصناعة ، ولكن هذا الأمر سحب بعد عام ، واتخذ البرلمان سياسة ترك تحديد الأجور للعرض والطلب على العمل (٢٠) . لقد بدأ عهد « المشروع الحر » وسياسة « عدم

التدخل "Laissez - Faire

هـ - النقل والتجارة

توقف نمو الاقتصاد على التحسينات فى المواصلات والنقل . وكانت إنجلترا تتمتع بميزة ساحلها البحرى وأنها رها ، وكان نصف السكان يعيشون على أبعاد معقولة من البحر ، ويستطيعون استخدامه فى نقل السلع ؛ وتغلغلت الانهار مسافات بعيدة فى الداخل ، فأتاحت بذلك طرقا مائية طبيعية . ولكن حال الطرق الانجليزية كانت دائما قذى فى عين الحياة الانجليزية . فتربة هذه الطرق لينة ، وإخايدتها صلبة يغمرها الماء ، وكثير منها حولته أمطار الربيع أو الصيف الى نهيرات أو بالوعات من الوحل كان المرور عليها عسيرا بحيث اقتضى اخراج المركبات من فوقها استخدام أعداد اضافية من الخيل أو الثيران ، وكان على المسافرين على الاقدام أن ينحولوا الى الحقول أو الغابات القريبة . ولم تتكفل الحكومة ، لأغراض حربية ، ببناء مجموعة من الطرق الرئيسية « صالحة لمرور الجنود والخيل والمركبات على مدار السنة (٢١) » (١٧٥١) الا بعد أن قاد « الأمير تشارلى الجميل » رجاله الاسكتلنديين الثائرين وأوغل جنوبا حتى داربى فى ١٧٤٥ ، لأن حالة الطرق عرقلت مسيرة القوات الملكية الموجهة ضده . ومع ذلك ظل اللصوص يعيشون فسادا فى الطرق ، وكانت تكاليف النقل غالية .

وكان الناس يسافرون على ظهور الخيل أو فى مركباتهم الخاصة اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا . وكان فى امكانهم استئجار الخيل الجديدة فى نقط أو مواقع على الطريق Poste فى الرحلات الطويلة ، وانتشرت هذه البيوت Post - houses فى جميع أرجاء أوروبا الغربية . ثم استخدمت كلمة « بوست » (البوسطة) للدلالة على نقل البريد ، لأنه فى مثل هذه النقط كان حاملو البريد يستطيعون تسليم البريد أو تسلمه وتغيير الخيل ؛ وبفضل هذا النظام أمكنهم أن يقطعوا ١٢٠ ميلا فى اليوم . ومع ذلك كتب تشستر فيلد (١٧٤٩) يشكو الحال « أن رسائنا على أحسن تقدير تنقل نقلا مضطربا ، وكثيرا ما تضيع تماما (٢٢) » . وذهب الى أن من « السرعة غير المألوفة » أن يستغرق خطاب مرسل من فيرونا ثمانية أيام ليصل الى لندن . وكان أكثر السفر بالمركبات العامة يجرها جوادان أو أربعة ولها سائق وحارس

مسلح خارجها ، وبدخلها ستة ركاب يترنحون . وكانت المركبات تغادر
لندن بجدول منتظم صباحين أو ثلاثة فى الاسبوع قاصدة كبريات مدن
جنوبى انجلترا ، ومعدل سرعتها سبعة أميال فى الساعة ، ورحلتها من
لندن الى نيوكاسل تستغرق ستة أيام .

وظلت التجارة الداخلية بهذه الطرق المعوفة بدائية على نحو
جدير بالتصوير . فكان تاجر الجملة يرافق عادة جياد الحمل التى تنقل
بضاعته من بند الى بلد ، والباعة الجوالون يسرحون بسلعهم من بيت
الى بيت . أما الحوانيت فتميز عن البيوت بعلامات أهمها اللافتات
الحافلة بالألوان ، وتحفظ السلع بداخلها ، وليس هناك عادة « أى
عرض فى الفترينات » . وكل متجر تقريبا متجر عام لمختلف السلع ،
مثال ذلك أن « الخردجى » كان يبيع الثياب ، والعقاقير ، والمصنوعات
الحديدية ، والبداىل سعى باسم grocer لأنه يبيع بالجملة . gross ؛
فالبداىل هنرى كوارد مثلا كان يبيع كل شيء من السكر الى المسامير .
وكان لكل مدينة يوم سوق يعرض فيه التجار - اذا سمح الجو - عينات
من بضائعهم . ولكن المراكز الكبرى للتجارة الداخلية كانت الاسواق
السبوعية التى تنعقد فى لندن ، ولين ، وبوسطن ، وجينزورو ،
وبغرى ، وأهم منها كلها ستوربردج . فى هذه الاسواق ، فى أغسطس
وسبتمبر من كل عام ، كانت تقوم مدينة حقيقية لها حكومتها وشرطتها
ومحاكمها ، تتوفر فيها كل منتجات الصناعة الانجليزية تقريبا ، ويلتقى
فيها رجال الصناعة من جميع أرجاء الجزيرة ليتبادلوا الحديث عن
الأسعار والنوعيات والكوارث .

وكانت التجارة الخارجية بسبيلها الى التوسع لأن بريطانيا تسلمت
على البحار . وزادت الصادرات الى أكثر من مثليها قيمة وكمية فى
النصف الاول من القرن ، وارتفعت حمولة السفن المبحرة من الثغور
الانجليزية من ٣١٧.٠٠٠ طن فى عام ١٧٠٠ الى ٦٦١.٠٠٠ فى عام
١٧٥١ الى ١.٤٠٥.٠٠٠ فى عام ١٧٨٧ (٢٣) . وضاعفت لفرنبول
حجمها وأرصفتها كل عشرين سنة . وأقبلت الواردات من عشرات
الأقطار لتداعب أحلام الأغنياء أو بطونهم ، أو تزين تسيريحات كراشم
السيدات بالعطور ومساحيق التجميل التى تخلب الأبواب . وبلغت

أرباح شركة الهند الشرقية من شراء السلع رخيصة فى الهند ، وبيعها غالية فى أوربا ، حدا أتاح لها أن تغرى بالانضمام الى مساهميتها خمسة عشر دوفا أو ايرلا ، واثنى عشرة كونتيسة ، واثنين وثمانين فارسا ، وستة وعشرين قسا وطبيبيا (٢٤) . ولم تنظر الطبقة الارستقراطية فى انجلترا الى التجارة نظرة ستعلاء والازدراء كما فعلت فى فرنسا ، ولكنها ساعدت على تمويلها وشاركت فى رخائها . وقد أبهج رجلا من الطبقة الوسطى كفولتير أن يجد نبلاء الانجليز يهتمون اهتماما نشيطا بالتجارة . قال موجها حديثه الى فرنسا فى ١٧٣٤ « ان لولع الانجليز بالتجارة وحده الفضل فى أن بزت لندن باريس حجما وسكانا ، وفى أن انجلترا استطاعت أن تملك مائتى بارجة وتعين بالمال الملوك من حلفائها (٢٥) » .

وأصبح كبار التجار ينافسون الأرستقراطية القديمة المالكة للأرض ثراء وسلطانا ، فيقررون العلاقات مع الدول الأجنبية ، ويثيرون ويمولون الحروب ، فى سبيل الاسواق والموارد والطرق التجارية . وسيطر القائمون على التجارة الانجليزية فى السكر ، والتبغ ، والعبيد ، على حياة برمنوتل ، وحكم أصحاب السفن لغربول ، وساد أصحاب مناجم الفحم على نيوكاسل . وكانت ثروة السير جوسيا تشايلد التاجر صاحب ٥٠.٠٠٠ سهم فى شركة الهند الشرقية ، تعدل ثروة الكثير من اللوردات وحدايقه فى وانستد من أشهر مشاهد انجلترا . كتب هيوم فى ١٧٤٨ يقول « فى معظم أقطار أوربا ترى أملاك الأسرة - أى الأملاك الوراثية - التى تميزها الألقاب والشارات التى يخلعها عليها الملك ، هى أهم أسباب التمايز . أما فى انجلترا فان الاعتبار الأكبر للثراء الراهن (٢٦) » . وحدث قدر كبير من التبادل والامتزاج بين الطبقتين العليا والوسطى ، فتزوجت بنات التجار الأغنياء بآبناء النبلاء ملاك الأرض ، واشترى أبناء التجار ضياعا من الأرستقراطيين الذين افتقروا ودخل عليه القوم ميسادين التجارة والقضاء والادارة . لقد كانت الأرستقراطية تتحول الى بلوتوقراطية (أى حكومة الأغنياء) ، والمال يحل محل النسب سبيلا شرعيا الى السلطان .

و - المسال

كان المصرفيون الاوربيون الآن يؤدون جميع الخدمات المالية

تقريبا ، يتسلمون الودائع ، ويحمونها من الحريق والسرقة ، ويرتبون المدفوعات بين المودعين بمجرد النقل من حساب الواحد الى حساب الآخر ، ويصدرون أوراق النقد التي يمكن أن يستبدل بها الذهب أو الفضة عند الطلب . واذ لم يكن من المتوقع أن يطلب جميع حملة هذه العملة الورقية هذا الاستبدال في وقت واحد ، نقد كان في استطاعة المصارف أن تصدر أوراقا بلغت من خمسة الى عشرة أضعاف قيمة احتياطاتها المشتركة . وإتاح تداول النقود المتكاثرة على هذا النحو رأس مال اضافيا للمشروعات التجارية ، وشارك في توسيع الاقتصاد الأوربي . وحفز المصرفيون الصناعة باقراض النقود بضمان الأرض أو المبانى أو المواد ، أو بمجرد التسليف على مسئولية شخص ما . ويسرت التجارة بخطابات تبادل أو ضمان مكنت رأس المال من الانتقال بمجرد نقل الوزن المصرفى حتى عبر حدود معادية .

وتألفت في انجلترا شركات محاصة كما حدث في هولنده وإيطاليا وفرنسا . ونظم مؤسسوها ، الذين كانوا وقتها يسمون « أصحاب المشروعات » الاتحادات الصناعية أو التجارية ، وأصدروا اسمها ، ووعدوا بدفع أرباحها ، وأمكن تحويل شهادات الأسهم أو السندات من شخص الى آخر ، ولهذا الغرض أسست في لندن سوق للأوراق المالية (بورصة) في ١٦٩٨ . وشهد مطلع القرن الثامن عشر نموا سريعا في المضاربة بأسهم الشركات ، وسماصة للأوراق المالية يتلاعبون في أسعار السوق رفعا وخفضا . وقد وصف ديفو في ١٧١٩ واحدا من هؤلاء المتلاعبين فقال :

« لو خطر للسير جوسيا تشايلد أن يشتري ، فان أول ما يفعله هو أن يكلف سماسرته بأن يتكلفوا العبوس والتجهم ، ويهزوا رموسهم ، ويلمحوا بأن هناك أخبارا سيئة من الهند . . وربما باعوا فعلا بعشرة آلاف أو ربما بعشرين ألف جنيه . وللتو ترى السوق . . وقد امتلأت بالبائعين ، ولا أحد يشتري ولو بشلن ، حتى تهبط الأسهم ستة ، أو سبعة ، أو ثمانية ، أو عشرة في المائة ، وأحيانا أكثر . هنا يكون لدى السماسر الخبيث طاقم آخر منهم يستخدمه . . في الشراء ، ولكن في ٦ - قصة الحضارة

حكتم وتحوط ، حتى يشتري - بعد أن باع بعشرة آلاف جنيه بخسولة أربعة أو خمسة فى المائة - أسهما بمائة ألف جنيه ، بأقل من السعر بعشرة أو اثنتى عشرة فى المائة . وفى ظرف أسابيع ، بعكس هذه الطريقة لا أكثر ، يدفعهم جميعا للتهافت على الشراء ، فيبيعهم أسهمهم ثانية بربح يبلغ عشرة أو اثنتى عشرة فى المائة (٢٧) » .

ولم تكد تفتتح أسواق الأوراق المالية ، حتى كان حرص الجمهور على تحقيق كسب دون عرق يثير موجات من المضاربة والانكماش . وقد جاء تضخم « فقاعة » بحر الجنوب (أى مشروعه الوهمى) فى إنجلترا ، ثم انهيار المشروع تاليا ، فى اتفاق غير عادى ، لظهور وسقوط « فقاعة المسبى » وصاحبها جون لو فى فرنسا . ذلك أن الحكومة الانجليزية ، التى تاثرت بشكاوى بولنبروك ، وسويفت ، وغيرهما من أن الدين القومى - البالغ ٥٢٠٠٠.٠٠٠ جنيه فى عام ١٧١٤ - يفرض على الدولة عبئا سنويا مدمرا قدره ٣٥٠٠.٠٠٠ جنيه من الفائدة - فكرت فى خطة لتحويل ٣١٠٠٠.٠٠٠ جنيه من الدين الى شركة بحر الجنوب . وكانت الشركة قد أسست فى ١٧١١ بمنحها احتكارا للتجارة الانجليزية مع المستعمرات الأسبانية فى أمريكا وجزر المحيط الهادى . ودعى حملة الأوراق الحكومية ليستبدلوا بها أسهما فى الشركة . وأصبح الملك جورج الاول « محافظا » لها ، وبذلت كل الجهود لنشر الاعتقاد بأن مرسوم احتكارها يعد بأرباح عالية . وسرت العدوى من النجاح الظاهرى لنظام لو فى فرنسا المعاصرة الى إنجلترا ، فاعترتها حمى مضاربة مماثلة . وما مضت ستة أيام على عرض الشركة قبولهما الأوراق الحكومية ثمننا لأسهمها حتى قبل الاقتراح ثلثا حملة الأوراق . واشترى كثيرون غيرهم أسهما ارتفعت فى ظرف شهر واحد من ٧٧ جنيها الى ١٢٣.٥ (١٧١٩) . ولكى يضمن مديرو الشركة استمرار التعاون الحكومى قرروا تقديم هدايا سخية من الأسهم لأعضاء الوزارة ولإثنتين من خليات الملك (٢٨) . وقد حذر روبرت ولبول ، ولم يكن قد تولى منصب الوزارة بعد ، مجلس العموم من المشروع لأنه « مضاربة . . مؤذية » ، وقال أن المشروع يستهدف رفع قيمة الاسهم رفعا مفتعلا بإثارة تهافت الناس عليهما والابقاء عليه ، وبالوعد بأرباح من أموال لن تفى بالغرض ، وتنبأ ، فى دقة عجيبة ، بأن المشروع سيفشل ، وأنه لو ترك

ليورط جماهير الشعب لجر فضله سخطا شاملا وخطرا (٢٩) . وقال انه ينبغي وضع حد ما على الأقل لارتفاع أسهم الشركة . ولكن مجلس العموم أبى الاستماع الى تحذيره . وفي ٧ أبريل ١٧٤٠ وافق كلا مجلسي البرلمان على اقتراحات الشركة .

وفي ١٢ أبريل أصدرت الشركة أسهما جديدة بسعر ٣٠٠ جنيهه للسهم ، فتم الاكتتاب فيها على الفور . وفي ٢١ أبريل أعلنت ، وهي منتعشة ناضرة بفضل دفع الحكومة فائدة على الأوراق الحكومية التي أصبحت الآن ملكا للشركة ، أنها ستدفع أرباحا صغيرة تبلغ عشرة في المائة ، واستغلت الحماسة التي أثارها هذا الاعلان لطرح اصدار آخر من الاسهم بسعر ٤٠٠ جنيهه (٢٣ أبريل) . فلم تمض ساعات حتى تم الاكتتاب فيه . ورفع القهافت على شراء الأسهم ثمنها الى ٥٥٠ جنيهها في ٢٨ مايو ، والى ٨٩٠ جنيهها في ٢ يونيو ، وفي يوليو بيع اصدار جديد بسعر ١٠٠٠ جنيهه للسهم . وتهاافت المجتمع الراقى كله على الاكتتاب . الادواق والقساوسة والسياسيون والموسيقيون والشعراء ، فأصبح شارع البورصة مشهدا لمنافسة هائجة مائجة على الشراء لم ير لها نظير الا في شارع كانكمبوا بباريس في الفترة ذاتها تقريبا ؛ فلقد كشفت طبيعة البشر عن نفسها عبر الحدود . وكان الناس يعقدون صفقات الأسهم في الحانات ، ومشارب القهوة ، ودكاكين صانعات القبعات ، وفي كل ليلة يحسب الرجال والنساء أي ثراء أصابوا ، وما كان يمكن ان يصيبوا من مزيد لو أنهم اشتروا في تاريخ سابق ، أو قدرا اكبر من الأسهم .

وبلغت لهفة المال العام على المضاربة مبلغا أغرى الشركة بطرح اصدارات صغيرة بلغت ستة وثمانين اصدارا . وبيعت أسهم أصدرتها شركات أنشئت لتحويل المعادن الى فضة ، ولتشديد المستشفيات للأطفال غير الشرعيين ، ولاستخراج الزيت من الفجل ، ولأحداث الحركة الدائمة ، ولاستيراد الحمير من أسبانيا . وأعلن مؤسس عن « شركة لمواصلة مشروع عظيم النفع ، ولكن أحدا لن يعرف كنهه » الا فيما بعد ، فتلقى ألف اكتتاب كل ملها بجنيهن قبل أن ينتصف النهار ، ثم اختفى بعد الظهر (٣٠) .

وكان شطط بعض هذه « الفقاعات » الصغرى (وهو الوصف الذى وصفهم به ذلك العهد) بداية رد الفعل ضد مشروع بحر الجنوب . وجدد ولبول وغيره تحذيراتهم وباعوا أسهمهم . وفى ١١ يونيو حرم الملك جميع اصدارات الأسهم الا للشركات التى رخص لها البرلمان بذلك . وسرعان ما انهارت المشروعات الصغرى ، فهدأ فشلها من حمى المضاربة . وانتشرت شائعة بأن الحكومة الاسبانية أخذت تضيق تجارة الشركة فى المستعمرات الامريكية تضيقا شديدا . وفى يوليو وصل نبأ بأن مشروع لو أو « فقاعة المسبى » قد انفجرت فى باريس . وباع السير جون بلاونث وغيره من مديرى شركة بحر الجنوب أسهمهم سرا بربح كبير . وخلال أغسطس كله توالى هبوط الأسهم حتى اذا جاء ٢ سبتمبر لم يتجاوز سعرها سبعمائة جنيه .

هنا استحال التهافت على البيع ضريبا من الهلع والذعر الجماعى ، فازدحمت مداخل شارع البورصة ازدحاما خانقا . وهبطت الأسهم الى ٥٧٠ جنيتها ، ثم الى ٤٠٠ جنيه ، ثم الى ١٥٠ جنيتها ، ثم الى ١٣٥ جنيتها (٢٩ سبتمبر) . وخسرت مئات الأسر الانجليزية مدخراتها فى هذا الانهيار . وسرت بين الناس قصص الافلاس والانتحار (٣١) . وأفلست المصارف التى كانت قد أقرضت المال بضمن شهادات أسهم شركة بحر الجنوب . وطالبت الاجتماعات العامة فى جميع أرجاء انجلترا بعقاب المديرين ، ولكنها غفرت للجمهور غروره وجشعه . وعجل الملك بالعودة من هانوفر ودعا البرلمان للانعقاد . وفر أمين صندوق الشركة الى فرنسا مصطحبا الكثير من السجلات التى كانت مستدين المديرين . وفى يناير ١٧٢١ وجدت لجنة برلمانية بعد فحصها دفاتر الشركة ، « صورة للظلم والفساد (٣٢) » مذهلة حتى بمقاييس ذلك العهد ، حين كان التشريع عن طريق افساد البرلمان كانه جزء من دستور انجلترا . والظاهر ان المديرين كانوا قد انفقوا ٥٧٤,٠٠٠ جنيه فى رشوة كبار رجال الحكومة .

وطالب بعض أعضاء البرلمان بعقوبات عنيفة ، واقتراح احدهم بان يخاطب المديرون المذنبون فى زكية ويلقوا أحياء فى التيمز (٣٣) . وحوى وطيس الجدل حتى تحدى الأعضاء بعضهم بعضا للعبسارزة ،

وأصيب عضو منهم بأزمة ضغط مرتفع ومات فى الغد . ودعى المديرين ووزراء الحكومة الى المحاكمة أمام المجلس . فحكم على جون ايزلابى ، وزير الخزانة ، بالسجن فى برج لندن ، وصودرت ممتلكات المديرين - منهم ادورد جبون ، جد المورخ - فلم يترك لهم سوى عشرة فى المائة من ثروتهم . ولوحظ أن السير جون بلاونت ، الذى كان من أوائل منظمى الشركة ، ومن أول من بدأوا ببيع أسهمهم ، كان رجلا « ذا مسلك غاية فى التقوى » وكان « دائما يهانم ما يشين العصر من سرقة وفساد » ويندد بجشع الأغنياء (٣٤) .

أما روبرت ولبول الذى برر الحدث تنبوءاته ، فقد أشار بالاعتدال فى روح الشر الذى اتسم به رد الفعل ، وخفف من انهيار الشركة باقناع مصرف انجلترا وشركة الهند الشرقية بامتصاص نحو ١٨٠٠٠.٠٠٠ رطل جنيه من الأسهم الخاسرة . وقد وجد فى شركة بحر الجنوب من الاحتياطات ما يسمح بدفع ثلاثة وثلاثين فى المائة لحملة أسهمها فى وقت مبكر . وجردت الشركة من امتيازاتها وسحرها ، ولكنها كانت تكسب من بيع العبيد ، فظلت على قيد الحياة ، فى حيوية هابطة حتى عام ١٨٥٣ .

٢ - مظاهر الحياة فى لندن

يندر الاحصائيون الأجرباء سكان أوروبا بنحو ١٠٠ مليون نسمة على ١٦٥٠ ، و ١٤٠٠ نى ١٧٥٠ . وقد قدر فولتير فى ١٧٥٠ سكان فرنسا بعشرين مليوناً ، وألمانيا والنمسا باثنين وعشرين ، وبريطانيا العظمى وأيرلنده بعشرة ، وروسيا الاوربية بعشرة ، وأسبانيا والبرتغال بثمانية ، وبولنده بستة ، وخص كلا من تركيا أوروبا ، والسويد ، والدنمرك (مضافا اليها النرويج) والاقاليم المتحدة ، بثلاثة ملايين (٣٥) . وذهب قانونى ألماني الى أن الزيادة فى سكان شمالى أوروبا مردها الى حد كبير انتقال الرهبان والراهبات من حياة العزوبة الى الأبوة والامومة نتيجة لحركة الاصلاح البروتستنتى ، وحض على « اقامة تمثال للوثر بوصفه حافظ النوع الانسانى » (٣٦) . ولكن علينا ألا ننغالى فى عفة رهبان العصر الوسيط . واغلب الظن أن زيادة

السكان مرجعها تحسينات الزراعة والنقل التى زادت من كميات الطعام وتوزيعه ، وخطوات النهوض بالصحة العامة والعلاج الطبى التى خفضت نسبة الوفيات فى الاطفال والبالغين . ويبدو أن سكان انجلترا وويلز الذين نيفوا على ثلاثة ملايين فى ١٥٠٠ ، بلغوا اربعة فى ١٦٠٠ وستة فى ١٧٠٠ ، وتسعة فى ١٨٠٠ (٣٧) وكل الزيادة تقريبا كانت من نصيب المدن التى غدت الصناعة والتجارة وتغذت منهما . وفى عام ١٧٤٠ فاخرت لندن بنحو ٢٢٥٠٠٠ من الاهالى ، فاصبحت الان أحفل مدن العالم بالسكان ، وندد بها ديفو فى ١٧٢٢ لأنها « تضخمت » (٣٨) وتلتها باريس التى بلغ سكانها ٦٧٥٠٠٠ فى ١٧٥٠ ، ثم امستردام وفينا ، ونابلى ، وبلرمو ، وروما . وبلغ سكان لندن عشرة أضعاف سكان برستول ، التى كانت ثانى اكبر المدن الانجليزية ، وثمانية عشر ضعف سكان نورتش ، ثالث اكبر المدن الانجليزية . وكانت مراكز العواصم تجمع فى يدها خيوط الحياة الاقتصادية للأمة ، وتحول كدّ الحقول والمناجم والمتاجر ومنجاتها الى أرباح المال اللطيفة الرقيقة .

وإعان لندن موقعها على النمو مع نمو التجارة والمستعمرات الانجليزية . فكان فى استطاعة السفن عابرة المحيط أن تبحر مصعدة فى التيمز ، ومع أن أرصفة الميناء (حتى ١٧٩٤) لم يكن فى طاقتها أن تؤويها ، فان جيشا من عمال التفويغ والشحن الغلاظ ، يستخدم اسطولا من ثلثمائة صندل ، كان مهيا لنقل البضائع من السفينة الى الساحل أو الى سفينة أخرى ، وهكذا غدت لندن مركز توزيع شاعيا بالحركة لاعادة تصدير الواردات من وراء البحار الى القارة . ولم يكن شاطئ النهر أنيقا كما نجده الآن ، فقد كان يزخر بعمال الشحن المفتولى العضل ، والملاحين المتعطشين للجنس ، والنساء المتحلات ملابس وخلقاً ، القدرات مظهرها ولفظا ، الساكنات الاكواخ والحانات ، المنافسات للبحارة فى السكر والعنف (٣٩) . أما النهر نفسه فكان عجيب المنظر ، فيه خليط من السفن التى تتفاوت من قوارب الصيد الشراعية الى البوارج الضخمة ، بينما تعبر العدييات الصغيرة النهر غمدوا ورواحا . وكان الملك ، وعمدة لندن ، ونفر من الاعيان ، يملكون « ذهبيات » انيقة ، ويستخدمونها للرحلة صعدا الى ونزور او غيرها من البلاد - وظل كوبرى لندن حتى ١٧٥٠ الطريق الوحيد لاختراق المدينة على الاقدام

من شمالها الى جنوبها ، ولكن فى ذلك العام تم بناء كوبرى وستمنستر ، وفى ١٧٥٧ أزيل عن كوبرى لندن عيب البيوت والمتاجر الذى كان يثقله . وقد أعجب الرسام البندقى انطونيو كاناليتو ، الذى زار لندن فى ١٧٤٦ و ١٧٥١ ، بمشاهد الحركة التى يعج بها الماء فخلف لنا بعض الصور الشهيرة التى ترينا التيمز كما عرفه وأحبه بوب وجونسون .

ولعل جونسون أحب شوارع لندن أكثر حتى من حبه لنهرها ، مع انها كانت لاتزال سيئة الاضاءة رديئة الرصف ، لا ينظفها فى الغالب سوى ماء المطر الهاطل عليها . وكان قد تقرر فى ١٦٨٤ نظام لاضاءة الشوارع يقام بمقتضاه مصباح مضاء بالشمع عند كل عاشر بيت ، ولكن المصابيح لم تضاء الا فى الليالى التى يحتجب فيها القمر ، وحتى منتصف الليل فقط ، ومن عيد الملاك ميخائيل (٢٩ سبتمبر) الى عيد السيدة العذراء فقط (٢٥ مارس) . وفى ١٧٣٦ وافقت سلطات المدينة على اقامة خمسة عشر ألف مصباح زيتى فى أنحاء لندن كلها ، تظل مضيئة من غروب الشمس الى شروقها ، وكان هذا حدثا مشهودا فى حياة العاصمة . حسن كثيرا من أمن شوارعها فى الليل .

كان أكثر الشوارع منذ حريق ١٦٦٦ الكبير مرصوفا بالحجارة الصغيرة المدوّرة ، وظل الرصف بهذه الطريقة قاعدة متبعة الى القرن التاسع عشر . وكانت تجرى فى وسط كل شارع قناة تتلقى الكثير من النفايات . وتصرف المطر . ولم يكن هناك أفاريز بل صف من الشواخص حدد طريقا للمشاة عرضه ستة أقدام . وكانت الشوارع تعج باصوات عربات النقل ، وخيول الجر ، والحناطير ، والمركبات الخاصة ، وكلها تجرها الخيل التى تقف حوافرها على أحجار الرصف ، كذلك كان هناك الباعة الجوالون - وكثير منهم نساء - يصرحون بعشرات الاطعمة أو الثياب ، والصناع المهرة المتنقلون يعرضون اصلاح ما فسد ، وسائقو العربات يتشاجرون والكلاب تنبح ، والمتسولون يستجدون ، ومغنىو الشوارع يصيحون بالأغاني الشعبية ، والأراغن تقفز بالحانها من جدار الى جدار . وكان الناس يشكون من هذه الضوضاء ولكنهم يحبونها ، فهم السبيل الذى لا غنى عنه الى معاشهم . ولم يعمل من الناس فى صمت سوى النشالين والموسمات .

وبدا تثبيت أرقام الشوارع على البيوت فى سنة ١٧٠٨ . وكان أكثرها فى سنة ١٧٥٠ مزودا بالمياه الجارية . وأخذت وسائل النظافة تتحسن . وكان القانون يطالب رب كل أسرة بأن يحتفظ برصيف الشارع نظيفا أمام بيته ، ولكل حى زبال ينظم جمع القمامة . أما المراحيض فكانت عادة مراحيض خارجية توضع وتستتر فى الحديقة أو الحوش . وكان لبعض المناطق مجار ، ولكن لم يتح للندن نظام مجار عام إلا سنة ١٨٦٠ . أما المداخل فيطهرها منظفو المداخل ، الذين يتسلقونها بضغط كيغانهم وركبهم على جدرانها الداخلية المصنوعة من الطوب أو الحجر ، واستمر هذا التشويه القاسى لأجسام الأطفال حتى عام ١٨١٧ .

وكان شطر كبير من السكان يحشرون فى أحياء فقيرة مزدحمة تلوثها القمامة والفضلات فتولد عشرات الأمراض (٤٠) . وفى حين من أحياء لندن - هما وابنح ولايمهاوس - كان واحد من كل اثنين من السكان تقريبا يعيش عيش الكفاف ، معتمدا على الاحسان ، أو السرقة ، أو البغاء ، فى الحصول على المسكن والطعام . أما الأطفال فيجرون حفاة قذرين شعنا فى الشوارع لا تسترهم غير أسمال ولا يتعلمون غير الاجرام . فى هذه الشوارع الفقيرة ندر أن اهتم الرجال والنساء بالزواج فالعلاقات الجنسية حدث عابر ، وسلعة تسوق دون احتفال أو قانون . ولم يكد يوجد فى هذه الأحياء كنائس على الاطلاق ، أما دكاكين الجعة والمحانات فكثيرة . وفيها أيضا كانت بؤر اللصوص ، والنشالين ، وقطاع الطرق ، والقتلة المحترفين . وكان كثير من المجرمين ينتظمون فى عصابات . فاذا تعرض لهم الحراس جددوا أنوفهم . وألفت جماعة منهم يدعون « الموهوك » أن يخرجوا الى الشوارع سكارى ، ويخزوا المارة بالسيوف ، ويكرهوا النساء على الوقوف على رموسهن ، ويسملوا عيون من يقاومونهن من ضحاياهم . أما لصوص العصابات الأقل ضراوة فكانوا يقنعون بكسر نوافذ الدكاكين والبيوت . ذكر سموليت فى ١٧٣٠ « أن اللصوص والسارقين أصبحوا الآن أشد استهتارا وضراوة مما كانوا فى أى عهد منذ عرف البشر الحضارة (٤١) » . وفى ١٧٤٤ حرر عمدة لندن وحاكمها خطابا للملك قررا فيه أن « عصابات شتى قوامها اعداد كبيرة من الأشخاص ذوى النزعة الشريرة ، المسلحين بالهراوات ، والطبنجات ، والسيوف ، وغيرها من الأسلحة الخطرة ، يعيشون فسادا

لا فى الازقة والممرات الخاصة فحسب ، بل فى الشوارع العامة وأماكن الاحتشاد العادية ، ويقتربون أخطر الاعتداءات على أشخاص رعيا جلالكم (٤٢) » . وقال هوراس ولبول فى ١٧٥٢ : « ان المرء ليضطرب الى السفر ، حتى فى الظهيرة ، وكأنه ماض الى ساحة قتال (٤٣) » .

وكانت العاصمة الكبرى بالطبع شيئا أكثر كثيرا من هذه الحويلة المتكاثرة من الفقر والجريمة ، فلقد كانت الى ذلك بلد البرلمان والقصور الملكية ، ووطن ألف محام وتاجر وصحفى وشاعر وروائى وفنان وموسيقى ومعلم وكاهن ورجل بلاط . ويجب ونحن ماضون فى طريقنا أن نضيف الى رؤيتنا للندن القرن الثامن عشر بيوت الطبقات المتعلمة الفخمة وأخلاقها وعاداتها ، وجمهور المصلين فى الكنائس ، والشكاك ، والعلماء ، والفلاسفة ، وظرفاء « المجتمع الراقى » وحسانه وعشاقه ، وحدائق اللهو فى فوكسهول ورينلاج ، والمتنزهين فى الحدائق العامة وشارع بل مل ، وسباقات الزوارق والمهرجانات والذهبيات على نهر التيمز ، والأحاديث المتدولة فى مشارب القهوة والنواذى ، ودكاكين الحرانيين ، وتجار الملابس ، والجواهرية ، وأسباب الترويج فى البيت والرياضة فى الخلاء ، والجموع المحتشدة فى معارك الديكة ، ومباريات الملاكمة التكمسية ، وعروض الدمى ، والمسارح ، والآوبرا - عندها فقط تكون رؤيتنا للحياة اللندنية منصفة كاملة الى حد معقول ، تتيح لنا أن نحس التاريخ فى كل نواحيه ينساب خلال أجساد وأرواح جيلين و ٧٠٠.٠٠٠ نفس .

٣ - المدارس

كانت الحياة فى انجلترا كما فى غيرها من الأقطار فى هذه الحقبة تبدأ بنسبة عالية من وفيات الأطفال ، يموت ٥٩ ٪ من مجموع الأطفال المولودين بلندن قبل أن يبلغوا الخامسة ، و ٦٤ ٪ قبل العاشرة (٤٤) . وكان كثير من الأطفال يلقون خارجا عقب ولادتهم ، ومن بقى من هؤلاء اللقطاء على قيد الحياة يربون على نفقة الدولة ثم يوضعون فى إصلاحيات للأحداث . ونجم الكثير من التشوهات الجسمية عن أهمال المولدات والأمهات .

فاذا كان الابهوان فقيرين لم ينل الطفل حظا من التعليم فى المدرسة اطلاقا . وكان هناك « مدارس خيرية » تقدم التعليم الاولى للجنسين ولجميع الطبقات مجانا ، ولكن حملة الملتحقين بها لم يتجاوز ٢٨٠٠٠ فى ١٧٥٩ ، وكانت لا تقبل المنشقين على الكنيسة الانجليكانية ، ولا تصل الا لنسبة ضئيلة من الفلاحين ، ولا تكاد تصل الى فقراء المدن اطلاقا . يقول حجة انجليزى « ان الكثرة العظمى من الانجليز كانوا يمضون الى قبورهم دون تعليم » (٤٥) . اما فى طبقة الصناع فالتلمذة الصناعية تعد خير تعليم . واما اطفال الطبقة الوسطى فيجدون مدارس يقوم عليها عادة « رجال محطمو الاعصاب ، او مفلسون ، او مطرودون من وظائف اخرى » (٤٦) والى ذلك « مدارس نسوية » تعلم فيها المعلمات المتواضعات مبادئ القراءة والكتابة والحساب والكثير من الدين للصبيان والبنات الذين يستطيع آباؤهم دفع مصروفاتهم . وفى جميع المدارس كان التركيز على تعليم الطلاب القناعة بمرتبتهم التى ولدوا فيها ، وابداء الخضوع الواجب للطبقات العليا .

وكانت قلة قليلة تدخل المدارس الثانوية حيث يستطيع الصبيان ان يضيفوا شيئا من اللاتينية واليونانية الى مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، لقاء رسوم متواضعة تبصر المعلمين بمكانهم الوصيع فى السلم الاجتماعى . وكان النظام صارما ، وساعات الدرس طويلة تمتد من السادسة الى الحادية عشرة والنصف صباحا ، ومن الواحدة الى الخامسة والنصف مساء . واجود من هذه المدارس المدارس الخاصة ، وأشهرها ابنون ، ووستمنستر ، ووشستر ، وشروزبرى ، وهارو ، ورجى - حيث بسنطع الشباب من الصفوة التحضير للجامعة بظير ستة وعشرين جنيتها او نحوها فى العام ، وادخار شارات كلاسيكية يتفخرون بها فى المستقبل . واذ كانت هذه المدارس الخاصة لا تقبل غير صبيان الكنيسة الاجليكانية ، فان المنشقين على هذه الكنيسة - من معمدانيين ، ومشيخيين ، ومستقلين ، وتوحيديين ، وكويكرين ، ومجمعيين ، ومثوديين - هؤلاء انشأوا اكاديميات لشبابهم قل التركيز فيها على الكلاسيكيات القديمة ، وازداد على اللغات الحديثة ،

والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والملاحة - وهو تعليم أنسب
لبناء الطبقة الوسطى .

وحرم المنشقون من دخول الجامعات . وكان أكثر طلابها ينتمون
الى أسر موسرة ، ولكن بعض الصبيان رقيقى الحال تلقوا منحا دراسية
من المحسنين أو المؤسسات الخيرية ، وبعض الطلاب الذين يقومون
بخدمات للجامعة لقاء مكافآت (ويسمون *servitors* أو *sizars*)
مثل نيوتن ، شقوا طريقهم خلال قاعات الدرس الواعية بالفوارق
الطبقية . وقد عانت أكسفورد وكمبرج من الركود فى هذه الفترة بسبب
النزعة المحافظة فى المناهج والطرق والأفكار . وأبهدت كمبرج استعدادا
أكبر للتوسع فى الدراسات العلمية على حساب الدراسات الكلاسيكية
واللاهوت ، ومع ذلك وصفها تشستر فيلد بأنها « غارقة فى أحلك
الظلمات » . أما أكسفورد فقد تشبثت باللاهوت القديم وبأسرة ستيوارت
الساقطة ، ولم تسمح للملوك أسرة هانوفر الغشم بزيارتها . وقال آدم
سمث ، الذى كان يطلب العلم بأكسفورد فى ١٧٤٥ ، انه لم يتعلم فيها
الا القليل ، أما جيون الذى درس فيها فى ١٧٥٢ ، فقد ندّد بمدرسيها
لأنهم سكيرون جهلة ، وندم على السنين التى ضيعها فى الجامعة .
وآثر الكثير من الأسر استخدام المدرسين الخصوصيين (٤٧) .

أما البنات فكان يتلقين تعليما أوليا فى مدارس القرية أو المدارس
الخيرية - فيتعلمن القراءة والكتابة ، والخياطة ، وأشغال الأبرة ،
والغزل ، وقليل من الحساب ، وكثيرا من الدين . وتلقى بعضهن
التعليم على يد معلمين خصوصيين ، ومنهن من درس اللغات والآداب
الكلاسيكية خفية كما فعلت الليدى مارى ورتلى مونتاجيو . قالت الليدى
مارى « ان بنات جنسى تحظر عليهن عادة دراسات من هذا النوع ،
والجهل يعد مجالنا المناسب لنا ، بحيث أن أى اسراف فيه من جانبنا
يغتفر لنا أكثر مما يغتفر أقل تظاهر بمعرفة القراءة أو بالادراك السليم
... وليس فى الوجود مخلوق ... أشد تعرضا للسخرية العامة من
المرأة المثقفة » . وكانت تميل الى الظن بأن الرجال كانوا يبقون النساء
فى جهلهن ليستطيعوا اغواءهن بتكلفة أقل (٤٨) . وإذا كان لنا أن
نحكم من دخول محظيات الملك ، فإن النساء وفقن كل التوفيق بغير

الدراسات الكلاسيكية ، ولم يكن بهن حاجة الى شاعر كاوفيد ليعلمهن لعبة الحب .

٤ - الاخلاق

لعل العلاقات السابقة على الزواج كانت بين النساء اقل شيوعا من ذلك العهد مما هي اليوم (١٩٦٥) ، ولكن البغاء ازدهر الى حد لم يكن يعرف ثانيا حتى يومنا هذا . وقد قدر مراقب اجنبي عدد المومسات بخمسين ألف في لندن ، يوجدن في حانات المدينة ، وفي الفنادق الصغيرة على الطرق ، وفي حدائق المدينة ، وفي المراقص العامة ، وحفلات الموسيقى ، والمسارح ، وكن في شارع اكستر وحى ستراند يجلسن الى النوافذ تشجيعا للمتردددين من الزبائن . وفي « درورى لين » (شارع المسارح بلندن) - كما تغنى الشاعر جون جاي في تمثيلته « تريفيا » : هي التي تمشي في الليل بخطى وثيدة ، لا يضم جسدها اللدن مشد قاس ، وتحت المصباح تتوهج شرائطها المبهرجة ، والمعطف حديث التنظيف ، وسيماء المومس ٠٠٠ وباصوات التملق تستميل الأذن الساذجة قائلة « يا فارسي الهمام ! يا فاتنى ! يا حبيبى ! يا عزيزى ! » (٤٩) .

ولم تأخذ القانون بهن رحمة . فاذا أمسكت احداهن وهي تتحرش برجل ، زج بها في السجن وضربت بالسوط ووضعت في المشهرة (آلة التعذيب) . وقد وصفت « مجلة جرب ستريت » في عدد ٦ مايو ١٧٣١ مصير احدى هؤلاء « المدامات » فقالت « وقفت أمس الام نيدهام في المشهرة ببارك بليس قرب شارع سائت جيمس ، ونكل بها الجمهور تنكيلا شديدا . وقد اشتد بها الاعياء حتى استلقت بطول المشهرة ، ورغم ذلك ظلوا يحصبونها بقسوة ، ويظن انها ستموت بعد يوم او يومين (٥٠) .

ولكن لم يكن يصل الى المشهرة غير أفقر البغايا . فقد كن يتفادين القانون عادة بانرشا ، أو يخرجهن صاحبهن بكفالة ، وأحسن بعض حفظة القانون - ربما لأنهم تعرفوا فيهن على « مضيفات » مسابقات لهم - بعض العطف على نساء عاقبتهن القوانين على فسق الرجال .

وإغلب الظن أنه لم يأت الى فراش الزوجية محتفظا بعفته عشرة من كل مائة ذكر من أهل لندن . لقد ندد القوم بالرديلة علانية ، ولكنهم احتقروا الفضيلة سرا . وكتاب جون كليلاند المسمى « مذكرات غانية » (١٧٤٩) ، والذي عرف فيما بعد باسم « فانى هل » ، وهو سلسلة من الاغواءات المفصلة ، كان (وما زال) من افحش كتب ذلك القرن وأكثرها شعبية .

وإلف بعض الرجال جماعات للاستمتاع المتبادل فيما بينهم . وروت جريدة لندن فى عددى ٢٣ و ٣٠ أبريل ١٧٢٥ نبا القبض على سبعة لوطيين ، وفى ١٤ مايو سجلت نبا شق ثلاثة آخرين بتهمة اللواط ، ثم أضافت « نمى الينا أنهم (أى الشرطة) اكتشفوا عشرين بيتا أو ناديا يجتمع فيها اللوطيون ، وهم يراقبون أيضا منتديات ليلية يلتقى فيها هؤلاء الوحوش فى جمع كبير » . وفى ٧ يوليو روت الجريدة أدانة « روبرت هويل ويورك هورنر بفتحهما بيوتا فى وستمنستر يستقبلان فيها هواة هذه الرديلة المنكرة » . وفى ٢٣ يوليو أعلنت أن : « مرجريت كلاب ، التى أديننت بفتحها بيتا سريا يستخدمه اللوطيون . . . حكم عليها بوضعها فى المشهرة ، وبدفع غرامة قدرها تسعون ماركا ، وبالسجن سنتين » (٥١) .

وينبئنا مصدر وثيق بأن « نسبة كبيرة جدا من أهل لنسند كانوا يعاشرون النساء حراما دون زواج (٥٢) » . وكانت زيجات الحب فى ازدياد ، على الأقل فى روايات رتشردن وفيلدن ، ولكن معظم الزيجات كان يرتبها الآباء بعد الوزن الدقيق لمهر العروس بالقياس الى دخل العريس الفعلى أو المنتظر . وقد حرم قانون صدر فى ١٧٥٣ على الأشخاص دون الحادية والعشرين الزواج بغير موافقة والديهم أو الأوصياء عليهم . ولما كان هذا القانون لا ينطبق الا على انجلترا ، فإن كثيرين من العشاق الفارين من آبائهم كانوا يعبرون الحدود الى اسكتلنده ، حيث يتبع القساومة فى قرية جريتنا جرين قانونا أكثر يسرا . وكان هناك مزيد من التيسيرات على العاشقين المتلهفين يوفرها رجال الدين الجشعون الذين يعقدون الزيجات السرية فى الحانات أو المواخير أو العليات أو غير ذلك من الأماكن فى شارع فليت أو على

مقربة منه (وفى الشارع سجن للمدينين) . وكان فى كل حانة تقريبا فى تلك المنطقة كاهن من هذا النوع على استعداد لتزويج أى انسان لقاء رسم ، دون أن توجه اليه أسئلة أو يطالب بترخيص . وشاع عن أحد هؤلاء القساوسة أنه كان يعقد ستة آلاف قران فى السنة . وكانت الزيجات تبرم فى عاطفة مشبوبة ، ثم تفسخ وقد ذابت حرارتها ؛ وكان آلاف النساء يهجرن رجالهن ، وكان البحارة يتزوجون وهم يقضون يوما على البر ، ويحبون ، ثم يرحلون . ورغبة فى القضاء على هذا المنكر اصدر البرلمان قانونا (١٧٥٣) بالا يعتبر أى زواج شرعيا ، باستثناء زيجات الكويكرز أو اليهود ، ما لم يعقده قسيس أنجليكانى فى كنيسة أبرشية ، بعد نشر اعلان بالزواج فى الكنيسة على مدى ثلاثة آحاد متعاقبة ؛ وكل مخالف لهذا القانون يعاقب بالذنى الى المستعمرات .

ولم يكن الطلاق مسموحا به فى انجلترا (قبل ١٨٥٧) دون الحصول على قانون خاص من البرلمان (٥٣) ، وكانت تكاليف هذا الاجراء تجعل منه ترفا مقتصر على الأغنياء . وفشا الفسق فى جميع الطبقات الا الوسطى ، وضرب جورج الأول والثانى مثلا فى ذلك - والناس على دين ملوكهم . وفى عام ١٧٠٠ كتب كونجرىف يقول « كل انسان فى هذا المجتمع ولد بقرون طالعة (٥٤) » . ولم تتغير الحال الا قليلا فى ١٧٢٨ ، حين جعل الكاتب المسرحى « جاي » السيدة بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » تسأل زوجها عن ابنتها « بالله لم يجب أن تشذ ابنتنا بوللى عن بنات جنسها فتقصر حبها على زوجها ؟ » . كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزداد عشقهم للمرأة ان كانت ملك رجل اخر (٥٥) » . على أنه يمكن القول عموما بأن أخلاق النساء كانت فى انجلترا خيرا منها فى فرنسا ، وأنه فى الطبقات الوسطى ، التى ظلت التقاليد البيورثانية فيها قوية ، أوشكت العفة أن تكون افراطا فى الاحتشام ، وقد تجد من النساء زوجات من الطراز الذى يحلم به الرجال - صبورات ، مجدات ، وفيات . وكان المييار ذو الوجهين مفروضا ومقبولا . فكانت النساء المهذبات يسمعن الكثير من الحديث النابى ويقرآن فيلدنج وسموليت ، ولكن كان ينتظر منهن ان تحمسن وجوههن خفرا مغريا ، وان يغشي عليهن فى لمح البصر .

وكان ينظر الى المرأة فى جميع الطبقات على أنها أدنى من الرجل بحكم الطبيعة وبقضاء لا سبيل الى رده . ولقد ارتضت هذه النظرة حتى الملبدى مارى المتكبرة المتمردة ، ولو ساخرة كارهة :

« لست أحاول الآن المطالبة بمساواة الجنسين ، اذ لا شك فى أن الله والطبيعة قد ألقيا بنا فى مرتبة أخط ، فنحن جزء أدنى من الخليقة ، وعلينا اطاعة الجنس الأعلى والاذعان له ، وكل امرأة تسمح لغرورها وحمقتها أن ينكرا ذلك اذا تمرد على ناموس الخالق ونظام الطبيعة الذى لا ينازع (٥٦) » .

وكانت فترة حكم البيورنات قد أنزلت المرأة عن مقامها الذى ارتقت اليه أيام اليزابيث . وحكم أحد الطلاب بأنه « حوالى عام ١٧٥٠ كانت النساء هى انجلترا قد نزلن الى مستوى منحط جديد لم يكده يفضل وضعهن فى القرن الثانى عشر (٥٧) » .

وتردت الفضائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الى الدرك الأسفل . فالقمار الذى قاومته الملكة آن من قبل رد الى الخطوة الملكية بفضل جورج الأول والثانى . وكان موظف خاص يسمى « الحاجب » منوطا بالاشراف على القمار فى البلاط الملكى . وكان لعب الورق التسلية المفضلة للأغنياء والفقراء ، ونذر أن برىء من المراهنة ، وكثيرا ما شابه الغش . ولم يكن من غير المألوف للمتبحل المتلاف من أبناء الطبقة العليا أن يكسب أو يخسر مائتى جنيه فى جلسة واحدة ، وقد خسر دوق ديفونشير ضيعته فى لعبة واحدة ؛ وكان اللورد نينسترفيلد بقامر باسئتهار فيما بين المحاضرات التى يلقيها على ابنه ، وأصبح القمار شهوة سيطرت على الناس أجمعين فى عهد جورج الأول الى درجة لعلها لم تضارع بعده . وفتحت ملاعب القمار فى نادى هوايت ، وفى تشيرنج كروس ، وفى لستر فيلدز ، وفى جولدنز سكوير ، وفى باث . وفى محفورة للمصور هوجارت سماها « رحلة الفاجر » نرى رجسالا ونساء يقامرون فى نادى هوايت ، ولا يعباون بانذار بنبتهم بأن المبنى يحترق ، فلا بد من مواصلة معركة اللعبة الى نهايتها الحاسمة* . وقد

* احترق النادى الشهير عام ١٧٣٣ ، ولكنه رمم سريعا .

حظر جورج الثانى هذا القمار المنظم ، ولكنه اعتمد يانصيب الحكومة .
الذى كان قد تقرر فى ١٥٦٩ وعمر حتى ١٨٢٦ . وكانت تذاكر اليانصيب ،
تباع للجمهور بكل وسيلة من وسائل الترويج ، واشتد الانفعال والتحمس
لها الى حد أغرى الخدم بسرقة سادتهم ، والكتابة بسرقة أرباب عملهم ،
طمعا فى نصيب من الغنيمة (٥٨) .

ولعل السكر كان أكثر انتشارا من القمار . وكانت الجعة بنوعيتها
(البيرة والمزر ale) هى الشراب الوطنى . وكان الرجل اللندنى
يستهلك مائة جالون منها فى السنة ، أو ربع جالون فى اليوم ،
باعتبارها اسلم والطف مذاقا من الماء . وخلق المناخ الرطب طلبا على
الروم ، والبنش ، والبرندى ، والجن ، والكورديال ، والوسكى ،
وكان النبيذ دواء مفضلا . وانتشرت الحانات ومخازن الخمر فى كل
مكان ، وكان ١٣٥٠ بيتا من بين ٧٠٦٦ فى أبرشية هوبورن تباع
الخمر . وأغضى ملاك الأراضي - والبرلمان اذن - عن تجارة الوسكى ،
لأنها فتحت سوقا اضافية لشعيرهم وقمحهم (٥٩) ، وكان ثلث الأرض
المزروعة فى انجلترا تقريبا يزرع شعيرا . وأخذ الوسكى يحل عذد على
القوم محل النبيذ لأن الحروب المتكررة مع فرنسا عاقت التجارة مع بورдо
وأوبورتو ، وأدخل الهولنديون والالمان الى البلاد تفضيل الخمر
القوية . وهنا ، كما فى القمار ، ضربت الحكومة المثل للشعب . فقد
روى عن هارلى ، رئيس وزراء المملكة آن ، انه كان يمثل بين يدى الملكة
مخمورا . وكان بولنبورك يسهر أحيانا الليل كله وهو يحتسي الخمر ،
أما روبرت ولبول فقد علمه السكر أبوه ، الذى عقد النية على الا يراه
مخمورا ابن له صاح (٦٠) .

وأزعج الحكومة ولع الجماهير بشراب الجن . فقد زادت الخمر
المقطرة فى بريطانيا من ٥٢٧٠٠٠ جالون فى ١٦٨٤ الى
٣٩٤٠٠٠ فى ١٧٣٥ ، دون ارتفاع مقابل فى عدد السكان ؛ لا بل
ان الاطباء أئذروا الحكومة بأن شرب الجن قد زاد معدل الوفيات
بسرعة فى لندن ؛ وعزت هيئة المحلفين الكبرى فى مدلسكس الكثير من
فقر العاصمة وجرائمها الى ذلك السكر . وعلق باعة الجن بالتجزئة
لافتات تعهدوا فيها لزبائنهم بأن يسكروهم نظير بنس ، وعرضوا عليهم
الثلوم على حصر من القش مجانا فى قبو المؤونة .

وحاول الحكام المرتاعون حظر شرب الجن بفرض الضرائب .
فقرض قانون أصدره البرلمان فى ١٧٣٦ رسماً على الجن قدره
عشرون شلناً للجالون ، واشترط دفع خمسين جنيهاً فى العام نظير
الترخيص ببيعه . وقام الفقراء الظامئون باضطرابات عنيفة . وأفضى
الحظر ، كما تنبأ ولبول ، الى تهريبه وتقطيره خفية والانجاس به
سراً . وارتفع عدد دكاكين بيع الجن الى سبعة عشر ألفاً ، وعدد
الجالونات المقطرة الى نيف وسبعة ملايين ، واستشرت الجريمة .
فتخلت الحكومة عن التجربة ، وخفض رسم الرخصة الى عشرين
جنيهاً ، والضريبة الى بنس للجالون ؛ واعتبلاً التسعير وراح يشرب
ما شاء . وفى ١٧٥١ أفضت سلسلة من التدابير المعتدلة الذكية (كجعل
الديون الصغيرة لتجار الخمر غير قابلة للإلغاء أمام القضاء) الى
تحسين خفيف (٦١) . وأثار الفيلسوف باركلى الموقف بننديده بالطبقات
العليا لما ضربوا لجماهير الشعب من مثل سيئ ، ويأذنه اياهم بأن
« أمة تشتعل عند طرفيها لابد أن تحترق سريعاً (٦٢) » .

كذلك كان المستوى المثلوى : حطاً فى ميدان المال والأعمال ،
فجنى بعضهم أموالاً طائلة من التهريب ، والقرصنة ، واقتناص العبيد
أو بيعهم . وشكا الناس من تلوث مياه التيمز بالأقذار والنفايات
التجارية والبشرية ، ومن غش النبيذ بعصير التفاح وأرواح الحبوب ،
ومن خلط الخبز بالشب ، والجير ، ومن تنضير بشره للحوم الكبيرة
السن بالكيماءات الخطرة على الصحة والحياة . فلما بذلت محاولات
للحد من هذه الأعمال تصايح أبطال التجارة مطالبين بالحرية وبحق
« كل انسان .. فى العيش على طريقته دون قيد (٦٣) » .

وتدخلت الحكومة فى الحريات ، ولكن تدخلها كان أكثره لأكراه
الرجال على الخدمات العسكرية . فلما أخفقت مختلف المرغبات المالية
فى تزويد البحرية بالرجال ، جردت الدولة (من ١٧٤٤ فصاعداً)
« كتائب تجنيد » لاقتناص الرجال أو تخديرهم ، أو لاقناعهم
بالانخراط فى سفن صاحب الجلالة . وكان أيسر هذه الوسائل أسكار
الضحية ، اذ كان فى الامكان وهو على هذه الحال أن يحمل على النزول

عن سنة أو أكثر من حياته . ذكر الاميرال فيرنون (١٧٤٦) أن هؤلاء الرجال ، بعد أن يؤتى بهم الى السفينة ، كانوا فى الواقع محكوما عليهم بالموت ، اذ لا يسمح لهم بتاتا بأن تطأ اقدامهم البرّ ثانية ، ولكنهم ينقلون من سفينة الى أخرى . دون أى اعتبار للمشايق التى يتكبدونها (٦٤) . ويقول صموئيل جونسون « لا يرضي رجل بأن يكون بحارا اذا كان له من الحيلة ما يكفى لأن يدخل نفسه السجن . فالسجين يحظى بمكان وطعام أحسن وبرفقة أفضل عادة (٦٥) » . وكان أكثر البحارة الذين يجندون كرها ضعاف الاجسام والعقول ، ولكن النظام الصارم والانتقاء القاسي بامتحان النار والجلد (كما هو موصوف ومبالغ فيه بلا شك فى قصة سموليت « رودريك راندوم ») جعل الباقيين منهم على قيد الحياة أصعب المقاتلين فى البحر مراسا وأشدّهم اعتدادا بانفسهم .

وكانت القرصنة لا تزال تلقى الاغضاء عنها بوصفها ضربا من التجارة ، ولكنها أخذت تضمحل بازدياد قوة البحريات . أما تجارة العبيد فقد زكت ، وتنافست السفن الانجليزية والفرنسية والهولندية والبرتغالية على امتياز بيع الزوج الافريقيين للمسيحيين الامريكيين . وبمقتضى معاهدة أوترخت (١٧١٣) نقلت اسبانيا عقد « الازينتو » الذى تمد بمقتضاه المستعمرات الاسبانية سنويا بـ ٤٨٠٠٠ عبد ، من فرنسا الى إنجلترا . ومن بين ٧٤٠٠٠ عبد نقلوا الى امريكا فى سنة واحدة (١٧٩٠) نقل الفرنسيون ٢٠٠٠٠ ، والهولنديون ٤٠٠٠ ، والدنمركيون ٢٠٠٠ ، والبرتغاليون ١٠٠٠٠ ، والبريطانيون ٣٨٠٠٠ - وهو أكثر من نصف المجموع (٦٦) . يقول مصدر انجليزى وثيق « ان الانجليز وحدهم ، على أقل تقدير ، حملوا أكثر من مليونى زنجا الى أمريكا فى الفترة بين ١٦٨٠ و ١٧٨٦ (٦٧) » . واقتنت بعض الأسر الانجليزية عبيدا من الزوج للخدمة فى البيوت . واشتملت الصحف على وعود بدفع مكافآت لمن يعيد العبيد الأبقين ، وعرض اعلان « صبيا زنجيا يناهز الثانية عشرة . . للبيع (٦٨) » ، وكان العبيد يباعون فى باريس حتى سنة ١٧٦٢ ، وحتى الباباوات كانوا يقتنون عبيدا من سفن تشغيل العبيد التركية من القرن السادس عشر الى الثامن عشر (٦٩) . وفى ١٧٢٧ بدأ الكويكرز حركة لانهاى مشاركة بريطانيا فى تجارة العبيد . وناصرهم ستيل وبوب ، ودعم المثلثيون هذه الحرب

الدينية ، ولكن الحملة لالغاء الرق لم تتقدم تقدما يذكر قبل ١٧٧٢ .

كانت الاخلاق فى دنيا السياسة تعكس انتصار النزعة التجارية المتحجرة . فلم يكد عمل ينجز دون رسوة ولكل موظف تقريبا ثمنه ، والمناصب تباع ، والأصوات فى البرلمان تشتري كالسلع سواء بسواء . وقد باع أعضاء البرلمان امتياز اعفاء رسائلهم من أجرة البريد ، وباع كبار النبلاء المناصب فى بيوتهم (٧٠) ، و « وضعوا العراقيل أمام محاولات الحد من شراء الترشيحات للبرلمان ، أو شراء أعضاء مجلس العموم (٧١) » . وأرسلت الدوائر الانتخابية الفاسدة أو العفنة rotten boroughs التى لا يسكنها غير حفنة من الأهالى الى البرلمان عددا من الممثلين بعدل العدد الذى أرسلته أقاليم تزرخ بالسكان والصناعة وأرسلت « أولد سارم » التى لا يسكنها انسان واحد ، ممثلين لها ، وكانت أمثال هذه الدوائر يتحكم فيها بسهولة ذوو الحساب أو المال . وكان رجال الأعمال ، توسلا لنفوذ ميساسى مكافئ لسلطانهم الاقتصادى ، يشتررون الترشيحات أو المرشحين للبرلمان بنحو ١٥٠٠ جنيه للمرشح (٧٢) . ويمكن القول على الجملة بأن نصف القرن الذى نحن بصده كان أقسى العهود فى التاريخ الانجليزى ، ومن العسير على المؤرخ أن يفسر كيف استطاعت بريطانيا أن تنهض من فساد ذلك العصر - حتى بلغت ذلك الصيت الذائع بأمانة رجال أعمالها ونزاهة حكومتها .

على أنه كان هناك الكثير من لمسات العاطفة الرحيمة يتخلل انحطاط الاخلاق والسياسة . فهناك ملاجىء - وأن كانت سيئة الادارة - للشيوخ والعجزة والفقراء ؛ وهناك طوائف حرفية كان المعلمون فيها آباء رحماء على صبيانهم ؛ وهناك أسر تؤوى الأيتام وتربيتهم ؛ وهناك جمعيات - تسمى « أندية الصندوق » - للمعونة المتبادلة فى أيام العسرة . وضربت انجلترا مثلا رائعا - هو الاول فى التاريخ الحديث - للبر الدولى حين اكتتبت بمائة ألف جنيه للبرتغال ، حليفها الاقتصادية لاغاثاة منكوبى زلزال لشبونة الذى وقع فى ١٧٥٥ (٧٣) ، وقد فتح فى الفترة بين ١٧٠٠ و ١٨٢٥ مائة وأربعة وخمسون مستشفى ومستوصف جدد فى بريطانيا ، منها أربعة فى لندن فى جيل واحد

(١٧٠٠ - ٤٥) . وكان أكثر هذه المؤسسات تموله التبرعات الخاصة .
وخير ما أسس منها فى النصف الاول من القرن الثامن عشر مستشفى
اللقطاء الذى نظمته الكبتن توماس كورام ، وقد صور هوجارث هذا
الكبتن عام ١٧٤٠ صورة أهداها الى المستشفى ، رجلا ممتلئ البدن ،
أبيض الشعر ، لطيفا ، يمسك بيمناه المرسوم الملكى ، وعند قدميه كرة
أرضية ، ذلك أن كورام جمع ثروته ضابطا فى البحرية التجارية . فلما
تقاعد هاله ارتفاع نسبة وفيات الأطفال فى لندن ، وكثرة الأطفال الذين
يلقون فى العراء أو تهجرهم أمهاتهم دون مال للعناية بهم أو اسم
أب يطلق عليهم ، وأقنع كورام بعض نساء الطبقة العليا بتوقيع ملتمس
بإنشاء مستشفى للقططاء ، وحصل من جورج الثانى على مرسوم وألفى
جنيه ، ولقى البدء الذى ناشد فيه الناس التبرع للمستشفى سخاء غير
متوقع . وتبرع هندل العظيم بأرغن وبموسيقى لحضه « المسيا »
التي عظمت قيمتها الآن ، وأدار حفلات موسيقية غلت عشرة آلاف
جنيه . وفى ١٧٣٩ عهد الأوصياء الى تيودور جاكوبسن بتصميم مجموعة
فسحة من المباني والملاعب أصبحت من أروع مشاهد لندن .

٥ - الجريمة والعقاب

كان أهل انجلترا فى القرن الثامن عشر سلاة صلبة تمرست
بالمشاق والفت العنف ، سلاة قادرة على مغالبة كل صعب عسير
الا الموت . ومن الأمثلة على هذه الصفات أن عريقين اقتتلا بغير سلاح
حتى مات كلاهما ؛ وأن رقيقين تبارزا حتى أصيب كلاهما بجراح
مميته ؛ وأن جنديا استأذن فى الزواج من احدى مومسات الجيش فعوقب
بمائة جلدة . ثم مثل فى الغد وظهره كله مشخن بالجراح أمام الضابط
نفسه وأعاد الطلب ، فأجيب اليه هذه المرة . وفاخر قارع طبل بأنه
جلد ٢٦٠٠٠ جلدة فى الاعوام الاربعة عشر التي خدم فيها الجيش ،
ثم جلد اربعة آلاف أخرى فى عام واحد (١٧٢٧) وأماق منها وهو
مبتهج . وقيل فى وصف حالته بعد قليل انه « صحيح معافى ، لا يكدره
مكدر على الإطلاق (٧٤) » .

وكانت العقوبات الوحشية التي وقعت علنا مشجعا على انتشار

الوحشية بين الشعب . مثال ذلك أن قانونا ألغى فى ١٧٩٠ كان يقضى على المرأة التى تدان بخيانة وطنها أو بقتل زوجها بالحرق حية ، ولكن العرف كان يبيح خنقها قبل أن تحرق (٧٥) . أما الرجال المدانون بخيانة الوطن فيجذبون من على المشنقة وهم بعد أحياء ، وتخرج أمعاؤهم وتحرق أمام أعينهم ، ثم تفصل رءوسهم ويقطعون أرباعا . وعلقت المشانق فى كل أحياء لندن ، وكانت الاجساد تترك على كثير منها لتتغذى عليها الطير . وقد يظل الرجل مشنوقا نصف ساعة قبل أن يموت . على أنه كان من المألوف أن تخدر بالبرندى حواس المحكوم بإعدامه ، وإذا كان الجلاذ عطوفا شد ساقيه المتدليتين ليعجل بموته .

وأضفت قسوة المتفرجين والمجرمين على منظر الشنق طابع المهرجان ، فالناس يصطفون على جانبي الطريق ليشهدوا المحكوم عليهم يركبون العربات الى تيبيرن ، وتبيع الاكشاك والباعة المتجولون الجبن والخبز المخلوط بالزنجبيل والجوز والتفاح للجمهور المحتشد ؛ وينشد المغنون الجوالون الاغاني الشعبية دون أن يجيدوا اعادة الكبتن مكبث فى « أوبرا الشحاذ » . وكانت الجماهير ، التى لم تتحمس قط للقوانين أو الشرطة ، ترفع الى مقام البطولة المجرمين الذين حالفهم التوفيق فى مغامراتهم ، أو الذين حين أمسكوا واجهوا المحاكمة والموت بالازدراء أو الابتسامات . فجاك شبرد ، و « روب روى » (وهو روبرت ما كجريجور) ، ودك تيرين ، وجوناثان وايلد - هؤلاء كلهم ترعرعوا وازدهروا فى هذه الفترة . أما جاك فقد وشي به جوناثان وايلد للشرطة بعد أن كان يمارس السرقة فى لندن أو قريبا كل يوم تقريبا ، ففر ، وقبض عليه من جديد ، ثم فر ثانية ، وقبض عليه وهو يعاقر الخمر ، وشنق وهو بعد فى الثانية والعشرين على مرأى جمهور من آلاف مؤلفه يتوقعون منه أن يهرب حتى وحبل المشنقة يطوق عنقه . وقد روى ديفو واينزورث قصته فى روايات عادت عليهما بالريح ، ورسم السير جيمس ثورنهل صورته . أما تيرين فوزع النقود على المشيعين ليسيروا خلف عربته الى المشنقة فى موكب مهيب ، ولكن ما اذاع صيته هو الرواية الخيالية التى كتبها اينزورث عن رحلة دك تيرين الشديدة الخطر على جواده من لندن الى يورك . كذلك خلد كتاب فيلدنج « حياة مستر جوناثان وايلد العظيم » ذكرى هذا الوغد على مر القرون . ومعظم

ذلك الهجو الشديد مكتوب على صورة قصص خيالية ، ولكن الخيال هنا ليس أطرف من الواقع . فقد كان لجوناثان وجهان مثل جانوس ، ينظم اللصوص ويدير شؤونهم ويستغلهم ، ويشتري بضائعهم المسروقة بالثمن الذى يفرضه ، ثم يشي بهم للقضاء اذا تمرد عليه شركاؤه . وفتح فى الوقت ذاته مكتبا لطيفا يستقبل فيه ضحايا السرقات ، وكان يعدهم لقاء مكافأة كبيرة بأن يرد لهم بضائعهم أو مالهم ، ومن حصيلة هذا كله يحتفظ بعدة خليات ويعيش فى ترف قرابة خمسة عشر عاما . ولكن ثراءه فاق حكمته ، فقبض عليه بتهمة الاتجار فى بضائع مسروقة ، وشنق ، فابتهج جمهور غفير بشنقه (١٧٢٥) . وربما كان هو المثال الذى نسج على منواله مستر بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » .

وساد العبت بالقانون المجتمع كله علوا وسفلا ، من النشال المهذب الى التاجر المهرب الى المبارز حامل لقب النبالة . وكان هناك مشات المبارزات ، جرى بعضها على قارعة الطريق ، وبعضها فى هايد بارك أو حدائق كنزنجتن ، ولكن أكثرها فى « حقل الأربعين خطوة » خلف قصر مونتاجيو (المتحف البريطانى الآن) . وندر أن كانت المبارزات قتالة ، لأن المسدسات كانت رديئة الصنع ، وقل من الرجال من استطاع تصويبها بدقة على ثلاثين خطوة ، وأغلب الظن أن كثيرا من المقاتلين حرصوا على إطلاقها فوق رأس الغريم ؛ على أية حال كان الصلح يتم عادة بعد أول جرح . وكانت المبارزات غير مشروعة ، ولكن يغضى عنها بحجة أنها تشجع على التادب فى الحديث . وندر أن اعتقل مبارز إلا فى الاصابات المميتة ، وإذا استطاع الخصم الحى أن يثبت أنه اتبع قواعد اللعبة كان يفرج عنه بعد قضائه فترة قصيرة فى السجن .

وفى سنة ١٧٥١ نشر فيلدنج ، وكان يومها قاضيا ، « تحقيقا فى أسباب الزيادة الاخيرة فى عدد اللصوص ، الخ ، مشفوعا ببعض المقترحات لعلاج هذا الشر المتفاقم » . ولم يعز الزيادة فى أكثرها الى الفقر بل الى ظهور « الترف » بين الطبقات الدنيا ؛ فعامة الشعب لديهم الآن من المال ما يتيح لهم ارتياد الحانات ، وحدائق اللهو ، والمسارح ، والمراقص التنكرية ، والاوربات ، وهناك يلتقون بأشخاص خبروا الفجور وحذقوا

الجريمة • أما السبب الثانى فى رأى الروائى العظيم فهو الزيادة فى استهلاك الجن • يقول :

« ان شراب الجن هو القوت الرئيسى (ان جاز لنا ان نسميه كذلك) لأكثر من مائة ألف شخص فى هذه العاصمة • وكثير من هؤلاء التوسعاء يترعون عدة أكواب من هذا السم خلال أربع وعشرين ساعة ، ومن سوء حظى أننى أرى وأشم أيضا كل يوم ما يخلفه هذا من آثار رهيبة (٧٦) » •

وأما السبب الثالث فهو القمار ، والرابع قصور القانون ، فقد ترك مهمة القبض على المجرمين لحراس أو خفراء :

« يختارون من بين أناس فقراء ، شيوخ ، عجرة ... يطلب اليهم وهم لا يحملون من السلاح غير عمود لا يكاد يقوى بعضهم على رفعه ، أن يؤمذوا أشخاص رعايا صاحب الجلالة ويؤتتهم من هجمات عصابات أوغاد صغار السن ، شجعان ، أشداء ، مستهترين ، مدججين بالسلاح (٧٧) » •

وحتى اذا لم يرهب الحارس عنف اللصوص ، فان فى الامكان رشوته ، وكذلك الضابط الذى يرفع اليه بلاغاته ، وكذلك القاضي الذى ياتيه الضابط بمجرم • وكانت واجبات الشرطة فى لندن موكولة الى ١٠٠٠ ضابط ، و ٤٧٤ معاون ، و ٧٤٧ حارسا • وبين القبض والادانة قام ٢٢١٤ محاميا بلندن بعضهم ذوو ثقافة قانونية ونزاهة معقولة ، وبعضهم لم يبلغوا هذا المبلغ تماما • قال الدكتور جونسون فى رجل برج الغرفة لتوه ، انه « لا يحب أن يغتاب انسانا ، ولكنه يعتقد أن الرجل محام (٧٨) » •

ولم يوافق فيلدنج على رأى كوك الذى ذهب الى أن « حكمة جميع الحكماء فى العالم ، لو اجتمعوا معا فى وقت واحد ، ما كانت لتعدل « فضائل الدستور الانجليزى • ولعله كان يسلم بأن ذلك الدستور

كما لاحظ فولتير ومونتسكيو قبيل ذلك ، دبر بطريقة تدعو الى الاعجاب حماية الفرد وممتلكاته من طغيان أى ملك ، ولعله كان يثنى على « الهابياس كوريس » ، ومحاكمة المتهمين على يد محلفين ، وعلى مدارس الحقوق العظيمة فى جميعات لندن القانونية . ولم يكن بالامر الهين حقا ان يحرم اعتقال أى شخص انجليزى دون اذن قانونى ، أو سجنه دون محاكمة ، أو عقابه دون ادانة من محلفين من نظرائه ، والا تفرض عليه ضرائب دون موافقة البرلمان ، وأن يكون فى استطاعته أن يجتمع مع زملائه شريطة ألا يخل بالنظام ، وأن من حقه أن يقول ما يشاء ، الا أن يكون ذلك تحريرا ، أو قذفا ، أو فحشا ، أو تجديفا . ولكن مشرعى انجلترا كانوا من الحرص الشديد على حماية الفرد من الدولة بحيث أخفقوا فى حماية المجتمع من الفرد . لذلك كان جهاز تنفيذ القانون ينهار أمام تفشي الجريمة وتنظيمها .

وكان يقوم على تنفيذ القانون العام قضاة صلح ، يمكن أن تستأنف قراراتهم أمام قضاة يقضون فى وستمنستر أو يسافرون ستة أشهر فى السنة ليعقدوا جلسات دورية فى مدن المقاطعات . وكان هؤلاء القضاة يتمتعون بمناصب مدى الحياة ، ويبعدون مستوى معقولا من النزاهة . وبقيت المحاكم الكنسية على قيد الحياة وإن اقتصر على نظر القضايا غير الجنائية التى يهتم فيها الكهنة فقط ، أو الفصل فى صحة الزيجات ، أو تنفيذ الوصايا . وكان لمحكمة الأميرالية اختصاص على القضايا البحرية دون غيرها . وفوق هذه المحاكم كانت تقوم المحكمة العليا التى يرأسها قاضي القضاة . أما المحكمة العليا للبلاد فهى البرلمان ذاته ، يحاكم مجلس العموم عامة الناس ومجلس اللوردات النبلاء . وكانت المساواة أمام القانون لا تزال ناقصة ، لأن النبلاء كانوا عادة ينجون من العقاب . فقد أعدم ايرل فرزر الرابع عام ١٧٦٠ لقتله وكيله ، ولكن حين حوكت دوقية كنجزتن أمام مجلس اللوردات فى ١٧٧٦ وأدين بتهمة الزواج برجلين فى وقت واحد ، أطلق سراحها دون عقاب سوى تغريمها الرسوم . وظلت اللاتينية لغة المحاكم حتى سنة ١٧٣٠ حين حلت الانجليزية محلها ، الامر الذى تالم له بلاكستن لاشد الألم .

وفى محاكمات الجنايات الكبرى (ومعظم الجنايات كانت كبرى)

كان يسمح للمتهم بأن يوكل محاميا اذا كان ميسور الحال ، وللمحامى أن يستجوب شهود الادعاء ، ولكن لم يكن مسموحا له أن يوجه خطابه الى المحكمة ، فهذا متروك للسجين ، الذى كثيرا ما كان ضعف بدنه أو عقله يعجزه عن تقديم دفاعه . فاذا برىء رد الى السجن حتى يدفع كل « البقاشيش » التى يفرضها عليه الحراس لقاء خدماتهم ، وقبل أن يلغى هذا النظام فى ١٧٧٤ كانت هناك عدة حالات لرجال ماتوا فى السجن بعد أن برئت ساحتهم . أما اذا أدين السجين فانه يواجه قانون عقوبات من أقسى ما عرف فى تاريخ القضاء .

لقد كان هذا القانون يفضل ما سبقه ، كما يفضل الاجراءات المتبعة فى القارة الاوربية ، بتحريمه التعذيب والعقاب على الدواب ، ولم يعد يجعد الانوف أو يصلم الاذان . ولكن فيما عدا ذلك كان يتسم بكل الوحشية التى كان الانجليز الشديديو المراس يومها يرونها ضرورية للسيطرة على جموح الانسان الفطرى . فاذا كانت العقوبة هى الجلد فى ذيل عربة تجر فى الشوارع ، كان منغذها أحيانا يتلقى مبلغا اضافيا ، يجمع من المتفرجين ، لكى يضاعف من شدة ضربات سوطه (٧٩) . وكان السجين الذى يرفض الاجابة فى تهمة كبرى يطرح بحكم القانون على ظهره عاريا فى حجرة مظلمة ، وتوضع اثقال من الحجر أو الحديد على صدره الى أن يعصر عصرا أو تزهق روحه (٨٠) ، على أن هذا القانون لم ينفذ بعد ١٧٢١ ، ثم ألغى فى ١٧٧٢ .

وطوال القرن الثامن عشر أضافت قوانين أصدرها البرلمان الى عدد الجرائم التى يعاقب عليها القانون بالموت . ففى ١٦٨٩ كان عددها خمسين ، وفى ١٨٢٠ ارتفع الى ١٦٠ . فالقتل ، والخيانة ، والتزيف وخرق الممتلكات عمدا ، وهتك العرض ، واللواط ، والقرصنة ، والتخريب المسلح ، والتزوير ، وتدمير السفن أو اشعال النار فيها ، والتفليس بالتدليس ، وقطع الطريق ، والسطو على المنازل ، وسرقة أكثر من أربعين شلنا ، وسرقة مبلغ من المتاجر تزيد قيمتها على خمسة شلنات ، وتشويه الماشية أو سرقتها ، وإطلاق النار على موظف الضرائب ، وقطع الاشجار فى شارع أو متنزه ، واحراق غيظ غلال ، وارسال خطابات التهديد ، واخفاء موت زوج أو طفل ، والاستراك فى

حادث شغب ، واطلاق النار على الأرانب ، وهدم بوابة طريق رئيسية والفرار من السجن ، وتدنيس المقدسات - هذه كلها ، وعشرات غيرها ، كانت تعد جرائم كبرى أيام جورج الأول والثاني والثالث . وقد عكست هذه القوانين تصميم البرلمان على حماية الملكية . وربما كانت الى حد ما النتيجة - والسبب - لما شاع بين الناس من تمرد على القانون ووحشية ولعلها أعانت على تكوين ما يتصف به الشعب البريطانى اليوم من عادات التزام القانون . وخفف من صرامة القانون رفض القضاة او المحلفين غير مرة أن يدينوا المتهمين ، أو ابطال الاتهام لخطأ فنى ، أو تحديد قيمة سلعة مسروقة تحديدا تعسفيا بأقل من المبلغ الذى يجعل المارقة جنائية كبرى . وفى وقت الحرب قد يصدر عفو عن المذنبين شريطة أن ينخرطوا فى الجيش أو البحرية .

أما عقاب الجرائم الأقل خطرا فكان السجن ، أو المشهرة ، أو الجند ، أو الأشغال الشاقة فى الإصلاحيات ، أو النفى الى المستعمرات . وقضى قانون صادر فى ١٧١٨ ببيع المسجونين المحكوم عليهم الى متعهد يشحنهم بالمراكب على نفقته الى ميريلاند و فرجينيا عموما ، وببيعهم بالمزاد عادة « الى زراع التبغ نظير قضائهم المدة المحكوم بها عليهم » وأسفر سوء حال السجناء وهم فى الطريق عن نسبة عالية من الوفيات ، وعن انهالك الباقين منهم انهاكا يعجزهم عن العمل حيناً . وقدر أحد مؤلاء المتعهدين بأنه يخسر سبع شحناته البشرية فى الرحلة المتوسطة (٨١) . ولم يقض على هذه التجارة غير حرب الاستقلال الامريكية .

وكثيرا ما كان ترحيل المذنب يفضل على سجنه ، لأن السجون كانت سيئة السمعة بسبب قسوتها وقذارتها . فقد كان السجن الجديد يكبل بمجرد دخوله بالاعلال التى تتفاوت ثقلا بتفاوت ما يدفعه للحارس . أما فراشه فمن القش . وأما طعامه فرطل من الخبز فى اليوم ، الا اذا استطاع استكماله بالهدايا من الخارج . واذا استئلفنا سجن نيويورك ، وجدنا أنه لم تبذل محاولات تذكر لتنظيف السجون . فكانت الأوساخ والجرائم تتراكم فيها فتعدى كل سجين تقريبا بما سمى «أحمى السجن» - وهى فى الغالب التيفوس أو الجدري . وذهب جونسن الى أن ٢٥% من السجناء كانوا يموتون بـ « حميات عفنة » ، وبلغ نتن العفونة والمريض مبلغا كان يحمل القضاة

والمحلفين والشهود والمتفرجين على أن ينشقوا مرارا نشقات من الكافور أو الخل أو الاعشاب العطرية لتغلب على الرائحة الخبيثة . وفى مايو ١٢٥٠ جىء بمائة سجين من نيوجيت ليحاكموا فى «. للإولد بيلى » وهى محكمة جنايات لندن الكبرى . وبلغ من خبث الحمى التى أفسوها أن أربعة قضاة من الستة الذين نظروا القضية ماتوا ، ومات من المحلفين وصغار الموظفين أربعون ، وأمرت المحكمة بعد هذا الدرس بأن يغسل جميع السجناء القادمين للمحاكمة بالخل ، وأن توضع أعشاب زكية الرائحة فى قفص المتهمين (٨٢) .

وكان الرجل الذى يقاضى بسبب الدين ، ويدان ، ويعجز عن الوفاء بدينه أو لا يرغب فى الرفاء به ، يودع مثل هذا السجن حتى يوفى الدين أو حتى يسحب دأئنه الدعوى . وكان الدائن ملزما بحكم القانون بدفع أربعة بنسات فى اليوم مساهمة فى اعاشة سجينه ، ولكنه اذا لم يفعل لم يكن أمام المدين سبيل الا مقاضاته - وهذا يكلفه مالا . على انه اذا استطاع الحصول على نقود من خارج السجن كان فى امكانه رهوة الحارس وغيره ليسمحوا له بالتمتع بفراش وطعام أفضل ، وبحريات أرحب ، وبالاتناس بزوجته ، لا بل بقضاء اجازة فى المدينة بين الحين والحين . أما المدين المفلس فقد يموت جوعا موتا بطيئا من ضالة جاريته من الخبز اذا عجز عن شراء الطعام . وقد قدر صموئيل جونسون أن خمسة آلاف سجين من كل عشرين ألف مفلس يسجنون فى السنة فى المتوسط ، يموتون من الحرمان (٨٣) . وهكذا لم تجد انجلترا وسيلة أكثر رفقا لحماية طبقة رجال الأعمال الصاعدة من الاقتراض المستهتر أو الافلاس بالتدليس .

وارتفعت بعض الاحتجاجات الخفيفة على صرامة قانون العقوبات . ولاحظ جونسون ، الذى لم يكن بالرجل العاطفى ، فى ١٧٥١ خطر اعتبار هذا العدد الغفير من الجرائم جرائم كبرى فقال : « أن تسوية السركة بالقتل . . . معناها التحريض على اقتراف جريمة أكبر منعا لاكتشاف جريمة أحقر (٨٤) » . وظهرت أقوى الانتقادات لادارة السجون فى روايات فيلدنج وسموليت وفى رسوم هوجارث . وقد لطف من قسوة هذا النظام تلطيفا متواضعا جيمس أوجلثورب ، الذى تكشف حياته العملية المنوعة النشيطة عن الجانب الأنبل لجون بول . ففى ١٧١٤ ترك الكنية وهو

فى الثامنة عشرة لينخرط فى جيش يوجين أمير سافوى ، وقاتل فى عدة معارك ضد الترك . فلما عاد الى انجلترا انتخب عضوا فى البرلمان . واذ كان له صديق سجن بسبب الدين ومات فى سجنه بالجدرى الذى أصابه فيه ، فقد أقنع مجلس العموم بتعيين لجنة - عين على رأسها - للتحقيق فى أحوال سجون لندن . وأفزع القذر والمرض والفساد والظلم الذى أمارط التحقيق اللثام عنه ضمير انجلترا لحظة . فرفت بعض الحراس الذين وجه اليهم أكثر اللوم ، وخففت بعض اللوائح الجديدة من المفاصد القديمة ، ولكن معظم المساوئ بقى على حاله ، وكان على الاصلاح الحقيقى للسجون أن ينتظر مجيء جون هوارد . والربع الأخير من القرن الثامن عشر . واتجه أوغلثورب الى الهجرة وسيلة لتخفيف وطأة الفقر فى انجلترا . ففى ١٧٣٣ أسس مستعمرة جورجيا ، وعمل فترة واليا عليها ، فحظر استيراد العبيد ، ورحب بالمورافيين ، وجون ويسلى ، واللاجئين البروتستنت من النمسا . ولما عاد الى انجلترا والبرلمان ، حصل على قانون يعفى المورافيين الانجليز من حلف اليمين أو حمل السلاح . وأصبح الصديق الحميم لجونسون ، وجولدسمث ، وبيرك ، وعمر الى التاسعة والثمانين . وتوج الشاعر بؤب هامته ببيتين قال فيهما « ان انسانا يدفعه حب الخير الشديد سيطير مثل أوغلثورب من قطب الى قطب (٨٥) » .

٦ - آداب السلوك

ظل الرجال الذين يتنزهون فى الحداثق العامة أو فى بل مل - كما كانوا أيام اليزابيث أو عودة الملكية - هم الجنس الأفخم هنادما . يرتدون - فى غير العمل أو البيت - قبعات مثلثة الأركان ممالة ، تزهو غالبا بالشراريب أو الأشرطة أو العقد ، ويعقصون غداثرهم بـ «فيونكات» جميلة خلف العنق ، أو يغطون رعوسهم بباروكة مبدرة . وكانت ستراتهم الجميلة التى تحدث حفيفا حول ركبتهم تزهو بأزرار قصد بها أن تبهر الناظر أكثر مما تربط المترة ، وكأذت الأكمام المصنوعة من القماش المقصب . الفاخر تعلن عن ثراء لابسها أو طبقته . واجتذبت صداريهم المزوقة الانظار بالوانها الفاقعة - الصفراء أو البرتقالية أو القرمزية أو القرنفلية أو الزرقاء - وتدلت منها دلالية ساعة من الذهب على سلسلة ذهبية .

وكانت قمصانهم المصنوعة من الكتان الرفيع تغطى حواشيها بأهداب تخفى ملابس داخلية من الفاتلا ، وكانوا يطوقون أعناقهم فى تانق بالاربطة (الكرافتات) المصنوعة من شاش « اللون » (وهو قماش مستورد من لاون بفرنسا) ، ويثبتون بنطلونات الركوب القصيرة بمشابك عند ركبهم ويثلاثة أزرار فى الخصر ، وثلاثة مخفة فى لسان يغطيها . أما جواربهم الطويلة فهي عادة حمراء اللون ، ولكنها قد تكون من الحرير الابيض فى المحافل الرسمية . واقتضى الزى فى ١٧٣٠ أن تكون أحذيتهم حمراء عند الاصابع والكعب . على أن فتى العصر كان برغم هذا الجهاز كله يحس أنه عريان اذا لم يتقلد سيفاً . فلما صعدت الطبقات الوسطى فى سلم المجتمع استبدلت بالسيف العصي التى كانت تتوج عادة بمعدن نفيس وتنقش نقشا بديعا ، ولكن بما أن الشوارع كانت لا تزال محفوفة بالخطر ، فإن العصا كثيرا ما احتوت سيفاً . وكانت المظلات قد دخلت الصورة فى أواخر القرن السابع عشر ، ولكنها لم تعم حتى ختام الثامن عشر . واقتضى الركوب فى الحدائق العامة أو خلال الصيد بالكلاب ارتداء أزياء خاصة طبعاً ، وقد حاول الشبان المغالون فى التانق (وكانوا يسمون المكرونى) جاهدين لفت الانظار بالاسراف فى الزينة أو التلون . وفريق آخر سمى « سلوفينز » غالوا فى الظهور بعادات رثة وثياب مهملة ، فنكثوا شعورهم بعناية متمردة وتركوا بنطلوناتهم دون ربطها بالمشابك ، وتباهوا بالوحل على أحذيتهم ، اعلنا لاستقلالهم ودليلا على أصالة التفكير .

أما النساء فكان اذا طلعن على الناس يلبسن كما نتخيلهن فى شبابنا الدهش ، حين كان جسد الانثى سرا غامضا مبهرا عزيز الرؤية . وكانت تنوراتهن الكثيرة الوبر تنفخها عادة أطواق ترفعها فى خفة من خطوة الى خطوة وتكشف كشفا خافيا عن كعوب متلاثلة واقدام رشيقة . وكانت الاطواق التى قد تمتد تسع ياردات حول الجسم سدودا ، والمشادات تروسا ، فطلبت غزوات الحب كل حماسة الفارس ينفذ الى الدروع ويتسلق الاسوار ، وكان هذا الوضع احقر لخيال الشعراء . وضاع بعض ما لشعر المرأة من بريق وبهاء فى الطبقات المقواة التى علت فوق رأسها علوا اقتضى حمايتها من أن تحرقها النريات . وأخفيت وجوه النساء وراء الغسولات والطلاعات ولصوق التجميل والمساحيق والحواجبه

المتحركة ؛ وجندت كل جواهر الشرق لتزين شعورهن وآذانهن ونحورهن وأذرعتهن وثيابهن وأحذيتهن . وكانت المرأة العصرية ، من قبعتها الشامخة وغدائرها المعطرة حتى حذائها الحريري المرصع بالاحجار الكريمة ، تلبس لتطيح بأى تردد من جانب الذكور المحققين بها . وفى عام ١٧٧٠ كانت فنون التبرج قد بلغت من السحر حدا حمل البرلمان فى نوبة مرج على اقرار قانون قصد به حماية الجنس الطائش المتهور :

« كل النساء - أيا كان عمرهن أو مقامهن أو مهنتهن أو طبقتن ، وسواء كن عذارى أو صبايا و أرامل ، اللاتي يخدعن أو يغوين أو يوقعن فى الزواج - ابتداء من هذا القانون وبعده - أى ذكر من رعايا صاحب الجلالة بالعمود أو الطلاب أو دهانات التجميل أو الاسنان الصناعية أو الشعر المستعار أو الصوف الاسبانى أو الكورسيهات الحديدية أو الأطواق أو الأحذية العالية الكعوب الخ ، يقعن تحت طائلة العقاب بمقتضى القانون الذى يطبق الآن على السحر وما أشبه من جنح ، ويصبح الزواج بمجرد ادانتهم باطلا (٨٦) » .

وحاولت القوانين المنظمة للانفاق جاهدة أن تحد من الغلو فى الانفاق على اللباس ، ولكن العرف قضى على جميع البريطانيين المخلصين بارتداء ثوب جديد فى عيد ميلاد الملكة كارولين ، التى لبست عند تتويجها ثوبا تكلف ٢٤٠٠٠ ر. ٢٤٠٠٠ جنيه - أكثرها أحجار كريمة مستعارة .

وكان البيت مكانا يستطيع المرء فيه أن يخلع كل ملبس عسير يقتضيه الظهور ، فيرتدى فيه أى شيء أو أقل القليل من الثياب . ولم تكن النوافذ معينة على الفضول لأن عددها خفضه قانون الى خمس ، وفرض على المزيد ضريبة باهتباره ترفا . وكان داخل البيوت مظلما كتما لم يصمم ليساعد على التنفس . أما الاضاءة فبالشموع ، وهى عادة لا تزيد على شمعة فى وقت واحد لكل أسرة ؛ ولكن الأغنياء كانوا ينورون غرفهم بالثريات المتألقة وبالمشاعل الزيتية . وفى قصور الموسرين كانت الجدران تجلد بخشب القرو ، والسلاسل تصنع من الخشب الضخم والدرازينات المتينة ، والمدفآت من الرخام الفاخر ، والكراسي تحشي بالشعر ، وتندج بالجلد . أما الاثاث فمصمم بالطراز

« الجورجى » الثقيل ، تنشابك فيه النقوش ويتلأل بالتغشية بالذهب .
وحوالى ١٧٢٠ أدخل خشب « المجنة » من جزر الهند الغربية ، وكان
أصلب من أن تنفذ فيه الأدوات المستعملة آنذاك ، فصنعت أدوات أحد ،
وسرعان ما أبدع الخشب الجديد أروع قطع الأثاث فى البيوت
الانجليزية .

وكانت البيوت ندفا بحرق الفحم فى المواقد و الافران المكشوفة أو
حرق الخشب فى مدفآت واسعة . وكان هواء لندن غائما بالدخان .
وأصبح تنظيف البيوت مهمة عسيرة ولكن لا مناص منها بسبب ما يتهدهدها
دائما من غبار وسناج . واعتبر الفرنسيون أعداءهم الانجليز أحفل
الشعوب بنظافة بيوتهم بعد الهولنديين . كتب نيكولا دوسوير فى ١٧٢٦
بقول :

« لا يمضي اسبوع الا والبيوت المعنى بها تغسل مرتين فى الايام السبعة
علوا وسفلا ، لا بل تدعك معظم المطابخ والسالام والمداخل كل صباح .
وينال الأثاث كله ، خصوصا آنية المطبخ جميعها ، أعظم قدر من النظافة .
وحتى المطارق الكبيرة والاقفال التى على الابواب تدعك حتى تلمع (٨٧) »

وهذا برغم غلاء الصابون وقلة الماء . أما غرف الاستحمام فكانت ترفا
لا يستمتع به غير الاقلين ، وكان أكثر الناس يستحمون بالوقوف فى حوض
ورش الماء على اجسادهم .

وكان العامة ينفقون أكثر ساعات البيت وأوقات الصحو فى المطبخ
يلوذون فيه بالموقد الكبير ، فيأكلون ويتجاذبون الأحاديث وأحيانا ينامون
فى المطابخ لأنها واسعة جدا . أما حجرات الطعام فللمناسبات الخاصة .
والغداء عند جميع الطبقات يكون بعد الظهر ، فهو عند الطبقات الوسطى فى
الساعة الثانية أو الثالثة ، وعند الأغنياء فى الخامسة أو السادسة ، فالحال
يومها هى الحال اليوم ، كلما كثر مالك طال انتظارك للغداء . وكانت النساء
فى البيوت العصرية يبرحن القاعة اذا فرغن من الطعام ، لأن الرجال يبدعون
عندها المشراب والتدخين وشرب الأنخاب وقص الحكايات . وكان الغداء
وافرا ، ولكنه كان أول ما يتناوله بريطانى المدينة من طعام بعد الفطور
وتصبيرة فى الحادية عشرة صباحا . وقد أدهش الفرنسيين مقدار الطعام

الذى ياكله الانجليزى فى جلسة واحدة . وكان معظم الطعام فى الطبقتين العليا والوسطى من اللحم ، أما الخضر فزخرف لا يؤبه به ، والبودنج الدسم هو التحلية المفضلة والشاى شراب الجميع وإن كان ثمن الرطل منه عشرة شلنات . وكان عشاء التاسعة مساء مسك الختام للجزات اليوم .

وكان أكثر الانجليز يلوذون بأمان ببيوتهم فى الليل ، ويتسلون بالحديث والشرب والشجار والقراءة والموسيقى والرقص والشطرنج والداما والبليارد والورق . قالت دوقة ملبره « بربك لا تحدثنى عن الكتب فكل ما أعرف من كتب هم الرجال والورق (٨٨) » . وكان الاساقفة والقساوسة ، وحتى الوعاظ المتزمتون من اتباع المذاهب المنشقة على الانجليكانية ، يلعبون الورق ، وكذلك الفلاسفة ، فندب أن مضي اليوم الى فراشه دون أن يلعب دورا من الهويست (وهو البردج الآن) . وفى ١٧٤٢ نسق آدموند هويل قوانين الهويست فى « رسالة موجزة » . وبعدها وجب أن تلعب اللعبة « وثق قوانين هويل » ، وذلك حتى عام ١٨٦٤ . وكانت الحيوانات البيتية الاليفة ضرورة فى الأسرة ، ولا تقتصر على الكلاب والقطط . بل قد تجد هنا وهناك نسانا أو اثنين (٨٩) . وكل امرأة تقريبا تربي الأزهار ، ولكل بيت تقريبا حديقة .

وجعلت انجلترا من تصميم الحدائق غراما قوميا ، وهى التى أغدقت عليها الطبيعة نعمة المطر حتى ضاقت به . ففى عهد تشارلز الثانى كانت الحدائق الانجليزية تنسج على منوال النماذج الفرنسية - لا سيما فرساي - ، فتصمم الحدائق « النظامية » على خطوط هندسية ، سواء المستقيمة أو المستطيلة أو نصف القطرية أو الدائرية ، وبوفر لها الأفق الجميل والمنظور الرائع (وقد دخلت هذه الألفاظ الثلاثة perspective, vista, picturesque اللغة الانجليزية فى القرن السابع عشر) ، والأشجار ومنابت الشجيرات ، والسياجات المقلمة فى خط منسق ، والتماثيل الكلاسيكية الموزعة توزيعا متناسقا . وكانت حدائق اللهو بفوكسهول ورينلاج نصم على هذا النحو ، ونستطيع ان نجد عينة من هذا الطراز النظامى اليوم فى هامتن كورت . ومع أن الطراز كان منسجما مع أدب « العصر الاوغسطى » الكلاسيكى الجديد ، فإن خير

ممثلى ذلك العصر من الأدباء ، وهما أديسون وبوب ، تمردا على الحديقة النظامية ، وألحا بأدب فى المطالبة بـ « حديقة طبيعية » ، تترك على الأقل جزءا من سحاء الطبيعة وخصبها دون تشذيب أو تهذيب ، وتولد المفاجآت البهيجة باحتفاظها بشذوذات الطبيعة غير المتوقعة . وشاركت التأثيرات الصينية فى هذا التمرد ، فحلت هياكل الباجودا محل التماثيل فى بعض الحدائق ، وبنى دوق كنت فى حدائقه بكيو بيتا لكونفوشيوس . وكامنت الحديقة الطبيعية انعكاسا لطومسن وكولنز العاطفيين أكثر من أديسون المحتشم وبوب المتائق المرتب ؛ وشاركت هذه الحديقة « شعراء الوجدان » فى سوبرانو « رومانسي » لباص كلاسيكى . واتفق بوب وطومسن فى اطراء الحدائق التى صممت على ضيعة « ستو » التى يملكها رتشرد تمبل ، فيكونت كويم . وكان تشارلز بردجمان قد بداها على تصميم نظامى ، فاعاد وليم كنت ولانسلوت « كيبابليتى » براون تشكيلها وفق نمط طبيعى ، فأصبحت حديث هواة فلاحة البساتين فى انجلترا وفرنسا ، وظفرت بثناء جان جاك روسو .

ومن وراء الحدائق انسابت النهرات يجدف فيها ركاب الزوارق ويحلم عندها هواة الصيد الكمالى باقتناص السمك ، والغابات يطلق فيها الرجال رصاصهم على الديوك البرية أو القطا أو الحجل أو الدجاج البرى ، أو يتبع فيها الصيادون ذوى الأردية القرمزية كلابهم ليلحقوا بالثعلب المحاصر فى ركن أو الأرنب البرى المرهق . أما البريطانيون الأقل يسارا فيتسلون بالكريكت والتنس والغايف (كرة اليد) والبولنج (الكرات الخشبية) وسباق الخيل ، وقتال الديكة ، وتحريش الكلاب بالدببة ، ومباريات الملاكمة - بين النساء أو بين الرجال على السواء . وكان المتكسبون بالملاكمة أمثال فج وبايير معبودى كل الطبقات ، يجتذبون الى الحلبة الحشود الكبيرة ، ويتلاكمون - الى عام ١٧٤٣ - بقبضاتهم عارية بغير قفازات ؛ ثم أدخل استعمال قفازات الملاكمة ، ولكن سنين كثيرة انقضت قبل أن يغير المتفرجون رأيهم فيها ، وهى أنها ليست سوى وسيلة مخنفة لا تليق بجون بول . وكان من الملاحى التى أعلن عنها فى لندن فى ١٧٢٩ - ٣٠

« ثور هائج ترشق فيه الصواريخ ويطلق حرا » فى حلبة ، و « كلب ترشق فيه الصواريخ من فوقه ، ودب يطلق فى الوقت ذاته ، وقط يربط الى ذيل الثور (٩٠) » . وفى لعبة سموها « قذف الديوك » كان ديك يربط الى عمود ، ثم يقذف بالعصي من بعيد حتى يموت . وكانت أحب مباريات الديكة الى الشعب تلك التى تطلق فيها مجموعة منها تصل الى ستة عشر ديكا على مجموعة أخرى معادلة حتى يقتل كل الديكة فى أحد الجانبين ، ثم تقسم الديكة المنتصرة الى معسكرين متقاتلين ، يقتتلان حتى يغنى جميع الديكة فى أحدهما ، وهكذا دواليك حتى يموت الجميع الا ديكا واحدا . وكانت الاقاليم والمدن والقرى تحرش ديوكها بعضها ببعض بوطنية رفيعة ، وقد أطرى كاتب لطيف هذه الرياضات باعتبارها معادلا اخلاقيا للحرب (٩١) . وكانت كل الرياضات تقريبا تشفع بالمراهنات .

اما الذين لم ترقهم هذه المناظر فكان فى وسعهم أن يلتصوا التسلية فى فوكسهول أو رينلاج ، وفى حدائقهما الظليلة يستطيعون لقاء شلن أن يستمتعوا بما تستعره الجماهير من دعة وأمان شريطة أن يحرصوا على جيوبهم ، هناك يستطيعون أن يرقصوا أو يشاركوا فى الحفلات التنكرية ، ويجلسوا تحت أغصان مضاة بالمصابيح ، أو يرشفوا الشاي ويرقبوا سيدات المجتمع وفتيات العصر ونجوم المسرح العساكرين بهم ، ويتطلعوا الى الصواريخ النارية أو الألعاب البهلوانية ، ويستمتعوا الى الموسيقى الشعبية ، ويتناولوا الطعام فى أبهة رسمية ، أو يلتصوا المغامرات فى أزقة العشاق المتوارية عن الانظار فى شكر وعرفان . وفى رينلاج ، تحت سقف قاعة « الروتندا » الكبرى ، كانوا يستطيعون أن يرقوا بأنفسهم الى موسيقى أسمى فى وسط قوم من طبقة أوجه . كتب هوراس ولبول فى ١٧٤٤ يقول « فى كل ليلة أذهب الى رينلاج التى هزمت فوكسهول هزيمة ساحقة ، فما من انسان يذهب الى غيرها ، وكل الناس يذهبون هناك (٩٢) » . وكانت فوكسهول ورينلاج تغلقان أبوابهما شتاء ، ولكن الانهار قد تتجمد ، وهنا تزدهر رياضات الشتاء . وحدث فى عيد ميلاد ١٧٣٩ أن تجمدت الانهار حتى التيمز ، وأبدى اللندنيون روحهم العالية بتنظيم كرنفال من الرقص والاكل على الجليد ، واستمتع بعضهم بنشوة ركوب العربات على النهر من لامبت الى كوبرى لندن (٩٣) . وأخيرا كان هناك المهرجانات الكبيرة حيث يلتقى المرم

بكل العالم من غير أصحاب الالقاب ، ويستمتع بشتى المشاهد من صندوق الدنيا الى الرجال الطائرين .

أما آداب السلوك ، فأننا اذا استثنينا بعض النساء المثقفات ، وجدنا فيها الخشونة وفحش الكلام . وسيرينا المصور هوجارث حياة العامة ، ولكنه لن يرينا حديثهم . فالعاهرات ، والفساق ، وسائقو عربات الجر ، والمراكبية ، والجنود والبحارة ، كلهم كانوا أساتذة فى اللعن وفحش القول ، وقد خلد باعة السمك فى بلنجزيت (واللفظ معناه لغة السوق) ذكرى سوقهم ببذاعتهم التى لا مثيل لها . وكان الحديث فى الفنادق والحانات أقل مرحا ولكنه متحرر الى حد البذاءة وكان الرجال حتى فى بيوتهم يروعون النساء بقصصهم وسبابهم وأنخابهم . ولم تكن السيدات أنفسهن يترفعن عن الشتيمة العنيفة أو يتورعن عن المقباحة المرحه .

أما فى مشارب القهوة والأندية فاللغة أكثر تهذيبا . وقد كتب ستيل وسويفت وفيلدنج وكوبر وجونسن عن الحديث ، بوصفه فنا مهذبا . وفى وسعنا أن نتصور الرجال فى اجتماعاتهم التى يحرصون على اقضاء النساء عنها ، يرشفون قهوتهم أو جعتهم ، ويترعون خمرهم ، ويدخنون بيباتهم ، ويتجادلون حول المناقشات البرلمانية ، وحول شراء روبرت ولبول للأصوات ، والسياسة المنكرة التى ينتهجها

اولئك « الكلاب الفرنسيون » وراء المانش . وكان الضحك عميقا فى البطون ، عاليا فى الحناجر ، رغم مناشدات الأخلاقيين أمثال شافيتسبرى وغيرهم ممن لا نزعة أخلاقية تميزهم مثل تشسترفيلد ، بوجوب ترك الضحك للوضعاء ، وبأن يخفف حتى يصل الى مجرد الابتسامة (٩٤) . أما تعاطى النشوق أو السعوط ، الذى ورد ذكره أول مرة فى ١٥٨٩ ، فكان قد بات شعيرة مرعية عند الجنسين ، وقد ظن القوم أن للنشوق (وهو المتبغ المسحوق) قيمة دوائية كالقهوة ، فالعطس الذى يحدثه يطهر المسالك الأنفية ، ويشفى من الصداع ، والبرد ، والصمم ، والخمول ، ويجهدى الأعصاب ، ويصلح الدماغ . ولم ير شخص ، رجلا كان أو امرأة كامل الهندام بغير علبة النشوق ، وعلى تلك الحاشية الملحقة

بصاحبها (أى العلبة) أفرغ الصائغ والجواهرى ، وصانع المينا ،
ورسام المنمنمات ، أرق ما جاد به فنههم .

وكانت مشارب القهوة الثلاثمائة فى لندن مراكز للقراءة كما كانت
منتديات للسمر . فقد اشتركت فى الجرائد والمجلات ، وأدارتها على
زبائنها ، ووفرت الأقلام والورق والحبر ، وتسلمت الخطابات لارسالها
بالبريد ، وقبلت أن تحفظ البريد المرسل الى عناوينها . وتطورت بعض
مشارب القهوة أو الكاكاو ، مثل مشرب هوايت ، فى هذه الفترة الى
أندية خاصة يطمئن الرجال الى أن يجدوا فيها الصحبة التى يؤثرونها
على غيرها ، ويستطيعون أن يلعبوا القمار بمنأى عن عيون الرقباء .
وما اختتم القرن الثامن عشر حتى كان عدد الأندية ممثلا لما كان عليه
عدد مشارب القهوة فى بدايته . ويبدو أن الماسون (البنائين الأحرار)
بدأوا تاريخهم الانجليزى على هيئة ناد سموه « المحفل الكبير » - نظم
بلندن فى ١٧١٧ . وشجعت الأندية الشرب والقمار والدس السياسى ،
ولكنها علمت الرجال على الأقل نصف فن الحديث . أما النصف الآخر
من هذا الفن فكان مفقودا ، لأن الأندية كانت خلوات للعزاب ، ولم يجد
الأدب الأرفع والفكاهة الأرق اللذان يتطلبهما وجود النساء ما يحفزهما
هناك . فلقد كانت انجلترا بلد الرجال ، أما النساء فلم يكن لهن فى
حياتها الثقافية الا حظ ضئيل ، ولم يكن بها صالونات ، فلما حاولت
الليدى مارى مونتاجيو أن تقيم صالونا نظر القوم اليها كأنها مخلوق غريب
الاطوار لا يعرف أين مكانه (٩٥) .

واستطاعت النساء فى الطبقات العليا أن يستخدمن مهاراتهن فى
الاستقبالات ، والمراقص ، وحفلات الموسيقى فى البلاط أو فى بيوتهن .
وكانت نهاية الأسبوع فى بيوت الريف حدثا جميلا فى الحياة الانجليزية
لا يكدره بعض الشيء غير تلك « المبقاشيش » الكبيرة التى ينتظر الخدم
أن ينفتحوا بها ، وكان على المضيف وهو يغادر البيت أن يغامر بالمرور
وسط الاتباع ، والسقاة ، والخدم ، والقهرمانات ، والبسوابين ،
والخادومات ، والطباخين وغيرهم من الخدم والحشم يقفون فى صفين
عند الباب ، فى حين ينتظر سائق المركبة وسائس الخيل خارجا فى
عبوس وتجهم . وما ذاع عن ولاء الخدم البريطانيين لسادتهم لم يكن

له كبير سند من الواقع فى النصف الاول من القرن الثامن عشر ، فقد كانوا فى كثير من الحالات عديمى المبالاة ، وقحين ، متمردين ، لا يترددون فى التنقل من بيت الى بيت لقاء أجر أفضل . وكان كثير منهم يسرقون رب البيت وربته والضيوف اذا استطاعوا ، ويشربون خمر مولاهم ، وتلبس الخادמות حلى سيداتهن أو ملابسهن .

وكانت قمة انتماء شخص ما الى المجتمع العصرى ، بعد أن يقبل فى البلاط الملكى ، أن يلم بمنتجع للمياه المعدنية ، يشرب فيه المياه الطبية ، أو يستحم مع صفوة القوم بعيدا عن البحر المختلط . واشتهرت تنبرج بينابيعها ، ولكن روادها كانوا اخلاطا . أما عيون ابسوم فكانت تقدم لروادها الموسيقى ، ورقصات المريسة ، والكلاب المؤدية للالعاب ، والمياه المسهلة وان لم تجمع بعد معادنها فى « أملاح ابسوم » . ولم يكن الاستحمام فى البحر رياضة محببة ، وان لحظ تشستر فيلد شيئا منه فى سكاربرو ، ولكن فى ١٧٥٣ تدفقت الى البحر موجة بشرية بفضل كتاب الدكتور رتشرد رسل « فى سل الغدد وفائدة مياه البحر فى أمراض الغدد » ، وتفتحت قرى ساحلية مثل برايتون لتزدهر منتجعات للاستحمام ، مع أنها لم تعرف من قبل غير أمر صيادى السمك المتواضعة .

أما الأرستقراطيون ففضلوا مدينة باث . فهناك ، وسط أرقى البريطانيين من ذوى الأرقام ، يشرب الرواد - ويستحمون فى مياه خبيثة الرائحة موصوفة لشفاء أوصاب من اتخموا بالغذاء الطيب . وكانت مدينة الينابيع الصغيرة قد فتحت أول غرفة ذات مضخة فى ١٧٠٤ ، وأول مسارحها فى ١٧٠٧ ، وبعد عام أول « غرف اجتماعاتها » التى نوهت بها قصص فيلدينج وسموليث . وفى ١٧٥٥ اكتشف الحمام الرومانى الكبير . وأعاد جون وود وابنه بناء المدينة بالطراز الكلاسيكى كما سئرى . وفى ١٧٠٥ ، أصبح ناش « الجميل » ، وكان محاميا ومقامرا ، دكتاتور حياتها الاجتماعية . فحظر السيوف فى ماكن اللهو العامة ، ووفق فى أن يجعل المبارزات - فى باث - عملا ضارا بالسمعة . وأقنع الرجال بأن يلبسوا الأحذية المكشوفة بدلا من الطويلة . وكان جى ذاته يلبس قبعة بيضاء هائلة ، ومترة كثيرة الوشي

غنية التطريز ، ويركب عربة تجرها ستة خيول يتحتم أن تكون شهياء ،
ويعلن عن قدومه بنفير فرنسي مرح . وقد أصلح من شأن الطرق
والمباني ، وخطط الحدائق الجميلة ، ووفر الموسيقى ، وسحر الجميع
إلا قلة منهم بلطفه وظرفه . وتوافد نبلاء الانجليز على مملكته ، لأنه
وفر لهم موائد القمار كما وفر الحمامات ، فلما سنت قوانين تحرم القمار
ابتكر ألعاب حظ جديدة تتفادى القوانين . وأخيرا وفد على باث جورج
الثاني ، والملكة كارولين ، والأمير فردريك لويس ، وغدت باث حينها
بلاطا ثانيا . ولا ريب في أن إيرل تشستر فيلد الذي كان يعشق المدينة
كان مطبقا على صفوتها ذلك الوصف الذي وصف به جميع البلاطات
بقوله أنها أماكن « يجب أن تتوقع أنك ستلتقي فيها بارتباطات دون
صداقة ، وعداوات دون ضغينة ، ونباله دون فضيلة ، ومظاهر تنقذ
وحقائق تضحي » ؛ آداب حسنة مشفوعة باخلاق سيئة ، وكل الرذائل
والفضائل مقنعة ، حتى أن كل من كان يميز بينها بعقله فقط لن يتبين
الواحدة من الأخرى حين يلقاها أول مرة في البلاط (١٦) .

٧ - تشستر فيلد

فلننق نصف ساعة مع هذا النبيل المرفه الحس . فقد تمثلت فيه
خصائص ارسقراطية العصر الانجليزية ، اللهم إلا تاليفه كتابا حسنا .
ذلك أن هذا الكتاب « رسائل لولده » ، الذي درج الناس على الغض
من قدره ، هو خزانة من الحكمة في نثر مشرق ، ومرشد محكم لعادات
طبقت ومثلها العليا ، وإعلان جذاب عن ذكاء مرفه مهذب .

كان اسمه بالعماد (١٦٩٤) فليب دورمر ستانهوب ، بن فليب
ستانهوب ، إيرل تشستر فيلد الثالث ، والليدي اليزابث سافيل ، ابنة
جورج سافيل ، مركز هاليفاكس ، المسافر الماكر للعهود الملكية
السابقة . ماتت أمه في طفولته ، وأهمله أبوه ، فكفلته مركيزة
هاليفاكس . وحذق تعلم الكلاسيكيات واللغة الفرنسية على يد معلم
خاص ، فأصبحت ثقافته روما وفرنسا أبان نضجهما جزما من عقله .
وأنفق سنة في كمبردج ، ثم انطلق في ١٧١٤ في الرحلة الكبرى . وفي
لاهاي قامر بمبالغ كبيرة ، وفي باريس جرب عيئات من النساء تجرئة

الفاسق الذواق للنساء ، ومن باريس كتب (٧ ديسمبر ١٧١٤) يقول :
« لن أبدى لك رأيي في الفرنسيين ، فكثيرا جدا ما يخالني الناس
واحدا منهم ، وقد حياني العديدون منهم بأسمى تحية يمكن - في
اعتقادهم - أن يحيوا بها انسانا ، وهي : « سيدى ، انك على شاكلتنا
تماما » حسبى أن أقول اننى وقح ، كثير الكلام ، على الصوت ،
أمر ناه ، أغنى وأرقص أثناء سيرى ، وأهم من هذا كله اننى أنفق مبلغا
باهظا على شعرى ، ومساحيقى ، وريشى ، وقفازى الأبيض (٩٧) » .

فلما عاد الى انجلترا عين وصيفا لمخدع أمير ويلز وقتها (الذى
أصبح جورج الثانى) . وكان جيمس ستانهورب ، الوزير الاثير لدى
جورج الاول ، قريبا لفليب . وعثر له على دائرة يمثلها في البرلمان ،
فظل أحد عشر عاما عضوا من أعضاء حزب الأحرار في مجلس العموم .
فلما أصبح إيرل تشستر فيلد الرابع بعد موت أبيه (١٧٢٦) نقل الى
مجلس اللوردات ، الذى قال في وصفه فيما بعد انه « مجلس ذوى
الأمراض المستعصية » . وحين أوفد الى لاهاي سفيرا (١٧٢٨) قام
بمهمته خير قيام ، فخلع عليه وسام رتبة ساق الفروسية وعين وكيلا
أكبر للبيت الملكى . وفى ١٧٣٢ أنجبت له خلية تدعى الآنسة بوشيه
ولدا هو فليب ستانهورب ، الذى وجهت اليه فيما بعد « الرسائل » التى
كتبها أبوه . وبعد عام تزوج الكونتيسة ولزنجهام ، ابنة جورج الاول
غير الشرعية من دوقة كندال . ولعله توقع أن تأتيه بمهر ملكى ،
ولكنها لم تفعل ، فكان زواجا شقيا شقاء أرستقراطيا .

وكان من الجائز أن يرتقى الى منصب أرفع لولا معارضته مشروع
قانون لولبول بفرض ضريبة انتاج على التبغ والنببذ . وقد عاون على
هزيمة القانون ، وما لبث أن طرد من الحكومة (١٧٣٣) . وكافح
ليسقط ولبول ، وضيع صحته ، واعتكف في القارة (١٧٤١) ، وزار
فولتير في بروكسل ، واختلط بفونتنيل ومونتسكيو في باريس . فلما
قفل الى انجلترا واصل سياسة المعارضة للحكومة . وقد أبهجت المقالات
التي كتبها تحت اسم « جفرى برودبوتوم » لصحيفة جديدة تدعى
« انجلترا القديمة » سارة ، دوقة ملبره ، فاوصت له بعشرين ألف جنيه .
وفى ١٧٤٤ فاز حزبه ، حزب « البرود بوتوم » (الأحرار) . وانضم

الى بلام فى الوزارة ، ووافد الى لاهاي ليقنع الهولنديين بالانضمام الى انجلترا فى حرب الوراثة النمساوية . فادى المهمة بلباقة وحذق ، ورقى الى منصب نائب الملك فى ايرلنده (١٧٤٥) وكانت السنة الوحيدة التى قضها فى ايرلنده أنجح منى حياته . فقد أنشأ المدارس والصناعات وطهر الحكومة من الفساد والرشوة ، وصرف شئون الحكم بكفاية ونزاهة . وأنهى اضطهاد الكاثوليك ، ورقى العديدين منهم الى مناصب الحكومة وبلغ من اكتسابه احترام السكان الكاثوليك له أنهم حين غزا المطالب الشاب بالعرش الانجليزى انجلترا من اسكتلنده ، وتوقعت انجلترا ثورة فى ايرلنده تنشب فى الوقت ذاته ، رفضوا أن يثوروا على تشترفيلد .

ورد الى انجلترا وزيرا (١٧٤٦) . ولكن أستاذ الرفذ واللباقة اقترف غلطة مدمرة . ذلك أنه تودد الى خليطة الملك لا الى الملكة ، فنجحت كارولين فى تدبير سقوطه . وفى ١٧٤٨ طلق الحياة العامة ، وانكفا كما قال الى « حصانى ، وكتبى ، وأصحابى (٩٨) » وعرض عليه جورج الثانى لقب الدوقية ، ولكنه رفضه . وفى ١٧٥١ قاد حركة تبلى التقويم الجويجورى ، وتحمل وطأة استياء الشعب من « السرقة البابوية » لأحد عشر يوما من الشعب الانجليزى . وفى ١٧٥٥ سلب عليه جونسن ناره بمناسبة اهداء المعجم الذى ألفه ، وسنلقى نظرة على هذه المعركة الصاخبة فى موضع لاحق .

وكان خلال ذلك يكتب الرسائل لولده منذ ١٧٣٧ . وينم حبه لهذه الثمرة الجاذبية لمسفارته الأولى فى هولنده على الحنان الذى أخفاه عن الجماهير خلال أكثر حياته . قال للفتى : « منذ رأت عيناك نور الحياة أصبح شغلى الشاغل ، المحبب الى نفسى ، أن أجعلك أكمل ما يسمح به قصور الطبيعة البشرية (٩٩) » . وقد خطط لتعليم فليب ، لا ليحمله مسيحيا مثاليا ، بل ليعده للسياسة والدبلوماسية . وبدأ واللام فى الخامسة بخطابات عن الأساطير الكلاسيكية والتاريخ القديم . وبعد عامين راح يعزف النغمة التى لن يفتا يلح عليها فى رسائله . يقول :

« فى خطابى الأخير كتبت لك عن أدب المجتمع العصرى ،

كاولئك الذين ألفوا ارتياد القصور ، وهم القطاع الانيق من النوع الانسانى . وأدبهم عفوى طبيعى ، وعليك أن تميز بينه وبين تادب الدهماء والريفيين ، وهو تادب مقيّد أو مزعج دائما . فالرجل المهذب يبدى رغبة دائمة فى أن يسر من يتحدث اليه ، ويحرص على ألا تكون تحياته مزعجة . وقل من الانجليز من يتصفون بالأدب الكامل فهم اما خجلون واما وقحون ، فى حين تجد معظم الفرنسيين طبيعيين مؤدبين فى سلوكهم . وبما أنك بحكم النصف الأفضل فرنسي صغير ، فانى أرجو أن تكون على الأقل « نصف » مهذب . وستكون أميز وأبرز فى بلد ليس الأدب فيه فضيلة غالية (١٠٠) » .

وعليه فحين بلغ فليب الرابعة عشرة أرسله أبوه الى باريس باعتبارها المدرسة التى تنهى صقل عاداته وان كان عليما بأنها ستنتهى فضائله أيضا . وكان على الفتى أن يتعلم أساليب الحياة أن أراد أن ينفع حكومته . والدراسة المناسبة لرجل الدولة هى دراسة الانسان ، فبعد أن علم الوالد ولده العلوم الكلاسيكية وفنون الأدب عن طريق المعلمين الخصوصيين والرسائل ، رده الايرل - الذى كان خبيرا بهذه العلوم والفنون - من الكتب الى البشر . قال :

« يا صديقى العزيز ، ان قلة قليلة من المفاوضين المشهورين هم الذين برزوا بفضل علمهم . . . فدوق ملبرة الراحل ، الذى كانت كفايته مفاوضا تعدل على الأقل كفايته قائدا حربيا ، كان جاهلا جهلا مطبقا بالكتب ، ولكنه كان خبيرا بالرجال ، فى حين ظهر ان جروتوس العلامة كان وزيرا خائبا غاية الخيبة ، سواء فى السويد أو فى فرنسا (١٠١) » .

فاذا شاء فليب أن يلتحق بالحكومة فينبغى له أولا أن يدرس الطبقات الحاكمة ، بيئتهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، وغاياتهم ، ووسائلهم ؛ والا يقرأ غير أجود الأدب ليكتسب أسلوبا حسنا فى الكتابة ، لأن هذا أيضا جزء من فن الحكم ؛ وأن يلم بالموسيقى والفنون ، ولكن ، حذار أن يتطلع لأن يكون مؤلفا أو موسيقيا (١٠٢) . وينبغى له أن يدرس بعناية تاريخ الدول الأوروبية الحديث ، ملوكها ووزرائها ، قوانينها ودساتيرها ، مائلاتها ودبلوماسيتها ، وليقرأ ما كتبه لاروشفوكو ولابروير

عن طبائع البشر ، انهما حقا « كلبان » ، ولكنك لن تخطيء خطأ كبيرا ، فى السيامة على الأقل ، ان اذت توقعت من كل انسان ان يسعى لتحقيق مصلحته كما يراها ، ولنسئ الظن باى سياسي يتظاهر بغير هذا . ولا نتوقع من الناس ان يكونوا معقولين ، بل خذ فى حسابك أهواءهم . « ان أهواءنا هى خيلياتنا ، أما العقل فهو الحيلة على أحسن تقدير ، 'يسمع كثيرا جدا بلا ريب ، ولكن نادرا ما يعبا به (١٠٣) » تعلم ان تتملق ، لأنه لا يمتنع على الملق سوى أحكم الحكماء وأقدس القديسين ، ولكن كلما صعدت وجب أن يكون تملقك أرهف وأحوط . وأدرس اسباب اهم الامر ، لان البشر أكثر افتخارا بانسابهم منهم بفضائلهم (١٠٤) ، وتودد للنساء ، أولا لتحصل على معونتتهن ، فحتى الحكام الأقوياء يتاثرون بالنساء الضعيفات ، لا سيما اذا لم يكن أزواجهن .

أما فى مسائل الجنس ، فان نصيحة تشسترفيلد لولده أضحكت الفرنسيين وروعت الانجليز . فقد ذهب الى أن طرفا من العلاقات الغرامية الحرام اعداد ممتاز للزواج والضحك . واكتفى بالاصرار على أن تكون خيليات فليب نساء مهذبات ، حتى يصقلنه وهن يائمن معه . وزكى له مدام دوبان لما كانت عليه من « حسن التربية ورقة الطبع (١٠٥) » ولقن ابنه فن الاغواء . فعليه الا يقبل أى تمنع وهو مستسلم ، لان :

« أكثر النساء فضيلة لن يسوءها أن يبوح لها رجل بحبه ، بل ان ذلك يشبع غرورها شريطة أن يكون بأسلوب مؤدب لطيف . فاذا استمعت اليك ، وسمحت لك أن تفصح ثانية عن حبك ، فثق أنك ان لم تغامر بالباقي كله سخرت منك . فاذا لم تلق منها أذنا مصغية فحاول ثانية ، وثالثة ، ورابعة . وثق ، اذا لم يكن المكان قد احتل من قبل ، أن فى الامكان غزوه (١٠٦) » .

ثم أفضي الايرل ، الذى لم يكن محظوظا فى الزواج ولا مولعا به ، الى ولده برأيه فى النساء ، وهو رأى لم يكن بالحسن جدا :

« فى هذا الموضوع سأفصي اليك ببعض الامرار التى سيفيدك جدا ان تلم بها ، ولكن عليك أن تحرص أشد الحرص على اخفائها وعلى ألا تبدو

ملما بها . فاعلم اذن أن النساء ما هن الا اطفال كبار ، فيهن ثرثرة مملية ، وأحيانا ذكاء ، أما من حيث التفكير الرصين والادراك السليم ، فمما عرفت فى حياتى امرأة أتيح لها هذان ، أو فكرت أو تصرفت منطقيا ولو أربعا وعشرين ساعة كاملة . . والرجل الفطن انما يلهو بهن ، ويلعب معهن ، ويلطفهن ، ويتملقهن . . ولكنه لا يستشيرهن أبدا فى الخطير من الأمور ولا ياتمنهن عليها وان موته عليهن كثيرا بأنه يفعل الاثنين ، وهو أشد ما يفخرن به فى هذه الدنيا ، لأنهن ولوعات بالتسلى بالتجارة (التى يفسدنها دائما) . . وليس هناك ملق يرينه فوق ما يستأهلن أو دونه ، انهن يبتلعن أبلغ الملق فى شراة ، ويقبلن أقله فى شكر وعرفان ، وفى وسعك أن تتملق أى امرأة مطمئنا ، بادئا بقوة ذكائها ومنتھيا بذوق مروحتها الرفيع . وخير ما تتملق به النساء الجميلات والقبيلات جمالا أو قبحا غير منازع هو الاشادة بذكائهن (١٠٧) .

وقال الايرل أن النساء فى فرنسا يجب تملقهن فى ماثرة وكياسة لسببين : فان فى استطاعتهن أن يقررن مصير الرجل فى بلاط الملك ، وأن يضمنه لطائف الحياة وفنونها . فالنساء يحتفظن بسحرهن برشاقة الحركة والسلوك والحديث لا بجمالهن ، فالجمال بغير الرشاقة لا يجتذب الرجل ، وأما الرشاقة بغير الجمال فما زالت لها القدرة على الفتنة . « ان النساء هن المهذب الاوحد لكفاية الرجال . صحيح أنهن لا يستطعن اضافة وزن لها ، ولكنهن يصقلنها ويضيفن عليها بريقا (١٠٨) » . وحذر الايرل ولده من الكلام بسوء عن النساء ، فهذا امر مبتذل ، سوقي ، أحق ، ظالم ، لأن النساء اقترفن فى هذه الدنيا من الأذى أقل كثيرا مما اقترفه الرجال . ثم انه ليس من الحكمة أبدا مهاجمة « فئات بجملتها » أو طبقات أو جماعات ، « فقد يصفح الأفراد ، أما الهيئات والجماعات فلا (١٠٩) » .

ولم يمل تشسترفيلد من تلقين ولده أصول السلوك المهذب . « فالعادات المهذبة هى الوسيط الثابت المستقر للحياة الاقتصادية ، كما أن نوع السلعة هو الوسيط المقرر فى دنيا التجارة . والناس يتوقعون عائدا فى الحالين على السواء ، وهم لا يقدمون احترامهم لانسان فظ ، أكثر مما يقرضون ماله لانسان مفلس (١١٠) » .

ومما يعين فى هذا المجال أستاذ رقص قدير ، فهو يعلمنا على الأقل كيف نقعد ، أو نقوم ، أو نمشي دون تبديد فى الجهد والطاقة .
واذ كان الايرل أرسقراطيا ، فقد سمى السلوك المهذب « تربية طيبة » ، فلقد تبين دون وعى منه ، وربما محقا ، كيف يصعب على انسان اكتساب العادات المهذبة دون أن يكون قد ربى فى أسرة وتحرك فى محيط لهما هذه العادات . « ان من سمات الرجل الطيب النشأة ان يتحدث الى من هم أدنى منه دون صلف ، والى من هم أعلى منه باحترام ويسر (١١١) » فعلى المرء الا يستغل علوا فى المقام جاء وليد الصدفه .

« لا تستطيع أن تحسب ، وأنا واثق أنك لا تحسب ، أنك أرقى بحكم الطبيعة من ذلك السافواوى الذى ينظف حجرتك ، أو الخادم الذى ينظف حذاءك ، ولكن لك أن تغتبط ، وبحق ، لما حبسك به الحظ دون غيرك . فاستمتع بتلك المزايا ، ولكن دون اهانة أولئك الذين قضى المقدر بحرمانهم منها ، أو حتى الاتيان دون موجب بأى عمل قد يذكرهم بذلك الحرمان . وأقول لك عن نفسي اننى أشد حرصا على سلوكى نحو خدمى وغيرهم ممن يدعون أدنى منى ، منى نحو نظرائى ، مخافة ان ألهم بتلك العاطفة القبيحة الوضيعة ، وهى الرغبة فى اشعار غيرى بذلك الفارق الذى أوجده الحظ بيننا ، ربما دون استحقاق على الاطلاق (١١٢) » .

والسلوك المهذب يصدق على العقل كما يصدق على الجسم ، وكلا النوعين يتأثر بعشرائنا .

« هناك نوعان من الخلطاء المهذبين ، الأول وهو المسمى المجتمع الراقى "beau monde" ، وهم اصحاب الصدارة فى قصور الملوك وفى الجوانب المرحه من الحياة ، والثانى هم أولئك الذين يتميزون بكفاية خاصة ، أو يتفوقون فى فن أو علم خاص عظيم القدر . أما عن نفسي ففقدت الفث أن أرانى وأنا جالس الى (الكاتب) أديسون أو (الشاعر) بوب فى صحبة اشخاص يعلنون عنى علو جميع ملوك اوربا وأمرائها لو جلست اليهم (١١٣) » .

ومن الحكمة أن يسلك المرء فى كلتا الصحبتين بشيء من التحفظ ،
فلا يسرف فى الكلام ولا يغالى فى الصراحة ، وأن يكون « من الحذق
بحيث يخفى حقيقة دون أن يكذب » ، وأن يبدو صريحا وهو
متحفظ :

« تظاهر بأنك مرتاب حتى حيث تكون على يقين من الأمر ...
وأن شئت أن تقنع غيرك فليبد عليك استعدادك للاقتناع . وأودع علمك
كما تودع ساعتك جييا خاصا فلا تبرزه .. لمجرد الاعلان عن
نفسك (١١٤) . وهم من هذا كله ، احذر الحديث عن نفسك
ما استطعت (١١٥) .

« وأمسك عن الحديث فى الدين ، فلو أنك أطريته لابتسم أصحاب
الثقافة والحكمة ، ولو ذمته لحزن الشيوخ الناضجون . وسوف يفيدك
أن تقرأ توارىخ فولتير ، ولكن احترس من جماعة « الفلاسفة » الذين
يهاجمون الدين .

« لا يبد عليك أنك توافق على تلك الافكار الاباحية التى تهاجم
الاديان على السواء ، أو أنك تشجعها أو تصفق لها ، والتى هى الحديث
الحقير المهلهل الذى يخوض فيه أنصاف العقلاء وصغار الفلاسفة .
وحتى أولئك الذين بهم من الحمق ما يجعلهم يضحكون على نكاتهم ،
لهم وزعم ذلك من الحكمة ما يشككهم ويبغضهم فى أخلاقهم ، ذلك أننا
حتى لو وضعنا الفضائل الخلقية فى أسمى مكان لها ، والدين فى أدناه ،
فلا بد رغم ذلك من أن نعترف للدين بأنه ضمان اضافى على الأقل
للفضيلة ، وكل انسان حصيف يؤثر الركون الى ضمانين خيرا من
ضمان واحد . لذلك فإينما اتفق وجودك فى صحبة أصحاب « العقول
القوية » المزعومة هذه ، أو فى صحبة اباحيين عديمى التروى ممن
يسخرون بالدين كله اعلنا عن ذكائهم وظرفهم ، فلا تدع كلمة أو نظرة
تبدد منك دليلا على أقل استحسان لما يقولون ، بل على العكس من هذا
فلفتصح رزانتك الصامته عن كرهك له ، ولكن لا تخض فى الموضوع
واجتنب مثل هذه المجادلات العقيمة النابية (١١٦) » .

وفى ١٧٥٢ تبين تشسترفيلد فى التهجم على الدين أول مراحل الثورة الاجتماعية ، « أتدبأ أنه قبل أن ينقضى هذا القرن لن تبلغ صناعة الملك والقسيس نصف ما بلغت من احترام الى الآن (١١٧) » . وفى ١٧٥٣ ، بعد ظهور « الموسوعة » المعادية لرجال الدين بعامين ، كتب الى ابنه يقول :

« ان احوال فرنسا تزداد خطورة ، وفى ظنى انها ستمضى فى هذا قدما كل يوم . فالملك محتقر . . . والامة الفرنسية تفكر فى أمور الدين والحكم بخير قيود ، وهو ما لم تفعله قط من قبل ، وقد بدأت تصبح « محايدة » فى هذه الأمور ؛ كذلك يفعل الموظفون ، وباختصار توجد الآن فى فرنسا ، وتزداد كل يوم ، جميع الاعراض التى صادفتها دائما فى التاريخ قبل وقوع التغييرات والثورات الكبرى فى الحكم (١١٨) » .

وقد كون اثنان من قرائه ، بعد دراسة ممتعة لصفحات تشسترفيلد الثمانمئة ، رأيا ممتازا عن عقله ، ان لم يكن عن أخلاقياته . أما معاصروه الانجليز فكانوا لعدم قراءتهم رسائله أميل الى أن يسلكوه ، دون ترو ، فى زمرة الأدباء الظرفاء لا الفلاسفة . وطابت لهم ملاحظته فى مجلس اللوردات حين قال « من حقنا يا سادتى اللوردات ان نشكر السماء لأن لدينا شيئا نركن اليه خيرا من آدمغتنا (١١٩) » . وراوه يقامر مقامرة المستهترين ؛ و الحمقى ، وعرفوا أنه لم يكن مثالا يحتذى فى العفة (وهو ما اعترف به لولده) . وقد وصف جونسون الغضوب « الرسائل » بأنها تغرس فى النفس « اخلاق عاهرة وسلوك معلم رقص (١٢٠) » . وفى هذا الحكم ، كما فى الكثير جدا من احكام هذا « الخان الأكبر » بعض القصور والتحاميل ، فلقد كان تشسترفيلد يعلم الفتى اخلاق جيله وطبقته ، وعادات المجتمع السياسي المتأدب ، وعلينا أن نتذكر أنه كان يهيبه ولده للدبلوماسية ، وما من دبلوماسي يجرؤ على تطبيق المسيحية وراء حدود بلاده .

غير ان الكثير من التعليم الخلقى الذى محضه فليب كان رغم هذا ممتازا . « لقد طالما أخبرتك فى رسائلنى الماضية (وهو حق بكل تأكيد)

أنه ما من شيء يكسبك احترام البشر وتقديرهم غير أشد ضروب الشرف والفضيلة صرامة وتديقا (١٢١) « . وأغلب الظن أن نصيحته له فى أمر الخليلات كانت محاولة لصرف الفتى عن الفوضى الجنسية . لاحظ هذا التحذير « أما عن الجرى وراء النساء ، فإن نتائج تلك الرذيلة إنما هى فقدان المرء أنفه ، والتدمير الشامل لصحته ، وطعنات السلاح تصيبه فى حالات غير قليلة (١٢٢) » . وقد ذهب جونسن نفسه ، فى لحظة غافرة ، الى أن « رسائل اللورد تشسترفيلد لولده قد يخرج منها كتاب لطيف جدا ، وإذا انتزعت منه الجانب اللا أخلاقى ، وجب أن يوضع فى يد كل شاب مهذب (١٢٣) » . وربما كان فى « الرسائل » قصور فى غرس مبادئ الشرف واللباقة والشجاعة والوفاء . ولكن ليس صحيحا أن تشسترفيلد حسب الثراء أو المنصب فضيلة أو حكمة . وقد أمتدح ملتن ، ونيوتن ، ولوك أكثر كثيرا مما أمتدح سياسى زمانه ، ورأيناه ينشد صداقة خيرة كتاب عصره . وقد أوتى تقديرا حارا للأدب الجيد ، حتى ولو لم يفتنه معجم من معاجم اللغة . وقد كتب هو نفسه انجليزية لم يبرزها كاتب فى النثر المعاصر له ، لغة بسيطة ، قوية ، واضحة ، فيها من الخفة والمرح القدر الذى يكفى لتعويم الفكر الذى يثقله . وقد أثر الألفاظ الانجلو - سكسونية القصيرة المفعمة بالحياة رغم احاطته بالكثير من اللغات ، وغزارة علمه بالكلاسيكيات . وفى رأى فولتير أن الرسائل « أفضل ما كتب اطلاقا فى التربية (١٢٤) » . ووصفها سانت - بوف بأنها « كتاب غنى ، لا تقرأ فيه صفحة دون أن تحملك قراءتها على أن تتذكر ملاحظة سعيدة (١٢٥) » .

ولو حكمنا على عمل ما بثمراته المباشرة لقلنا أن الرسائل فشلت . ذلك أن الفتى فليب ستانهوب لم يتغلب قط على روحه البليدة ، وعاداته الرثة ، وأسلوبه المتثاقل ، وحديثه المتردد ، فبعد كل هذا الحث والحض ، كما تقول فانى بيرلى ، « كان حظّه من حسن التربية ضئيلا كأي رجل لقيته (١٢٦) » . ويبدو أن انحرافا سببه مولد الفتى أو ظروفه أبطل فعل خمسة أربال من التعاليم . لقد كان فليب يعانى من معوق هو أن له أبا غنيا ومكانا مضمونا ومريحا ، فلا خوف الجوع ولا كره الخضوع حفزاه الى الطموح والمغامرة ؛ لقد افتقد الدفعة الحية للروح " vivide vis animi " كما قال له أبوه المغلوب على أمره

« تلك القوة التى تهزم الشباب وتثيرهم للارضاء ، والتساق ، والتفوق (١٢٧) » . ومن المؤثر أن نرى الايرل المسن يغدق كل هذه النصائح الحكيمة والحب الابوى فلا يجنى غير هذه الثمرة الهزيلة . كتب لولده حين كان فى الرابعة عشرة « ثقى أننى سأحبك حبا جما ما دمت تستأهله ، ولكن لن أحبك لحظة واحدة بعد هذا (١٢٨) » ، على أن رسالته الأخيرة لولده بعد اثنتين وعشرين عاما فيها حرارة المحبة والتوسل (١٢٩) . ولم يمض عليها شهر حتى مات فليب فى باريس (١٧٦٨) وهو فى السادسة والثلاثين تاركا أرملة وولدين . فلقد تزوج دون علم أبيه ، ولكن تشسترفيلد غفر له ، وراح الايرل الآن يكتب للزوجة الشكلى رسائل هى نماذج فى المجاملة والاحترام (١٣٠) .

أما هو فكان فى تلك الفترة كثير التردد على باث بعد أن أقعده النقرس وأصابه الصمم الى حد محزن . « اننى أزحف فى هذا المكان على أرجلى الثلاث ، ولكن يعزىنى عن محنتى هذه اخوانى الزاحفون معى ؛ ان نهاية لغز أبى الهول تقترب ، وسأختم حياتى بعد قليل كما بدأتها ، على أربيع (١٣١) » . وقد اهتم بتربية حفيديه ، ولا غرو فالأمل لا يخبو أبدا فى الصدر العجوز . فلما عاد الى ضيعته فى بلاكهيث اتبع نصيحة فولتير وزرع حديقته فخورا بشمامه وتفاحه ، وقال انه قانع بأن « يحيا حياة راكدة فى صحبتهما (١٣٢) » . وكتب له فولتير رسائل معزية ،ذكرا اياه بأن الهضم الجيد (الذى احتفظ به الايرل) أجلب للذة من الأذان السليمة . وقابل النهاية بمرح لم يفتر . قال عن نفسه وعن صديقه اللورد تيرولى ، وكان مثله شيخا مقعدا ، (وربما كان فى قوله هذا متذكرا فونتنيل) « لقد كنت وتيرولى ميتين فى السنتين الأخيرتين ، ولكننا لا نود أن يعرف عنا هذا (١٣٣) » . ومات فى ٢٤ مارس ١٩٧٣ بالغا التاسعة والسبعين ، غير عالم أن رسائله التى منع نشرها قد احتفظ بها ابنه وتركها فى وصيته ، وأنها بعد طبعها فى العام التالى ستسلكه فى عداد أساطين الحكمة الدنيوية وفحول النثر الانجليزى .

الفصل الثالث

الحكام

١ - جورج الأول : ١٧١٤ - ٢٧

كان الانجليز أكثر حذقا من الفرنسيين في شئون الحكم ، كما سيطرين ذلك عما قليل فولتير ومونتسكيو . فبعد أن قطعوا رأس ملك ، وأرسلوا آخر يهرول رعبا عبر المانش ، استوردوا الآن ملكا خلف قلبه وعقله وراءه في المانيا ، ملكا يقضي الأجازات الطويلة في وطنه هانوفر ، ولا يصعب أن يهيمن عليه برلمان لم يوفق هذا الملك قط في فهم أساليبه ولغته .

كان بيت هانوفر يمد جذوره في المانيا الوسيطة ، ويرجع بنسبه الملكى الى ادواك برنزويك - لونبورج ، ثم الى هنرى الاسد (١١٢٩ - ٩٥) ، ومن قبله الى أجداده الولى أو الجويلف . وقد أصبحت هانوفر نفسها اماره ناخبة للامبراطورية الرومانية المقدسة فى ١٦٩٢ . وتزوج ناخبها الاول ، ارنست أوغسطس ، من صوفيا حفيدة جيمس الاول ملك انجلترا . وبعد موت ارنست أصبحت أرملة وريثة للعرش. الانجليزى بقانون تموية الوراثة الذى أصدره البرلمان فى ١٧٠١ .

ولكن ولدها جورج لويس ، ناخب هانوفر الثانى ، كدر هناة هذا الميراث السعيد بزواج تعس . ذلك أن زوجته صوفيا دوروثيا قد استنكرت خياناته ، فدبرت أن تهرب مع الكونت فليب فون كوينجزمارك ، قائد الحرس الجميل . واكتشف جورج المؤامرة ، ولم يسمع بخبر للكونت بعدها قط ، وأغلب الظن أنه أعدم (١٦٩٤) . وقبض على صوفيا دوروثيا وحوكت ، وأبطل زواجها ، وزج بها فى السجن طوال لاسبوعين الاثنين والثلاثين الباقية من عمرها فى قلعة آلدن . وكانت قد ولدت لزواجها بنتا أصبحت أم لهرديريك الأكبر ، وولدا أصبح جورج الثانى ملك انجلترا .

٩ - قصة الحصار

وما تت صوفيا ، ناخبة هانوفر الارملة ، فى ١٧١٤ ، قبل أن تموت الملكة آن ، ففقدت بذلك منصب الملك ، ولكن ولدها نودى به على الفور ملكا لبريطانيا العظمى وارننده باسم جورج الأول . وفى سبتمبر وصل الى انجلترا ، بادئا عهدا جديدا فى التاريخ الانجليزى . وجلب معه ابذه وزوجه ابنه ، وعددا من المساعدين الالمان ، وخليفتين ، شارلوت فون كيلمانريجي ، التى خلع عليها لقب كونتيسة دارلنجن ، والكونتيسة ميلوزينا فون در شولبورج ، التى خلع عليه لقب كونتيسة كندال ، وربما تزوجها . ولعل انجلترا كانت متقبلة هذا الترتيب باعتباره متفقا وأخلافيات ذلك الزمان ، لولا أن كلتا السيدتين كانت فى عيون البريطانيين قبيحة غالية التكلفة ، فميلوزينا تباع نفوذها باثمان باهظة ، حتى أن ولبول شكا منها وهو رب الساد والرشوة ، وكان جواب جورج أن سال ولبول : الا بتقاضي هو نفسه اتعابا لقاء نوصياته على طلاب المناصب (١) ؟

فى ١٧١٤ كان جورج الأول فى الحادية والخمسين من عمره ، فارع الطويل عسكرى السميت ، « رجلا بسيطا فظلا » . لا يكثرث مثقال ذرة للكتب ، ولكنه كان قد اثبت بسالته فى أكثر من ساحة قتال . وقد قالت الليدى مارى مونتاجيو فى وصفه انه « رجل امله أمين (٢) » ، ولكنه لم يكن بالغباء الذى يبدو عليه ، وقد اعترفت بأنه « كان طيبا على نحو سلبى ، يود أن يستمتع الناس جميعا بالهدوء لو أنهم تركوه بفعل ذلك (٣) » . وما كان أحد يتوقع أن هذا الرجل سيشعر بالاطمئنان والبسر فى بيئة غريبة عليه كهذه البيئة ، ومنصب قلق كهذا المنصب . فلقد استأجرته أولجاركية بريطانية ليحول دون رجوع الملكية الاستيوارتية مرة أخرى ؛ ثم رأى أن هؤلاء الانجليز المسيطرين ، الذين هممنوا على البرلمان ، مصممون على الهيمنة عليه هو أيضا ؛ ولم يستطع أن يختر لهم تحدثهم بالانجليزية . واعتقد أنهم أدنى من عشرائه الهانوفرين . فاعتكف فى خلوات قصر سانت جيمس ، وهرب الى هانوفر كل سنة تقريبا ، وبذل ما وسعه من جهد ليوجه الأموال والسياسة الانجليزية لحماية امارته المحبوبة .

وضاعف من محننه كره ابده له لانه اعتبره قاتلا . ذلك أن جورج

أوغسطس ، الذى أصبح الآن أمير ويلز (ولى العهد) ، ندد بسجن أمه المتصل ، وتمرد على سطوة خليات الملك وغطرستهن ، وتساخر مع وزراء الملك ، وأفصح عن آرائه فى صراحة حملت إباء على أقصائه عن القصر . واعتزل الأمير وزوجته كارولين ، اللذان فصلهما أمر ملكي عن إبنائهما ، ليفتتحا بلاطا منافسا فى قصر لستر (١٧١٧) . ووفد عليهما نيوتن ، وتشبترفيلد ، وهرفى ، وسويفت ، وبوب ، وسيدات المجتمع المغرور الأكثر حيوية ومرحا ، فوجدوا الأمير أشد فظاظة وغباء حتى من الملك .

وكان هذا التصدع فى الأسرة المالكة منسجما فى عمومته مع انقسام الأقلية الحاكمة والبرلمان الى حزبي التورى (المحافظين) والهويجز (الاحرار) . وقد قدر فولتير أن نحو ثمانمائة رجل هيمنوا على الحكم فى المجالس البلدية ، والانتخابات البرلمانية ، والتشريع القومى ، والادارة والفضاء (٤) . وتوقف كل حديث مزعج عن الديمقراطية ، كذلك الذى أثاره « مستقلو » كرومويل « والمسوون » . وكان التصويت للبرلمان وقفا على أصحاب الملكيات - وهم لم يتجاوزوا ١٦٠.٠٠٠ فى هذه الحقبة (٥) - وهؤلاء كانوا عادة يقبلون المرشح الذى يزيكه المالك الرئيسى للأرض أو اللورد (٦) المحلى . وانتمى الساسة لأحد الحزبين حسب تاييدهم اما للنبلأ أصحاب الالقب ، واما للاعيان وأصحاب المصالح التجارية . فاما « رجال الكنيسة الانجليكانية » فاتبعوا مذهب المحافظين ، وأما المنشقون على الكنيسة فأيدوا الاحرار . وكان المحافظون قد عارضوا فى أن يخضع الملك للبرلمان ، وتشبثوا مع الكنيسة الرسمية بنظرية حق الملوك الالهى ، وفكروا قبيل وفاة الملكة آن فى رد الاستيوارتيين المنفيين الى السلطة ؛ أما وقد تربع بيت هانوفر الآن على العرش فقد كان طبيعيا أن يزيحهم الاحرار المعادون لأسرة استيوارت ، وبينما كانت الوزارة الى ذلك الحين تضم عادة رجالا من كلا الحزبين ، نرى جورج الاول يقصر المناصب العليا على الاحرار ، وهكذا أرمي نظام الحكم بواسطة الحزب عن طريق مجلس للوزراء . فلما توقف الملك بعد قليل عن رئاسة اجتماعات الوزارة لعدم فهمه الانجليزية ، أصبح العضو المهيمن « وزيرا أول » أو رئيسا للوزارة ، وتقلد شيئا فشيئا المزيد من وظائف الملك وسلطاته .

ورأى الوزارة جيمس ستانهوب مبع سنين . ومن اول قوانينه وأكثرها شعبية رده جون تشرشل ، دوق ملبره - الذى اتهمه المحافظون من قبل - لجميع مناصبه السابقة ، خصوصا القيادة العامة للجيش ، وبعد عودة الدوق من منغاه اعتكف فى قصر بلنهييم ، وهناك عانى الام المرض الطويل ، ومات فى ١٦ يونيو ١٧٢٢ ، أما الامة التى اغتفرت له مقتنياته وتذكرت انتصاراته المتعاقبة ، فقد قبلت هذا الحكم الذى أصدره عليه بولنبروك - « لقد كان رجلا عظيما الى حد لا أتذكر معه هل كانت له أخطاء أو لم تكن (٧) » . وأما أرملته ، وهى سارة تشرشل التى ظلت عشر سنوات تحكم حكم الملكات ، فقد أنفقت اثنتين وعشرين سنة تقديس ذكراه وتذود عنها . فلما طلب الدوق سمرست يدها أجابت « لو أننى عدت صبية وجميلة كما كنت ، لا عجوزا ذابلة كما أنا الآن ، ولو كان فى وسعك أن تطرح ملك الدنيا بأسرها تحت قدمى ، لما استطعت أبدا أن تقتسم قلبا ويذا كانا فى يوم من الأيام ملكا لجون تشرشل (٨) » . وفى ١٧٤٣ ، قبل وفاتها فى الرابعة والثمانين بعام ، فكرت فى احراق رسائلها الغرامية القديمة ، ولكنها حين أعادت قراءتها شعرت « بأننى لم أستطع أن أحرقها » ، فتركتها لتعيش (٩) . ولا بد انه كان هناك خير كثير فى امرأة استطاعت أن تحب بهذا القدر من الوفاء ، وفى رجل استطاع أن يظفر بمثل هذا الحب من امرأة عصبية الى هذا الحد .

وحل بولنبروك محل ملبره فى المنفى . ذلك انه بعد أن طرده جورج الاول من الحكومة ، وهدد بتقديمه للمحاكمة بتهمة التفاوض سرا مع الاسرة المالكة التى سقطت ، وكرهه الأحرار والمنشقون على الكنيسة الذين وخزهم بسخريته وخزا موجعا ، واجتنبه رجال الكنيسة لآزدرائه اللاهوت المسيحى - بعد هذا كله فر الى فرنسا (مارس ١٧١٥) ؛ وانضم الى جيمس الثالث ، وأصبح وزير دولة لدولته التى لا وجود لها ، وعاون على تنظيم تمرد استيوارتى فى انجلترا ، واقترح غزوها من فرنسا . فاعلن البرلمان اذانته بالخيانة ، وصادر ثروته ، وحكم عليه بالاعدام .

واوشكت حركة رد الاستيوارتيين أن تطيح بعرش جورج الاول

فالمحافظون الكارهون للهانوفريين لأنهم أحلاف غاصبون ! وعامة الناس في إنجلترا ، الراسخون في الولاءات القديمة ، والتواقون سرا للأسرة المنفية ؛ وطبقات اسكتلنده العليا والدنيا ، الفخورة بأنها أعطت إنجلترا ملكا اسكتلنديا ، الضيقة أشد الضيق بقانون الاتحاد (١٧٠٧) الذي قضى على البرلمان الاسكتلندى - كل أولئك كانوا على استعداد للتحريرض على غزوة يقودها الشاب الذي اعترف به لويس الرابع عشر ملكا شرعيا أوحد على إنجلترا .

وكان جيمس فرانسيس ستيوارت قد بلغ الآن (١٧١٥) السابعة والعشرين ، وإن عرفه التاريخ باسم « المطالب المسنّ بالعرش » . كان قد ربي في فرنسا ، وأشره المذهب الكاثوليكي معلومه الرهبان ومعاناة أبيه جيمس الثانى اشرابا رفض معه حجة بولنبروك الذى زعم له أنه سيتوى الميل لأسرته في إنجلترا اذا هو وعد باعتناق البروتستنتية . قال له بولنبروك وهو يحاوره ، كيف يمكن حمل الاسكتلنديين المشيخين (أتباع كلفن) ، والانجليكان المحافظين ، على تأييد رجل يأتى الى عرشهم بالمذهب الذى قاتلوا للاطاحة به طوال قرن حافل بأشد الاضطراب؟ ولكن جيمس كان صلبا لايلين ، فصرح بأنه يؤثر أن يكون كاثوليكيًا بغير عرش ، على أن يكون ملكا بروتستنتيا . أما بولنبروك ، البريء من الايمان والمبادئ ، فقد حكم على جيمس بأنه أصلح للرهبنة منه للملك (١٠) . وكان البرلمان خلال ذلك (أغسطس ١٧١٤) قد عرض دفع ١٠٠.٠٠٠ جنيه مكافأة لمن يقبض على جيمس الثالث اذا وطئ تراب بريطانيا .

ثم بدأ أن عاملا شخصيا يحول الاحداث الى خدمة قضية المطالب بالعرش ، ذلك أن جون ايرسكين ، ايرل مار ، كان وزيرا لشئون اسكتلنده فى السنوات الأخيرة للملكة آن . فلما طرده جورج الاول ، وضع الخطط لثورة استيوارتية في إنجلترا ، ثم أبحر الى اسكتلندة . واستنفر الاسكتلنديين لينضوا تحت لواء ثورته (٦ سبتمبر ١٧١٥) وظاهره نفر من النبلاء ، فارتفع عدد قواته الى ستة آلاف راجل ومستمائة خيال ؛ ولكن أدبره وجلاسجو والمسهول الجنوبية ظلت موالية للملك الهانوفرى . وقررت الحكومة البريطانية الاعدام عقابا للخيانة

وخطبادة الملكية لخميس العصاة . وعبأت ثلاثة عشر ألف رجل ، ودعت
سنة ألفا آخرين للأسطول ، ثم أمرت دوق أرجيل قائد حاميتي ادنبره
وستيرلنج بأن يخمد التمرد . فالتقى بقوات مار عنسد شريفموير (١٣
نوفمبر ١٧١٥) فى معركة لم يستطع أى الفريقين أن يدعى لنفسه فيها
نصرا حاسما . وتقدمت قوة اسكتلندية أخرى فى تهور الى ثلاثين ميلا
من ليفربول يدلا من أن تنضم الى مار ، مؤملة عبثا أن تثير ونحى
حركات التمرد الاستيوارتية فى المدن الانجليزية . وفى برستون طوفها
جيش حكومى وأكرهها على التسليم دون قيد أو شرط (١٤ نوفمبر) .

ولا بد أن جيمس الثالث كان على علم بهذه الأحداث قبل أن يتلح
من دنكرك فى ٢٧ ديسمبر . وكان بولنبروك قد أنذره بأن ثورة
استيوارتية لن تذهب فى انجلترا . ولكن المطالب بالعرش دنة للمضى
فى هذه المغامرة ايمانه بالشرعية الالهية لقضيته ، مضافا اليه ١٠٠.٠٠٠
كراون من الحكومة الحكومة الفرنسية وثلاثين ألفا من الفاتيكان . فلما
رما على أرض اسكتلنده انضم الى جيش مار فى بيرث ، ووضع
الخطط لحقل تتويج مهيب فى « سكون » . ولكن صمته واكتنابه ،
وشكواه من أنه خدع فى مدى انتشار التمرد ، كل أولئك لم يفسد شيئا
الى حماسة الاسكتلنديين ، فشكوا بدورهم من أنهم لم يروه قط يبنسم ،
ونادرا ما سمعوه يتكلم (١١) . أضف الى ذلك أنه كان يرتعد من الملايا ،
ولم يحتمل شتاء الشمال . ورأى مار أن جنده لا يصلحون للمعركة ،
فأمرهم بالتقهقر الى مونتروز ، وبحرق جميع المدن والثرى والمحاصيل
فى اثرهم لتعطيل أرجيل عن مطاردته . وأسف جيمس على هذا
التدمير ، وترك نقودا ليعوض بعض ما خسر أولئك الذين تسمرت
أجلاكهم . فلما اقترب جيش أرجيل الذى كان متفوقا جدا من مونتروز
فر جيمس ، ومار ، وغيرهما من قادة الثورة مسرعين الى الساحل ،
وأبحروا الى فرنسا (٤ فبراير ١٧١٦) . واستسلمت القوات النائرة
فوق تفرقت فى كل مكان .

ورحل معظم الأسرى ليخدموا عبيدا فى المستعمرات ، وأعدم سبعة
بخمسون ، وتقرر أعدام اثنى عشر نبيل اسكتلنديا التجاوا الى فرنسا ،
لذا عادوا منها . وكان جيمس قد راوده الأمل فى أن يرسل فليب اورليان

جنودا يخفون لنجدته فى اسكتلنده ، ولكن فرنسا كانت الآن تفكر فى التحالف مع انجلترا ، فحثت جيمس على أن يرحل عن أرض فرنسا . ومن ثم أقام حيناً فى أفنيون البابوية ، ثم فى روما .

وبقى بولنبروك فى فرنسا حتى ١٧٢٣ ، واذا كان يجيد الفرنسية فإنه انطلق على سجيته فى الصالونات بين الفلاسفة . وكان يحذق كل شيء الا السياسة ، فاشتري أسهما فى مشروع لو ، ثم باعها بربح كبير قبل أن تنفجر « الفقاعة » . واذا كان قد ترك زوجته فى انجلترا ، فإنه اتصل اتصالاً كاد يكون شريفاً بمارى ديشان دمارسى ، وهى مركيزة فيليب الأرملة . وكانت فى الأربعين ، وهو فى الثامنة والثلاثين . وكانت ككثيرات جداً من النساء الفرنسيات قد احتفظت بجاذبيتها مع أنها فقدت بعض جمالها ، ولعل تهذيبها وحيويتها وذكاءها هو ما جذبها إليها ، فعشقها ، ولما ماتت الليدى بولنبروك تزوج المركيزة ، وذهب ليعيش معها فى لاسورس . وهناك زاره فولتير كما سبق الفول (١٧٢١) . قال الفيلسوف الشاب « وجدت فى هذا الانجليزى الشهير كل علم أمته ، وكل أدب أمتنا (١٣) » .

على أن قمع الثورة كان قد أطاح برعوس بعض النبلاء ، ولكنه لم ينتقص من العطف على الاستيوارتيين فى بريطانيا . وقد قضت القوانين الثلاثية الأعوام التى صدرت فى ١٦٤١ و ١٦٩٤ بالا باستمرار أى برلمان أكثر من ثلاث سنين . ومن ثم واجه أول برلمان لجورج الأول فى ١٧١٧ احتمال انتخابات قد تعود فيها أغلبية للمحافظين والمثبطين ، للاستيوارتيين . وتفادياً لهذا الخطر قرر البرلمان ، بمقتضى قانون السبع السنين الذى أصدره فى ١٧١٦ ، أن يمد فى عمره أربع سنوات أخرى ، وقضى بأنه يجوز بعد ذلك لجميع البرلمانات أن تستمر سبع سنين . قال ألمع حفدة ملبره « كان هذا أجراً واكمل تأكيد لسيادته البرلمان عرفته انجلترا الى ذلك الحين (١٣) » . وصدق جورج الأول على القانون الجديد لخشيته هو أيضاً من فوز المحافظين ، وكان معنى هذا فعلاً أن المانوفريين اضطروا للتخلى عن سلطتهم لكى يملكوا .

ورغبة فى المزيد من الحماية للأمرة المالكة الجديدة أبرم ستانهاوبه

مع فرنسا وهولنده (١٧١٧) حلفا ثلاثيا أنهى التأييد الفرنسي لمطالب
أمرة ستيوارت ، والتأييد الانجليزى لأسبانيا ضد فرنسا . وفى ١٧٢٠
وقعت فرنسا صلحا ينطوى على الخضوع ، واستطاع جورج الأول أن
يتربع على عرشه الأجنبى فى السنين السبع الباقية له من أجله بقدر
أكبر من الاطمئنان . وفى ١٧٢٦ أرسلت اليه زوجته التى ما زالت
حبيسة خطابا مرا ، وتحدثه أن يلقاها بعد عام أمام كرسي قضاء الله .
وما لبثت أن ماتت بالحمى المخية . وتقول رواية أن عرافا تنبأ بأن
جورج الأول لن يعمر أكثر من عام بعد زوجته . وفى ١٧٢٧ بدأت صحة
الملك تتدهور . وفى يونيو غادر إنجلترا ليزور بلده الحبيب هانوفر .
وقرب أوزنابروك القيت فى عربته ورقة مطوية ، وكانت تحوى لعنة
تركتها له زوجته وهى فى النزاع . فلما قرأها الملك اضطرب اضطرابا
شديدا ، وما لبث أن قضى نحبه فى ١١ يونيو (١٤) .

٢ - جورج الثانى والملكة كارولين

وتلقى ابنه وعدوه النبا كانه القصاص العادل الذى أصدرته
العناية الالهية وأمهلت تنبؤه امهالا غير معقول . وحين قدم رئيس
اساقفة كنتربرى لجورج أوغسطس وصية الملك الراحل حشاها فى جيبه
ولم يذعها قط . وقال بعضهم انه تكتم أمرها لأنها اقترحت الفصل بين
تاجى هانوفر وانجلترا ، وزعم آخرون أنها تركت لحفيده فردريك
لويس ، ولخليلته أو زوجته دوقة كندال ، ولابذته ملكة بروسيا ، مبالغ
كبيرة كانت كفيلة بالانتقاص من ثروة الملك (١٥) . ولكن التاريخ
يجعل الحقيقة .

كان جورج الثانى كابيه جنديا باملا ، ففى الخامسة والعشرين أبلى
بلاء حسنا تحت قيادة يوجين وميلبره فى معركة أودينارد (١٧٠٨) .
وفى الستين سيقود جنده الى النصر فى ديتنجن (١٧٤٣) . وكثيرا
ما كان ينقل عادات المعسكر الى البلاد ، فيصيح غاضبا ، ويغنى على
وزرائه نغوتا مثل « الاوغاد » و « الشديدى للغباء » و « المهرجين (١٦) » .
ولكنه جاهد ليتقن صناعة الملك ، وتكلم الانجليزية دون خطأ وان شابتها
لكنه وستغالية ثقيلة (١٧) ، ولاحظ فى هيق ولكن فى حذر تلك القيود

التي فرضها البرلمان على سلطاته ودخله ، وظل ثلاثة عشر عاما يساند ولبول في جهوده لتمكين جون بول من ايفاء ديونه ونشر السلام في ربوعه . وكان كابييه كثير التردد على هانوفر ، الامر الذي ابهج كل من يعينهم الامر . ثم تشاجر كابييه مع امير ويلز (ولى العهد) لانه « كان من بعض ثقايلد الاسرة الموروثة كراهية الابن البكر (١٨) » كما قال هوراس ولبول . وكان له كابييه خليلات ، ولو لمجاراة المجتمع العصري ، ولكنه على عكس ابيه احب زوجته حبا جما .

كانت كارولين ، ابنة الحاكم جون فردريك امير برندنبورج - آنزباخ ، قد نشأت في بلاط شارلوتنبورج ، وهو بلاط أخت جورج الأول ، صوفيا شارلوت ، أول ملكة على بروسيا . وهناك التقت بليبنتز واستمعت بمناقشات الفلاسفة ، واليسوعيين ، واللاهوتيين البروتستنت ، وبلغت درجة فاضحة من التحرر والتسامح الدينيين . وقد عرض عليها شارل السادس ، الامبراطور « الرومانى المقدس » يده وعقيدته ، فرفضتها جميعا ، وتزوجت (١٧٠٥) من جورج أوغسطس ، امير هانوفر الناحب « القصير القامة الاحمر الوجه (١٩) » ، وظلت وفيه مخلصه له الى النهاية رغم حدة طبعه وطبعها ، وخلال كل عثراته وخليلاته . وكان جورج يعنف في معاملتها ، ويكتب لها الرسائل الطويلة عن علاقاته الغرامية ، ولكنه كان يحترم عقلها وخلقها احتراماً كفى لتركها تحكم انجلترا (بمساعدة ولبول) خلال فترات غيابها الطويلة ، وتوجه سياساته حين يعود .

ولم يكن لها - فيما عدا شبابها البض النضر - من مفاتن الجسد الذى تسيطر بها على زوجها غير يدين حلوتين ، ، وبعض لطائف فى السلوك و الحديث ؛ ولكنه كان معجبا بتكوين صدرها ، وامرها ان تعرضه عرضا مقنعا (٢٠) . وازدادت بدانة مع كل حمل ، وترك الجدرى فى وجهها ندوبا ، وكان صوتها عاليا صادرا من الحنجرة ، وكانت تحب الدس وتولع بالسلطة . ولكن الانجليز بدموا شيئا فشيئا يحبون دعابتها الصادرة من القلب ، وادركوا آخر الامر أى تضحية من صحتها ومعادتها كانت تبذل لتكون زوجة وملكة هالحة ؛ ورأى مفكرو انجلترا فى دهشة ان هذه البرندنبورجية الجلفة كانت تملك ذهننا واذنا يتذوقان

أدب العصر ، وعلمه ، وفلسفته ، وموسيقاه .

وكاد بلاطها يستحيل صالونا . فقد استقبلت فيه نيوتن ، وكلاارك وباركلى ، وبطلر ، وبوب ، وتشسترفيلد ، وجاى ، والليدى مارى مونتايجو . وأيدت المبادرة التى اتخذتها الليدى مارى فى التعليم ضد الجدرى . وانتشلت ابنة الملتن من وهدة الفقر ، وناصرت هندل طوال نزوات الجمهور والملك . وتبرعت من جيبها الخاص بالمال اللازم لتشجيع المواهب الشابة التى تفتقر الى المال (٢١) ، وانقذت المهرطق هويستن بمعاش أجرته عليه . وأيدت الحرية الدينية للاسكتلنديين المتشيعين لأسرة ستيوارت ودبرت تعيين الاساقفة الانجليكان على أساس علمهم لا سلامة عقيدتهم . وكانت هى نفسها من القائلين بالربوبية المتشككين فى الخلود (٢٢) ؛ ولكنها رأت ان الكنيسة الرسمية يجب ان تمولها الدولة باعتبارها معينا للشعب على الفضيلة والهدوء (٢٣) . قال فولتير « لا شك ان هذه الاميرة ولدت لتشجيع الفنون ولخير النوع الانسانى . . انها فيلسوفة لطيفة تتربع على عرش (٢٤) » .

وكان لها من الفلسفة حظ بصرها بالجانب الفكه فى مآسى الحياة ، حتى فى ساعة احتضارها . وكانت مصابة أصابة قاتلة بفتق أخفته طويلا عن الجميع الا الملك ، فنصحته وهو يومها فى الخمسين بان يتزوج ثانية بعد موتها . وكشف جوابه ، وهو مخلص فى حزنه ، عن طبيعة عصره « لا ، سأخذ خليلات » قالت « رباه ، هذا لا يمنعك من الزواج (٢٥) » وقد بكاه بعاطفة لم تعهد فيه فقال « لم أرقط امرأة تستحق أن تربط حذاءها (٢٦) » . وبعد ثلاثة وعشرين عاما ، وتنفيذا لوصيته ، فتح نعشها فى كنيسة وستمنستر لترقد عظامه الى جوارها .

٣ - روبرت ولبول

لقد كان لانتصارها الباسل لولبول أمام عصابة من الأعداء طلاب المناصب وتجار الحروب الفضل فى تمكينه من أن يعطى انجلترا عشرين عاما من الرخاء والسلام . ولم يكن ولبول « بالولى » او القديس ، ولعله كان أفسد وزير عرفته انجلترا فى تاريخها ، ولكنه كان ايضا من خيرة

وزرائها ففي ذلك العصر الفاسد ما كان للحكمة أن تحكم الا عن طريق الرشوة والفساد .

كان روبرت قد نذر للكنيسة باعتباره أصغر الابناء فى أسرة نورفوكية عريقة ، وفى اينن التى زامل فيها غريمه المستقبل بولنبروك كان هذا هدف دراسته . ولكن موت اخوته الكبار جعله الوريث لثروة الأسرة ؛ ولما كانت الأسرة تسيطر على ثلاث دوائر انتخابية ، فانه لم يجد عناء فى التحول بنجاح من اللاهوت الى السياسة . وحين بلغ الخامسة والعشرين دخل مجلس العموم عضوا فى حزب الأحرار (١٧٠١) ، وعين وزيرا للحرب (١٧٠٨) بفضل اتصالاته ، وماله ، وذكائه الحاضر ، وتمكنه من المالية الادارية . وفى ١٧١٢ عزله المحافظون الفائزون ، وزجوا به فى برج لندن بتهمة الفساد ، ولكن رائحة الذهب كانت قد غدت من الثبات وقوة السلطان بحيث أحدثت تبلا فى الأنوف ندم يلبث أن أفرج عنه ، وأعيد انتخابه ، وعين وزيرا للخزانة (٧١٥) . وحملته تعقيدات السياسة على الاستقالة فى ١٧١٧ . وفى ١٧٢٠ أقنع انهيار شركة بحر الجنوب وتبرير انذاراته الجميع حتى خصومه بأنه أصلح الرجال لرد انجلترا الى حالة الاستقرار المالى . فلما عاد الى منصب وزير الخزانة (١٧٢١) أوقف حالة الذعر كما سبق القول ، بوضعه مصرف انجلترا ظهيرا لالتزامات الشركة ، وسدد بالتدريج كل دين الشركة للشعب وقدره ٧ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه (٢٧) . وكافا المقامرون الشاكرون ولبول باثنين وعشرين عاما من السلطة .

وقطع اعتلاء جورج الثانى العرش سلطان ولبول برهة . ذلك أن الملك الجديد كان قد أقسم ليكون خصما لدودا لكل من خدموا أباه ؛ فعزل ولبول ، وطلب الى السير سبنسر كونتن أن يشكل وزارة جديدة . ولكن سرعان ما اظهر كونتن قصور مواهبه واعترف به . فنصحت كارولين زوجها بأن يرد ولبول الذى دعم حجتها بوعده الملك والملكة يراثب اكبر . وقبل السير سبنسر لقب الايرل شاكرا ، واستعاد ولبول حكمه . وكان أول من أطلق عليه لقب « الوزير الاول » ، على سبيل التحقير (كما كانت الحال فى ألفاظ « المسيحى » ، و « البيورتانى »

و « المثودى ») . وكان أول رئيس للوزراء يتخذ داوننج ستريت قصرا رسميا له .

ويلقى خلقه بعض الضوء على فن النجاح السياسي . فهو لم ينفق فى الجامعة غير سنة ، وكان ضعيفا من حيث الاعداد التعليمى المعهود فى روعساء الوزارات البريطانيين . ولم يكن فى سلوكه أو كلامه كبير تائق . يقول ماكولى انه « اذا كف عن حديث السياسة لم يستطع أن يتحدث الا عن النساء ، وكان يفيض فى موضوعه المحبب بحرية صدمت حتى ذلك الجيل الذى لم يتحرج فى الفاظه (٢٨) » . ولم ير ابنه هوراس أن فيه قصورا لأنه لم يقرأ من الكتب الا القليل ، « فلقد عرف البشر ، لا كتاباتهم ، واسترشد بمصالحهم لا بنظمهم (٢٩) » . وكان ملما بقدر من اللاتينية يكفى لاستعمالها وسيط تفاهم بينه وبين جورج الاول ، لأن ذلك الملك كان يجهل الانجليزية ، وولبول لم يعرف لا الالمانية ولا الفرنسية . وكانت له كل صفات جون بول ، اللهم الا المشاكسة ، فهو بدين ، صريح ، مخلص ، ودود ، عملى ، يستمتع بالولائم والشراب ، ولكنه يكذب ويكدهج اذا دعاه داعى العمل ؛ وربما كان فيه أيضا من أوجه الشبه بجون بول انه أثر خشخشة كيسه على صليل سيفه .

أما الاخلاق فلم يكذب يملك منها أى حظ . فقد عاش سنين فى زنا مفضوح دون أن يبدي كبير احترام لللياقة المهذبة التى تراعيها الأرستقراطية فى رذيلتها . وكان يمزح مع الملكة كارولين عن خليلات زوجها ، فلما ماتت نصح بناتها بدعوة وصيفات الشرف ليمرين عن الملك المحزون . وكان يسخر من الدين ، وحين دنت منية كارولين أرسل فى طلب رئيس أساقفة كنتربرى قائلا « لا بأس بتمثل هذه المهزلة ، وإن رئيس الاساقفة لكفيل بحسن تمثيلها . ولكم أن تطلبوه بأسرع ما تريدون . فلن يضر الملكة ، ولن ينفعها ، وسيرضى هذا جمع المغفلين العقلاء الطبيين ، الذين سينعتوننا بالكفر اذا لم نتظاهر باننا مثلهم من كبار المغفلين (٣٠) » . ولم يكثرث للدوافع النبيلة أو ادعاءات التجرد من الانانية . وقد توسل بمنصب الدولة لجمع ثروة خاصة كما فعل ملبره . ووجسد المناصب السياسية الجزئية لولده هوراس وغيره من ذوى قرباه . وإنفق

٢٠٠٠ ر. ٢٠٠٠ جنيه ليشتيد بيوتا فخمة فى ضيعته بهوتون ، وزينها بلوحات قدرها هوراس بمبلغ ٤٠٠٠٠ جنيه ، وكان بيته فيها مفتوحا لاهل نورفوك جميعا (٣١) . وكان فى سخاء جون بول لانه (اذا صدقنا خصومه) لم يستطع أن يفرق تفريقا واضحا بين مال جون بول وماله الخاص .

واستعمل المال ليشتري أعضاء البرلمان كما استعمله ريشليو ليشتري الجيوش ، وهنرى الرابع ليستكت الاعداء . وكان ولبول يستخدمه ملذا أخيرا بعد أن تعييه الجج الأكثر لنا . ذلك أن الفساد البرلمانى الذى ظهر فى عهد تشارلز الثانى بلغ النقطة التى لم يمكن عندها التعامل مع البرلمان ، خيرا كان الهدف أم شرا ، الا « بالتشحيح » على نطاق واسع . واحتفظ ولبول باحتياضى سرى - وحتى بحجرة خاصة - لشراء الكراسي والأصوات ومحررى الصحف ، وقيل انه أنفق ٥٠٠٠٠ جنيه كل عام لاعانة الدوريات لتشرح وجهة نظره (٣٢) . وفى ١٧٢٥ حث جورج الأول على انشاء « وسام الحمام الاسمى » الذى يتألف من الملك ، ورئيس أكبر ، وستة وثلاثين فارسا من الزملاء ، فقد رأى لولبول ، كما رأى نابليون من بعده ، أن حكم الرجال بالأوشحة أقل تكلفة من حكمهم بالمال .

وقد استخدم هذه الأساليب الفاسدة ليحتفظ لانجلترا بالرخاء والهدوء . ولم تبرر غاياته وسائطه ، ولكنها كشفت عن الجانب الأفضل فى خلقه . فلقد كان رجلا حسن الذية ، عقد العزم على أن يحفظ لبلده الاستقرار والثبات رغم كل زعازع السياسة الحزبية ، وأنواء المصالح الطبقية ، وصيحات غلاة الوطنية المطالبين بالحرب . وقال ان شعاره ان يترك الشر نائما . واذا كان هذا المبدأ قد ترك حكمه غير متميز بفتوح او اصلاحات ، فانه اكتسب ثناء المنصفين . واضطر خصومه الى الاعتراف بأنه لم يكن محبا للثأر ولا حقودا ، وأنه كان أجدر بالثقة ، لا بل أكثر ايمانا ، فى صداقاته مما ينتظر من انسان خبر جوانب البشر الأكثر انحطاطا (٣٣) . ولم يكن لديه خطط بعيدة للمجد والعظمة ، ولكنه عالج كل مشكلة حين تعرض له بالكثير من الدهاء والتسامح والنياقة ، حتى اغتفرت له انجنبره فى النهاية كل أخطائه الا حبه للسلام .

وقد وفق تشريعه الاقتصادى بين الاعيان ملاك الأرض وطبقته

وجنال الأعمال - فحاول أن يخفض الضرائب على الأرض ، وأيد العقوبات البصارمة على الجديوان على الملكية . ثم رحب فى الوقت ذاته بظهور الرأسمالية . وخص التجار ورجال الصناعة بمنح التصدير ورسوم الاستيراد ، وبدأ غير مكترث لفقر العمال المحرومين من الأرض فى القرى ، والبرولتاريا المتكاثرة فى المدن ؛ والظاهر أنه أحس أن سوء توزيع الثروة نتيجة لا مفر منها لسوء توزيع الطبيعة للكفايات . وإذا استثنينا تلك المنح والرسوم فإنه نادى بسياسة حرية التجارة قبل الفيزيوقراطيين الفرنسيين وآدم سميث بزمان طويل ؛ وقد خفض الضرائب على ١٠٦ سلعة تصدير فى سنة واحدة ، وعلى ثمان وثلاثين سلعة استيراد ، وأزال الكثير من القيود على تجارة المستعمرات الأمريكية ، وكان رايه أن الاقتصاد الانجليزى يزكو فى ظل أقل القليل من التشريع الحكومى . وقد برر الزمن رايه ، فنمت الثروة القومية بسرعة رغم ما شابها من سوء توزيع ، وزادت إيرادات الحكومة ، وبفضل التصرف فيها بقصد وكفاية كسب ولبول الثناء عليه باعتباره « خير وزير للتجارة أنجبته البلاد (٣٤) » .

على أن مشروع قانونه الخاص بضريبة الانتاج منى بأفدح الهزائم (١٧٣٣) . ذلك أن مهربى التبغ والنبيذ كانوا يحرمون الخزانة من الرسوم الجمركية ، ويحملون الملكيات بأكثر من نصيبها فى الضرائب . وتفاديا لهذا الضرب من المشروعات الحرة اقترح ولبول ضريبة انتاج (وهى شريحة « تجنب » للحكومة) تفرض على هذه السلع حيثما اختزنّت أو بيعت فى انجلترا . وخول لموظفى الضرائب (« رجال الانتاج ») أن يفتشوا أى بيت فى أى وقت ، وكان الأشخاص الذين يتضح أنهم اخفوا سلعا خاضعة للضريبة يعاقبون بالغرامة أو السجن . وهبّ الى الاحتجاج كل من له صلة باستيراد التبغ أو النبيذ أو تهريبهما أو بيعهما أو استهلاكهما . وندد خصوم ولبول فى مجلس العموم بالضريبة ، وطريقة تنفيذها ، قائلين انها اجراء تعسفى من طاغية مستبد ، وعدوان فظيع على الحرية البريطانية . « لقد أخبر أعضاء البرلمان ولبول بانهم لا يرون ياسا فى أن ينقدهم اجرا على شروهم العادية ، أما هذا الاقتراح فهو يتجاوز حدود فسادهم (٣٥) » كما أوضح فردريك الأكبر - أو لعلمهم أملوا أن يحطوا محله فى الاشراف على

المال العام . وراجت النشرات من آلاف النسخ . تسبب الوزير بلفسة سوقية مفعمة بالحماسة . وتقاطرت الحشود حول وستمستر هول ، وأحرقوا دمي تصور ولبول في عشرات الحرائق ، وحاولوا تمزيقه اربابا ويغو يغادر كنيسة القديس ستيفن ؛ لقد استثيرت الامة الى شفا الثورة . وخافت الملكة كارولين على ولاء الجيش ، وارتعدت فرقا على سلامة الاسرة المالكة الجديدة . وسحب ولبول القانون مسلما بالهزيمة ، ومن هذه اللحظة أضمحل سلطانه . وتكتل خصومه ليجهزوا عليه .

٤ - بولنبروك

وكانوا خصوما كثيرين متنوعين . فتآمرت جماعة منهم مازالت متشعبة لأسرة ستيوارت ، مع المطالب بالعرش ، وسنراها بعد قليل تنتشي بمغامرة « الأمير الجميل الشاب تشارلي Bonnie Prince Charlie » و « شلة » أخرى راحت ترقص حول فردريك لويس ، أمير ويلز (ولى العهد) ، عدو الملك ووريثه . وكان أعظم كتاب العصر الانجليز يناوئون الوزير - سويفت ، وبوب ، وفيلدتج ، وأريتنوت ، وطومسن ، واكينسايد ، وجاى ؛ تهكموا بسلوكه ، وفضحوا أخلاقه ، وعابوا سياساته ، ولاموه على قطع تلك المعونة السخية التى كانت تغدق على المؤلفين والتى تفردت بها الحكومة فى عهد وليم الثالث والملكة آن . أما المحافظون المتعطشون لرحيق المنصب فقد استعدوا عليه أصحاب السلطان سرا ، واستعانوا بالشعراء واثاروا ثائرة البرلمان فى عزمهم على أن يخلفوا هذا الوزير الشبيه بفولستاف على مزود الوزارة . وعبر وليم بلتنى ، وتشسترفيلد ، وبنت الصاعد ، بأصواتهم عن قضيتهم ، ودافع عنها بولنبروك فى غير هودة بقلمه القتال .

وكان بولنبروك قد نال فى ١٧٢٣ عفوا ملكيا يسمح له بالعودة الى انجلترا واستعادة أملاكه ، ولكنه أبعد بنفوذ ولبول عن مناصب الدولة وعن عضوية البرلمان باعتباره رجلا تعددت خياناته وشك فى ولائه . على أن هذا لم ينتقص من سلطانه . ففى بيته بلسدن التقت صفوة انجلترا ، مفتونة بوسامته والمعيته وعبير اسمه . هناك ، وفى بيته الريفى ، راج يتراشق بالمسخرات مع سويفت ، وبالهزطقات مع

جوب ، وبالأغاني الشعبية مع جاي ؛ وهناك ناضل ليوحسد بين المحافظين الجياع وبين الأحرار الذين لم يظفروا بما يشبعهم من الرشا ، فى معارضة متكثلة ضد ولبول ؛ وهناك نظم محررى وبرنامج مجلة - سميت أولا (١٧٢٦) « السيد الريفى » ثم « الفنان » - راحت تكيل اللطمات ، أسبوعا بعد أسبوع ، لكل شيء صنعه ولبول أو أراد أن يصنعه ، وكتب بولنبروك بقلمه أشد المقالات أذى ، وهى أروع نثر سياسى شهده العصر بعد اضمحلال سويغت . وقد أهدى سلسلة من تسعة عشر خطابا (١٧٣٣ - ٣٤) « رسالة فى الأحزاب » - الى ولبول تهكما منه . كتب تشسترفيلد لابنه يقول « لم أكن أعرف مبلغ قوة اللغة الانجليزية حتى قرأتها (٣٦) » .

أما آفة بولنبروك فكانت خلقه . فلقد كان أدبه الجم (وهو ناموسه الخلقى الوحيد) يفارقه اذا أحبطت مشيئته أو عورضت آراؤه . وفى يونيو ١٧٣٥ تشاجر مع بلنتى الزعيم الاسمى للمعارضة وعاد غاضبا الى فرنسا . وهناك استقر مع مركزته قرب فونتنبلو وواسي جراحه بالفلسفة . وفى كتابه « رسائل فى دراسة التاريخ وقائده » (الذى ألفه فى ١٧٣٥) وصف التاريخ بأنه معمل هائل أجرت فيه الأحداث تجارب لا حصر لها على الرجال ، والاقتصاد ، والدول ، ومن ثم كان خير مرشد الى طبيعة البشر ، واذن فالى تفسير الحاضر والتنبؤ بالمستقبل . « ان التاريخ هو الفلسفة التى تعلم بالمثال . . . فنحن نرى الرجال بطولهم الكامل فى التاريخ (٣٧) » . وينبغى « أن نعكف عليه بهروح فلسفية » والا يقتصر همنا على فهم الأسباب والآثار والذاتائج المتماثلة ، بل نجاوز هذا الى الطرق التى نبين الى الآن أنها معينة على تطور البشر وسعادتهم (٣٨) . والعقبة فى مثل هذه الدراسات هى « أن قلبا من كتب التاريخ يخلو من الأكاذيب ، وليس بينها كتاب يخلو من الأخطاء . . ولقد سرت روح الكذب من المؤرخين الكنسيين الى غيرهم (٣٩) » . ولكن قد يستطيع الطالب القوى العزم بمواجهة كاذب باخر أن يشق طريقه بينهما الى الحقيقة . وفى ١٧٣٦ عاد بولنبروك الى حلبة السياسة بكتابه « رسائل فى الروح الوطنية » الذى هاجم فساد حكومة ولبول ودعا الى روح جديدة من الولاء المنكر للذات فى السياسة الانجليزية .

« لا مونتيني وهو يكتب « مقالاته » ، ولا ديكارت وهو يبني عوالم جديدة ، ولا ... نيوتن وهو يكتشف ويرسي القوانين الصحيحة للطبيعة على التجربة وعلى هندسة رفيعة ، لا أحد من هؤلاء شعر بابتهاج عقلى أكثر من الوطنى الصادق الذى يسخر كل قوة فهمه ، ويوجه كل أفكاره وأفعاله ، لخير وطنه (٤٠) » .

وتطلع أمه الى الجيل الأصغر . فلما زار انجلترا فى ١٧٣٨ سعى الى صداقة الأمير فردريك لويس ، ولى العهد ، الذى كان الآن يقود حركة المعارضة لولبول . ووجه بولنبروك الى سكرتير فردريك الخاص أشهر كتبه وهو « مفهوم الملك الوطنى » . وقد مات فردريك فى ١٧٥١ ، ولكن ابنه ، وهو الذى سيصبح جورج الثالث ، استقى من هذه الصفحات بعض مواد عقيدته السياسية (٤١) . وكان المثل فى جوهره دعوة لنظام ملكى خير كذلك الذى سيحلم به فولتير و « الفلاسفة » فى الجيل التالى . فقد زعم بولنبروك أن انجلترا قد تردت فى هوة لا يقوى على انتشالها منها سوى ملك يرتفع فوق الشعب والأحزاب ، لا بل فوق البرلمان ، ملك يفيض على زمام السلطة ، ويعاقب الرشوة ، ويحكم كما يملك . ولكن الملك الوطنى سينظر الى سلطته لا على أنها حق الهى بل أمانة عامة ؛ لا مطلقة ، بل مقيدة بالقانون الطبيعى وحرىات رعاياه وحرية الصحافة وتقاليده المملكة ؛ وسيحكم على جميع المسائل حسب تأثيرها فى رخاء الشعب وسعادته (٤٢) . سيشرح التجارة باعتبارها أهم مصدر لثروة الأمة ؛ وسيقوى البحرية فى بريطانيا باعتبارها الحارس للاستقلال القومى ولتوازن القوى فى القارة .

كان « مفهوم الملك الوطنى » محاولة لبناء حزب جديد من المحافظين يلبس مبادئ الأحرار ويتألف من المحافظين الذين أقصوا عن الحكم والأحرار الساخطين ؛ حزب يرفض الولاء للاستيوارتيين ، يستهدف التوفيق بين الأرض والتجارة ، وبين الامبراطورية والحرية ، وبين الخدمة العامة والثروة الخاصة ★ . فلما نشر المقال (١٧٤٩) أصبح

★ قارن عبارة اللورد بيركنهد التى أجملت فكرة بولنبروك : « ذهب الأحرار للاستحمام ، فسرقت بولنبروك ملابسهم (٤٣) » .

الصيحة التي احتشد حولها الشباب المتحمس الذين تطلعوا الى الملكية بوصفهم « أصحاب الملك » لتطهر حكومة إنجلترا . وقد شكل الفلسفة السياسية لصموئيل جونسن وبت الأب والابن . وأوحى بالمحافظين الليبرالية التي دان بها بنيامين دزرايلي ، الذي أشاد كتابه « دفاع عن الدستور الانجليزي » (١٨٣٥) ببولنبروك أبا للديمقراطية المحافظة ، والرجل الذي أرمي باعادة تنظيمه العقل العام تنظيما كاملا الاساس لعودة المحافظين الى الحكم (٤٤) . لقد كان تأثير بولنبروك ودزرايلي هو الذي صب من جديد حزب التورى المهزوم ليخرج منه حزب « المحافظين » التقدمى فى إنجلترا اليوم .

٥ - كيف تنزلق الدول الى الحرب

وخلال ذلك تعاونت دعاية بولنبروك مع تلك الروح المقاتلة ، التي تسم بها برلمان تسلط المال على تفكيره ، على انهاء حكم ولبول الطويل ، وكان الوزير الحذر ، الذى أقام سلطته على صون السلام ، ينفر من التورط فى خصومات مع الدول الأجنبية ، فاتفق مع الكردينال فلورى - الذى كان يحكم فرنسا وفق مبادئ مماثلة - على الاحتفاظ أطول ما يستطيع بالسلام الذى أرسته معاهدة أوترخت ، وترك فيما عدا ذلك ادارة العلاقات الخارجية لأخيه الكفء اوراتيو . ولكن احتفاظ إنجلترا بجبل طارق ، وتنافس إنجلترا وإسبانيا على السيطرة على أمريكا والبحار ، ولدا عنفا أشد بمضى الزمن . وكان جورج الأول ووزيره ستانهوب قد أكدا لفليب الخامس ملك إسبانيا فى يناير ويونيو ١٧٢١ أن إنجلترا ستتخلى عن جبل طارق حالما تسمح بذلك مالية بريطانيا ويرتضيه مزاج البرلمان . ولكن الشعب البريطانى أبى أن يرتضى هذا الاستسلام (٤٥) . فلتتابع الآن الرواية الانجليزية لكيفية انزلاق إنجلترا الى الحرب ، فهي تبين غلو الجماهير فى وطنيتهم ونزاهة المؤرخين البريطانيين (٤٦) .

تقول الرواية ان شركة بحر الجنوب « استغلت استغلالا فاضحا » بذلك الامتياز الذى منحه إسبانيا لإنجلترا ، وهو السماح لها بارسال سفينة تجارية واحدة فى السنة الى الممتلكات الأسبانية فى الدنيا

الجديدة ، وأن « تجارة كبيرة غير مشروعة قامت » ، تنير الشركة بعضها ، وتخفي عن بعضها الآخر . وكان رد أسبانيا على هذا تفتيش السفن الانجليزية المشتبه فى قيامها بالتهريب . وزعم روبرت جنكنز أنه فى أحد هذه التفتيش (٧٣١) فقد احدى أذنيه ، وقد احتفظ بها ، وعرضها على الناس فى بريطانيا ، وطالب عاليا بالانتقام . وصادر الأسبان بعض السفن الانجليزية المشتغلة بالتجارة المشروعة ، وأبقوا الأسرى الانجليز راسفين فى الأغلال ، وقبض القراصنة الانجليز على بعض الأسبان وباعوهم رقيقا فى المستعمرات البريطانية . واستمر التهريب ، واحتجت الحكومة الاسبانية ، وتباطأ وليول الذى كان يكره الانتقاص من دخل شركة بحر الجنوب المكافحة للبقاء ، رغم انه اشدد فى عقاب التهريب على السواحل الانجليزية . وحذت طبقة التجار الانجليز الحرب ، واثقين من التفوق البحرى ، آمنين من الغزو ، متطلعين الى أسواق جديدة وتجارة متسعة . واثارت ثائرة الشعب قصص الوحشية الاسبانية ، الصحيح منها والباطل . وكان الانجليز المطالبون باتخاذ اجراء فى الأمر يشاد بهم وطنيين بواصل ، أما الذين نصحو بالاعتدال فرموا بالجبن والخور . وعرض جنكنز على البرلمان أذنه فى زجاجة (مارس ١٧٣٨) ، فالقى بقلته ، وبث ، وغيرهما من المعارضين لوليول خطبا حماسية عن شرف انجلترا * . وفى لحن عسكرى معارض نددت جماهير الشعب الاسباني بالانجليز كلابا مهرطقين ، وانطلقت عليها قصة زعمت أن ضابطا انجليزيا أكره اسبانيا نبيلاً على جدد أنفه وأكله .

أما الحكومتان فقد تصرفتا تصرفا معقولا . قنشر لأكوادرا ، كبير الوزراء الاسبان ، للاستهلاك الجماهيرى خطبا ساخنا وجهه الى وليول ، ولكنه أخبره سرا بأن أسبانيا ترحب بتسوية النزاع بعد المفاوضة . ثم وقعت الحكومة البريطانية - فى تحد لهذه السورة

* يقول هوراس وليول أنه حين مات جنكنز تبين أن له اثنين سليمتين تماما . وتحدث بيرك عن « خرافة أذن جنكنز (٤٧) » . ونسبت رواية أخرى سلم الأذن لفرسان علقته بعد ذلك الحكومة الاسبانية (٤٨) -

الجماهيرية الصاخبة - اتفاقية البارود مع إسبانيا (١٤ يناير ١٧٣٩)
وفيها نزل كل من الجانبين عن أشياء ، وشكلت لجنة لتسوية كل الشكاوى
المعلقة . وقبل نصف الشعب الاسباني المعاهدة ، ولكن انجلترا بأكملها
تقريبا أعلنت سخطها عليها . وشكت شركة بحر الجنوب من أن المعاهدة
ستنتقض من دخلها وأرباحها انتقاصا شديدا ، وكان السفير الانجليزي
بمدريد وكيلًا للشركة أيضا . يضاف الى هذا أن « الأزينتو » الذي
سمحت إسبانيا بمقتضاه لانجلترا بامداد أمريكا الاسبانية بالعبيد
الزنجار انتهى أجله في ٦ مايو ١٧٣٩ ، ورفض فليب الخامس تجديد
العقد (٤٥) . ومع ذلك استدعى ولبول الأسطول الانجليزي من البحر
المتوسط مواصلا سياسته السلمية ، ثم ألغى الأمر بعد أن اشتبه خطأ
في أن إسبانيا تبرم حلفا سرا مع فرنسا ، وأمر الأسطول بحماية جبل
طارق . واحتج لاكوادرا ، وقطع ولبول المفاوضات مستسلما لنوبة الحرب ،
التي أصابت البرلمان والشعب ، وفي ١٩ أكتوبر ١٧٣٩ أعلنت انجلترا
الحرب على إسبانيا . واغتبط الشعب الذي كان لا يزال ينعى ولبول
بالجبن ، وراحت أجراس الكنائس تفرع في انجلترا طولا وعرضا .
وكتب الآن جيمس طومسن أغنيته الشعبية المثيرة « احكمى يا بريطانيا »
التي أقسمت أن « البريطانيين لن يذلوا أبدا » .

وما من شيء يشد من أزر الحكومة عادة أكثر من اعلان الحرب ،
فعندها تكمم المعارضة المخلصة للوطن مدافعها . بيد أن وزارة ولبول
كانت استثناء للقاعدة . فلقد أحس خصومه بحق أن وزارته غير متحمسة
للجيوش الزاحفة أو للأساطيل التي تنفث النيران ؛ وحملوا سوء ادارته
تبعه الهزائم العسكرية كلها ، وعزوا كل الفضل في انتصار بحرى عند
بورتو بيللو (على برزخ بنما) لعبقرية الاميرال فيرنون الذي كان أحد
أعضاء المعارضة . وفي فبراير ١٧٤١ أقترح صموئيل سسائديز على
البرلمان أن ينصح الملك بأقالة رئيس وزرائه . وهزم الاقتراح ، ولكنه
لم يهزم ألا بفضل استجداء ولبول لأصوات الاستيوارتيين . وافصح له في
الوزارة عاما آخر ، غير أنه أدرك أن قد حان حينه ؛ وأن البلاد تريد
تغييرا .

ثم أنه أرقى . كتب ابنه يقول . « هذا الذي كان في السنين الماضية

يستغرق فى النوم حالما يمس رأسه الوسادة . . لا ينام الآن أبدا أكثر من ساعة دون أن يصحو ؛ والذى كان على المائدة ينمي دائما أنه وزير ، وكان أكثر مرحا وخلوا من الهموم من جميع رفاقه ، يجلس الآن دون كلام ، وعيناه جامدتان ، ساعة بطولها (٥٠) « . وجاءت الانتخابات الجديدة ببرلمان معاد له عداء ساحقا ، فهزمه فى أمر قليل الشأن ، وفى ١٣ فبراير ١٧٤٢ استقال . واذ كان أعجز من أن يواجه صخب مجلس العموم ، فانه لم يجد مشقة فى اقناع جورج الثانى بأن يمنحه لقب إيرل أكسفورد ، ويوصفه هذا هبط صعدا الى مجلس اللوردات . وكان قد جمع ثروة طائلة تحسبا ليوم سقوطه .

ومات فى ١٨ مارس ١٧٤٥ بالغا الثانية والستين ، بعد أن تجلد لمرض طويل مؤلم . وودعت انجلترا السلام ، وانطلقت لتتغزو العالم بزعامة « بت » بعد « بت » .

٦ - ارلنده : ١٧١٤ - ٥٦

لم يعرف التاريخ أمة ظلمت كما ظلم الارلنديون ، الا فيما ندر . فطوال الانتصارات المتكررة التى أحرزتها الجيوش الانجليزية على الثورات الوطنية ، شرعت مجموعة من القوانين قيدت الارلنديين بالأغلال جسدا وروحا . فصودرت أرضهم حتى لم يبق غير حفنة من الملاك الكاثوليك ، وامتلكها كلها تقريبا بروتستنت عاملوا فلاحيههم معاملة العبيد . يقول تشستر فيلد « ان الفقراء فى ارلنده يلقون من الملاك والسادة معاملة أسوأ مما يلقاه الزوج (٥١) » . ويقول ليكى « لم يكن من الغريب فى ارلنده أن يكون للكبار ملاك الأراضي سجون دائمة فى بيوتهم لعقاب الطبقات الدنيا عقابا عاجلا (٥٢) » . وكان كثير من الملاك يعيشون فى انجلترا ، ويفتقون فيها (حسب تقدير سويغت) ثلث الايجارات التى يدفعها المستأجرون الارلنديون (٥٣) . أما المستأجرون - الذين طحنتهم الايجارات التى يؤدونها للمالك ، والعشور التى يؤدونها للكنيسة الرسمية التى يمتقونها ، والفروض التى يؤدونها لقساوستهم - فكانوا يسكنون أكواخا من الطين يرشح الماء من سقفها ، ويمشون نصف عراة ، ويتضورون جوعا فى أكثر

الإحاليين ، وذهب سويقت الى أن « المستاجرين الارلنديين يعيشون حياة أسوأ من حياة المتسولين الانجليز (٥٤) » . وأما الملاك الذين ظلوا يقطنون ارلندة ، ووكلاء الملاك الغائبين ، فكانوا يستعبدون على همجية بيقتهم وعداوتها يحفلت الطعام والشراب الصاخبة المخمورة ، والضيافة المرفقة ، والشجار والمياوزة ، والمقامرة على رهانات كبيرة .

ولما كان للبرلمان البريطاني مطلق السلطان على ارلنده ، فانه خنق أي صناعة تنافس انجلترا . وقد رأينا في غير هذا الموضع كيف قضى قانون صدر في ١٦٩٩ على الصناعات الصوفية الوليدة بحظره تصدير الاصواف الارلندية الى أي بلد كائنا ما كان . وبالمثل خنقت القوانين الانجليزية بغير رحمة كل ما احتفظت به ارلنده من تجارة خارجية وسط زعازع السياسة وخراب الحروب . فأنقلت المصادرات الارلندية برسوم التصدير التي عزلتها عن جميع الأسواق تقريبا الا انجلترا (٥٥) ، وكان كثير من الارلنديين يعيشون على تربية الماشية وتصديرها لانجلترا ، ولكن قوانين ١٦٦٥ و ١٦٨٠ حظرت استيراد انجلترا لماشية ارلندة أو اغنامها أو خنازيرها ، أو لحم البقر أو الضأن أو الخنزير ، حتى الزبد أو الجبن . وكانت ارلندة تصدر حاصلاتها للمستعمرات الانجليزية ، فاشتراط قانون صدر في ١٦٦٣ الا تستورد سلع أوربيية للمستعمرات الانجليزية ، باستثناءات قليلة ، الا من انجلترا ، في مراكب انجليزية ، بحارتها انجليز . وماتت البحرية التجارية الارلندية . يقول سويقت « ان مزايا الموائع والمراقىء التي سخت بها الطبيعة على هذه المملكة ، ليست أكثر فائدة لنا من حلم جميل يراود رجلا حبس في زنرانة (٥٦) » .

وأرهقت القوانين التي شرعتها انجلترا لرعاياها الارلنديين البروتستنت كما أرهقت الكاثوليك ؛ وفي مناسبة مشهودة انضموا الى الكاثوليك في التمرد على الحكم البريطاني . وكان تصدير مال الايجارات للملاك الغائبين عن ارلندة قد خلق عجزا في العملة المهدوية بارلندة في ١٧٢٢ . وعرض ولبول تخفيف هذا العجز بإصدار عملة نحاسية . وكانت الخطة معقولة ، ولكن لوثها الفساد المألوف ، فقد «نُحِثت» دوقة كندال امتياز سك النقود الجديدة ، فباعته لوليم وود صاحب مصانع الحديد نظير ١٠٠٠٠ جنيه ؛ ولكن يجمع ولوم هذا المبلغ مضافا اليه ربحه

اقترح أن يسك ١٠٠ر٨٠٠ جنيه أنصاف بنسات أو أرباعها . ولما كانت حملة عملة أيرلندة المعدنية آنئذ لا تتجاوز ٤٠٠ر٠٠٠ جنيه ، فقد احتج الأيرلنديون بأنه سيكون ضروريا استعمال النقود النحاسية في المدفوعات وفي الصرافة ، ودفع الحسابات الأجنبية بما فيها إيجارات الملاك الغائبين بالفضة أو العملة الورقية ، وأن العملات الأرخص ستحمل الناس على اختزان العملات الأفضل أو تصديرها ، وأنه لن يكون في أيرلندة عما قليل عملة غير النقود النحاسية المزعجة . ورغبة في علاج هذه الشكاوى وافقت الحكومة البريطانية على خفض الاصدار الجديد الى ٤٠ر٠٠٠ جنيه وقدمت تقريرا من اسحاق نيوتن ، مدير دار سك النقود ، يقرر أن أنصاف بنسات وود وافية من حيث محتواها المعدني بشروط الامتياز ، وأنها أفضل كثيرا من العملات المورثة عن العهود السابقة .

عند هذا المنعطف دخل الجدل جوناثان سويفت ، الناظر الانجليكاني لكاتدرائية القديس باتريك بدبلن ، ينشره سلسلة من الرسائل تحت اسم مستعار هو م . ب . درابير ، هاجم فيها العملة الجديدة بكل ما في روحه من عنف وما في جعبته من هجو ، لأنها محاولة لغش الشعب الأيرلندي . وزعم أن العملة التي أرسلت الى نيوتن لاختبارها سكت خصيصا لهذا الغرض ، وأن الكثرة الغالبة من أنصاف بنسات وود تساوى أقل كثيرا من قيمتها الاسمية ؛ والواقع أن بعض الاقتصاديين أيدوا دعواه بأن قدروا أن أيرلندة ستخسر ٦٠ر٤٨٠ جنيهها بالاصدار الذي اقترح أولا (٥٧) . وفي الرسالة الرابعة انتقل سويفت الى اتهام قوى للحكم الانجليزى كله في أيرلندة ، ووضع هذا المبدأ « أن كل حكم بغير رضي المحكومين ما هو الا العبودية بعينها (٥٨) » . واستجاب الأيرلنديون ، بما فيهم أغلبية البروتستنت لهذه النعمة الجريئة في لهفة ، وراح الناس يغنون في الشوارع اغاني شعبية تحض على مقاومة إنجلترا . ووجدت الحكومة الانجليزية نفسها تتقهقر أمام قلم واحد ، وهي التي تحدثت شعبا بأكمله قرونا طوالا . وقدمت مكافأة من ثلاثمائة جنيه للقبض على الكاتب ، ولكن أحدا لم يجرؤ على اتخذه اجراء ضد الناظر العليم وإن هرفه المئات منهم . كذلك لم يجرؤ أي أيرلندي على أن يواجه غضب الشعب بقبوله العملة الجديدة . وسلم ولهبول بالهزيمة ، وألغى الاصدار ، وعرض

وود بمبلغ ٢٤ر٠٠٠ جنيه نظير مصروفاته التى أنفقها عبثا ومكاسبه التى تبخرت .

وقد استحالت كل مقاومة للسيطرة الانجليزية الا أن تكون من فعل الغوغاء أو عنف الأفراد ، وذلك بسبب بنيان السياسة الارلندية . ذلك أن البرلمان الارلندى بعد ١٦٩٢ كان كله من البروتستانت ، لأن شرط المنصب كان الولاء للكنيسة الانجليزية (٥٩) ، وكان الآن خاضعا كل الخضوع لانجلترا . وفى ١٧١٩ أكد البرلمان الانجليزى من جديد حقه الأعلى فى التشريع لارلنده . فالقوانين التى حمت الحرية البرلمانية أو الفردية فى انجلترا ، كقانون هابياس كوريس وقانون الحقوق ، لم تطبق على ارلنده ؛ أما الحرية النسبية للصحافة ، التى كانت تتمتع بها انجلترا ، فلم يكن لها وجود فى ارلنده . ولم يكن بين البرلمانين شبه الا فى فساد ناخبتهما وأعضائهما . وكان بينهما خلاف آخر فى غلبة نفوذ الاساقفة الانجليكان فى مجلس اللوردات الارلندى .

كانت الكنيسة الرسمية تضم نحو سبع السكان بين أتباعها ، ولكنها تعتمد على العشور التى تجنى من الفلاحين ، وكل هؤلاء تقريبا كاثوليك . واتبعت نسبة صغيرة من السكان المذهب المشيخى (الكلفنى) أو غيره من المذاهب المنشقة ، ونالت قسما من التسامح ، الا حقها فى مناصب الدولة . ولم يقتصر حرمان الكاثوليك على مناصب الدولة فقط بل تجاوزته الى كل المهن المراقية الا الطب ، وكل سبيل تقريبا الى التعليم العالى ، أو الثروة ، أو النفوذ (٦٠) . وحظر عليهم شراء الارض ، أو الاستثمار فى رهون على الارض ، أو حيازة أى ايجار طويل الأجل أو ذى قيمة . وحظر عليهم أن يكونوا محلفين الا عند الافتقار الى محلفين بروتستانت . ولم يكن فى استطاعتهم التعليم فى المدارس ، ولا التصويت للمناصب البلدية أو القومية ، ولا الزواج زواجا شرعيا من بروتستانتية (٦١) . وكان شرط عبادتهم أن يقوم بها كاهن سجل اسمه فى الحكومة وأقسم يمين التخلّى التى تنبذ الولاء لأمرة ستيوارت . أما غير هؤلاء من الكهنة فعقابهم السجن . ولكن هذا القانون نادرا ما طبق بعد ١٧٢٥ ؛ وفى ١٧٣٢ ذكرت لجنة فى البرلمان الارلندى فى تقرير لها أن فى ارلنده ١٤٥٠ كاهنا ، و ٢٢٩ كنيسة كاثوليكية ،

و ٥٤٩ مدرسة كاثوليكية . وبعد ١٧٥٣ خفف الانجليز من غلوائهم وتحسنت حال الكاثوليك فى ايرلندة .

وتضاfer اضطراب الحياة الدينية ، وفقر الشعب ، والياس من التقدم الاجتماعى ، ليهبط كل أولئك بمعنويات الحياة الارلندية .
فهاجر الى فرنسا أو أسبانيا أو أمريكا أكثر الكاثوليك كفاية وجراة ، ممن كانوا قادرين على النهوض بمستوى الكفاية والذكاء والأخلاق الارلندية . وانحدر الكثير من الارلنديين الى درك التسول أو الجريمة اتقاء الموت جوعا . واختبات عصابات اللصوص فى الريف ، واتخذ المهربون ولصوص السفن الغارقة من السواحل مكمنا ، واحتفظ بعض أصحاب الملكيات « ببلطجية » وصل عددهم أحيانا الى الثمانين لتنفيذ أوامره ، ضاربين بالقانون عرض الحائط . وذبحت العصابات الجوابة آلاف الماشية والاغنم ، انتقاما كاثوليكيًا - على ما يبدو - من الملك البروتستنت . وكان عسيرا على شعب أن يحترم القوانين التى يصدرها برلمان ارلندى طالما تحدث عن الكاثوليك - وهم ثلاثة أرباع السكان - بوصفهم « العدو المشترك » .

على أن الحياة الارلندية لم تخل من عناصر أكثر اشراقا . فقد بقى للشعب مزاجه البشوش ، الهادىء ، الضحوك ، خلال شدائده كلها ، وأحاطت خرافاته وأساطيره حياته بالمشح والشعر دون أن تفضي به الى عنف كذلك الذى اتسمت به اضطهادات السحرة والساحرات فى اسكتلندة وألمانيا . وكان بين الكليروس الانجليكانى فى ارلندة علماء أفذاذ (كالأسقف آثر ، أسقف أرما) ، وفيلسوف نابيه (هو جورج باركلى أسقف كلوين) ، وأعظم كتاب الانجليزية قاطبة فى الربع الاول من القرن الثامن عشر ، وهو جوناثان سويقت ، ناظر كتدرائية القديس باتريك . وجاهدت جمعية دبلن المؤسسة فى ١٧٣١ لتحسن التكنولوجيا فى الزراعة والصناعة ، وتحفز الاختراع ، وتشجع الفن . وكان هناك أمثلة كثيرة لأفراد من البروتستنت مدوا يد المعونة للكاثوليك الفقراء ، وقضاة لانوا فى تطبيق اللوائح الوحشية التى تضمنها قانون العقوبات .

ولكن صورة الحياة الارلندية كانت فى جملتها من اشد ما حواه التاريخ خزيا وعارا . فقر مذل ، وتمرد فوضى على القانون ، واملاق مترحل ، و ٣٤٠٠٠ متسول ، وعدد لا حصر له من اللصوص ، وطبقة عليا تعيش فى اسراف مخمور بين فلاحين يتضورون جوعا ، وكل اخفاق فى المحصول يجر مجاعة واسعة الانتشار - « فالشيوخ والمرضى يموتون وينتفون من البرد والمجاعة والقذارة والحشرات (٦٢) » - على حد قول سويفت . هذه الصورة الرهيبة يجب أن تجسد مكانا فى مفهومنا عن الانسان . وبعد الصقيع الطويل القاسي الذى اصاب ارلندة فى ١٧٣٩ جاءت مجاعة ١٧٤٠ - ٤١ القاسية ، التى هلك فيها حسب أحد التقديرات عشرون فى المائة من السكان ، مخلفين الكثير من القرى المهجورة . وفى مقاطعة كرى هبط عدد دافعى الضرائب من ١٤٣٤٦ فى عام ١٧٣٣ الى ٩٣٧٢ فى عام ١٧٤٤ . وقد رباركلى أن « الأمة فى أغلب الظن لن تعوض هذه الخسارة بعد قرن (٦٣) » ولكنه أخطأ التقدير . فما لبثت النساء أن ولدن الأطفال فى صبر ليعوضن من فقد من الموتى . وفترت الحماسة الدينية بين البروتستنت بانتشار التعليم ، واشتدت بين الكاثوليك كلما وحد الدين بينه وبين صراع الأمة فى سبيل الحرية . وسرعان ما عوضت النسبة العالية للمواليد ، التى جذبتها الكنيسة الكاثوليكية سلاحا سريا لها ضد معارضة ، عما ساءته المجاعة والوباء والحرب ؛ فما حلت سنة ١٧٥٠ حتى ارتفع سكان ارلندة من قرابة ٢٠٠٠٠٠ فى ١٧٠٠ الى نحو ٢٣٧٠٠٠ فى ١٧١٤ - ٥٦

٧ - اسكتلندة : ١٧١٤ - ٥٦

لم كان حظ اسكتلندة مختلفا اشد الاختلاف عن حظ ارلندة ؟ أولا لأن اسكتلندة لم تقهر قط ، بل انها على العكس من ذلك أعطت انجلترا ملكا اسكتلنديا . وكان لها فى شيوخ قبائل مرتفعاتها (الهالايندز) الذين لم يذلوا بعد ، طبقة من المقاتلين قادت الاسكتلنديين المرة بعد المرة فى غزوات لانجلترا . وكان أهل سهولها سلالة أنجلو - سكسونية ، ينتمون أساسا الى الاصل الذى ينتمى اليه الانجليز . اما تربتها فظلت ،

في قبضة أهلها الشديدي المراس . ولما دينها ، شانه شان الانجليكانية . فكان نقاج حركة الاصلاح البروتستنتى ، لا تركة موروثه عن الكنيسة الموسيطة ، وقد وحد صفوف الامة بدلا من أن يقسمها ، وبعهد قانون الاتحاد (١٧٠٧) شاركت اسكتلندة بنسبة السكان فى انتخاب البرلمان الذى أصبح الآن يسمى البرلمان البريطانى (أى الانجليزى - الويلزى - الاسكتلندى) ، وأذعننت لأن تحكم من لندن ، ولكن بعد أن انتزعت تنازلات تجارية اثرت الشعب الاسكتلندى . وحاولت كل أبرشية فى اسكتلندة أن تنشئ مدرسة لأطفالها ، ووفرت أربع جامعات بها أفضل ما وجد فى الجزر البريطانية آنئذ من تعليم عال . وقد ازدهر هذا النشاط التعليمى خلال القرن الثامن عشر فى حركة « تنوير اسكتلندى » دفعت الفكر الانجليزى دفعة قوية - أبطالها هيوم ، وهتشسن ، ورايد ، وروبرتسن ، وآدم سميث .

على أن هذا الانجاز الرائع اقتضى تحقيقه الكفاح الطويل ، وانقضت خمسون عاما قبل أن يؤتى الاتحاد اكمله . فقد كانت اسكتلندة فى ١٧١٤ لا تزال قطاعية النظام . كل اقليم فيها خارج المدن يحكمه نبيل كبير بوساطة أتباعه المقطعين ، والأرض تفلحها طبقة من المستأجرين الفلاحين ، موالين لسادتهم ، ولاحظ لهم من التعليم . ولكن الاتحاد السياسى مع انجلترا أخذ الآن يقوض ذلك البناء . كان الخلاء يسيطرون على البرلمان الاسكتلندى ، فلما اختتم عهد ذلك البرلمان وجد الممثلون الاسكتلنديون فى البرلمان البريطانى أنفسهم فى بيئة ينافس فيها نفوذ التجارة والصناعة نفوذ الأرض ؛ فتبنوا الأفكار والتكنولوجيا الانجليزية ، وما وافت سنة ١٧٥٠ حتى كان أصحاب صناعات اسكتلندة وتجارها يتحدون الزعامة القومية التى احتكرها الارجيليون ، والاثوليون ، والهاملتونيون ، والماربون . وكانت مغامرة ١٧٤٥ الاستوارتية آخر انتفاضة من انتفاضات السلطة القطاعية الاسكتلندية ، فلما اخفقت اندمجت حياة اسكتلندة الاقتصادية فى الاقتصاد الانجليزى ، وبدأ حكم الطبقات الوسطى . وفتح الاتحاد المستعمرات الانجليزية للتجارة الاسكتلندية ، وفى ١٧١٨ أطلقت جلاسجو أول سفينة اسكتلندية لتعبر الاطلنطى ، وما لبث التجار الاسكتلنديون أن انتشروا فى كل مكان . وتحسنت التكنولوجيا الزراعية

ووسائل النظافة الصحية فى المدن ، وهبطت نسبة الوفيات ، وزاد السكان من ١٠٠٠.٠٠٠ فى ١٧٠٠ الى ١٠٠.٠٠٠ فى ختام القرن وكانت ادنبره بسكانها البالغين خمسين ألفا فى ١٧٥١ ثالثة أكبر المدن فى بريطانيا العظمى ، فلم يفقها غير لندن وبرستول .

وظلت الكنيسة المشيخية على ولائها للاهوت الكلفنى ولاء يقرب من التعصب . ففى كل أحد يمشي الناس - أحيانا ميلين أو ثلاثة - ليختلّفوا الى كنائس عطلت من الزينة عطلا صارما ، ويستمعوا الساعات الى عظات وصلوات تؤكّد حتمية الجبر وأحوال الجحيم . وكان الكتاب المقدس الإلهام اليومى لكل أسرة اسكتلندية . وفدّر هيوم ، حتى سنة ١٧٦٣ ، فى مبالغة مّرة ، أن لكل رجل وامرأة وطفل فى اسكتلنّدة كتابين مقدسين (٦٤) ؛ أما الوعاظ فقليلو الحظ من التعليم ولكن فيهم تقوى صادقة وورعا مؤثرا ، يعيشون فى بساطة متقشفة ، وتدعم قدوتهم وتعاليمهم من ثبات الخلق الاسكتلندى ونزاهته . وكان شيوخ كل كنيسة وراعيها يراقبون فى تشدد كثير سلوك الرعية وكلامهم ، يوزعون العقوبات على الحلف ، والنميمة ، والشجار ، والسحر ، والفسوق ، والزنا ، وائى كسر ليوم الرب (الأحد) ، وائى انحراف عن عقيدتهم الرهيبة . وادان الرعاة الرقص ، وحفلات الزفاف ، والتفرج على المسرح . واستمروا يعقدون المحاكمات بتهمة السحر وان أخذت أحكام الاعدام بسببها تقل . ففى ١٧٢٧ أدينّت أم وابنتها بهذه التهمة ، وفرّت البنّت ، ولكن الأم أحرقت حتى الموت فى برميل من القار (٦٥) . فلما ألغى البرلمان الانجليزى (١٧٣٦) القانون الذى يعاقب السحر بالموت ، ندد شيوخ الكنائس الاسكتلندية بالالغاء لأنه انتهاك لأمر صريح أصدره الكتاب المقدس (٦٦) .

وكانت مدارس الأبرشيات التى تتفق عليها الكنيسة الاسكتلندية ، ومدارس الحضر التى تعينها المدن ، تعد الطلاب للجامعات . فوفد على ادنبره وإبردين وسانت أندروز وجلاسجو شبان تواقون للعلم من كل طبقة - من المزارع والمصانع ومن قصور الاقطاعيين وقاعات البارونات على السواء ، يدفعهم الشوق الى المعرفة ، ويحملون فى سبيلها كل عناء ؛ يعيش كثير منهم فى حجرات باردة على السطوح ، ويصيبون

أكثر غذائهم من زكية من الشوفان يحملونها دوريا من مزارع آبائهم . وكذلك كان الأساتذة قوما ذوى جلد وزهد ، ندر أن تقاضي أحدهم أكثر من ستين جنيها فى العام . وكاد اللاهوت فى الجامعات أن يكون لب المنهج - كما كان فى مدارس الأبرشيات . ولكن الآداب الكلاسيكية كانت تدرس ومعها قليل من العلوم ؛ وتأثر الذهن الاسكتلندى بفكر أوروبا العلمانى . من ذلك أن فرانسس هتشن ، الذى شغل كرسي الفلسفة الأخلاقية فى جلاسجو (١٧٢٩ - ٤٦) ، نحى الجدل الدجماطيقى ، وأرسى علم الأخلاق على أسس طبيعية . وشابت الهرطقة الأريوسية عقيدة الطلاب والأساتذة على السواء - وهى التى زعمت أن المسيح ، رغم الوهيته ، لم يكن معادلا لله الأب أو مساويا له فى أزليته . وذكر مؤلف اسكتلندى فى ١٧١٤ « الرواج الشديد بين شباب الأعيان والطلاب » لأفكار هوبز وسبينوزا (٦٧) . وكونت جماعات صغيرة من الشبان الذين ثملوا بخمر التحرر أندية - مثل « الجمعية الكبريتية » و « نار الجحيم » و « الفرسان سيئى السمعة » - تبشر بالألحاد فى تفاخر ؛ ولعلمهم اختلطوا بالساخطين الاستيوارتيين . ذلك أن اسكتلندة - اذا استثنيا طبقات التجار التى ارتبطت بالاقتصاد الانجليزى - كانت لا تزال تلتشى بذكرى أسرة ستىوارت ، وتحلم باليوم الذى يقود فيه جيمس الثالث ، أو ابنه ، الاسكتلنديين مرة أخرى عبر الحدود ليرد أسرة اسكتلندية الى العرش البريطانى .

٧ - الأمير تشارلى الجميل : ١٧٤٥

كان جيمس الثالث قد أفنى نفسه فى محاولات عقيمة لقيادة حملة على انجلترا أو اسكتلندة . وفى ١٧١٩ تزوج ماريا كلمنتينا سويسكا ، حفيدة أشهر ملوك بولندة ، وكان الزواج تعسا ، ولكنه أعطى جيمس ولدا كان وجهه الحلو وطبعه المرح - اللذان ربما ارتدا الى مارى ملكة الاسكتلنديين - مفخرة ومشكلة لأبويه . وأطلقت انجلترا على تشارلز ادورد ستىوارت هذا لقب « المطالب الشاب » ، أما اسكتلندة فسمته « الأمير تشارلى الجميل » . وشب تشارلز دون أن ينال من التعليم حظا كبيرا لأنه نشأ فى بيت يسوده الشقاق ، وتعلم مذهبين متناقضين على يد مذهبيه الكاثوليك والبروتستنت ، ولكنه وهب كل مفساتن الشباب

الرياضي ، وكل حماسة الرأس الملهوف على تاج . وقد افقتن دون ليوريا بما كان عليه الغلام من « جمال رائع » ، بعينيه العسليتين المرحتين ، وشعره البنى الفاتح ؛ فهو راكب جرىء ، وهداف ماهر ، ذو قوام فارغ طوله ستة أقدام خلق للحرب ، و « لاعب جولف جبار » ، وموسيقى ماهر ، وراقص رشيق - وقال الدوق ان هذا « على الجملة أكمل أمير لقيته (٦٩) » وكان تشارلز عليما بفضائله ، وهو ما جعله صعب المراس أحيانا . وفي ١٧٣٤ ، حين كان غلاما بعد لا يجاوز الرابعة عشرة ، سمح له بان يذوق طعم الحرب في الجيش الأسباني في جاييتا ، فلما أيقظ روحه خوض أول معاركه ، راح يترقب الفرصة على أحر من الجمر للاستيلاء على إنجلترا . وبدت الفرصة مواتية حين بدأ البراسان البريطاني ، رغم معارضة ولبول ، الاستباكات مع أسبانيا (١٧٣٩) . واستفحل هجوم فردريك الأكبر على سيليسيا (١٧٤٠) حتى أفضى الى حرب الوراثة النمساوية . وأرسلت إنجلترا جيشها الرئيسي الى القارة ، فأتى وقت أنسب من هذا ليضرب فيه الاستيوارتيون ضربة سريعة أخرى للظفر بالعرش الانجليزي ؟ ومن ثم كونوا في سكتلندة « الرابطة » (١٧٣٦) التي التزمت بتلك المغامرة ، وأوقدوا المبعوثين الى إنجلترا ليحرضوا على قيام ثورة استيوارتية ، وأرسلوا النداءات الى فرنسا طالبين المال ، والسلاح ، والجنود . وأمر لويس الخامس عشر سبع سفن حربية وأحدى وعشرين ناقلة جنود بالتجمع في برست والاستعداد لنقل عشرة آلاف مقاتل نحت امرة المريشال دساكس من دنكرك الى إنجلترا . وانتظر الأمير تشارلز في ايطاليا بفارغ الصبر دعوة من باريس لينضم الى الحملة . ولكن الدعوة لم تصل ، فغادر روما في ١٠ يناير ١٧٤٤ ، وركب ليل نهار الى فراسكاتي ، وليريتشي ، وجنوة واستقل سفينة الى أنتيب ، وركب كالمجنون الى باريس . أما أبوه المسن فظل في روما ، ولم تقع عليه عيناه بعد ذلك قط . واستقبل الملك تشارلز بالترحيب ، وأمدّه بمعونة مالية معتدلة . فمضى الى جرافلين ، وانتظر بصبر نافذ الأوامر بالابحار مع المرشال دساكس ، الذي انتظر الأسطول الفرنسي هو الآخر بصبر نافذ .

وحالفت الرياح والأمواج إنجلترا كالصاعقة . فصادف الأسطول الفرنسي بعد إقلاعه من برست (٦ فبراير) « بحرا رهيبا » و « ريحا

معاكسة كل يوم » . واصطدمت مراكبه ، وتحطمت صواريخه ، وعمت الغواصي حين وصل نبا بأن أسطولا انجليزيا من اثنتين وخمسين سفينة يقترب . وفر الفرنسيون رجوعا الى برست ، ولكن كثيرا من سفنهم فقد ، واصيب الباقي بضرر بليغ من الانواء . ومع هذا الغبا المثبط وصل فرنسا نبا بأن الامتنيوارتيين الانجليز مخلو الفظام خائرو العزيمة ، وأنه لا أمل في معونة منهم اذا وصل الفرنسيون . واخبر لويس ساكس بوجوب الاقلاع عن مشروع الغزو . أما انجلترا ، التي لم تدخل بعد الحرب مع فرنسا رسميا ، فشكت من أن وجود تشارلز على أرض فرنسا انتهاك لالتزامات المعاهدة . وأما تشارلز فقد اختبأ في باريس متنكرا ، واقسم لأصحابه أنه سيغزو انجلترا ولو اضطر الى الذهاب وحيدا في زورق مكشوف . وأرسل له أبوه رجاء بأن يحذر الاندفاع « الذي قد ينتهي بدمارك ودمار كل من يشاركوك فيه (٧٠) » . وفي أثناء ذلك كان مؤيدو تشارلز يدس بعضهم لبعض سعياء وراء النفوذ والمنح ، ويتهم بعضهم بعضا عنده ، حتى كتب يائسا « لقد ابتليت بلاء يزهديني في الحياة » (١٦ نوفمبر ١٧٤٤) .

واخيرا ، ورغم كل التحذيرات ، ودون استشارة البلاط الفرنسي ، قرر أن « يجرب حظّه » و « يغزو أو يموت » وأرسل عملاء الى اسكتلندا ليثير العشائر ، وبلغ عدم استعداد هؤلاء مبلغا جعلهم يفكرون في منعه من المجيء ، وكان المتشيعون من الانجليز لأسرة ستيوارت ، يلتمسون التراضي مع جورج الثاني ، محتذيين في ذلك حذو بولنبروك . ورغم ذلك اقترض تشارلز ١٨٠.٠٠٠ جنيه ، وقبل عرضا بسفينتين مسلحتين ، وأبحر الى اسكتلندا (١٥ يوليو ١٧٤٥) . وعلى مقربة من « لاندز اند » التقت القافلة الصغيرة ببارجة بريطانية ، ولحق باحدى سفينتي تشارلز من العطب ما حملها على العودة الى برست . وانطلق هو في الاخرى شمالا الى غربي انجلترا ، وفي ٣ أغسطس رسا على أرض اسكتلندا عند اريسكا ، في جزر الهيريد الخارجية . ونصحه زعيم عشيرة بأن يعود الى وطنه . فاجاب الامير « اننى في وطني » . وأذير بأن الحكومة البريطانية قد أعلنت في أول أغسطس عن مكافأة تبلغ ٣٠.٠٠٠ جنيه لمن يأتي به أسيرا ، حيا أو ميتا . وكان جواب تشارلز أن صرف السفينة التي أقلته ، وهكذا قطع على نفسه خط

الرجعة . وفى ١٩ أغسطس رفع رايقته فى جلينفينان بأقليم المرتفعات ، ودعا كل أنصار أسرته ليعينوه .

وظل معظم زعماء العشائر متحفظين ، وتآمر بعض من زعموا انهم أتباع له ليشوا به ، وأعلن ستة أشراف انضمامهم اليه ، وكان ألف ومائتان من بين رجاله الألفين من عشيرتى مكدونلد وكمرن . وقاد تشارلز جماعته جنوبا متحاشيا قوات الحكومة التى يقودها السر جون كوب . وفى ١٧ سبتمبر دخل أدنبره ، واستولى على المحرس والبوابات ، وثبت رئيسهما فى قصر هوليرود ، الذى كان يوما ما القصر الملكى الذى جادلت فيه مارى ستيوارت جون نوكنس ، ونسي فيه جيمس السادس والأول أمه . وكان مظهر الأمير البالغ من العمر آنئذ خمسة وعشرين ربيعا يأخذ بالآلباب فى بزة أهل المرتفعات ، بسرويله المخملية الحمراء وقلنسوته المخملية الخضراء ، وعقدة شريطها البيضاء . وركع كثير من الاسكتلنديين الذين ظنوا أن مجد أمتهم قد عاد من جديد فى شخص ذلك الفتى المليح وقبلوا يده ، وصلت كل النساء من أجله وهفت قلوبهن اليه . وما كاد يذوق حلاوة استقباله حتى نسي اليه نبا اقتراب كوب من أدنبره فى ألفين من جنوده . وفى ٢١ سبتمبر قاد تشارلز رجاله الذين بلغوا الآن ثلاثة آلاف ، والتقى بجيش كوب برستونبانز ، ودحره ، وأسر أسرى كثيرين ، وترفق بهم ، ثم عاد الى هوليرود مكللا بالغار ، وبدأ أنه قد ظفر باسكتلنده .

وأمر تشارلز وهو مطمئن شهرا بعد المعركة بالطعام والذباب لجنده ، ورحب بانضمام عشائر أخرى اليه . وبعث له لويس الخامس عشر بالمال والسلاح من فرنسا . وفى ٨ نوفمبر عبر الأمير السعيد الحدود راجلا الى انجلترا على رأس ٥٠٠ رجل مقاتل ، وحاصر كرليل واستولى عليها ، ولقى الترحيب فى مانشستر ، ثم سار حثيثا الى داربى ، آملا بتقديمه المثير أن يحمل انجلترا على استقباله ملكا شرعيا لها . وأذاع منشورا تعهد فيه بأنه لن يصيب الأنجليكان والمشيخيين بعد اليوم منه ، وهو الكاثوليكي الرومانى ، اذى أكثر مما أصابهم على يد جورج الأول اللوثرى (٧٢) . غير أن انجلترا لم تصدقه ، وكرهت أن تعاود من جديد ذلك الصراع المضى الذى بخاصه المذهب الجديد ضد القديم .

ومع أن أحداً في إنجلترا لم يكذباً ليقاوم تشارلز ، فإن حفنة من الجند الانجليز فقط هي التي خفت لنجدته . واتخذ الانجليز المتشيعون لأسرة ستيوارت موقف الحذر والسلامة .

وكان جورج الثاني قد هرع عائداً من هانوفر ليحمي عرشه المهدد وأمر ثلاثة جيوش انجليزية بالتجمع في داربي . وكان رأى تشارلز أن يتجاهلها ويندفع في طريقه الى لندن بألافه الستة ، ولكن زعماء عشائره الاسكتلنديين أبوا أن يتبعوه . ونبهوه الى أن كل جيش من جيوش الحكومة الثلاثة عدته عشرة آلاف مقاتل ، وأن هؤلاء إذا لحقوا بمؤخرة جيشه ضيقوا عليه الخناق وتكاثروا عليه بعد قليل ، وأن الانتفاضة الاستيوارتية التي وعدهم بها لا أثر لها ، وأصروا على العودة الى اسكتلندة حيث يتاح لهم أن يثيروا مزيداً من العشائر ويتلقوا الامداد من فرنسا . وأذن تشارلز ، وقاد التفهقر الأليم من داربي الى جلاسجو . وعند فالكرك القريبة منها هزم بتسعة آلاف مقاتل قوة انجليزية عدتها عشرة آلاف بقيادة هوللى (١٧ يناير ١٧٤٦) . ولكنه كان نصراً باهظ الثمن ، فقد أضعفت جيشه الخسائر وهروب الجنود منه ، وكانت أمداده آخذة في النضوب ، ورواتبه تدفع دقيقا ، وقواده ينشاجرون شجار العشائر . وعادوا ينصحونه بالتفهقر ، ودافع الأمير عن رأيه في الصمود ، فهو لم ير في المزيد من التفهقر غير التفكك والدمار ، فلم يهربون من عدو ليس أقوى من ذلك الذي هزموه من قبل ؟ ثم أذن مرة أخرى ، ولكنه أيقن الآن أنه مغلوب . وعاد الجيش الاسكتلندى متجهاً الى اقليم المرتفعات . وسرى تشاؤم قواده بقوة في صفوف الجند ، فبلغ الهاربون منهم الوفا ، وما بقى كان أقرب الى الحشد المختل اليائس منه الى الجيش .

وخلال ذلك دخلت القوة الانجليزية الرئيسية بقيادة دوق كمبرلاند اسكتلندة ، وسيطرت على الساحل الشرقى ، وتلقت عند ليث تعزيزاً من خمسمائة هسي جلبهم جورج الثانى من النمسا . وزحف كمبرلاند بجيش عدته ٨٨٠٠ مقاتل شمالاً مخترباً مقاطعة انفرنيس . وهناك التقى به تشارلز عند كلودن مور فى ٦ أبريل ١٧٤٦ ، بسبعة آلاف مقاتل

سيئى السلاح والغذاء والقيادة ، قاتلوا ببسالة اسكتلندية ، ولكن بطشت بهم مدفعية كمبرلاند المتفوقة التى قذفت قنابل الشظايا (كما قال شاعر اسكتلندى) « أكياسا من الرصاص حصدتهم حصدا ، أجل بالعشرات ، كما يتساقط العشب أمام المنجل (٧٣) » . وركب تشارلز هائجا ، وحاول جمع شتات رجاله المتقهقرين ، ولكنهم لاذوا بالفرار منطلقين فرادى ، وأرغمه مساعدوه على الانسحاب من المعركة بالقبض على عنان جواده . ففر فى ثفر من أصحابه وقد تحطمت روحه ، وهام على وجهه مختبئا من ملجا الى آخر ، مكررا مأساة تشارلز الثانى ، بعد أن فارقه المجد . وأخيرا (٢٠ سبتمبر) وجد مركبا أقله لفرنسا .

وطارد كمبرلاند أعداءه المدحورين وأصدر أوامره لجيشه « بالا تاخذه بهم رحمة » . غل اسكتلندى ثائر يجب قتله فورا . وفتشت البيوت ، وضرب بالنار على عجل كل الاسكتلنديين الذين عثر على سلاح معهم . وأطلقت العشائر الموالية لجورج الثانى على تلك التى انضمت الى الثورة ، وأحرقت مئات المنازل (٧٤) . وقال الدوق « ان الاجراءات المعتدلة لن تجدى ، وكل الخير الذى صنعناه ليس الا قصدا ضبلا لم يشف من الجنون وان خففه (٧٥) » . والحق ان العشائر المتردة حاولت المرة بعد المرة أن تجدد النمرد . وظل دةة الاستيوارتية الاسكتلنديون يتغنون ويحلمون بهزائم الماضي وانتصارات المستقبل ، الى أن تحطم ايمانهم بالانحلال الذى أصاب من كان يوما أميرهم الجميل فى روما .

ذلك معاهدة اكس - لا - شابل (١٧٤٨) المبرمة بين انجلترا وفرنسا اشترطت طرد تشارلز من الارض الفرنسية . ولكنه رفض الرحيل ، فأكرهته عليه الجنود الفرنسية ، وعاد متذكرا الى باريس ، لا بل الى لندن فى ١٧٥٠ ، وعبثا حاول أن ينفخ روحا جديدة فى قضية الاستيوارتيين ، وان يعد بالتخلي عن المذهب الكاثوليكي (٧٦) . وأخيرا ، وبعد أن سلم بالهزيمة ، تردى فى مهاوى السكر والفسق ترديا حمل كل القوى الكاثوليكية الكبرى على التكر له . ومات فى روما عام ١٧٨٨ ، بالغا الثامنة والستين . وكان فولتير قبل ذلك

بثلاثين عاما قد كتب قبرية منصفة للثورة الاستيوارتية الثانية قال فيها:

« وهكذا ، (برجوع تشارلز الى فرنسا فى ١٧٤٦) انتهت مغامرة كان من الجائز أن توفق فى أيام الفروسية الجواله بحثا عن المغامرات ، ولكن ما كان يمكن أن تنجح فى عصر يقرر فيه الانضباط العسكرى ، والمدفعية ، وأهم من ذلك المال ، كل شيء فى نهاية الأمر (٧٧) » .

٩ - صعود وليم بت : ١٧٠٨ - ٥٦

أسلم سقوط ولبول انجلترا الى سلسلة من الوزارات الصغيرة التى تخبطت فى فوضى سياسية وحروب غير حاسمة . فحكم اللورد ولنجتن بوصفه وزير الخزانة (١٧٤٢ - ٤٣) فى أرض الوطن بينما كان جورج الثانى يقاتل ببطولة مسرحية ، ولكنها حقيقية ، فى معركة ديتنجن (٢٧ يونيو ١٧٤٣) . كتب فردريك الأكبر يقول « لزم ملك انجلترا مكانه على رأس كتيبته الهانوفرية طوال المعركة ، وقدمه اليسرى الى الخلف ، وسيفه فى يده وذراعه مبسوطة ، أشبه ما يكون بمعلم المثاقفة (٧٨) » ، ولكنه على أى حال ألهم رجاله بشجاعته ، فى حين أطاع فى تواضع أوامر قواده . وأعادت وزارة هنرى بلام (١٧٤٣ - ٥٤) انجلترا الى حظيرة السلام ، ولكنها واصلت طريقة الحكم بشراء الأصوات فى الدوائر والبرلمان . وحدد أخوه دوق نيوكاسل تسعيرة لساسة انجلترا ، ضمنها - لدواعى الموازنة - جدولا بسعر السوق الحالى لكل نفس (٧٩) وأبقى ماثرة لهاتين الوزارتين أنهما ضمتا الرجل الذى صنع الامبراطورية البريطانية ، والذى برز فى زمانه المضطرب ذاك شخصية من أقوى شخصيات التاريخ .

ولد وليم بيت (١٧٠٨) ابنا للمال ، لأن جده توماس بت كان جمع ثروة طائلة فى الهند . وكان توماس نفسه رجلا يحسب له حساب . فقد عمل بحارا فى سفينة تجارية واستقر فى البنغال ، واشتغل بالتجارة فى منافسة مشروعة لشركة الهند الشرقية التى كان البرلمان قد منحها احتكارا . وقد غرم ١٠٠٠ جنيه ، وواصل منافسته للشركة ، وأكرهها على الصلح ، ثم انضم إليها ، وظل اثنتى عشرة سنة حاكما على

مدراس . فما حل -عام ١٧٠١ حتى كان قطبا ماليا بملك من المال ما مكّنه من شراء « ماسة بت » الشهيرة بعشرين ألفا من الجنيهات ، ومن الذكاء ما مكّنه من بيعها لـغليب أورليان ، الوصي على عرش فرنسا ، بمبلغ ١٣٥٠٠٠ جنيه ، وهى محفوظة الآن - بعد أن ارتفعت قيمتها الى ٤٨٠٠٠٠ جنيه ، بين مجوهرات الدولة الفرنسية فى متحف اللوفر شاهدا متالفا على هبوط العملات . واستثمر توماس مكاسبه فى العقارات الانجليزية ، واشترى مقعدا فى البرلمان ، ومثل فيه دائرة أولد ساروم « العفنة » من ١٧١٠ الى ١٧١٥ . وأوصى بممتلكاته لـروبرت بت ، أكبر أبنائه الذى تزوج هاربيت فلييه ، التى أنجبت له سبعة أطفال ، كان ولیم بت ثانى ولد فيهم .

واحتج ولیم على النظام المفروض على الطلاب وهو فى 'بتن' ، وذهب 'الى ن تسخير كبارهم لصغارهم يحطم روح الطلبة ؛ على انه لم يحطم روحه . ' وقد اشتهر فى اكسفورد بمعاتناته من النفس وهو فى الثامنة عشرة . واذ راوده الامل فى البرء من هذا الداء اذا عاش فى مناخ أدفا ، فانه ترك الجامعة دون أن يحصل على درجة منها وسافر الى فرنسا واطاليا ، ولكن النقرس ظل صليبه الذى حملـه طـوال انتصاراته . ومع ذلك انخرط فى الجيش ، وخدم فيه أربع سنين ، ولم يشهد معركة ، ولكنه خرج مقتنعا بان الحرب هى فيصل التاريخ وتقدر الدول . وفى ١٧٣٥ اشترت له أسرته أصوات دائرة أولد ساروم ، رغم نها تركته فى فقر نسبي باعتباره ابنا أصغر ، وهكذا بدأ سيرته فى البرلمان .

وسرعان ما أسمع الناس صوته هناك ، لانه كان أبلغ خطيب عرفه كهف الجدل والمناظرة ذاك اطلاقا . فلقد سكب فى خطبه كل قوة خلقه العاطفى المشبوب ، وكل تصميمه على الوصول الى السلطة ، وعزمه على خلع ولبول ، وعلى السيطرة على البرلمان والملك ، وأخيرا اعادة تشكيل أوربا على هواه . وتحقيقا لهذه الاهداف توسل بالمنطق ، والدراما ، والخيال ، والحماسة ، والشعر ، والعبارة الطنانة ، والقذح والتهكم ، والهجو واستنفار الروح الوطنية ، واستثارة المصلحة والمجد الشخصيين والقوميين . وبمضي السنين طور براعته الخطابية حتى

استوعبت كل أفانين الخطباء المفوهين كديموستين أو شيشرون ؛ فكان فى وسعه أن يحطم خصما بعبارة واحدة . وقد اتبع قاعدة ديموستين فجعل الحركة حياة الخطاب ، فكان لكل سطر ايماعته ، وكانت كل عاطفه تشكل وجهه الشبيه بوجه الصقر وتنفذ فى عينيه الغائرتين ، حتى لينفعل بدنه كله وكان الكلمة صارت جسدا . لقد كان اعظم ممثل أجنبى خشبة المسرح .

ولم يكن وليا ولا قديسا . فالطمع كان صارى خلفه والريخ النى ندفع فى قلوبه . ولكن هذا الطمع كفر عن نفسه بانتظامه انجلترا بأسرها ، وأفنى نفسه بجبرته انجلترا ، رضيت أو كرهت ، فوق البحار الامبراطورية لبلوغ السيادة على العالم . واذا شعر وليم بأنه الصوت المعبر عن الدولة أكثر من أى صوت حلقى هانوفرى ، أو أى رشا ولبولية ، فقد اتخذ لنفسه مبدأ الحكومات الخلقى - وهو أن كل ماينفع الدولة فهو خير ؛ واذا كان قد توصل بالخدعة ، والافتراء ، والتخويف ، والدس ، ونكران الجميل ، والحنث باليمين ، والغدر ، فإن تلك بضاعة رجل الدولة ، ولا يحكم عليها الوعاظ بل الملوك . وكان فى كل خطوة تقريبا فى صعوده يتنكر لموقف دافع عنه قبيل ذلك بكل سمو العاطفة الخلقية (٨٠) ، ونذر أن توقف لئفسير أو يعتذر ، بل كان يركب كل مركب يبلّغه هدفه ، وقد أضفى نجاحه - الذى كان نجاحا لانجلترا - القداسة على ذنوبه وطوق رأسه بهالة المجد والفخار . وكان فى كبريائه شي جليل ؛ فقد كان يحتقر شراء الترقى بالنذل ، واحتفظ بنظافة يده وسط الفساد والرشوة ، وحقق غاياته بقوة شخصية عاتية لا يقف فى طريقها عائق .

وقد طارد ولبول لأنه رأى بائعا يتجر بالسلام ، وانسانا جبانا لا يجرؤ على خوض حرب ضد اسبانيا ، شديد الخنوع للملك يبدى - فى رأى بت - « نحو هانوفر تحيزا سخيفا ناكرا للجميل غادرا » ، ملك « لا يعتبر انجلترا غير اقليم من أقاليم امارة حقيرة (٨١) » . ولقد واصل الخطيب الغيور سياسته الحربية فى قوة وحدد حملت دوفة ملبره وهى على فراش الموت سنة ١٧٤٤ على أن توصي لبت بعشرة آلاف جنيه ، ولا غرو فقد ورثت سارة ولع زوجها الدوق الراحل بالحرب .

فلما تقلد بلام الوزارة طلب الى الملك تعيين بت وزيرا للحرب ؛ ورفض جورج الثانى وكان لا يزال محترقا بنار بت ، ولكن بلام الح ، ووصف بت بأنه « أكفأ وانفع رجل بيننا ، شريف حقا وأمين بكل ما فى الكلمة من معنى (٨٢) » ، وأذعن الملك ، وفى ١٧٤٦ دخل بت الوزارة ، أولا بوصفه مناويا لوزير الخزانة الارلندية ، ثم خازنا للقوات المسلحة . وكان هذا المنصب قد أصبح بحكم التقاليد منجم ثروة لمن يتقلده ، فالخازن يأخذ لنفسه نصفاً فى المائة من جميع الاعانات التى يقررها البرلمان للأمراء الاجانب ، ويستثمر بالفائدة - التى يحتفظ بها لنفسه - الرصيد السائل الكبير المتروك لديه لدفع رواتب الجند . وأبى بت أن يأخذ غير راتبه الرسمى ، فلما الح عليه ملك سردانيا فى أن يقبل هدية تعادل الاستقطاع العادى من اعانته رفض الهدية . وصفت انجلترا لنزاهة بت الشاذة ، وهى التى طالما اعتبرت مثل هذه المنح اشباعا عاديا لطبيعة الانسان ، واصغت فى شوق الى مرافعاته المطالبة ببريطانيا شامخة الرأس فوق العالم بأمره .

وفى يناير ١٧٥٥ ، ودون اعلان للحرب ، نشب القتال بين انجلترا وفرنسا فى أمريكا . وفى يناير ١٧٥٦ وقعت انجلترا معاهدة مع بروسيا . وفى مايو أبرمت فرنسا حلفا دفاعيا مع النمسا . وفى نوفمبر أصبح بت ، وزير الخارجية الآن ، صوت انجلترا وذراعها فى حرب السنوات السبع تلك التى ستقرر خريطة أوربا حتى الثورة الفرنسية .

الفصل الرابع

الدين والفلسفة

١ - الموقف الدينى

كان لقصة القرن الثامن عشر فى غرب أوربا موضوع ذو شقين ، انهيار النظام الاقطاعى القديم ، والانهيار الوشيك للدين المسيحى الذى أضفى على ذلك النظام سنده الروحى والاجتماعى . فقد كانت الدولة والدين مرتبطين برباط المعونة المتبادلة ، وبدأ أن سقوط الواحد يجر الآخر الى مأساة مشتركة .

وقد لعبت انجلترا الفصل الاول فى كلتا ناحيتى هذا التغيير العظيم . ففى المسرح السياسى سبقت حربها الأهلية (١٦٤٢ - ٤٩) الثورة الفرنسية بمائة وسبعة وأربعين عاما فى خلع أرستقراطية اقطاعية وضرب عنق ملك . أما فى مجال الدين فان نقد الربوبيين للمسيحية سبق الحملة الفولتيرية فى فرنسا بنصف قرن ، وسبقت مادية هوبز مادية لامترى بقرن ، وسبقت رسالة هيوم « فى الطبيعة البشرية » (١٧٣٩) ومقاله « فى المعجزات » (١٧٤٨) هجوم « الفلاسفة » الفرنسيين على المسيحية فى « الموسوعة » (١٧٥١) . وكان فولتير قد تعلم شكوكيته فى فرنسا - وبعضها أخذه عن بولنبورك الانجليزى المبعد عن وطنه - قبل أن يحضر الى انجلترا ولكن السنوات الثلاث التى قضاها فى انجلترا (١٧٢٦ - ٢٨) روعته بمشهد السنية وقد أصابها الانحلال والكاثوليكية وقد ذلت ، والبروتستنتية وقد تفرقت شيعا مستضعفة ، والربوبيين يتحدون كل شيء فى المسيحية الا الايمان بالله - وهو بالضبط التحدى الذى سيحمله فولتير الى فرنسا . يقول فولتير « فى فرنسا ينظر الناس الى على أننى مقلد فى الدين ، وفى انجلترا على أننى "ميرف فيه (١) » .

وقد كتب مونتسكيو بعد أن زار انجلترا فى ١٧٣١ يقول « ليمس

فى انجلترا دين (٢) « . وهذا بالطبع تدريب على المبالغة اللافتة للنظار ، لأنه فى تلك الفترة بعينها كان جون وتشارلز ولى يؤسسان الحركة الميثودية فى اكسفورد . ولكن مونتسكيو ، وهو رجل ارستقراطى ، تنقل أكثر ما تنقل بين أقطاب النبالة أو العلم ، وهو يخبرنا أنه فى هذه الجماعات « اذا ذكر الدين ضحك الجميع (٣) » . وهذا أيضا يبدو غلوا فى القول ؛ ولكن لنستمع الى اللورد هرفى ، الذى كان يعرف تقريبا كل رجل وامرأة ومنحرف بين عليّة القوم :

« ان خرافة المسيحية هذه ٠٠٠ قد نسفت الآن (١٧١٨) فى انجلترا ، حتى ليكاد أى رجل عصرى أو ذى مكانة يخجل من الاعتراف بمسيحيته خجله فى الماضي من الجهر بتجرده من أى دين . وحتى النساء اللاتى كن يعخرن بذكائهن حرصن على أن يفهمن الناس ان الميول المسيحية هى ما يحتقرن الالتزام به (٤) » .

فى تلك الطبقات أو العقول الرفيعة كان الدين يعنى اما نعاس صلاة القداس الانجليكانى أو « حماسة » المذاهب المنشقة ، وعمّا قليل سيعرف الدكتور -جونسن الحماسة بأنها « ايمان مغرور بالالهام الخاص » - وبالمعنى الحرفى « إله فى باطن الانسان » . وكانت الكنيسة الرسمية قد فقدت كرامتها ونفوذها بمساندتها الاستيوارتيين ضد الهانوفريين وحزب الأحرار المنتصر ؛ وخضعت الآن للدولة ، وغدا نساوستها أتباعا أذلاء للطبقة الحاكمة . وكان القسيس الريفى هو الهدف المفضل لهجو الأدباء أو سخريّة السوق ، وقد كرم فيلدنج من شذوا عن هذه القاعدة فى شخص النفس ادمز . وغلبيت الفوارق الطبقيّة فى الكنائس ، فكان للأغنياء مقاعد خاصة قرب المنبر ، وجلس عامة الناس أو وتفسوا فى المؤخرة ، فإذا فضيت الصلاة لزم العامة أماكنهم ريثما يخرج صف الكبراء فى وقار بطيء (٥) . وفى بعض كنائس لندن ، حين يكثّر عدد الفقراء القادمين للعبادة ، كان المصلون من أصحاب البواريك يهربون بعد أن يقفلوا مقاعدهم خلفهم (٦) ، ملتصين هواء أكثر نقاء .

وكان بعض الأساقفة الانجليكان أمثال بطرر ، وباركلى ، ووربرتون ، رجلا متبحرين فى العلم ؛ وكان اثنان من هؤلاء على خلق عظيم ، ولكن

أكثر كبار الأكليريوس كانوا فى مناوراتهم للترقى يشاركون فى لعبة السياسة شكاك البلاط ومحظياته ، ويفنون فى حياة الترف دخول كثير من الأبرشيات . وقد روى أن الأسقف تشاندلر دفع ٩٠٠٠ جنيه لترقيته من لتشفيلد الى درم ، أما ويليز أسقف ونشستر ، وبوتر رئيس أساقفة كذتريرى ، وجبسن وشرلوك أسقفا لندن ، هؤلاء جميعا ماتوا « أغنياء غنى مخزيا » وبلغت ثروة بعضهم ١٠٠ر٠٠٠ جنيه (٧) . ولم يكن شكرى يطيقهم ، فقال :

« قرأت أن الليدى يارموث (خليفة جورج الثانى) باعت أسقفية لكاهن بمبلغ ٠٠٠ره جنيه أكان هو الحبر الوحيد فى عصره الذى قادته أيد كهذه الى المحراب ؟ اننى اذ اختلس النظر الى داخل قصر سانت جيمس الذى يقطنه جورج الثانى ، أرى الثياب الكهنوتية الكثيرة تحدث حفيفا وهى تصعد السلم الخلفى لسيدات البلاط ؛ قساوسة متسترين يدسون أكياس النقود فى حجورهن ، وذلك الملك العجوز الفاجر يتعاب تحت مظلمته فى المصلى الملكى أثناء عظة القسيس ، الواقف أمامه ، (أو) يثرثر بالألمانية . . . بصوت يبلغ من علوه أن القسيس . . . انفجر صارخا فى منبره لأن حامى الايمان وموزع الأسقفيات لا يريد الاصغاء اليه ! (٨) » .

وكان من سمات العصر أن الكنيسة الرسمية أصبحت شديدة التسامح مع عقائد أعضائها وطقوسهم المختلفة . وقد وصفها بت بأنها « عقيدة كلغنية ، وطقوس بابوية ، وأكليريوس أرمنيوسي (٩) » أى أن العقيدة الرسمية كانت جبرية ، والطقوس شبيهة بطقوس روما الكاثوليكية ، ولكن روحا متحررة سمحت للقساوسة الأنجليكان برفض حتمية كلفسن واعتناق تعليم المهترطق الهولندى أرمنيوس القائل بحرية الإرادة . لقد ازداد التسامح لأن الايمان اضمحل ، وآية ذلك أن هرطقات كهرطقة هيوم ، كانت تزوع انجلترا القرن السابع عشر لو جهر بها انسان ، لم تحدث غير موجة طفيفة على نهر الفكر البريطانى . وقد وصف هيوم نفسه انجلترا بأنها « استكانت الى حال من عدم الاكتراث الهادى بامور الدين لا تجدها فى أى أمة أخرى من أمم الأرض (١٠) » .

وكان كل الانجليز ملزمين بالعبادة الانجليكانية حسب نص القانون . فكل متخلف عن صلوات الاحد عرضة لتغريمه شلنا عن كل تهرب ، وكل من يسمح لهذا المتخلف بمساكنته يعاقب بغرامة عشرين جنيهها فى الشهر (١١) ؛ على ن هذه القوانين ندر أن طبقت . وكانت العبادة الكاثوليكية محرمة ، قانونا أيضا لا تطبيقا . فالقس الكاثوليكي الذى يؤدى وظيفة كهنوتية عقابه الحبس المؤبد . ومثل هذه العقوبة فرضت لثنى أى كاثوليكي عن فتح مدرسة ؛ وحرم على الوالدين ارسال ابنائهم الى الخارج ليتعلموا تعليما كاثوليكييا والا غرموا ١٠٠ جنيه . ولا يحق شراء الأرض أو ورثها الا للمواطنين الذين أقسموا يمينى الولاء والسيادة (باللتين تعترفان بملك انجلترا رأسا للكنيسة) وقرروا رفضهم لعقيدة التحول . وكل كاثوليكي يرفض أداء هاتين اليمينين يحرم من المناصب المدنية أو العسكرية ، ومن ممارسة المحاماة ، ومن اقامة أى دعوى أمام القضاء ، ومن العيش فى نطاق عشرة أميال من لندن ؛ يضاف الى هذا أن هذا الكاثوليكي يجوز فى أى وقت نفيه من انجلترا والحكم عليه بالاعدام اذا عاد اليها . على أن الذى حدث فعلا أيام جورج الاول والثانى هو أن الكاثوليك كانوا يورثون ثروتهم وعقيدتهم بانتظام لابنائهم ، ويستطيعون الاستماع الى القداس فى كنائسهم الصغيرة ويوتهم دون معوق ، وأن الكثيرين منهم أدوا اليمينين المطلوبتين مع تحفظ بينهم وبين أنفسهم (١٢) .

وكان كل البروتستنت الانجليز الغيورين الآن يتبعون المذاهب المنشقة على الكنيسة الرسمية . وقد ضحك فولتير واغتبط لكثرة عددهم : مستقلون (بيورتان) ، ومشيخيون ، ومعمدانيون ، ومجمعيون ، وكويكريون ، وتوحيديون . فاما المشيخيون (البرزيتيريون) فكانوا فى طريقهم الى التسامح بعد أن فقدوا سلطتهم السياسية ، ولم يأخذوا عقيدة الجبر مأخذ الجد الشديد ، وكان كثير منهم قانعسا فى صمت بمسيح بشرى (١٣) . وفى ١٧١٩ قرر مجمع للقساوسة المشيخيين بأغلبية ٧٧ الى ٦٩ أن التعهد بالتزام عقيدة الثالث التقليدية ينبغى الا يكون شرطا يفرض على المرشحين رعاة للكنيسة (١٤) . وأما الكويكريون فكانوا فى نمو لا فى العدد بل فى الثراء ، وكلما ارتقوا فى مدارج المجتمع أصبحوا أكثر تقبلا لأساليب حياة البشر وذنوبهم . على أن ميلا الى الاكتئاب

أصاب كل المنشقين تقريبا حتى وهم ينعمون بالثراء ، وبينما كانت طبقات المجتمع العليا تجعل من يوم الاحد يوم جذل كانت الطبقة الوسيطة الدنيا - حيث يتكاثر المنشقون - تواصل « الأحد العبوس » الذى ورثته عن البيورتان . فى ذلك اليوم كانت الأسرة عقب صلوات الصباح فى البيت تمضي الى قاعة الاجتماع لحضور خدمة دينية تمتد ساعتين ، فاذا عادت الى البيت قرأ الأب الكتاب المقدس أو الكتب التقوية على زوجته وأبنائه الذين قد يجلسون على مسائد فوق أرض عطلت من الأبسطة . وكانوا عادة يذهبون ثانية الى خدمات دينية تقام عصرا ومساء ، ويمسكون جماعة ، ويسمعون عظة أخرى ، ويجدون بعض اللذة فى ترتيل الترانيم الجهنورية . ولم يكن مسموحا بأى غناء فى ذلك اليوم المقدس ، ولا بلعب الورق ، ولا بأى تسلية من أى نوع كانت بصفة عامة . ويجتنب السفر فى يوم الرب ، فيعطى قطاع الطرق بهذه الطريقة يوم راحة .

ووجد فولنير فى معرض وصفه للمشهد الدينى فى انجلترا الكثير مما يلاحظ درسنا لفرنسا التى مازال التعصب يحكمها . قال :

« انظر الى بورصة الأوراق المالية الملكية بلندن ... هناك يجرى اليهودى والمسلم والمسيحي معاملاتهم معا وكانهم من دين واحد ، ولا ينعثون بالكفر غير المفلسين . هناك يثق المشيخى بالقائل بعماد الكبار ، ويعتمد الانجليكاني على كلمة الكويكرى . فاذا انفض هذا الجمع الحر مضي بعضه الى مجمع اليهود ، وبعضه ليشرب كأسا من الخمر . هذا الرجل يذهب ويعمد فى حوض هائل باسم الأب والابن والروح القدس ؛ وذاك يأمر بختان ولده ويتمتمة طائفة من الكلمات العبرية التى يجهل كل الجهل معناها فوق الطفل ؛ وآخرون (الكويكريون) يمشون الى كنائسهم - حيث ينتظرون الوحي وقبعاتهم على رموسهم ؛ والكل راضون .

« ولو ان انجلترا لم تسمح بغير دين واحد ، لأصبحت الحكومة فى أغلب الظن مستبدة ؛ ولو كان هناك دينان فقط لذبح الناس بعضهم بعضا ؛ أما والاديان بهذه الكثرة ، فانهم جميعا ، يشون فى سعادة وسلام (١٥) » .

٢ - التحدى الربوبى

تضافرت عوامل كثيرة على تقويض صرح العقيدة المسيحية فى انجلترا : ارتباط الكنيسة بصعود الاحزاب السياسية وسقوطها ؛ وازدياد الثروة ومطالب اللذة فى طبقات المجتمع العليا ، ودولية الافكار بغضل التجارة والسفر ، والالهام المتزايد بالاديان والشعوب غير المسيحية ، وتكاثر الملل وتبادل النقد فيما بينها ، وتطور العلم ، وازدياد الايمان بالاسباب الطبيعية والقوانين الثابتة ، والدراسة التاريخية والنقدية للكتاب المقدس ، واستيراد او ترجمة كتب خطيرة مثل « معجم » بيل و « الرسالة اللاهوتية السياسية لسبينوزا » ، والكف عن رفاة الدولة على المطبوعات (١٦٩٤) ، ومكانة العقل الصاعدة ، والمحاولات الجديدة للفلسفة ، فى أعمال بيكون ، وهوبز ، ولوك ، لتفسير العالم والانسان تفسيرات طبيعية و - تلخيصا لكثير من هذه العوامل - حملة الربوبيين (المؤلهة) Deists لاختزال المسيحية الى مجرد الايمان بالله والخلود .

وكانت تلك الحركة قد بدأت بكتساب « الحقيقة » لهربرت لورد تشربرى فى ١٦٢٤ ، ونمت خلال القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر بتشارلز بلاونت ، وجون تولاند ، وآنثونى كولنز ، وواصلت الان سيرها باثر متراكم فى أعمال هويستن ، وولستن ، وتذال ، ومدلتن ، وتشب ، وآنت ، وبولنبروك ، وقد طرد وليم هويستن الذى خلف نيوتن استاذ « لوكازيا » للرياضة فى كمبردج من منصبه ذاك (١٧١٠) لأعرابه عن بعض الشكوك فى الثالث ، فدافع عن أريوسيته فى كتاب « احياء المسيحية البدائية » (١٧١٣) ، وأجهد نفسه ليثبت أن تنبؤات العهد القديم لا تشير الى المسيح . فلما أقلق المدافعون عن المسيحية عن اتخاذ الحجج من التنبؤات ، وبنوا ألوهية المسيح على المعجزات المروية فى العهد الجديد ، أطلق توماس وولستن مورته التى خلت من التوقيع للمسيحية فى « ستة أحاديث عن معجزات مخلصنا » (١٧٢٧ - ٣٠) . يقول فولتير « لم يهاجم المسيحية قط مسيحى بمثل هذه الجراءة (١٦) » . وقد زعم وولستن أن بعض المعجزات لا تصدق ، وبعضها غير معقول . ووجد أن مما لا يصدقه

العقل أن يلعن المسيح شجرة تين لأنها لم تثمر تينا فى وقت مبكر من العام كوقت الفصح . وتساءل ماذا كان مربو الأغنام لصوفها فاعلين بيسوع لو أنه دفع أغنامهم الى الموت كما فعل بخنازير الجدرين ؛ انهم كانوا « يستصرون حكما باعدامه شنقا » ، لأن القانون الانجليزى يعتبر هذا العمل جنائية كبرى (١٧) . وذهب وولستن الى ان قصة قيامة المسيح خدعة مفتعلة خدع بها الرسل سامعيهم . وغطى هذا كله بتأكيدات زعم فيها أنه ما زال مسيحيا « قويا كالصخرة » . ومع ذلك أهدى كل حدية الى أسقف مختلف ، مع التنديد بكبرهم وجشعهم تنديدا حملهم على رفع دعوى القذف والتجديف عليه (١٧٢٩) . وحكمت عليه المحكمة بدفع غرامة قدرها مائة جنيه ، وبتقديم ضمان لسلوكه سلوكا حميدا فى المستقبل . فلما عجز عن جمع المبالغ المطلوبة زج به فى السجن . وقدم فولتير ثلث المبلغ ، وجمع الباقي ، وأفرج عن وولستن . ولا شك أن المحاكمة كانت اعلانا عن « الأحاديث » ، فبيع منها ستون ألف نسخة فى بضع سنوات (١٨) . روت « سيره لوولستن » بقلم كاتب مجهول (١٧٣٣) كيف أنه وهو سائر فى سانت جورجز فيلدرز ، « لقيته شابة وسيمة وخاطبته بهذه الكلمات ... أيها الوغد العجوز ، ألم تشنق بعد ؟ » فأجابها وولستن « أيتها المرأة الطيبة ، أنا لا اعرفك . ففولى لى من فضلك بم أسأت اليك » ؛ فأجابت المرأة « لقد هاجمت محلصى ، فما الذى يحدث لنفسى الخاطئة المسكينة ، لولا محلصى الحبيب ؟ - محلصى الذى مات من أجل الخطاة الأشرار مثالى (١٩) » .

وبلغت الدعوى الربوبية ذروتها فى ماتيو تندال ، زميل كلية جميع النفوس باكسفورد . فبعد حياة هادئة محترمة كان أهم ما ميزها اعتناقه الكاثوليكية ثم تحوله عنها ، نشر وهو فى الثالثة والسعين أول مجلد من كتابه « المسيحية قديمة قدم الخليقة » (١٧٣٠) . وخلف عند موته بعد ثلاث سنوات مخطوطة مجلد ثان وقع فى يد أسقف فائتلفه . وفى وسعنا أن نقدر وقع المجلد الأول من الردود التى حاولت مناقضته وعددها ١٥٠ ، وهذا الكتاب هو الذى ابتعث كتاب الأسقف بطر « أوجه الشبه بين الدين والطبيعة » وكتاب الأسقف باركلي « السيفرون » (أو الفيلسوف الصغير) .

وقد طوفتندال فى غير ترفق بكل اوهام اللاهوت . فتساءل لم اعطى الله وحيه لشعب صغير واحد هم اليهود ، وجعله حكرا عليهم اربعة الاف سنة ، ثم ارسل اليهم ابنه يوحى آخر مازال بعد ألف ومبعمائة سنة مقتصرا على اقلية من الجنس البشرى . فإى نوع من الالهة يمكن أن يكون هذا الاله الذى استعمل هذه الطرق السقيمة بمثل هذه النتائج البطيئة المذاقة ؟ وإى اله رهيب هذا الذى عاقب آدم وحواء على طلب المعرفة ، ثم عاقب كل ذراريهم لمجرد أنهم ولدوا ؟ يقال لنا ان السخافات التى يتضمنها الكتاب المقدس سببها أن الله وفق كلامه للغة سامعية وأفكارهم . فإياه من هراء ! لم لم يستطع أن يحدثهم بالحقيقة البسيطة بصورة مفهومة ؟ ولم استخدم الكهنة وسطاء له بدلا من أى يتحدث مباشرة الى نفس كل انسان ؟ ولم سمح بأن يصبح دينه الموحى لشعب بعينه أداة اضطهاد ، وارهاب ، وحرب ، لا يخرج منه البشر بعد قرون من هذا التدبير الالهى أكثر فضيلة منهم عن ذى قبل ؟ - بل جعلهم فى الواقع اشد ضراوة وقسوة عما كانوا فى ظل العبادات الوثنية ! أليس فى كونفوشيوس أو شبرون فضيلة أرفع مما فى مسيحية التاريخ ؟ ان الوحي الحقيقى موجود فى الطبيعة ذاتها ، وفى عقل الانسان المنروح من الله ؛ والاله الحقيقى هو الاله الذى كشف عنه نيوتن ، المهندس لعالم عجيب يعمل بعظمه وجلال وفق قانون ثابت ؛ والفضيلة الحقة هى حياة العقل فى انسجام مع الطبيعة ، « نكل من ينظم مبوله الفطرية بحيث تؤدى الى أقصى حد لاستخدام عقله ، وصحة جسده ، ولذات حواسه ، مجتمعة كلها معا (لأن فى هذا سعاده) - له أن يثق بأنه لا يمكن أن يَغضب خالقه الذى اذ يحكم كل الانسياء حسب طبائعها فهو لابد يتوقع من مخلوقاته العاقلة أن تسلك وفق هذه الطبائع (٢٠) » . تلك هى المبادئ الحقة ، تلك هى المسحاة الحقة « القديمة قدم الخليفة » .

وواصل كونيرز مدلتن الهجوم من الزاوية التاريخية . فبعد أن تخرج فى كلية ترنتى بكمبردج رسم قسيما ، وبينما كان يكيل الضربة تلو الضربة للإيمان السننى ، واصل الممارسات الخارجية للعبادة المسيحية . وقد كتب طرفا من أفضل النثر فى عصره ، وكتابه « سيرة شيشرون » (١٧٤١) ما زال الى اليوم مسيرة رائعة رغم كثرة

ما استعارة من سير شيشرون التي سبقته . وقد أبهج زملاءه القساوسة حين أرسل الى انجلترا « رسائل من روما » (١٧٣٩) ، التي بين فيها بتفصيل ينم على علم ودراية رواسب الطقوس الوثنية المتخلفة فى مجموعة الطقوس الكاثوليكية - البخور ، والماء المقدس ، وآثار القديسين ، والمعجزات ، والقرايين المنذورة والأنوار القائمة أمام المزارات المقدسة ، و « كبير الأبحار Pontifex Maximus » القديم الذى أصبح كبير أبحار روما Pontiff . وصفقت انجلترا البروتستنتية للرسائل ، ولكنها سرعان ما تبينت أن ولع مدلتن بالتاريخ يمكن أن يكدر صفو اللاهوت البروتستنتى كالكاثوليكي سواء بسواء . فلما دافع دانيال ووترلاند عن حرفية صدق الكتاب المقدس ووحيه ردا على تندال ، أنذر مدلتن فى « رسالة الدكتور ووترلاند » (١٧٣١) اللاهوتيين البروتستنت بأن تشبههم بكل أساطير الكتاب المقدس باعتبارها تاريخا فعليا ليس الا عملا انتحاريا ، لأن تقدم المعرفة سوف ينبذ أن عاجلا أو آجلا مثل هذه الخرافات ويكره المدافعين المسيحيين على التقهقر فى خجل الى موقف أكثر تواضعا . ثم لجأ مدلتن الى حجة فضحت ما كان لدراسته للتاريخ من أثر فى ايمانه الدينى فقال : « حتى ولو كان اللاهوت المسيحى لا يصدق ، فان المواطن الصالح سيساند المسيحية والكنيسة المسيحية باعتبارهما درعا للنظام الاجتماعى يوفر روادع ممتازة للهمجية الكامنة فى طبيعة البشر (٢١) » .

وأخيرا أصدر مدلتن أهم أعماله ، « تحقيق حر فى القوى الاعجازية المزعوم أنها وجدت فى الكنيسة المسيحية خلال العصور المتعاقبة » (١٧٤٨) - وهو كتاب عدّه هيوم بعد ذلك أسمى من مقاله المعاصر « فى المعجزات » (١٧٤٨) . وقد بدأ بالتسليم بحجية المعجزات المنسوبة فى الاسفار القانونية من العهد الجديد الى المسيح أو رسله ، وأراد أن يظهر فقط أن المعجزات المنسوبة الى آباء الكنيسة وقديسيها وشهادتها بعد القرن الميلادى الاول غير جديرة بالتصديق ، ومجرد سرد تلك القصص يكفى للكشف عن سخفها . وقد أمّن بعض آباء الكنيسة على مثل هذه القصص وهم يعلمون زيفها ؛ ونقل مدلتن عن موزهايم ، المؤرخ الكنسي العلامة ، تصريحه بالخوف من أن « الذين يبحثون بشئ من العناية كتابات أعظم وأقدس لاهوتى القرن الرابع

سيجدونهم كلهم وبلا استثناء ميلين الى الخداع والكذب كلما اقتضت ذلك مصلحة الدين (٢٢) .

وفى كتاب مدلتن عيوب كثيرة . ففقد فاته انه هو ايضا زكى الخداع بالجملة دعما للمسيحية ، وغفل عن ان من التجارب الغريبة ، كاخراج « المس الشيطاني » ، او كسماع القديس انطونيوس للشيطان واقفا ببابه ، ما يمكن ان ينشا عن قوة الايحاء او الخيال ، وربما بدت هذه التجارب من قبيل المعجزات لمن رووها بامانة . على اى حال كان من اثر هذا « التحقيق الحر » انه سلط على معجزات العهد القديم ثم على معجزات العهد الجديد ، طرق النقد ذاتها التى طبعتها مدلتن على عصر آباء الكنيسة ، وكان خصومه الكاثوليك محقنن تماما حين زعموا ان حججه من شأنها اضعاف كل الاساس الاعجازى للانسان المسيحى . ولعل مدلتن قد قصد الى هذا . ولكنّه احتفظ بترققاته الكنسية الى النهاية .

كان اعتناق بولنبروك للربوبية سرا مخفى وعدوى متفشية فى الطبقة الارستقراطية . ففى كتاباته التى حبسها عن النشر فى حياته صوّب قدحه المفعم بالازدراء الى جميع الفلاسفة تقريبا فيما عدا ببيكون ولوك . فلقب افلاطون بابى الكذب اللاهوتى ، وسمى القديس بولس « حاملا متعصبا » ولينتر « مشعوذا كيميائيا (٢٣) » والميتافيزيقيين « مجانين متقفين » ووصف كل القائلين بتميز النهر عن الجسد بانهم (٢٤) « معتوهون روحيون » وسحر من العهد القديم لانه خليط من الهراء والاكاذيب (٢٥) . ولقد صرح بايمانه بالله ، ولكنه رفض ما بقى من العقيدة المسيحية . فكل المعرفة عنده نسبية وغير يقينية . يقول : « ينبغى لنا دائما ان نكون غير مؤمنين ٠٠٠ ففى الدين ، والحكم ، والفلسفة ، ينبغى ان نتشكك فى كل شيء مقرر (٢٦) » والقى وراء ظهره باخر تعزيات الشكاك وهى الايمان بالتقدم ؛ فكل المجتمعات تمر بدورات « من النشوء الى الفساد ، ومن الفساد الى النشوء (٢٧) » .

وفى ١٧٤٤ ورث بولنبروك ضيعة الاسرة فى باترسى ، وغادر

فرنسا لينفق هناك آخر سنَى صراعه مع المرض واليأس . وهجره أصحابه القدّامى لانتهاء نفوذه السياسى وحدة طبيعه . وأنهى موت زوجته الثانية (١٧٥٠) اهتمامه بشئون البشر ، « فى كل سنة ازداد عزلة فى هذه الدنيا (٢٨) » وهذا عقاب الأنانية . وفى ١٧٥١ ابتلى بالسرطان الذى انتشر من وجهه فأملَى وصية تتسم بالتعوى ، ولكنه رفض أن يسمح لأى قميس بالاهتمام بروحه (٢٩) . ومات فى ١٢ ديسمبر بعد ستة شهور من العذاب ، بغير أمل لا لنفسه ولا للآخر . لقد أخذ اضمحلال الايمان الدينى يولد ذلك التشاؤم الذى سيصبح العلة الخفية التى تبتلى بها النفس العصرية .

٣ - الدشع الدينى

أما المدافعون عن المسيحية فلم يقابلوا الهجوم الريبوى بأى استسلام أو هزيمة ، بل انهم على العكس من ذلك ردوا الهجوم بكل ما أوتى تندال أو مدلتن أو بولنبورك من قوة عارمة ، وعلم واسع ، واسلوب مقذع . وأعتمد المدافعون الأضعف شأننا ، مثل تشاندلر أسقف لتشفيلد ، ونيوتن أسقف لندن ، على الحجج البالية ، وهى أن اليهود كانوا ينتظرون فى حرارة وشوق مجيء « المسيا » حين أتى المسيح ، وأن كثيرا من النبؤات اليهودية تحققت على يديه ؛ أو رجعوا - كما فعل شلوك أسقف لندن وبيرس أسقف روتشستر - الى الشواهد الكثيرة على قيامة المسيح . وركز شلوك وغيره على أن الأدلة على معجزات المسيح غامرة ساحقة ، وفيها الكفاية لدعم ألوهية المسيح والمسيحية . وقال شلوك أن رفض حدث توافرت الأدلة على صدقه لأنه يناقض تجربتنا عمل شديد الخطر ، فعلى الأساس نفسه رفض سكان المدايرين أن يؤمنوا بحقيقة الثلج . فإذا زعمنا أن الأشياء لا يمكن أن تكون غير ما عرفناها ، « تجاوزنا اعلام حواسنا ، وقامت النتيجة على الهوى لا على العقل (٣٠) » . وليس فى امكاننا التأكد من أن الانسان لن يقوم من الأموات برغم تجربتنا الواسعة ، الضيقة فى حقيقتها . فانظر كم من العجائب التى نقبلها الآن على أنها أحداث عادية فى حياتنا كنا من قبل نظننها بعيدة التصور !

أما جورج باركلي ، الذى ترك بصمته على الفلسفة . فى السنوات ١٧٠٩ - ١٣ ، فقد أدلى بدلوه فى الجدل من جزيرة رود بكتابه « السيفرون » أو الفيلسوف الصغير (١٧٣٣) ، وهو حوار يتالق بالتفكير الجرىء والأسلوب المرح . والسيفرون هذا يصف نفسه بأنه رجل حر التفكير ، تقدم من التسامح الدينى الى الربوبية الى الالحاد ، وهو الآن يرفض الدين كله باعتباره خداعا يمويه به الكهان والحكام على الناس ؛ وهو يأبى الايمان بأى شيء غير الحواس ، والعواطف ، والميول القطرية ؛ وينذر بوفرانور (لسان حال باركلي) الربوبيين بأن عقيدتهم مفضية الى الالحاد ، وأن الالحاد سيفضي الى انهيار الفضيلة . قد يكون هناك بعض المحدثين الأفاضل ، ولكن ألا تولد عقيدتهم ، اذا ما قبلتها الجماهير ، الاباحية والتمرد على القانون ؟ وهؤلاء المتشككون فى الدين ينبغى أن يتشككوا فى العلم أيضا ، لأن كثيرا من دعاوى العلماء - كما هى الحال فى الرياضة العليا - تتجاوز تماما شهادة حواسنا أو تناول فهمنا . وما من شك فى أن عقيدة التثليث ليست أعصى على الفهم من الجذر التربيعى لناقص واحد .

وأما وليم وربرتن فلم يكن بالرجل الذى يرسى ايمانه أو موارده الكنسية على أساس واه كجذور باركلي الصماء . فبعد أن درّب لممارسة المحاماة ، ورسم قسا انجليكانيا ، شق طريقة وسط غابة اللاهوت بكل ما أوتى الذهن القانونى من براعة يقظة . ولعله كان أصحح للجيش منه للمحاماة أو لرداء الكهنوت ، إذ كان يستطيب العراك ، وما كان يستطيع النوم فى الليل الا اذا أردى خصما فى النهار . وقد وصف حياته بأنها « حرب على الأرض ، أى على المتعصبين والمنحلين ، الذين أعلنت عليهم الحرب الابدية كما فعل هانيبال أمام المذبح (٣١) » . واتسع مرمى سهامه وبعد ، فاذا أخطأت الخصوم قتلت الاصدقاء . وقد وصف معاصريه بأوصاف محكمة . فجونسن « بلطجى » خبيث وقح ، وجاريك « اذا انحرف مرة وتكلم كلاما له معنى كان أقرب الى الهراء » ، وسموليت « اسكتلندى متشرد » يكتب « لغوا مضروبا فى عشرة آلاف » ، وفولتير « وغد » يتمرغ فى « أقذر مالعوات التفكير الحر (٣٢) » .

وقد ظهرت رائحته الضخمة ذات المجلدين فى ١٧٣٧ - ٢١
بجنوان « رسالة موسى الالهية مفسرة طبقا لمبادئ ربوبى دينى »
. وكانت حجتها مبتكرة وفذة . فالايمان بحالة مستقبله من الثواب
والعقاب لا غنى عنه للنظام الاجتماعى (وهو ما وافق عليه الكثير من
الربوبيين) ، ولكن موسى وفق فى تنظيم الحياة اليهودية وإبلاغها
حالة من الرخاء والفضيلة بغير ذلك الايمان ، ولا تفسير لهذه المعجزة
الا بالارشاد الالهى لموسى واليهود ، ومن ثم رسالة موسى ونواميسه
الهيبة ، والكتاب المقدس كلمة الله . وأحس ويرتن أن هذا الايضاح
« قريب كل القرب من اليقين الرياضى (٣٣) » ولم يكن زملاؤه
اللاهوتيون سعداء كل السعادة برأيه فى أن الله أرشد اليهود خلال
٦١٣ قانون وأربعة آلاف سنة دون أن يعلمهم أن نفوسهم خالدة . ولكن
المؤلف القوى ملا صفحاته ببحوث علمية - عن طبيعة الفضيلة ، وعن
التحالف الضرورى بين الكنيسة والدولة ، وعن ديانات الامرار والشعائر
فى العصور القديمة ، وعن أصل الكتابة ، وعن معنى الرموز
الهيروغليفية ، وعن التاريخ المصرى ، وعن تاريخ سفر أيوب ، وعن
أخطاء أحرار الفكر ، والآثريين ، والعلماء ، والمؤرخين ، والتوحيديين
والأتراك ، واليهود - حتى لقد ذهلت انجلترا بأسرها لثقل علمه
واتساع مداه . وتقدم ويرتن من معركة الى معركة - ضد كروساز ،
وثيوبولد ، وبولنبروك ، ومدلتن ، ووسلى ، وهيوم - حتى بلغ أسقفية
جلوستر المريحة المجزية .

وأما جوزف بطلر فكان ألين عودا ولكنه أكثر رهافة وتهذبا ،
رجلا بالغ الرقة والتواضع والاحسان ، حَزَّ فى نفسه كثيرا أن يرى
الدين الذى أعان على فطم الحضارة الكوربية من الهمجية ، يواجهه
امتحانا من أجل حياته . وقد صدمه الاقبال الذق لقبته مادية هوبز
فى الطبقات العليا . فلما عرضت عليه (١٧٤٧) رأسه أسقفية كنتربرى -
وهى أعلى منصب كنمى فى انجلترا - رفضها معتذرا بأن قد « فات
وقت محاولة دعم كنيسة متداعية (٣٤) » . وفى ١٧٥١ أعرب عن
خزعه « لما أصاب الدين من التحلل شامل فى هذه الأمة . فتأثيره يبنى
أكثر فأكثر فى أذهان الناس . . . وعدد الذين يجهرون بالكفر فى
ازدياد ، وتحسهم للكفر يزداد بتزايد عددهم (٣٥) » . وقد ادتهش

صديقه « دين تكرر » بسؤاله : ألا يجوز أن تصاب الأمة كما يصاب الفرد بالجنون ؟ وكأنه شعر أن شعبا من الشعوب قد يصاب بفقد الذاكرة الروحي إذا تخلص عن تراثه الدينى والخلقى .

ومع ذلك كرس حياته فى محاولة لرد اعتبار عقلى للايمان المسيحى . فنشر وهو ما زال قسيما شابا فى الرابعة والثلاثين « خمس عشرة عظه » (١٧٢٦) لطف فيها من تحليل هوبز المتشائم للطبيعة البشرية ، فزعم أن الانسان وان كان فى نواح كثيرة شريرا بطبيعته ، الا أنه بطبيعته أيضا كائن اجتماعى أخلاقى ، فيه احساس فطرى بالحق والباطل . وقال ان العناصر الاسمى فى كيان الانسان تدين بأصلها لله ، الذى هى صوته ، وعلى هذا الاساس اقام نظرية عامة تقول بأن هناك قصدا الهيا يتخلل العالم . وأعجبت كارولين بحجته ، وفى ١٧٣٦ عين بطلر كاهنا خاصا للملكة .

فى ذلك العام نشر كتابا ظل طوال قرن أهم حصن لحجج المسيحية ضد اللاحاد ، واسمه « وجه الشبه بين الدين الطبيعى والموحى ، وبين تكوين الطبيعة ومسلكتها » وقد كشفت مقدمة الكتاب عن مزاج العصر :

« لقد انتهينا - ولا أدري كيف انتهينا - الى حال أصبح فيها من القضايا المسلمة عند الكثيرين ، أن المسيحية ليست موضوعا يكثر فيه البحث والتحقيق الا لأنه قد تبين آخر الأمر أنها ديانة زائفة . ومن ثم يتناولونها وكان هذا بات الآن نقطة يجمع عليها كل أصحاب الفطنة والتمييز ، فلم يبقَ ألا أن يجعلوا منها هدفا رئيسيا للهزء والسخرية ، وكأنهم يعاقبونها لأنها قطعت على الناس لذات الدنيا هذا الزمان الطويل (٣٦) »

واذ تقدم بالكتاب أن يكون ردا على الربوبيين ، فإنه افترض وجود الله . رداً على الدين الطبيعى « الذى يدين به الربوبيون يقبل » اله الطبيعية « ، مخطط العالم وصانعه الأعظم ، ولكنه يرفض الآله الذى صورته الكتاب المقدس ، وهو اله ظالم ظلما بيانا ، لأنه لا يتفق أبدا وهذا المفهوم السامى . وأراد بطلر أن يبين أن فى الطبيعة من علامات الظلم

والقسوة ما لا يقل عما فى « يهوه » كما صورته العهد القديم ؛ وأنه لا تناقض بين اله الطبيعية واله الوحى ؛ وأن الذين قبلوا أحدهما ينبغي منطقيا أن يقبلوا الآخر . ويبدو أن كاهن الملكة الخاص ، الطيب ، لم يدر بخلده قط أن بعض الشكاك الوقحين قد يخلصون من هذه الحجة (كما خلص جيمس مل) الى أنه لا هذا الاله ولا ذاك جدير بأن يعبد المتحضرون .

وأقام بطلر حجته فى وجود الالهين ، وفى أنهما واحد ، على الترجيح والاحتمال . فقال أن عقولنا ناقصة ، وأنها عرضة لكل ضروب الخطأ ، فليس فى إمكاننا أن نصل الى اليقينية لا فى مر الله ولا فى أمر الطبيعة ؛ وحسبنا الترجيح ، والترجيح يؤيد الايمان بالله والايمان بالخلود . وواضح أن النفس أسمى من الجسد ، لأن أعضاء الجسد أدوات النفس وخدامها . والنفس ، التى من الواضح أنها جوهر الانسان ، لا داعى لفنائها مع الجسد ، وأغلب الظن أنها عند الموت تبحث عن أدوات جديدة فى مرحلة أعلى . وليس من المريح للطبيعة أن يتغير كائن من صورة أدنى الى صورة أعلى - كتغير الكائنات الزاحفة ممثلا الى كائنات مجنحة ، أو تغير الخادرة الى فراشة ؛ وقياس آخر يرجح أنه سيكون فى حياة النفس بعد موت الجسد ألوان من الثواب والعقاب - مع الافتراض دائما بأن الله موجود . فكما أننا نعاقب المجرمين على جرائمهم ضد المجتمع ، كذلك تعاقب الطبيعة فى معظم الحالات الناس على ما اقترفوا من آثام ؛ ولكن بما أن هناك أمثلة كثيرة لا تلقى فيها الرذيلة عقابا واضحا ، ولا الفضيلة ثوابا واضحا ، فى هذه الحياة ، لذلك كان مما لا يصدق أن الله لن يعيد ، فى حياة أخرى ، علاقة أكثر انصافا بين السلوك والمصير . وضميرنا ، حسنا المخلقى ، لا يمكن أن يكون قد جاعنا الا من لدن اله عادل .

وأكثر ما لحجج بطلر من أهمية فى عصرنا هذا مرجعه انها توضح مرحلة فى تطور العقل العصرى . ونحن اذا نظرنا اليها باعتبارها موجهة أصلا ضد الربوبيين وجدنا فيها فكرة لا يستهان بها ؛ فالذين قبلوا شهادة القصد الالهى فى الطبيعة ، لا مبرر لهم فى رفض الكتاب المقدس بسبب الاله القامى المعلن عنه فى العهد القديم ، لأن اله الطبيعة

لا يقل عنه قسوة . لقد كانت طريقة غاية فى الاصلالة فى الدفاع عن المسيحية . والظاهر أن بطر لم يتوجس من أن هذه الحجة قد لا تفضي الى المسيحية ، بل الى شيء أشد دفعا الى اليأس من الكفر - الى النتيجة التى خلص اليها توماس هنرى هكسلى ، وهى أن القوى المطلقة فى الكون أو وراءه غير أخلاقية ، تتناقض أشد التناقض مع ذلك الاحساس بالحق والباطل الذى بنى عليه بطر ، كما بنى عليه كانط ، الكثير من لاهوته . على أية حال كان كتاب « وجه الشبه » خطوة الى الامام ولو فى هدوئه ولطفه ، فهنا لا تجد كراهية لاهوتية ، ولا قدحا دينيا ، بل محاولة جادة من الكاتب للتأدب حتى مع أولئك الذين بدوا أنهم يدمرون أعز آمال البشر . ورحبت الملكة كارولين بالكتاب لأنها رأت فيه أفضل دفاع ظهر الى ذلك الحين عن العقيدة المسيحية . وأوصت وهى على فراش الموت بترقية بطر ، فعينه جورج الثانى أسقفا على برستل ، ثم ناظرا على كتدراية القديس بولس ، وأخيرا أسقفا على درم . وهناك ضرب بطر المثل لزملائه بالعيشة البسيطة والتصدق على الفقراء بجانب كبير من دخله .

وقد ترك كتابه للكفر منافذ كثيرة حتى أن كثيرا من رجال الكنيسة اشاروا بالكف عن هذا الجدل ، وأثروا أن يرسوا ايمانهم على الحاجات والعواطف الدينية بعيدا عن سهام العقل . مثال ذلك أن كتاب «هنرى دودويل « المسيحية دون أساس من الجدل » (١٧٤٢) يرفض الجدل العقلى فى المسائل الروحية ، لأنه لا يهدى الى الحقيقة ، وأقل من ذلك الى السعادة ، انما هو رقصة موهنة ترتفع فيها الحجج المؤيدة والمعارضة ، وما من انسان يقيم ايمانه على مثل هذه الأسس المائعة . وذهب دودويل الى أن حجج كلارك ، وويربرتن ، وبيطر ، وغيرهم من المدافعين المسيحيين ، قد هزت من الايمان الدينى أكثر مما قوت ، وربما لم يكن هناك الحاد لولا أن المحاضرين فى محاضرات بويل التذكارية دأبوا كل عام على تفنيد الالحاد . ان المسيح لم يجادل ، بل علم كمن له سلطان . فانظر الى أى شخص متدين حقا ، تجد فيه اقتناعا باطنيا ، لا استنتاجا عقليا ؛ فالايمان للنفس البسيطة يجب أن يكون تقليدا مقبولا ، وللروح الناضجة يجب أن يكون شعورا مباشرا بواقع فوق الطبيعة .

أما وليم لو ، فبعد أن ترك بصمته على الجدل مع الريبويين ، دفعته قراءة يعقوب بومى الى التحول من الجدل الى الصوفية ؛ وفى نصف القرن الذى نحن بصده ، والمتسم بالمادية والكلبية الظافرتين ، كتب عن الوجود الباطن للمسيح ومحبه الفادية بحرارة وثقة كأنه توماس أكيميس مولودا من جديد دون أن يطرأ عليه تغيير . وقد ضحى بكل المطامح الدنيوية برفضه حلف اليمين التى تعترف بجورج الأول رأسا للكنيسة لانجليزية ؛ فحرم زمالته بكمبردج ، واستتردت درجاته الجامعية . ثم أصبح معلما خاصا لأبى ادورد جيبون ، ومكث مع تلك الأسرة ردحا كفى لأن يذكره المؤرخ (جيبون) . قال هذا الشاك « لقد ترك فى أسرتنا سمعة الرجل الفاضل التقى الذى يؤمن بكل ما يصرح به ، ويمارس كل ما يأمر به (٣٧) » وقد أثنى جونسن على كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » (١٧٢٩) وقال انه « أروع قطعة من اللاهوت الوعظى فى أى لغة (٣٨) » فمن المؤكد أن صوفية الكتاب أصبح من تلك التى تنوّه فى روعى خارقة ، سماوية كانت أو جهنمية . كتب لو يقول : ليس هناك شيء خارق للطبيعة فى نظام فدائنا كله ، فكل جزء فيه له اساس فى أعمال الطبيعة وقواها ، وكل فدائنا انما هو الطبيعة مصححة . « وليست الجحيم مكانا ، بل هى حالة النفس المضطربة ، ولا الجنة مكانا ، ولا « حالة غريبة ، منفصلة ، مفروضة » ، بل هى سعادة نفس فى نظام وسلام (٣٩) . ومع أن لو كان عضوا مخلصا فى الكنيسة لانجليزية ، فانه كان يحلم برهبنة مجددة بروتستنتية . يقول :

« اذن لو أن أشخاصا من الجنسين ... تواقين الى الكمال ، تجمعوا فى جماعات صغيرة ، تنذر الفقر الاختيارى ، والنبذ ، والعزلة ، والعبادة ، حتى تخفف صدقاتهم حاجة البعض ، ويتبارك الجميع بصلواتهم وينتفعوا بقدوتهم ... هؤلاء لا يتعرضون للاتهام بأى ميل للخرافة أو تعبّد أعمى ... بل يمكن أن يقال حقا وصدقا أنهم يستعيدون تلك التقوى التى كانت فخر الكنيسة ومجدها على حياة قديسيها العظام (٤٠) » .

وقد أثرت مثل لو العليا ونثره الرائع فى عمّة جيبون

هستر جييون ، تأثيرا حملها هي وأرملة غنية على الذهباب للعيش يقربه فى مسقط رأسه كنجزكليف بنورثمتونشير ، وكريستا أكثر دخلهما لأعمال البر تحت اشرافه . وقد وجد هذا الرجل سعادته فى توزيع الطعام والثياب والعظاات على الفقراء والمرضى والمحرومين ، وهو الذى كان فى يوم ما طالب علم شغرفا بالبحث ، محبا للصحة المثقفة المهذبة . وغالى فى تقشفه ، فأنكر جميع لذات الدنيا تقريبا ، وجدد الحملة البيورتانية على المسرح باعتباره « بيت الشيطان » أو على الأقل « شرقة الجحيم (٤١) » . ولم يكن الخلق الانجليزى ، ولا مزاج العصر ، حفيين بصوفية لو ، ويدا أنه مختتم حياته فى خمول ذكر عقيم ، واذا جون وسلى يأتى ليجلس عند قدميه .

٤ - جون وسلى : ١٧٠٣ - ٩١

اذا أردنا أن نفهم مكانه من التاريخ رجب أن نذكر أنفسنا ثانية بأنه حين أسس هو وأخوه تشارلز الحركة الميثودية Methodism فى أكسفورد (١٧٢٩) كان الدين فى انجلترا أخط منزلة مما كان فى أى فترة من فترات التاريخ الحديث . فلم يكن يختلف الى الكنيسة من أعضاء مجلس العموم أكثر من خمسة أو ستة (٤٢) . وكان رجال الاكليروس الانجليكانى قد غالوا فى قبولهم العقلانية غلوا جعلهم يبنون كل كتاباتهم تقريبا على الجدل العقلى . ونذر أن ذكروا الجنة أو النار ، وكانوا يؤكدون على الفضائل الاجتماعية دون الغيبيات . والعظة الانجليزية كما وصفها فولتير كانت « رسالة جدية ولكنها جافة أحيانا ، يقرؤها رجل على الشعب دون ايماءة ودون أن يرفع صوته رفعا ملحوظا (٤٣) » . ولم يكن الدين نشيطا حارا الا فى المذاهب المنشقة التى تتبعها الطبقة الوسطى . وكان عمال المدن مهملين اهمالا كليا تقريبا من الاكليروس الانجليكانى ، « كان هناك فرقة ضخمة تتألف من أدنى الطبقات ، أفرادها بعيدون عن متناول التعليم أو الدين ، لا دين لهم ، ولم يعلموا ديننا على الاطلاق (٤٤) » ، وقد أسلموا الى فقر لا يضيئه نور الأمل الدينى الا قليلا . فى هذه الخلفية أحيأ جون وسلى وجورج هوايتفيلد العقائد والآداب البيورتانية أحياء قويا وأسا الكنيسة الميثودية .

كان اللاهوت والثورة يجريان فى عروق آباء ولى . فجدده الأكبر يرتلميو وستلى طرد من وظائف القسوسية فى دورست لانه واصل العبادة المنشقة بعد أن "رد" الاحتكار الكنمى فى انجلترا للكنيسة الانجليكانية . وأصبح جد جون ، جون وستلى ، قسيسا فى دورسيت ، وسجن لرفضه أن يستعمل كتاب الصلاة العامة ، وطرد من القسوسية ، وأصبح راعيا منشقا فى بول . وأسقط والد جون ، واسمه صموئيل ولى ، حرف القاء من اسمه ، وشق طريقه الى أكسفورد ، وهجر المنشقين ، ورسم قسيسا انجليكانيا ، وتزوج سوزانا آنزلى (وكانت بنت واعظ) وأصبح قسيس ايبورث فى لنكولنشير ، ومات من أبنائه التسعة عشر ثمانية فى طفولتهم - وفى هذا بيان لشقاء النساء ، وفحولة القساوسة المستهتره ، ونوعية الطب فى انجلترا القرن الثامن عشر . وكان الأب مؤدبا صارما فى البيت وعلى المنبر ، نشأ أبناءه على الخوف من الله منتقم ، وأدان احدى رعايا أبرشيته بالزنا ، وأجبرها على السير فى الشارع فى مسوح التوبة (٤٥) . وكانت زوجته ضريبا له فى الصرامة والقوى . فلما بلغ ابنها الأشهر التاسعة والعشرين شرحت له فلسفتها فى التربية الخلقية فقالت :

« أننى أصر على قهر ارادة الأطفال فى وقت مبكر ، لأن هذا هو الأساس القوى والمعقول الوحيد للتربية الدينية ، الذى بدونه لا يكون للتعاليم ولا للقدوة جدوى . ولكن متى قهرت هذه الإرادة قهرا تاما أصبح فى الامكان أن يحكم الطفل بعقل أبويه وتقواهما ، الى أن يبلغ فهمه درجة النضج ... فإذا بلغ الطفل عاما كانوا (أى أطفالها) يعلمون أن يخافوا العصا ويبكوا بصوت خافت ، وبهذه الطريقة وفروا على أنفسهم الكثير من العقاب الذى كان يصيبهم ان لم يفعلوا (٤٦) »

وأصبح أكبر أبنائها ، صموئيل ولى الثانى ، شاعرا وعالما وقسيسا انجليكانيا أنكر على أخويه مذهبهما المشودى . وكان الطفل الثامن عشر جو تشارلز ولى ، الذى دعم مواعظ أخيه جون دعما قويا بترانيم بلغ

عددها ٦٥٠٠ . أما جون فكان الخامس عشر ، وهو مولود بايبورث فى ١٧٠٣ . فلما بلغ السادسة احترق بيت القسيس ، وتركته الأسرة وسط النيران ظناً منها أنها قضت عليه ، ولكنه أطل من شباك فى الطابق الثانى ، فأنقذه جار وقف على كتفى آخر ، وسمى نفسه بعد ذلك « جمرة اختطفت من بين المحترقين » ولم يتغلب قط على خوفه الشديد من الجحيم . وفى بيت أبيه كانت أى ضوضاء غير واضحة السبب ، تفسر على أنها وجود خارق للطبيعة ، شيطانى أو الهى .

وحين بلغ جون الحادية عشرة أرسل الى مدرسة تشارتر هاوس الحرة ، وفى السابعة عشرة الى كرايست تشيرش باكسفورد . وقد تغلب على ضعف صحته بادمان المشي والركوب والسباحة ، فعمّر حتى بلغ الثامنة والثمانين . وقرأ كثيراً ، واحتفظ بمذكرات ومقتطفات من قراءته توخى فيها التدقيق والعناية . وكان أحب الكتب اليه كتاب جيريمى تيلر « الحياة المقدسة والموت المقدس » ، وكتاب توماس أكمبس « محاكاة المسيح » . وبدأ - حتى فى أيام دراسته بالكلية - تلك اليومية التى هى احدى آيات الأدب الانجليزى والتقوى البروتستنتية . وقد كتب بعضها بالشفرة والاختزال . وفى ١٧٢٦ عين زميلاً بكلية لنكولن ، وفى ١٧٢٨ رسم قسيساً أنجليكانياً .

وأخوه تشارلز هو الذى بدأ بجمع فى اكسفورد جماعة صغيرة من نحو خمسة عشر طالباً ومعلماً اعتزموا ممارسة المسيحية بدقة منهجية . وأعداؤهم هم الذين خلعوا عليهم تهكماً وازدراء اسمى « النادى المقدس » و « المثوديين » . وكانوا يقرعون معا العهد الجديد اليونانى والآداب القديمة ، ويصومون كل أربعاء وجمعة ، ويتناولون العشاء الربانى كل أسبوع ، ويتفقدون المسجونين والمرضى ليقدموا لهم العزاء والأمل الدينى ، ويرافقون المحكوم باعدامهم الى المشنقة . ووصل جون وسلى الى تزعم الجماعة بفضل شدة حماسه وتقواه ، فكان يستيقظ كل كل يوم فى الرابعة - وهى عادة احتفظ بها حتى وهو طاعن فى السن،

ويخطط منهجيا فى كل صباح الاعمال التى تؤدى فى كل ساعة من ساعات اليوم . وكان يعيش على ثمانية وعشرين جنيها فى العام ، ويوزع باقى دخله على اعمال البر . وقد أكثر من الصوم حتى بدا مرة أنه قد دمر صحته تدميرا لا يبرء منه . وكان يحج راجلا الى وليم لو يلتمس منه النصيحة ، وأصبح كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » مرشده الروحى . تقول يومياته أنه من هذا الكتاب « فاض النور على نفسي بقوة حتى ظهر كل شيء فى صورة جديدة (٤٧) » .

وفى ١٧٣٥ دعا الجنرال أوغلثورب جون وتشارلز ليرافقاه مبعوثين دينيين الى جورجيا . واذ كان أبوهما قد مات فانهما التمسا مشورة أمهما . فقالت لهما « لو كان لى عشرون ولدا لأبهجنى أن يدعوا الى مثل هذا ، حتى ولو لم أرهم بعد ذلك أبدا (٤٨) » . فليت شعرى أنى لنا نحن المجريدين من التقوى أن نفهم هذه التقوى ؟ وأرجئت جلسات « النادى المقدس » الى أجل غير مسمى ، وفى ١٤ أكتوبر أبحر جون وتشارلز و « مثوديان » آخران على السفينة « سيموندز » قاصدين سافانا . وفى السفينة أثرت فيهم التقوى المرحمة التى أنسوها فى بعض « الأخوة المورافيين » الذين قدموا من ألمانيا ليستوطنوا أمريكا ، فلما هاجمت عاصفة هوجاء المركب الصغير لم يبد على المورافيين أثر لخوف ، وقارعوا رياح العاصفة بترانيمهم القوية ، وأحس الوسليان أن هذا ايمان يفوق ايمانهما قوة .

فلما بلغا جورجيا (٥ فبراير ١٧٣٦) اتخذوا منصبين مختلفين ، فأصبح تشارلز سكرتيرا للحاكم أوغلثورب ، وجون راعيا للجالية الجديدة ، ومرسلا بين الحين والحين للهنود الحمر المجاورين . وأثنى أول الامر على الهنود لشوقهم الى تقبل الانجيل ، ولكنه وصفهم بعد عامين بأنهم « شرهون ، لصوص ، مراعون ، كذابون ، قتلة لابائهم ، قتلة لأمهاتهم ، قتلة لابنائهم » ، وقيل انه « لم يوفق مع الهنود (٤٩) » . أما السكان البيض ، الذين كانوا يضمون مئات من

المجرمين المثفيين ، فقد أنكروا لهجته الأكسفوردية وروحه الامرة النهائية وإصراره على أدق قواعد الطقوس والنظام . ففى العماد اشترط للتغيطس الكامل ثلاث مرات ، فاذا اعترض والد رفض أن يعمد الطفل . وإذا كان لا يزال « كنسيا طقسيا من النوع الشديد التزمت (٥٠) » . فإنه أقصي عن تناول القريان رجلا كريما اعترف بأنه من المنشقين ، وأبى أن يقرأ صلاة الجنائزاة على مسبتمر لم ينكر مذهبه المنشق قبل موته ، وحرم على النساء من رعيته أن يلبسن الملابس الغالية أو الحلوى الذهبية ، وأقنع الحاكم أن يحرم صيد السمك وقنص الحيوان فى يوم الاحد - وهو اليوم الوحيد الذى كان يتاح فيه لرعيته فراغ من الوقت للصيد أو القنص . وقد افتتن بصوفيا هويكى ، ابنة أخت كبير قضاة سافانا البالغة من العمر ثمانية عشر ربيعا . ولكن أصحابه المورافيين لم يرضوا عنها . فلما سئمت تردده تزوجت رجلا يدعى ولكنسون . وحين تقدمت لتناول القريان أبى أن يناولها السر بحجة أنها لم تتناول سوى ثلاث مرات فى الشهور الثلاثة الاخيرة ، وأنها أهملت أن تطلب الى راعيها اذاعة اعلان زواجها . فرفع زوجها عليه الدعوى لتشهيره بخلق زوجته ، وأدانت المحكمة سلوكه وسلى خطيبا وخدماته كاهنا ، فرفض الاعتراف بحقها فى محاكمته ، وتفاقم عدااء الشعب له ، ففر الى تشارلزتون واستقل سفينة الى انجلترا (٢٢ ديسمبر ١٧٣٧) .

وفى لندن استأنف تقشفاته أملا فى أن ترد اليه ثقته بنفسه ، ولكن بيتر بولر ، وكان واعظا مورافيا فى طريقه الى أمريكا ، أكد له أن إيمانه مازال ناقصا ، وأنه مهما كانت فضائله كاملة وتقواه وطقسيته حاريتين ، فسيظل فى حالة الهلاك الأبدى ، حتى يدرك - بومضة الهية من الاشراف واليقين ، مختلفة كل الاختلاف عن أى عملية استبدال عقلى - أن المسيح قد مات لأجله هو ، وأنه كفر عن خطاياها هو ! فبعد هذا التغير دون سواء يكون الانسان فى مأمن من ارتكاب الخطايا وعلى ثقة من الخلاص . وقد خلد وسلى فى يوسيته ذلك « اليوم المشهود » ٢٤ مايو ١٧٣٨ الذى وافته فيه هدايته النهائية ، قال :

« ذهبت في المساء على مضض شديد الى جمعية في شارع اولدرزجيت ، حيث كان احدهم يقرأ مقدمة لوثر لرسالة بولس الى اهل رومية . وفي نحو التاسعة الا ربعا ، بينما كان يصف التغيير الذي يحدثه الله في القلب بالايمان بالمسيح ، شعرت بقلبي يدفأ على نحو عجيب . شعرت باننى فعلا اثق بالمسيح ، والمسيح وحده ، للخلاص ، واعطيت تأكيدا بأنه نزع خطايى ، خطايى انا ، وخلصنى من ناموس الخطية والموت . وبدأت أصلى بكل ما أوتيت من قوة لأجل أولئك الذين أساءوا الى واضطهدونى أشد من غيرهم . ثم شهدت علانية لجميع الحاضرين بما شعرت به الآن فى قلبى لأول مرة (٥١) » .

ويمكن القول بايجاز أنه لخص تطور المسيحية من الخلاص بالايمان والاعمال ، الى الخلاص بالايمان وحده (لوثر) ، الى الخلاص باسراق شخصي والهي (الكويكرز) . وعبر ولسلى البحر الى المانيا فى صيف ١٧٣٨ وهو عارف بصنيع بولر ، وأنفق عدة أسابيع فى هرونوت ، القرية السكسونية التى أنشئت فيها مستعمرة للاخوة المورافيين على ضياع كولت زرنندورف .

وكان تشارلز ولسلى خلال ذلك قد جاز بتغير مماثل عند عودته الى انجلترا ، وبدأ بطريقته الأكثر رقة فى وعظ المسجونين فى نيوجيت والوعظ من كل منبر يسمح له بارتقائه ، وأهم حتى من هذا أن شخصية لا يبرزها قوة غير شخصية جون ولسلى كانت فى طريقها الى الصدارة فى الحركة الميثودية ، وهى شخصية جورج هوايتفيلد . وقد ولد لصاحب نزل بجلوستر فى ١٧١٤ . وعمل سنة أو أكثر ساقى خمر لضيفو أبية . ثم شق طريقه الى كلية بمبروك باكسفورد ، وكان من الرعييل الأول فى « النادى المقدس » . وتبع الوسليين الى جورجيا فى ١٧٣٨ ولكنه عاد الى انجلترا فى خريف ذلك العام ليرسم قسيسا أنجليكانيا . وإذ كان غير قانع بالفرص المتاحة له فى المنابر ، توافقا لأن يبيث الهام ايمانه فى جماهير الشعب ، فقد بدأ فى فبراير ١٧٣٩ ، فى الخلاص

قرب يرستل ، وعظ عمال مناجم الفحم الذين نذر أن جرءوا على دخول كنيسة أو اهتموا بدخولها . وكان فى صوته من الوضوح والقوة ما مكنه من الوصول الى أسماع عشرين ألف مستمع ، وأثرت مقدرته الخطابية المنبوية فى هؤلاء الرجال المتحجرين ، المرهقين ، تأثيرا جعله يرى (كما قال) « المسارب البيضاء التى أحدثتها دموعهم التى هطلت بغزارة على خدودهم السوداء (٥٢) » وأثارت خيال انجلترا سمعة الواعظ الجديد ، وأخبار عظاته فى الهواء الطلق . فكانت الحشود الهائلة تتجمع أبنا ذهب لتستمع اليه .

ولم يكن وعظه بالشئ الذى ينسى . فهو لم يدع !نفسه تبحرا فى العلم ، ولكنه ادعى أنه يتكلم كلاما حميما مع الله (٥٣) . ويقول وسلى ان لغته كانت تميل الى « الحلاوة والحب » وأنه يستعمل فيها بعض الأخييلة المذهلة ؛ من ذلك أنه كان يقول عن المسيح أنه « كالمشوى بغضب الآب ، ومن ثم يوصف بحق بأنه حمل الله (٥٤) » . وكما فعلت فى البرلمان كذلك فعل هوايتفيلد فى الحقول ، إذ استعان فى خطبه بفنون التمثيل ، فكان فى قدرته أن يبكى فى التو والساعة بكاء من الواضح أنه اقترن بعاطفة صادقة ؛ وكان فى قدرته أن يشعر سامعيه بالاحساس بالخطيئة ، ورهبة الجحيم ، ومحبة المسيح ، احساسا قويا فوريا . وقد اعترف بقوته الخطابية أمثال بولنبروك وتشسترفيلد ، والشكاك أمثال فرانكلين وهيوم ، والممثلون أمثال جاريك . واذا كان يلقي الترحيب أينما حل ، فإنه جعل انجلترا ، وويلز ، واسكتلندة ، واربلى ، وأمريكا ، أبرشيته . فعبر المحيط الى أمريكا ثلاث عشرة مرة ، واخترق اسكتلندة اثنتى عشرة مرة . ولم يكن غريبا عليه أن يعظ أربعين ساعة فى الأسبوع . فما بلغ الخمسين حتى حل به الارهاق ، وخفض برنامجيه بعد فوات الوقت الى « الحد الدقيق المسموح به » - أى أنه اكتفى بالوعظ مرة واحدة كل يوم من أيام الأسبوع ، وثلاث مرات فقط يوم الأحد . وفى ١٧٦٩ قام بزيارته السابعة للمستعمرات ، ومات فى نيويورك بولاية ماساتشوستس فى العام التالى .

وحين عاد جون ولسلى من هيرنوت ، لم يستطع أن يوافق تماما على طريقة هوايتفيلد الخطابية ، وتردد فى الاقتداء به فى الخطابة فى الخلاء . قال : « اذ كنت طوال حياتى (الى عهد قريب جدا) شديد التمسك بكل قواعد اللياقة والنظام ، . . . فقد كان المفروض أن أرى فى تخليص النفوس شيئا يكاد يبلغ مبلغ الخطيئة اذا لم يتم فى الكنيسة (٥٥) » . على أنه تغلب على نفوره هذا ، وحمل رسالتا الى الحقول والشوارع ، « وسلمت بأن أكون أكثر نزولا الى العامة فى الخلاء » (ابريل ١٧٣٩) . وكانت خطابته أقل حرارة من خطابة هوايتفيلد ، ولغته لغة العالم والجنّلمان ، ولكنه هو أيضا خاطب عواطف سامعيه ، وجعل الحياة اليومية لسطاء الناس تبدو كأنها جزء من مسرحية هائلة ، نبيلة ، نفوسهم فيها ساحة معركة بين الشيطان واسيح ، فتحركوا معه فى عالم من العجائب والمعجزات ، وسمعوا فيه (أى فى ولسلى) - كما زعم - صوت الله . وبينما ألف هوايتفيلد أن يعظ الجمع ثم ينصرف عنه ، راح ولسلى ينظم أتباعه فى « جماعات صغيرة » فى المدينة تلو المدينة ، ويرشدهم الى الثبات والاستمرار . وكانت اجتماعاتهم احياء للقاءات المحبة التى استنها المسحيون الاولون - اعياد من الفرحة الدينية ومحبة الجماعة ، يعترف بعضهم لبعض بخطاياهم ، ويخضعون لفحص حياتهم الخلقية ، ويشتركون فى الصلاة وترتيل الترانيل الورعة . وكان جون قد ألف أو ترجم بعض الترانيم المؤثرة ، وكان تشارلز قد بدأ مجموعة ترانيله الضخمة . وفى ١٧٤٠ كتب تشارلز أشهر ترانيمه الرائعة الكثيرة « يسوع يا حبيب روحى » .

فى هذه الجماعات المتحمسة درب جون ولسلى وعازما علمانيين حملوا البشارة الجديدة الى حيث لا يستطيع القادة البقاء . فقد انتشر هؤلاء « المساعدون » - دون رسامة ، ودون أى أبرشيات محددة ، بمنبر أو بغير منبر - فى أرجاء انجلترا ، واسكتلندة ، وويلز ، وأوصلوا مخاوف وآمال اللاهوت البروتستانتى للطبقات العاملة ، وحضروا للزيارات الانعاشية التى سيقوم بها ولسلى وهوايتفيلد . وكان

وسلى نفسه يسافر - الى اقصى اركان انجلترا راكبا جواحا او مركبة او راجلا - وكثيرا ما كان يقطع ستين ميلا فى اليوم ، وبلغ متوسط ما قطعه اربعة آلاف ميل فى السنة على مدى اربعين عاما . وكان يعظ فى كل فرصة . فى السجون للمسجونين ، وفى المركبات لرفاقه الركاب ، وفى الفنادق للمسافرين ، وفى السفن العابرة البحر الى ايرلندة او من ثغر الى ثغر . وفى ايبويرت ، حين منع من الموقوف على منبر أبيه ، وعظ فى فناء الكنيسة واقفا فوق قبر أبيه .

فماذا كان يعظ ؟ العقيدة البيورتانية اساسا ، تلك التى خيل للناس أن الفوضى الخلقية التى صاحبت عودة الملكية الاستيوارتية عصفت بها عصفا مميتا . لقد رفض الجبرية (التى قبلها هوايتفليد) ، وأصر على ما دان به الجناح الارمنيوسى من الكنيسة الرسمية ، وهو أن الانسان من حرية الارادة ما يكفيه لتقرير ما يختاره او يرفضه من النعمة الالهية . ورفض كل لجوء الى العقل ، وأحس أن الدين يصل الى أبعد مما يصل اليه المنطق الذى صنعه الانسان ، وأنه يعتمد على الوحى الالهى والافتناع الباطن ، ولكنه أبعد عن الصوفية بحجة أنها تترك كل شيء لله ولا تحفز الانسان الى التقوى النشيطة . وشارك طبقته وزمانه معظم خرافاتهما : فكان يؤمن بالاشباح ، وبالأصل الشيطانى للصوات الغريبة ، وبحقيقة السحر واجرامه ؛ وقال ان التخلّى عن الايمان بوجود السحر معناه التخلّى عن الايمان بالكتاب المقدس . ولم يساوره شك فى المعجزات ، وذهب الى أنها تحدث كل يوم بين أتباعه . فكان الصداغ ، أو الورم المؤلم ، أو الفتق الشديد ، أو الساق المكسورة ، تشفى بصلواته أو صلوات الجماعة الموثدية ؛ وحكى عن فتاة كاثوليكية كانت تفقد بصرها كلما قرأت كتاب القدامس الكاثوليكي ، ولكنها تستعيده دائما حين تقرأ العهد الجديد . وقد قبل روايات النساء اللاتى زعن أنهن رآين الملائكة أو المسيح أو الجنة أو النار ، وسجل فى يومياته عددا من الحالات التى صوب فيها خصوم الموثدية بعقوبات خارقة (٥٦) .

وقد بلغ وعظه من الحيوية مبلغا أفضى بالكثيرين من جمهوره الى الهستريا والتشنجات . وتنبئنا اليومية عن خطاة غلبهم الالم البدنى بعد سماعه فراحوا يتقلبون على الارض من فرط العذاب ، بينما ركع مؤمنون آخرون الى جوارهم وصلوا لخلاصهم من مس الشيطان (٥٧) . وبصف وسلى اجتماعا فى شارع بلدوين بلندن فى ١٧٣٩ فنقول :

« لم يكد صوتى يسمع وسط أنين البعض وصراخ الآخرين . . . وساء كويكرى واقفا يتفرج . . . أن يسقط هو نفسه على الأرض كأنه المصعوق . وكان الكرب الذى يعانىة رهيبا حتى لمن يشهده . وقد تضرعنا الى الله ألا يؤاخذة بالحماسة والجهل ، وسرعان ما رفع رأسه وصاح « الآن أعرف أنك نبي من أنبياء الرب (٥٨) » .

وبصف شاهد عيان نقل عنه وسلى اجتماعا للمثوديين بافرتن فى ١٧٥٩ كما يلى :

« كان بعضهم يصرخون ، وبعضهم يجارون . . . وأكثر ما سمع كان شهيفا عاليا كذلك الذى يصدر عن قوم نصف مخنوقين يلهثون طلبا للحياة ؛ أن الصيحات كلها تقريبا كانت كصيحات مخلوقات آدمية تعالج سكرات الموت الأليم . وكان الكثيرون يبكون دون ضجيج ، وغيرهم سقطوا كالأموات . . . ووقفت على مقعد كما فعل شاب فى المقعد المقابل ، وكان ريفيا قويا نضرا صحيح البدن ، ولكن حين بدا أنه لم يخطر له شيء آخر خر على الأرض فى عنف لا يتصوره الانسان . . . وسمعت خبط أقدامه يكاد يحطم الألواح الخشبية وهو راقد يتشنج تشنجات شديدة فى أسفل المقعد . . . وأكثر الذين وضع الله عليهم يده احمرت وجوههم احمرارا شديدا أو كادت تسود . . . وسقط وراءه على الجدار رجل غريب حسن الهندام كان يقف أمامى ، ثم خر على ركبتيه وهو يعصر يديه ويهدر كالثور . . . ثم قام وراح يخطب الحائط حتى أمسك به مستر كبلنج ورجل آخر . وصرخ قائلا « أواه ماذا أصنع ، ماذا أصنع ؟ أواه ، ليت لى قطرة واحدة من دم المسيح ! » وبينما كان يتكلم حرر الله روحه ، فعلم أن خطاياہ مَحِيَت ، وبدا أن نشوة الفرح التى غمرته أعظم من أن تحتملها الطبيعة البشرية (٥٩) » .

ولعل هذه التفجرات الهستيرية سببتها أحوال أنرت فى الضحايا قبل الاجتماع المئودى ، فجاءت كعظة عن نار الجحيم وكانت مجرد تتويج لذروة لا يمكن السيطرة عليها . أما وسلى فقد فسر هذه التشنجات بأنها مس شيطانى أعقبه شفاء الهى . وذهب الى أنها أحيانا لم تأت باصلاح دائم للسلوك أو الخلق ، ولكنه أحس بأنها فى كثير من الحالات ظهرت النفس من الخطيئة وافتتحت حياة جديدة .

وقد حققت المئودية أعظم نجاح لها بين الفقراء . فقد كان الوعاظ أنفسهم رجالا ذوى ثقافة متواضعة ، بسطاء فى مشاعرهم وحديثهم ، ولم يقم حاجز طبقى أو ثقافى بينهم وبين جمهورهم . وقد حملوا رسالتهم ، رسالة الخطيئة والتوبة ، الى الفلاحين وعمال المناجم والمجرمين ؛ ومع أنهم بشروا بايمان قام على الخوف أكثر مما قام على المحبة ، فإنهم أعطوا غير المتعلمين ناموسا أخلاقيا شارك بنصيب فى رد اعتبار الأخلاق الى انجلترا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . هذه الأخلاق البيورطانية هى التى انتقض عليها عصرنا انتقاضا متطرفا . لقد كان وسلى عدوا لكل الوان الترفيه تقريبا . صحيح انه سمح بلعب الورق ، ولكنه رأى أن من الائم الذهاب الى المهرجانات ، ولبس الحلى أو الملابس الغالية ، والاختلاف الى المسرح أو المرقص . ولم يخصص أى وقت للعب فى المدرسة التى انتسها فى كنجرود ، لان « من يلعب وهو طفل سوف يلعب وهو رجل (٦٠) » . ولكن الأخلاق البيورطانية انسجمت مع الخلق الانجليزى ، واستطاع أن يتحملها الرجال الأشداء والنساء الصبوراء ، وقد منحت الطبقات العاملة الانجليزية احساسا هخورا بالاختيار سندها هى الفقر وجعلها عدوا لئى ثورة تتشكك فى المسيحية . وأحس المحافظون بعد حين بعرفان الجميل لوسلى لأنه انقذ الفقراء البريطانيين من الربوبية والالحاد ، وحوّل تطلعاتهم من الثورة الاجتماعية الى الخلاص الفردى ، ومن عالم مثالى على هذه الارض الى فردوس بعد الممات (٦١) .

وكان وسلى نفسه يميل الى المحافظة فى السياسة . وقد تقدم طبقته فى المطالبة ببعض الاصلاحات التى طال تأخرها : فندد بنظام « الدوائر العفنة » ، وبتفاوت التمثيل النيابى فى البرلمان ، وبفساد

السياسة الانجليزية الصارخ ، وبوحشية الرق ، وبأهوال السجون البريطانية . ولكنه تقبل الهيكل الطبقي للمجتمع باعتباره طبيعيا وعادلا ، وعارض أى انفراج فى القوانين الموجهة ضد الكاثوليك ، وكانت ميوله كلها مع جورج الثالث فى ثورة المستعمرات الأمريكية .

وقد ظل أنجليكانيا بالعقيدة ، ولكنه رفض رأى الأنجليكانى القائل بأن رسامة القسيس لا تكون قانونية الا على يد أسقف فى سلسلة الاساقفة الرسولين ؛ ورسم هو بنفسه قساوسة لاسكتلندة وأمريكا . وحين قال « ان العالم أبرشيتهى (٦٢) » كان يقصد أنه سيعظ حيثما شاء ، دون اذن أو تعيين أسقفى ، والى هذا الحد كان انشاققه على الكنيسة الرسمية . ولكنه حض أتباعه على حضور الخدمات الأنجليكانية ، وتجنب الاجتماعات والعقائد المنشقة على هذه الكنيسة ، والامتناع عن مخاصمة الكليروس الأنجليكانى . وفتحت أول الأمر بعض المناير الأنجليكانية للقساوسة الموثوديين ، ولكن حين اتخذ وعاظ وصى العلمانيون لأنفسهم حق مناولة القربان ، وارتدت العقيدة الموثودية الى توكيد العصر الوسط على الجحيم والانشغال البيورتانى بالخطيئة ، سحب الكهنة الأنجليكانيون تأييدهم ، تماما كما انسحب أرزم من لوثر ، وآثروا تطورا منظما ، وقصوا الموثوديين عن المناير الأنجليكانية .

وكان الاضطهاد الذى ابتلى به المذهب الجديد على يد الكنيسة الرسمية أقل كثيرا من ذلك الذى جاءه من العامة البسطاء الذين لم يطبقوا الطرق الجديدة فى التبشير بالأفكار القديمة . وفى المدينة بعد المدينة هوجم وعاظ الهواء الطلق - كما سيهاجم نظراؤهم اللاحقون الذين سيبشرون بانجيل اجتماعى جديد - من غوغاء أسعدهم أن يكونوا قساة دون خوف ولا لوم . وفى مونموث ضرب واعظ علمانى على رأسه بصخرة فمات من الضربة . وفى وندزبرى حطم جَمْعُ بيوت الموثوديين ، وآذى نساءهم ، وضرب رجالهم . فلما ظهر وصى طالب الجميع بدمه ، وصفّق للذين ضربوه بالهراوات ، وصلى هو بصوت عال ، فاطلق الجمع سراحه . وفى بولتن أغار جمع غاضب على البيت الذى كان يعظ فيه ، وواصل هو عظته الى النهاية وسط وأبل من الحجارة والبلاط والببيض . وفى ديفيزيه صوبت طلम्بة مائية على مسكن تشارلز وصى ، وأطلقت الكلاب البولودج على

أتباعه . وفى اكستر رُجم هوايتفيلد حتى كاد يلقى حتفه . وفى هوكستن دفع ثور بمهماز الى محفل مئودى ، وفى بنسفورد سيق عجل هاجه تحريش الكلاب به الى المائدة التى كان جون وسلى يعظ عندها . وراقت شجاعة الوعاظ الخلق الانجليزى ، واكسبتهم التسامح والتأييد .

كان وسلى رجلا قصير القامة ، طوله خمسة أقدام وثلاث بوصات ، ووزنه ١٢٨ رطلا . وكان فى شيخوخته يقع من نفوس ناظره وقعا طيبا بشعره الأبيض ، ولكنه كان من قبل فى كهولته يسترعى الاهتمام بقسماته الدقيقة المتكشفة وعينييه المسيطرتين . وكان من القضايا المسلمة عنده انه خلق ليحكم ؛ ووضعه نشاطه العصبى وقوته الذهنية فى مكان الزعامة بحكم الطبيعة ، واشتطت به أحيانا ثقته بنفسه ثقة لا يتشكك فيها الى اعتداد بالنفس ، رأى فيه أسقف مئودى « غطرسة » شديدة (٦٣) . ولم يكن بالرجل الذى يسهل الانسجام معه ، لانه كان يفكر ويتحرك بسرعة لا يستطيع الآخرون أن يجاروه فيها . وتزوج فى ١٧٥١ ، بعد أن أحب كما نحب كلنا الممرضة التى اعتنت به فى مرضه . وسافرت معه زوجته فى جولاته المحمومة طوال عامين ، ثم انهارت صحتها وأعصابها فتركته كما يقفز انسان من فوق ظهر حصان جموح . وكان يعزو الفضل فى صحته وحيويته لرحلاته المتصلة راكبا أو راجلا ، وقد نضيف أن الخطابة رياضة تهوى الرئتين . وفى ١٧٣٥ أصبح نباتيا ، وبعد عام قرر هو وصديق له أن يعيشا على الخبز القفار دون غيره ، وأن « يجربا امكان الحياة بلون واحد من الطعام كما هى ممكنة بمختلف ألوانه . . . ولم تكن أشد قوة وعافية منا حين لم نذق طعاما آخر (٦٤) » ، ولكنهما سرعان ما انتكسا الى التنويع فى الطعام .

ماذا كانت نتائج الوعظ المئودى ؟ فى جيل واحد أصبح الدين ، الذى لاح من قبل أنه يموت من أثر الوقار الانجليكانى والشكوك الربوبية عنصرا مدويا فى الحياة الانجليزية ، لا يعلو عليه الا السياسة والحرب . فلما مات وسلى (١٧٩١) كان أتباعه يعدون ٧٩ر٠٠٠ فى انجلترا ، ٤٠ر٠٠٠ فى أمريكا الشمالية ، وفى ١٩٥٧ كان هناك ٣ر٢٥٠ر٠٠٠ مئودى فى بريطانيا العظمى ، و ١٢ر٠٠٠ر٠٠٠ فى الولايات المتحدة و ٤٠ر٠٠٠ر٠٠٠ فى العالم (٦٥) . فضلا عن تكاثر أتباع المذهب كان

له تأثير فى المذاهب الأخرى ؛ مثال ذلك ما حدث فى الكنيسة الانجليكانية التى رفضت الميثودية ، اذ بعثت المثل الميثودية العليا الحركة « الانجيلية » فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ولعلها دخلت فى حركة اكسفورد فى القرن التاسع عشر . أما من الناحية السياسية فان النتائج كانت استسلاما محافظا بين الطبقات العاملة حتى ١٨٤٨ . وأما من الناحية الخلقية فان الميثودية حسنت السلوك الشخصى والحياة العائلية بين الفقراء وشاركت فى تقليل الفساد الانتخابى والرسمى ، وأخزت الكثيرين من طبقة السادة فأقلعوا عن الطيش والرذيلة ، وهيأت لنفور الانجليز من تجارة الرقيق . وأما من الناحية الثقافية فان الحركة كانت سلبية . لقد أعطت الشعب ترانيم مقدسة ، ولكنها واصلت العداء البيورترانى للفن . وأما من الناحية الفكرية فانها كانت خطوة الى الوراء فقد أرست عقيدتها على الخوف ، وشعائرها على العاطفة ، وأدانت العقل بوصفه فخا للإنسان . وفى الصراع الكبير بين الايمان والعقل علقت كل آمالها على الايمان ، ولم تضع أى ثقة فى تقدم المعرفة والعلم ، وتجاهلت أو احتقرت « التنوير » الذى أخذ يشعل النار فى فرنسا . وشعرت أن هدف الحياة ومعناها الوحيد هو الهروب من الهلاك الأبدى ، وأن الشيء الوحيد المطلوب لهذه الغاية هو لايمان بالموت الفادى الذى ماته المسيح .

وفى يناير ١٧٩٠ ، حين بلغ وصى السادسة والثمانين ، كتب فى يومياته يقول « بتّ الآن شيخا متهدما من رأسي الى قدمي . عيناي معتمتان ، ويمناي تهتز بشدة ، وفمى ساخن جاف كل صباح ، وتنتابني حمى طويلة كل يوم تقريبا . ولكنى بفضل الله لا أخفق من جهدي . ففى استطاعتى أن أعظ وأكتب الى الآن (٦٦) » . وبعد شهرين بدأ جولة خطابية اتصلت خمسة أشهر وجابت به أرجاء إنجلترا واسكتلدة . وقضى نحبه فى العام التالى (٢ مارس ١٧٩١) . ولو حكمنا على عظمة الأفراد بمدى تأثيرهم لقلنا انه - باستثناء بت - كان أعظم الانجليز فى زمانه .

٥ - فى النحل والبشر

هناك شخصيتان أقل شأنا توقفنا فى طريقنا الى ديفد هيوم . أولهما برنارد ماندفيل ، وكان طبيبا لندنيا من أصل فرنسي ومولد هولندى ، نشر فى ١٧٠٥ كراسة فى عشر صفحات تباع بست بنسات ، مكتوبة بشعر مرح عنوانها « الخلية المتدمرة » . وموضوعها مفارقة مؤدها أن رخاء الخلية راجع الى رذائل أفرادها من النحل - الى جشعها الانانى ونشوتها التناسلية ومشاكستها الجماعية . وبتطبيق هذا التناقض على الخلية الانسانية ، ذهب الطبيب الخبيث الى أن ثروة الدولة وقوتها لا تعتمدان على فضائل مواطنيها بل على الرذائل التى يندد بها الأخلاقيون المتدمرون بحماقة . فلنتصور ما يحدث لو كفت فجأة كل ضروب حب التملك والغرور والخيانة والمشاغبة - لو لم يأكل الرجال والنساء من الطعام الا بقدر ما يحتاجون اليه ، ولم يلبسوا من الثياب الا ما يقيهم القر والحر ، ولم يغشوا أو يؤذوا بعضهم بعضا ، ولم يتشاجروا ، وأدوا ديونهم دائما ، واحتقروا أسباب الترف ، وكانوا أوفياء لأزواجهم . لو حدث هذا لتوقف المجتمع كله فجأة ، فترى المحامين يتضورون جوعا ، والقضاة يتركون بغير قضايا أو رشا ، والأطباء يذوون لانعدام المرضى ، وزراع الكروم يفلسون ، والحانات تغلق أبوابها لانعدام شاربى الخمر ، وملايين الصناع المهرة الذين ينتجون الغريب من الأطلعمة أو الحلى أو الملابس أو البيوت يتعطلون ؛ ولن يرغب أحد فى أن يكون جنديا ؛ وما يلبث المجتمع أن يقهر ويستعبد .

وعطل تأثير الخلية المتدمرة صياغتها فى شعر هزلى محطم الوزن ، وغاظ هذا الطبيب المغرور ، الجشع ، المشاغب ، فاعاد اصدارها ثانية فى ١٧١٤ ، وثالثة فى ١٧٢٣ ، باسم « خرافة النحل » موسعا أياها المرة بعد المرة بالمقدمات ، والملاحظات ، والتعليقات التى بلغت بالصفحات العشر مجلدين . واصغت انجلترة وفرنسا هذه المرة ، لأن هذه الملاحق كانت من أقذع ما كتب من تحليلات للطبيعة البشرية .

واتخذ ماندفيل من ايرل شافتبسرى الثالث هدفا رئيسيا لكتابه بكل معنى الهدف . ذلك أن الايرل كان قد فسر الطبيعة البشرية ببلاغة

متفائلة ، فافترض فى الانسان « احساسا باطنيا بالصواب والخطا ...
فطريا فينا كالمحبة الفطرية ، وهو مبدأ أول فى كياننا » . ورد ماندفيل
على هذا بأنه هراء بديع ؛ فالطبيعة البشرية قبل التربية والتدريب
الخلقى لا تميز بين الفضيلة والرذيلة ، انما تحكمها المصالح الذاتية دون
غيرها . وقد وافق اللاهوتيين على أن الانسان بطبيعته « شرير »
(متمرد على القانون) ، ولكنه بدلا من أن يهدد الناس بالجحيم ،
هناهم على الملازمة البارعة بين رذيلة الفرد وخير المجتمع . فالبغاء
السرى مثلا يحمى العفة العامة ، والنهم للانتاج والخدمات يحفز
الاختراع ، ويدعم الصناعة والتجارة ؛ والثروات الكبيرة تتيح البر
بالناس والفن الضخم . وبينما بشر اللاهوتيون بالتقشف ، دافع ماندفيل
عن الترف ، وحجته أن الرغبة فى الكماليات (وهى أى شئ خلاف
الضروريات المجردة للحياة) هى أصل الصناعة والحضارة ؛ فلو أزلنا
الترف كله عدنا همجا . وبينما يفترض فى الأخلاقيين أن يدينوا الحرب
قال ماندفيل ان الأمم عاشت بفضل قدرتها على شن الحرب ، لأن معظم
الدول وحوش ضارية .

ولم ير فى الطبيعة أى فضيلة . فالخير والشر كلمتان تصدقان
على الأفعال الاجتماعية أو المعادية لمصلحة المجتمع فى الانسان ، أما
الطبيعة نفسها فلا تأبه بكلماتنا أو عظائنا ، وهى تحدد الفضيلة بأنها
أى صفة تعين على البقاء ؛ وعالم الطبيعة فى عباراتنا المتحيزة مسرح
للجشع والشهوة والقسوة والقتل والتبديد الذى لا معنى له . ومع ذلك
فمن ذلك الصراع الرهيب ، كما يقول ماندفيل ، طور الانسان اللغة
والنظام الاجتماعى والنواميس الأخلاقية أدوات للتماسك الاجتماعى
وبقاء المجتمع . والثناء واللوم لا تبررهما الطبيعة ، ولكنهما مبرران
باعتبارهما وسائل نستعين بها - لأنها تروق غرور الانسان وخوفه
وكبريائه ، - على أن نشجع فى غيرنا ألوانا من العمل مفيدة لنا أو
للجماعة .

ومعظم الذين سمعوا بماندفيل رموه بالنزعة المادية الكلبية ، ولكن
فولتير اتفق معه على نفع الكماليات ، وصق فزيوقراطيو فرنسا القائلون
بسياسة « عدم التدخل » لرايه فى أن عدم التدخل فى طمع الانسان

كفيل بأن يجعل عجلات الصناعة تدور . وأغلب الظن أن الطبيب الكثير النزوات كان مسلما بأن مفارقتها هذه ، « الرذائل الخاصة هي فضائل عامة » كانت الى حد كبير لعبا بالفلاظ فضفاضة التعريف . ان « الرذائل » كحب الاقتناء ، والعشق الجنسي ، والمشاغبة ، والكبرياء ، كانت يوما ما « فضائل » في الصراع البدائي للبقاء . ولم تصبح رذائل الا حين مورست في المجتمع ممارسة تجاوزت الخير الاجتماعي ؛ وقد أصبحت منافع عامة بفضل التحكم فيها بالتعليم ، والرأى العام ، والدين ، والقانون .

وشتان بين فرانسس هتشسن وبين هذا الطبيب المفترى . وقد ولد هتشسن في ايرلندة لقس مشيخي ، ثم انحرف عن جادة أبيه وفتح معهدا خاصا في دبلن . واذ كان شديد الوعي بالتزامه بأن يجعل من المتوحشين الصغار مواطنين ، فقد كتب من معهده « تحقيقا في الخير والشر الاخلاقيين » (١٧٢٥) عرّف فيه المواطن الصالح بأنه ذلك الذي يعزّز الخير العام ، ووصف فيه الخير العام (بعبارة سبقت بحذافيرها صيغة بنتام في مذهب المنفعة) فقال انه « أعظم سعادة لأكبر عدد من الناس (٦٩) » فلما رقى الى كرسي الفلسفة الاخلاقية في جامعة جلاسجو ، أزعج المشيخيين بدفاعه عن حق الفرد في اصدار حكمه على الاشياء ، وعن مشروعية اللذة ، وعن « الفنون الابداعية كالموسيقى والنحت والتصوير ، وحتى الملاهي الرجولية » (٧٠) ، ولم يشارك مائدقيل فكرته المتشائمة عن الطبيعة البشرية . وقد سلم بأخطاء الناس وذنوبهم ، وبشهواتهم الجامحة وجرائمهم العنيفة ، « ولكن الجانب الأكبر من حياتهم يستخدم في القيام بمهام من المودة الطبيعية ، او الصداقة ، أو حب الذات البريء ، أو حب الوطن » . ثم أضاف تحذيرا نافعا للمؤرخين فقال :

« ان الناس ميالون الى اطلاق العنان لخيالاتهم في أمر جميع ما سمعوا عنه أو قرعوا في التاريخ من سرقات ، وقرصنات ، وجرائم قتل ، وإيمان كاذبة ، وتزويرات ، ومذابح ، واغتيالات ، فيستنتجون من هذا كله أن النوع الانساني كله شرير جدا ، وكان دار القضاء هي المكان الصحيح لتقييم أخلاق البشر ، أو المستشفى لتقييم ملازمة المناخ

للصحة . أفلا يجدر بهم أن يروا أن عدد المواطنين والمزارعين الشرفاء يفوق كثيرا عدد كل أنواع المجرمين فى أى دولة . . . وأن ندرة الجرائم بالقياس الى الأفعال البريئة أو الخيرة هى التى تلفت انتباهنا لها ، وتبعث على تسجيلها فى التاريخ ، فى حين تغفل أفعال شريفة سمحة مألوفة ، تفوقها بما لا يقاس ، لا لشيء الا لأنها عادية جدا ؛ وما أشبه هذا بخطر جسيم واحد ، أو شهر يقضى فى المرض ، فيصبح قصة تتردد كثيرا ، خلال حياة طويلة من الصحة والسلامة » .
ذلك عقل سليم !

٦ - ديفد هيوم : ١٧١١ - ١٧٦٦

أ - الفيلسوف الشاب

كان هتشنس جزءا متواضعا من حركة « التنوير الاسكتلندى » ، أما هيوم فكان ألمع كواكبها . وهو يروى لنا فى ترجمته الذاتية البسيطة ، ذات الصفحات الست ، أنه ولد بأدنبره فى ٢٦ أبريل ١٧١١ ، « لأسرة طيبة أباً وأماً ، فاسرة أبى فرع من إيرل Home أو Hume * وكانت أمى ابنة السر ديفد فوكنر عميد كلية الحقوق » . ومات الأب فى ١٧١٢ ، تاركا ممتلكاته لشقيق ديفد الأكبر ، جون هيوم ، ولديفد دخلا يبلغ ثمانين جنيها فى السنة - يكفى لمعيشة متقشفة . أما الأسرة التى كانت كلها تدين بالمذهب المشيخى ، فقد أشربت الصبى اللاهوت الكلفنى اشرابا قويا تخلّف على شكل الحتمية فى فلسفة ديفد . كان فى بكرة كل أحد يختلف الى صلاة فى الكنيسة تتصل ثلاث ساعات ، منها ساعتان من الوعظ ؛ ثم يعود عشية كل أحد الى الكنيسة ساعة ؛ يضاف الى هذا صلوات الصباح فى البيت (٧٢) . ولم يكن مندوحة من أن ينتقض ديفد على هذا كله بالانحراف الى الهرطقة ما دام فيه ذرة من صلابة الخلق .

وحين بلغ الثانية عشرة دخل جامعة أدنبره . ثم تركها بعد ثلاث

★ كان سليل لذلك الايرل رئيس وزراء لبريطانيا العظمى فى ١٩٦٤ . والاسم Home كان ومازال يلفظ Hume « هيوم » .

سنوات دون درجة ، عازما على أن يفرغ بكليته للأدب والفلسفة . وفى السادسة عشرة كتب الى صديق يلوم نفسه

« لأن سلامى العقلى لا تدعمه الفلسفة دعما يكفى للثبات للطمات القدر . فعظمة النفس وسموها هذا لا سبيل اليه الا فى الدرس والتأمل . . . فاسمح لى بأن أتكلم هكذا كفيلسوف ، فذلك موضوع أطيل التفكير فيه ولا يعينى الحديث فيه اليوم كله (٧٣) » .

وسرعان ما تبخر ايمانه الدينى :

« وجدت ضريبا من جراحة الطبع يملكنى ، وهى جراحة لا تميل الى الخضوع لآى سلطة فى هذين الموضوعين (الفلسفة والأدب) . . . فلما ناهزت الثامنة عشرة بدا كأنه قد انفتح أمامى مشهد جديد من الفكرة ، أطربنى منتهى الطرب ، وحملنى بحماسة الشباب الطبيعية على أن أنبذ كل لذة أو شغل آخر لأعكف عليه العكوف كله (٧٤) » .

وقال فى فترة لاحقة أنه « لم يشعر بأى ايمان بالدين منذ بدأ قراءة لوك وكلارك (٧٥) » . فما ان بلغ السابعة عشرة حتى كان قد خطط لرسالة فى الفلسفة .

والج عليه أقرباؤه فى أن الفلسفة وثمانين جنيها هى العمام لن يتيحها له سوى عيش ضئلك ، وأن عليه ان يقنع بضرورة التكسب . فهل فى استطاعته أن يدرس القانون ؟ وحاول ذلك طوال ثلاث سنوات مؤلة (١٧٢٦ - ٢٩) . وانهارت صحته ، وأوشكت روحه أيضا أن تنهار ، وفقد اهتمامه بالأفكار فترة . « رأيت دراسة القانون شيئا يثير فى « الغثيان » (٧٦) ، فطلقها ، وعاد الى الفلسفة ، ربما باتحراف واحد . وفى أواخر فبراير ١٧٣٤ رحل عن ادنبرة الى لندن « لأبذل محاولة هزيلة جدا لولوج مجال من الحياة أكثر نشاطا (٧٧) » . وفى ٥ مارس مثلت أجنس جلبريث أمام القس جورج هيوم (عم ديفد) . واعترفت بأنها حبلى . فلما جىء بها أمام جلسة لمجلس الكنيسة المشيخية صرحت بأن « المستر ديفد هيوم . . . هو أبو الطفل » وأرتاب المجلس فى صدقها فأحالها الى الاجتماع التالى للمجلس المشيخى

المحلى ؛ وإمام هذا المجلس فى ٢٥ يونيو ، كررت التهمة . وقد جاء فى محضر مجلس تشيرنسايد :

« ان رئيس الجلسة ٠٠٠ ناشدها ان تقول الصدق وتعترف هل اذنب معها شخص آخر ٠٠٠ ويعد أن نظر المجلس فى الأمر ، وأحيط أعضاؤه علما بأن ديفد هيوم المذكور خرج من المملكة ، أحالوها الى دائرة مجلس تشيرنسايد امتثالا لقواعد الكنيسة (٧٨) » .

وهذا يتطلب مثولها فى المسرح أمام الكنيسة وعرضها فى المشهرة ثلاثة آحاد . وفى ١٧٣٩ أدين آجنيس مرة أخرى بالزنا .

ومضى هيوم الى برستل بعد أن توقف فى لندن ، واشتغل فى مكتب تاجر « ولم تمض على شهور حتى وجدت ذلك الجولا يلاثمنى اطلاقا » فعبر البحر الى فرنسا ، حيث المعيشة أرخص منها فى انجلترا . ومكث فترة فى رانس ، ثم رحل الى لافليش (على نحو ١٥٠ ميلا جنوب غربى باريس) ، لأن كلية اليسوعيين فيها كانت تملك مكتبة كبيرة ، واتصل الاسكتلندى المدير اتصالا وديا بالكهنة فسمحوا له باستعمال كتبهم . وقد وصفه أحد الآباء فى نظرة لاحقة بأنه « كان شديد الاعتماد بنفسه ٠٠٠٠ فى روحه حيوية أكثر مما فيها من التماسك وفى خياله توقد أكثر مما فيه من العمق ، وقلبه أشد انغماسا فى الأشياء المادية والعجب الروحى من أن يتغلغل الى الخفايا المقدسة للحقائق الالهية (٧٩) » .

وفى ظل اليسوعيين ألف هيوم أول جزئين من رائعته الشكوكية « رسالة فى الطبيعة البشرية » . وفى سبتمبر ١٧٣٧ ، عاد الى انجلترا مثقلا بمخطوطته . وقد لقى عنقا مع الناشرين ، لأنه كتب فى ديسمبر الى هنرى هيوم يقول : « اننى الآن أجب كتابى ، أى اقتطع منه أجزاءه الممتازة ، محاولا أن أقلل ما استطعت من أيدائه لشعور الناس (٨٠) » . وكان أهم ما حذف منه « مناقشات حول المعجزات » فنحاهما لاستعمالها فى أوقات أسلم . أما الباقي ، الذى ضمن أنه يدق على أفهام المتشبهين بالقديم ، فقد نشره جون نون اللندنى غفلا من اسم المؤلف فى مجلدين فى يناير ١٧٣٩ . وباع هيوم المجلدين اجمالا

بخمسين جنبها واثنتى عشرة نسخة - وهى صفقة ليست خاسرة جدا بالنسبة لكتاب فى المنطق ونظرية المعرفة بقلم شاب مغمور فى السابعة والعشرين . على أنه كان قمة من قمم الفلسفة الحديثة .

ب - الغرض من شأن العقل

كشف « الاعلان » الذى تصدر الكتاب عن ثقة هيوم فى قدراته . فقد قال فيه انه يستهدف دراسة الطبيعة البشرية من حيث الفهم والانفعالات ، ثم فى مجلد ثالث قادم من حيث الاخلاق والسياسة . وشرع فى تحليل « الانطباع » (الاحساس) ، والادراك الحسى ، والذاكرة ، والخيال ، والفكر ، والعقل ، والاعتقاد . وهذا البحث فى كيفية وصولنا الى أن « نعرف » بحث أساسى ، لأن صحة العلم والفلسفة والدين والتاريخ تتوقف على طبيعة المعرفة ، وأصلها ، وإمكان وثوقنا بها . وهو فرع من الدراسة عسير ، لأنه يتناول الأفكار المجردة لا الأشياء المحسوسة ، والفكر آخر شيء يحاول الفكر أن يفهمه .

وبدأ هيوم بقبوله تجريبية لوك نقطة انطلاق لبحثه ، فكل الأفكار مستقاة فى النهاية من التجربة بطريق الانطباعات . وهذه اما أحاسيس خارجية كالضوء والصوت والحرارة والضغط والروائح والذوق ؛ واما داخلية كالخدر والجوع واللذة والألم . والادراك الحسى احساس مفسر ؛ « فالضوضاء » احساس ، ولكن « نقرة على الباب » ادراك حسى (وهيوم ليس دقيقا أو ثابتا دائما فى استعماله هذين المصطلحين) . والمولود أعمى أو أصم ليس لديه « فكرة » عن الضوء أو الصوت ، لأنه لم يكن لديه احساس بأحدهما . وفكرنا المكان والزمان نابعتان من التجربة ، فالأولى « فكرة نقاط مرئية أو محسوسة موزعة بنظام معين » ، والثانية ادراك التعاقب فى انطباعاتنا (٨١) ولا تختلف الأفكار عن الانطباعات الا فى ضعف « القوة والحيوية التى تقع بهما على الذهن (٨٢) » . والاعتقاد « ليس الا فهما أكثر حيوية وحدة لآى فكرة ... انه شيء يشعر به الذهن ، يميز أفكار الحكم عن خرافات الخيال (٨٣) » .

ويبدو أن هيوم فى تعريفاته هذه يرى فى « الذهن » كيانا أو أداة

حقيقية تمارس الانطباعات أو الأفكار ، أو تمتلكها ، أو تتذكرها ، أو تحكم عليها . على أنه اذ يمضي فى البحث ينكر وجود أى ذهن ملحق بالحالات النفسية - الاحساس ، أو الادراك الحسى ، أو الفكرة ، أو الشعور ، أو الرغبة التى تشغل الوعى فى لحظة بعينها يقول :

« ان ما نسميه «الذهن» ليس الا كومة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية توحدت معا بشتى الارتباطات ، ويفترض فيها - وان كان الفرض خطأ - أنها وهبت غاية البساطة والتطابق ... أما انا فاننى حين أتغلغل فيما أسميه «نفسى» أعثر دائما على ادراك حسى معين أو آخر ، للحرارة أو البرودة ، للضوء أو الظل ، للحب أو الكره ، للالم أو اللذة . ولا أستطيع اطلاقا ان ألحظ شيئا غير الادراك الحسى . فاذا زالت عنى ادراكاتى الحسية أى فترة ، كما يحدث بالنوم العميق ، فاننى طوال هذه الفترة أكون عادم الحس «بنفسى» ، ويمكن القول حقا اننى غير موجود . واذا زالت ادراكاتى الحسية كلها بالموت ، فعجزت عن التفكير والشعور والابصار والحب والكره بعد تحلل جسمى ، فاننى أمحق محقا ، ولست أتصور ما يلزم بعد ذلك لجعلنى عدما فى عدم ... واذا ضربنا صفحا عن بعض الميثافيزيقيين ... فقد أجرؤ على التاكيد بأن باقى البشر ليسوا سوى حزمة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية التى يعقب بعضها بعضا بسرعة فائقة ، والتى تندفق تدفقا دائما ... وهذه الادراكات الحسية المتعاقبة ... تشكل

الذهن (١٤) » .

وهكذا بضربة واحدة من هذا الفتى المتهور سقطت ثلاث فلسفات : الفلسفة المادية ، لاننا (كما أثبت باركللى) لا ندرك «المادة» أبدا ، ولا نعرف غير عالمنا العقلى عالم الأفكار والمشاعر ؛ والفلسفة الروحانية ، لاننا لا ندرك أبدا «روحا» ملحقة بمشاعرنا وأفكارنا الخاصة ؛ وفلسفة الخلود ، لأنه ليس هناك «ذهن» يبقى حيا بعد الحالات الذهنية العابرة . وكان باركللى قد هدم المادية برده المادة ذهنا ، فضايف هيوم التدمير برده الذهن أفكارا . فلا «المادة» ولا «الذهن» موجودان . لا لوم على طرفاء العصر اذن أن «يرفضوا الفيلسوفين جميعا بهذه

العبرة « No matter, never mind) وفيها تورية ، لايهم (لا مادة) ،
لا بأس (ولا ذهن) () .

وحرية الارادة فى هذه النظرة المدمرة مستحيلة ، فليس هناك
ذهن يختار بين الافكار أو الاستجابات ، وتعاقب الحالات النفسية
يقرره ترتيب الاحاسيس ، وترابط الافكار ، وتناوب الرغبات ؛ ان
« الارادة » ليست سوى فكرة تناسب فتصبح حركة ، والهوية الشخصية
هى شعور الاستمرار حين تستحضر حالة نفسية حالات سابقة وترتبط بينها
بفكرة العلة .

ولكن العلة أيضا ليست سوى فكرة ؛ فليس قى قدرتنا ان نثبت
انها واقع موضوعى . فاذا أدركنا ان : أ (اللهب مثلا) تعقبه بانتظام
ب (الحرارة) ، استنتجنا ان أ كانت العلة فى ب ، ولكن كل ما لاحظناه
هو تعاقب الأحداث ، لا عملية عليية ، فليس فى استطاعتنا ان نعرف ان
ب ستعقب أ دائما . « كل استدلالنا العقلية المتصلة بالسبب والنتيجة
لا مصدر لها غير العادة (٨٥) » . وليست « قوانين الطبيعة » التى
نتحدث عنها الا تعاقبات مألوفة فى تجربتنا ؛ لا روابط ثابتة وضرورية
فى الأحداث ، ولا ضمان انها ستصدق غدا . فالعلم اذن تراكم لاحتمالات
المعرضة للتغيير دون انذار . والميتافيزيقا مستحيلة اذا زعمت انها نسق
من الحقائق حول واقع مطلق ، لانه لا سبيل الى معرفة « الاسباب »
الكامنة وراء النتائج ، ولا « المسادة » الكامنة وراء الاحاسيس ،
ولا « الذهن » الذى يقال انه كامن وراء الافكار . وما دما نبني ايماننا
بالله على سلسلة من الاسباب والنتائج يفترض انها ترتد الى « محرك
أول لا يتحرك » ، فان علينا ان نتخلى عن تلك المسفطة الارسطاطالية .
ان الاشياء كلها تتدفق ، وما اليقينية الا حلم من الاحلام .

وبعد ان ينشر هيوم الدمار من حوله بسيف عقله البتار ، يتوقف
لحظة تواضع فيقول « حين أتأمل القصور الفطرى فى حكمى ، تقل
ثقتى بأرائى عنها حين أتأمل الاشياء التى اتناولها بالاستدلال (٨٦) »
فهو يعلم مثلنا ان اليقينية ليست ضرورية للحياة ، ولا للدين ، ولا حتى
للعلم ؛ وان درجة كبيرة من الاحتمال تكفى لعبور شارع او بناء

كتدراية أو لتخليص نفوسنا . ويسلم فى تذييل للكتاب بأنه قد يكون هناك رغم ذلك نفس وراء الأفكار ، وواقع وراء الاحاسيس ، وعلاقة عليية وراء التعاقبات المتصلة . وهو ثابت على موقفه نظريا « لم يسعدنى الحظ الى الآن بأن اكتشف أى أخطاء جسيمة فى الاستدلالات المعروضة فى المجلدين السابقين (٨٧) » . ولكنه يعترف فى لطف أنه ، غمليا ، يتخلى عن شكوكيته حالما يضع قلمه .

« لو سئلت هل أوافق مخلصا على هذه الحجة التى بذلت هذا الجهد فى اقرارها ، وهل أنا حقا واحد من هؤلاء الشكاك الذين يذهبون الى أن كل الاشياء غير يقينية ... لأجبت ... اننى لا أنا ولا أى شخص آخر دان بهذا الرأى فى أى وقت باخلاص وثبات (٨٨) ... اننى أتناول غذائى ، وألعب النرد ، وأتحدث وأسمر مع أصحابى ، فاذا عدت بعد ثلاث أو أربع ساعات من الترويح الى هذه التأملات ، بدت لى باردة مفتعلة سخيفة جدا بحيث لا أستطيع أن أجد فى صميم نفسى ما يدفعنى لمزيد من الايغال فيها (٨٩) ... وهكذا يواصل الشاك استدلاله العقلى واعتقاده ، وإن أكد أنه لا يستطيع الدفاع عن استدلاله العقلى بالعقل ؛ وعلى هذه القاعدة نفسها يجب أن يوافق على مبدأ وجود الجسد وإن عجز عن الادعاء بأى حجج من الفلسفة بأنه أثبت صحته (٩٠) » .

وأخيرا يتنكر هيوم للجدل العقلى باعتباره هاديا للحياة ويضع ثقته فى الايمان الحيوانى ، فى الاعتقاد القائم على العرف بأن الواقع عقلانى تتخلله العلية . وحين يؤكد هيوم أن « الاعتقاد هو على الأصح فعل من أفعال الجانب الحساس لا الجانب العارف من طبائعنا (٩١) » فانه ... وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره - يلتقى بجان جاك روسو ، ذى الستة والعشرين ، فى الشباب والنظرية ، كما قدر له أن يلتقى به بعد ذلك فى الصداقة والمأسة . ولم يقتصر أبرع المجادلين العقلين فى عصر العقل على اتهام المبدأ العلى للعقل ، بل انه فتح بابا لرد الفعل الرومانسي الذى سينزل العقل عن عرشه ويجعل من الوجدان الها له .

و « الكتاب » والمجلد الثاوى من « الرسالة » يواصل انزال العقل

عن عرشه . فنرى هيوم يرفض محاولات الفلاسفة بناء مبدءاً أخلاقى على تحكم العقل فى العاطفة . وهو يعنى بكلمة العاطفة الرغبة الوجدانية . « لكى أثبت مغالطة هذه الفلسفة باكملها ، سأحاول أن أثبت أولاً أن العقل وحده لا يمكن أن يكون دافعاً لآى فعل من أفعال الإرادة ؛ ثانياً أنه لا يستطيع اطلاقاً معارضة العاطفة فى اتجاه (ضد قوة) الإرادة (٩٢) » . « فلا شيء يستطيع مقاومة أو تعطيل دافع العاطفة الا عاطفة مضادة » (أهذا صدق لسبينوزا ؟) . ويضيف هيوم امعاناً منه فى ترويع المتشبهين بالقديم « ان العقل عبد ، وينبغى أن يكون عبداً ، للعواطف (الاداة المنيرة والمنسقة للرغبات) ولا يمكن أن يزعم لنفسه أى وظيفة أخرى سوى خدمتها وطاعتها (٩٣) » .

ثم يمضي الى تحليل دقيق للعواطف - وأهمها الحب ، والكراهة ، والعطف ، والغضب ، والطمع ، والحسد ، والكبرياء . « ان العلاقة التى تحدث فى الكثير الغالب عاطفة الكبرياء هى علاقة الملكية (٩٤) » . وكل العواطف تقوم على اللذة والألم ، وتميزاتنا الاخلاقية تتبع فى النهاية من هذا المنبع الخفى ذاته « اننا نميل الى اطلاق اسم الفضيلة على أى صفة فى الآخرين تعطينا اللذة لأنها تعين على دفعنا ، وعلى اطلاق اسم الرذيلة على أى صفة بشرية تعطينا الألم (٩٥) » . وحتى مفاهيم الجمال والقبح مشتقة من اللذة والألم . يقول :

« لو تأملنا جميع الفروض التى وضعت ... لتفسير الفرق بين الجمال والقبح ، لوجدناها كلها تنحل الى هذا ، وهو أن الجمال نظام وتركيب للأجزاء ، مهياً لاعطاء اللذة والرضى للنفس ، اما بسبب التكوين الفطرى لطبائعنا (كما نرى فى جمال الجسم البشرى) أو بسبب العرف (كما نرى فى الاعجاب بنحافة القوام فى النساء) أو بسبب النزوة العارضة (كما نرى فى اصفاء الكمال على أوهام الرغبة المعاقة) ... فاللذة والألم إذن ليسا مرافقين ضروريين فحسب للجمال والقبح ، ولكنهما يكونان جوهرهما ذاته ، ... وما الجمال الا شكل يحدث اللذة ، كما أن القبح بناء للأجزاء يحدث الألم (٩٦) » .

والحب بين الجنسين يتركب من هذا الاحساس بالجمال ، مضافاً اليه « الرغبة الجسمية فى التناسل ورقة ومودة سمحتان (٩٧) » .

وفى مارس ١٧٣٩ عاد هيوم الى ادنبره . وراح يقلب الدوريات فى لهفة بحثا عن نقد لمجلديه ، وعانى من نتائج تقلبيها . قال « لم تلق محاولة أدبية قط حظا أعثر مما لقيت « رسالتى فى الطبيعة البشرية » فلقد ولدت ميتة من المطبعة ، ولم نحظ حتى باثارة دمدمة سخط بين المتعصبين (٩٨) » ولكنه حين كتب هذا فى شيخوخته كان قد نمي ، ربما بسبب الرغبة فى نسيان الذكريات الكريهة ، أن عدة مقالات نقدية ظهرت خلال سنة بعد نشر كتابه . وقد شكت كلها تقريبا من أنه عسير الفهم ، وأن المؤلف سمح لشبابه بالاعلان عن ذاته بتكرار الإشارة الى نفسه والى الجدة الخطيرة التى تنطوى عليها أفكاره . قال باقد نموذجى من أعدائه : « ان ما يؤذى القارئ أشد الأذى هو تلك الثقة التى يسوق بها مفارقاته . . فما عهدنا شاكا أشد من هذا قطعا بأرائه . . . وامثال لوك وكلارك ليسوا فى الغالب فى نظره سوى مجادلين تافهين سطحيين بالقياس اليه (٩٩) » .

وأعد هيوم للمطبعة ، فى عزمه صادقة رغم حزنه ، المجلد الثالث من رسالته ، المحتوى على الكتاب الثالث « فى الاخلاق » . وقد ظهر فى ٥ نوفمبر ١٧٤٠ . وساء تحليله للفضيلة العقلانيين بقدر ما ساء اللاهوتيين . فهو يزعم أن قواعد الفضيلة ليست الهامات خارقة ، ولكنها أيضا ليست استنتاجات خلص اليها العقل ، وذلك - كما يكرر هيوم القول « لأن العقل ليس له تأثير على عواطفنا أو أفعالنا (١٠٠) » . وحسنا الخلقى ليس مصدره السماء بل التعاطف - شعور الزمالة مع اخواننا من البشر ، وهذا الشعور جزء من الغريزة الاجتماعية التى بها نلتمس الارتباط بالغير لخشيئتنا من العزلة . « ان أول حالة وموقف للانسان يمكن أن يوصفا بحق بأنهما اجتماعيان » ؛ و « الحالة الطبيعية » التى عاش فيها الناس دون تنظيم اجتماعى « يجب اعتبارها حديث خرافة (١٠١) » ، فالمجتمع قديم قدم الانسان . واذ كان الناس أعضاء فى جماعة ، فانهم سرعان ما تعلموا أن يمتدحوا التصرفات

١٤ - قصة الحضارة

النافعة للجماعة ، ويذموا الضارة بها . ثم ان مبدا التعاطف جعلهم يميلون الى تقبل أو محاكاة الآراء التي سمعوها من حولهم ؛ وبهذه الطريقة اكتسبوا معايير وعادات الثناء واللولم ، وطبقوا هذه الاحكام بوعى أو بلا وعى على سلوكهم . هذا فى رأى هيوم أصل الضمير ، لا صوت الله (كما سيتصور روسو وكانط) . ويقول هيوم ان قانون التعاطف هذا ، قانون التجاذب الجماعى ، هو عام ومنير فى العالم الأخلاقى شان قانون الجاذبية فى الكون المادى ، ثم يختتم بهذه العبارة « وهكذا يحدونى على الجملة الأمل بأنه لا ينقصنا شيء للبرهان الصحيح على هذا النسق من الأخلاق (١٠٢) » .

وكان المجلد الثالث أقل لفنا للأنظار حتى من المجلدين السابقين . وظلت بقايا النسخ الألف والمائة ، وهى مجموع نسخ الطبعة الأولى للرسالة ، الى سنة ١٧٥٦ ، مكدسة على رفوف الناشر ، ولم يعثر هيوم ليرى طبعة ثانية من كتابه .

ج - الأخلاق والمعجزات

كان واضحا أنه لا يستطيع كسب قوته بقلمه . وفى ١٧٤٤ بذل محاولة فاشلة للوصول الى كرسي الأستاذية بجامعة ادنبره . ولا شك أنه قبل فى شيء من الاحساس بالهوان (أبريل ١٧٤٥) وظيفة معلم خاص لمركز أنانديل الصغير لقاء راتب قدره ٣٠٠ جنيه فى العام . أما المركز فقد اختلط عقله ، وتبين هيوم أنهم يتوقعون منه أن يكون حارسا لجنون ؛ ونشبت المشاجرات ، فطرد (أبريل ١٧٤٦) واضطر الى رفع دعوى مطالبا برأته . ثم اشتغل سنة (١٧٤٦ - ٤٧) سكرتيرا للجنرال جيمس سانت كلير ، وكان يتقاضى راتبا طيبا ، ويتناول طعاما طيبا . وفى يوليو ١٧٤٧ عاد هيوم الى ادنبره وهو يملك ويزن من الجنهات أكثر كثيرا منه حين غادرها . وفى ١٧٤٨ أعاد الجنرال استخدامه سكرتيرا وياورا . هى بعثة الى تورين ، واكنسي ديفد الآن سترة قرمزية بتوهجة .

وأعجب جيمس كولفيلد (ايرل تشارلمونت فيما بعد) وكان بومها طالبا بتورين ، بذكاء هيوم وخلقه ، ولكن أفزعته سمته . قال :

« ان سحنته حيرت علم الفراسة وأعيت قدراته ... فى الكشف عن أقل اثر لمواهبه العقلية فى ملامح وجهه النى تخلو من المعنى . كان وجهه عريضا سمينا ، وقمه واسعا ، بغسير أى تعبير غير تعبير البلاهة ... وكانت بدانة جسمه كله أجدر بأن توحى للناظر بفكرة العمدة أكل القرسة ، لا الفيلسوف المذهب (١٠٣) » .

ويعدى كولفيلد هذا أنه رأى هيوم (وهو فى السابعة والثلاثين) جاثيا على ركبتيه أمام كونتبسة منزوجة (فى الرابعة والعشرين) ، يبنها غرامه ويعانى عذاب الحب المحتقر ؛ أما السيدة فرفضت أن تبادلها هذا الغرام قائلة انه ليس الا « عملية طبيعية فى نسقك الفلسفى » . ويقول المصدر نفسه أن هيوم أصيب بالحمى وحاول الانتحار لولا أن منعه الخدم ، ويروى اسكتلندى آخر أن هيوم « تناول القربان الأخير » أثناء مرضه على يد كاهن كاثولىكى . وقيل ان هيوم اعتذر عن مطارحة الغرام وعن تناول القربان الأخير قائلا « ان نظام دماغى كان مختلا ، وكنت مجنونا كاي نزيل لمستشفى المجاذيب (١٠٤) » وفى ديسمبر ١٧٤٨ عاد الى لندن وفرغ للفلسفة بعد أن بلغت ثروته ألف جنيه .

واعترزم أن يجد أذنا مصغية من جديد لأفكار « الرسالة » ، فنشر فى ١٧٤٨ « تحقيقا عن الفهم البشرى » ، وفى ١٧٥١ « تحقيقا عن مبادئ الأخلاق » . وفى « اعلان » قدم به لطبعه لهذين التحقيقين صدرت بعد وفاته (١٧٧٣) تنكر للرسالة باعتبارها « عملا صبيانيا » ورجا أن « تعتبر المقالات التالية وحدها هى المحتوية على آرائه ومبادئه الفلسفية (١٠٥) » . أما تلاميذ هيوم فقد وجدوا عموما فى أعمال هيوم الأولى من الدسم أكثر مما وجدوا فى أعماله الأخيرة ، فهذه تغطى الأرض نفسها ربما بأسلوب أقل عدوانا وقطعا ، ولكنها تخلص الى النتائج ذاتها .

وبعد أن أعاد هيوم تحليله الشكى للعقل قدم القسم العاشر من التحقيق الأول ، وهو مقاله « فى المعجزات » الذى رفض الناشر من قبل أن يطبعه ضمن الرسالة . واستهله باعتداد العادى بنفسه ، « انى أغبط نفسي على أننى عثرت على حجة ... اذا صدقت كانت للعقلاء والمثقفين رادعا دائما لكل ضروب الوهم الخرافى وستكون اذن نافعة أبد الدهر » . ثم يطلق أشهر فقراته فيقول :

« ما من شهادة تكفى لاثبات معجزة ، الا اذا كانت الشهادة من نوع يكون فيه كذبها أكثر اعجازا من الواقعة التى تحاول اثباتها ... فاذا أنبأنى انسان بأنه رأى ميتا يبعث ، سألت نفسي للتو أيهما أكثر احتمالا ، أن يكون هذا الشخص خادعا و مخدوعا ، أو أن الواقعة التى يرويهها وقعت فعلا . فأوازن بين المعجزتين ، وطبقا لرجحان احدهما ... أرفض المعجزة الأكبر . ولن تجد فى التاريخ كله معجزة شهد عليها عدد كا فمن الناس ، أوتوا من صادق الادراك والتعليم والثقافة ما يؤمننا من أى انخداع قد ينخدعون به ، ومن النزاهة التى لا ريب فيها ما يرفعهم فوق أى شبهات من أى قصد فى خديعة غيرهم ، ومن الثقة وحسن السمعة فى أعين البشر ما يجعلهم يخسرون كثيرا اذا ضبطوا متلبسين بأى كذبة ؛ ويشهدون فى الوقت نفسه على وقائع وقعت علانية ، وفى جزء مشهور من العالم ، مما يجعل الضبط أمرا لا يمكن تجذبه ؛ وهذه الظروف كلها لازمة لاعطائنا الثقة الكاملة فى شهادة البشر ..

« ان القانون الذى نهتدى به عادة فى استدالاتنا العقلية هو أن الأشياء التى لا خبرة لنا بها تشبه تلك التى لنا بها خبرة ؛ وأن ما وجدناه أكثر الأشياء عادية هو دائما أكثرها احتمالا ؛ وانه حيث يكون هناك تعارض فى الحجج ينبغى لنا أن نفضل تلك القائمة على أكبر عدد من الملاحظات الماضية . . . وانها لقرينة قوية ضد جميع العلاقات الخارقة والاعجازية ما يلاحظ من أنها تكثر على الاخص بين الأمم الجاهلة

والهمجية ، ... ومن الغريب أن مثل هذه العجائب لا تحدث أبداً في
إيماننا . ولكن لا غرابة ... في أن يكذب الناس في جميع
العصور (١٠٦) » .

واسترسل هيوم في ادعاء عقبات أخرى في طريق الايمان المسيحي:
حياد الطبيعة الهادئة^١ ازاء الانسان ومناقسيه على الأرض ؛ وتنوع
الشرور المتكاثر في الحياة والتاريخ ؛ ومسئولية الله الواضحة عن خطيئة
آدم ، وعن جميع الخطايا ، في عالم لا يمكن أن يقع فيه شيء - طبقا
للفرض المسيحي - الا برضى الله . ودرءا لتهمة الكفر عنه ، أجرى هيوم على
لسان «صديق يحب المفارقات الشكية» «لا أستطيع أبدا الموافقة» على مبادئه ،
دفاعا عن تخيل أبيقور أن الالهة موجودة ولكنها لا تعب بالبشر . ويتساءل
الصديق لم لا يمكن أن يتفق الدين والفلسفة على ألا يزعم أحدهما الآخر
كما اتفقا - فيما يظن - في الحضارة الهلنستية :

« بعد أن انتهى الفزع الأول الذي نجم عن مفارقات ومبادئ
الفلاسفة الجديدة ، يبدو أن هؤلاء المعلمين عاشوا طوال العصور القديمة
في انسجام عظيم مع الخرافة المقررة ، وقسموا البشر قسمة عادلة
بينهما : فالقسم الأول يدعى لنفسه جميع العلماء والحكماء ، والثاني
جميع السوقة واللاميين (١٠٧) » .

فياله من أسلوب للمهادنة !

وفي ١٧٤٩ عاد هيوم الى اسكتلندة ليعيش مع أخيه وأخته في
ضيعتهما بنيانويلز . وبعد عامين تزوج جون هيوم ، وانتقل ديفد الى
ادنبره ، وأرسل الى المطبعة الآن^٢ التحقيق في مبادئ الأخلاق « الذي
أمل أن يحل محل المجلد الثالث من الرسالة ، وأكد من جديد أن الحس
الأخلاقي مشتق من التعاطف أو المشاعر الاجتماعية ؛ ورفض ما ذهب
اليه سقراط من أن الفضيلة والذكاء شيء واحد ؛ واستنكر استنكارا قاطعا
فكرة لارشفوكو القائلة بأن الأفعال « الغيرية » مدفوعة أنانيا بأمل
اللذة الحاصلة من التقدير الاجتماعي الذي يتوقع أن تحظى به . فاللذة

التي نستشعرها فى مثل هذه الافعال ، فى رأى هيوم ، ليست سببا لها بل مرافقا ونتيجة لها ؛ أما الافعال ذاتها فهى عملية من عمليات غرائزنا الاجتماعية (١٠٨) .

ولكن أبرز ملامح هذا التحقيق الثانى هو تفصيله لمبدأ منفعة أخلاقى . فبعد هتشن بثلاثة وعشرين عاما ، وقبل بنتام بثمانبسة وثلاثين ، عرف هيوم الفضيلة بأنها « كل صفة فى العقل نافعة أو لذبة للشخص نفسه أو لغيره (١٠٩) » . وعلى هذا الاساس برر اللذات الصحية للحياة باعتبارها نافعة للفرد ، والمعيار المزدوج للفضيلة باعتباره نافعا للمجتمع . يقول :

« ان طفولة الانسان الطويلة العاجزة تقتضى تضافر الوالدين للابفاء على حياة صغارهما ، وهذا التضافر يحتاج الى فضيلة العفة أو الوفاء للفرأش الزوجى . والخيانة من هذا النوع أشد أذى فى المرأة منها فى الرجل . ومن ثم كانت قوانين العفة أشد صرامة على أحد الجنسين منها على الآخر (١١٠) » .

وقد كتب المؤلف المفتون بكتابه عن هذا التحقيق فى مبادئ الأخلاق يقول : « فى رأى (أنا الذى ينبغى إلا أكون حكما فى هذا الموضوع) أنه من بين جميع مؤلفاتى . . . أفضلها بما لا يقاس » وأضاف « لقد ولد غير ملحوظ ولا مرموق فى هذه الدنيا (١١١) » .

٤ - الداروينية ومسيحية

وفى ١٧٥١ ألف « حوارات فى الدين الطبيعى » ، وهو أشد ما أخرج مزاجه الشيطانى تخريبا وعدوانا على المقدسات . هنا يتحدث ثلاثة أشخاص ، ديميا الذى يدافع عن السنية ، وكليانثيس الربوبى ، وفيلو الذى هو هيوم لا يخطئه النظر . وبزعم ديميا أنه ما لم نفترض وجود عقل أعلى وراء ظواهر الطبيعة فإن العالم يصبح غير مفهوم الى

حد لا يطاق ، ولكنه يسلم ن الله غير مفهوم بتاتا للعقل البشرى (١١٢) .
ويلوم كلياتيس ديميا على محاولته تفسير غير المفهوم بغير المفهوم ،
ويؤثر أن يثبت وجود الله بأدلة القصد فى الطبيعة . أما فيلو فيسخر
من الحجتين ، ويزعم أن العقل لا يمكن أبدا أن يفسر العالم أو يثبت
وجود الله . « فأى امتياز خاص تمتاز به حركة الدماغ الصغيرة هذه
التي نسميها الفكر ، حتى يتحتم علينا أن نجعلها نموذجا للكون
كله ؟ (١١٣) » . وأما عن القصد ، فان تكييف الاعضاء لتلائم الأغراض
ربما لم ينشأ عن إرشاد الهى ، بل عن تجارب الطبيعة ، البطيئة
المتخبطة ، خلال آلاف السنين (١١٤) . (هنا نجد « الانتخاب
الطبيعى » بعد ١٨٠٠ سنة من لوكرينيوس ، وقبل ١٠٨ سنة من
داروين) . وحتى لو سلمنا بالقصد فوق الطبيعى ، فان قصور
التكيفات وعيوبها ، وآلاف الآلام فى دنيا الانسان والحيوان ، تكشف
لنا - على أحسن الفروض - عن إله محدود القدرات والذكاء ، أو إله
غير مكترث للبشر بتاتا . « فحياة الانسان فى النهاية ليست أعظم
أهمية للكون عن حياة المحارة (١١٥) » يقول :

« يخيل للمرء أن هذا الانتاج الفخم لم يتلق آخر اللمسات من
خالقه ، فكل جزء فيه ناقص الصقل جدا ، والخطوط التي تُنفذ بها
غاية فى الخشونة . فالرياح مثلا تساعد الناس على الملاحه ، ولكن
ما أكثر ما تصبح مؤذية حين تنقلب زوابع وأعاصير ! والأمطار ضرورية
لتغذية جميع نباتات الارض وحيواناتها ، ولكن ما أكثر ما تكون شحيحة
وما أكثر ما تكون مسرفة ! . . . ليس فى الكون شيء كثير النفع إلا انقلب
المرء بعد المرة مؤذيا لافراطه أو قصوره ، ثم أن الطبيعة لم تتخذ حيلتها
بالدقة المطلوبة من جميع ألوان الخلل أو الفوضى (١١٦) » .

وأما من هذا أن الأمر لا يقتصر على وجود الخلل وسط النظام
(اذا نظرنا الى العالم على أنه مخطط) ، بل ان فى وسط الحياة
الزائفة صراعا عقيما على الدوام مع الموت .

« ان حربا لا يخمد لها أوار تستعر بين جميع الكائنات الحية .
فبالضرورة ، والجوع ، والعوز - تحفز الاقوياء والشجعان ، والخوف ،
والقلق ، والرعب ، تقلق الضعفاء والعاجزين . وأول مدخل للموليد الى
الحياة فيه ألم مبرح له ولألمه المسكينه ، والضعف والعجز والضيق رفقاء
كل مرحلة من مراحل تلك الحباة ، ثم يختم آخر الامر بالعذاب والرعب
.. لاحظ أيضا .. حيل الطبيعة العجيبة ، لتكدر حياة كل كائن حى
.. .. تأمل ذلك الجيش العرمرم من الحشرات التى تتربى على جسم
كل حيوان ، أو تغرز حماتها فيه وهى تطير من حوله ... فكل حيوان
يحقق به أعداء يسعون على الدوام الى اشقائه وتدميره .. والانسان
ألد خصوم الانسان . فالقهر ، والظلم ، والاحتقار والاهانة ، والعنف ،
والاغواء ، والحرب ، والافتراء ، والغدر ، والتزييف ؛ بهذه يعذب
الناس بعضهم بعضا (١١٧) .

« انظر الى هذا الكون نظرة محيطية . يا لها من وفرة هائلة فى
الكائنات ، الحية المنظمة ، الحساسة النشيطة ! انك لتعجب بهذا التنوع
الضخم وهذه الخصوبة الهائلة . ولكن افحص بتدقيق أكثر هذه الكائنات
الحية ... ما أشد عداها وتدميرها بعضها لبعض ! .. والكل لا يمثل
سوى فكرة الطبيعة العمياء ، التى تزخر بمبدأ محى عظيم ، ويتدفق من
حجرها دون تمييز أو رعاية أبوية أطفالها الشائهن المجهضون (١١٨) » .

وتوحى الأدلة المتضاربة على الخير والشر فى العالم الى فيلو
بثنائية الآلهة المتنافسين أو تعددهم ، بعضهم « أخيار » وبعضهم
« أشرار » ، وربما كانوا مختلفى الجنس . وهو يلمع فى خبث الى أن
العالم :

« لم يكن سوى المحاولة الفجة الاولى لآله طفل ألق عنها بعد ذلك
خجلا من انجازه الاعرج .. أو أنه نتاج الشيخوخة والخرف فى اله طين
فى السن ، وبعد موته واصل العالم مسيرته مغامرا ، مدفوعا بالدفعة
والقوة الفعالة الاولى التى تلقاها منه (١١٩) » .

ولعل العالم كما أكد البراهمة « نشأ عن عنكبوت لا نهائى غزل
خيوطه المعقدة كلها من امعائه ٠٠٠ فلم لا يغزل نسق منظم من البطن
كما يغزل من الدماغ ؟ (١٢٠) » . فتكون الخليقة والحالة هذه انسالا .
أو ربما « كان العالم حيوانا والاله روح العالم التى تحركه
وتتحرك به (١٢١) » .

وبعد هذا المزاج كله يعود فيلو الى القصد ، فيسلم بأن « علة النظام
أو عله فى الكون فيها على الأرجح بعض الشبه بالذكاء الانسانى (١٢٢) » .
ثم يعتذر عن آرائه المخزية عن الكون :

« يجب أن أعترف اننى أقل حذرا فى موضوع الدين الطبيعى
منى فى أى موضوع آخر ٠٠٠ وإنك على الأخص يا كليانثيس ، أنت
الذى أعيش معه فى علاقة حميمة بغير قيود ، تدرك أننى رغم تحرر
حديثى ، وحبى للحجج الغريبة ، فليس هناك من طبع ذهنه بأحاساس
بالدين أعمق من إحسامي ، أو من بعبد الكائن الالهى عبادة أعمق اذ
يكشف فى نفسه أنه يناقش أساليب الطبيعة وحيلها التى لا يمكن
تفسيرها . فالقصد ، أو النية ، أو التخطيط ، يسترعى فى كل مكان
نظر أشد المفكرين غفلة وغباء ، وما من رجل يمكن أن يتجمد فى المذاهب
الفلسفية السخيفة تجمدا يجعله يرفض هذا القصد على طول
الخط (١٢٣) » .

على أن أصحاب هيوم ناشدوه ألا ينشر الحوارات رغم هذا العرض
بالمصالحة . فاذعن ، وحبس المخطوطة فى مكتبه ، فلم تر النور الا فى
عام ١٧٧٩ ، بعد موته بثلاثة سنوات . ولكن افتتاحه بالدين اغراه بالعودة
الى الموضوع ، وفى ١٧٥٧ نشر « أربع مقالات » تناولت احداها « تاريخا
طبيعيا للدين » . وسحب مقالين آخرين بناء على الحاج ناشره ، وقد
طبعا حين كان أبعد من أن يناله خوف أو لوم ؛ وأحد المقالين عن
الخلود ، والآخر تبرير للانتحار حين يصبح الشخص عبثا على
اخوانه .

ومقال « التاريخ الطبيعى للدين » هذا يجمع بين اهتمام هـيوم القديم بالدين ، واهتمامه الجديد بالتاريخ . فقد فات مرحلة الهجوم على المعتقدات القديمة الى مرحلة التساؤل عن كيفية توصل الانسان الى اعتناقها . ولكنه لا يميل الى البحث الصابر المستأنى ، حتى بين المواد الشحيحة المتاحة آنئذ عن الأصول الاجتماعية ، بل يؤثر أن يتناول المشكلة بتحليل السيكولوجى والاستنباط العقلى . فعقل الانسان البدائى فسر العلية كلها قياسا على ارادته وسلوكه ، فورا أعمال الطبيعة وأشكالها - كالانهار والمحيطات والجبال والعواصف والأوبئة والعجائب الخ - تصور هذا الانسان أعمالا ارادية يقوم بها أشخاص مختفون ذوو قدرة خارقة ؛ ومن هنا كان الشرك أول ضروب الايمان الدينى . واذ كانت قوى أو أحداث كثيرة مؤذية للانسان ، فقد كان للخوف نصيب موفور فى أساطيره وعبادته ، فجسد هذه القوى الشريرة أو الشياطين وحاول أن يسرنضيهها . ولعل الاله الذى آمن به كلفن كان شيطانا قاسيا ، خبيثا ، مستبدا ، صعب الارضاء (وهذه اشارة خبيثة من هيوم) (١٢٤) . واذ تصور الانسان الالهة الخيرة على شكل البشر - الا من حيث القوة والدوام ، فانه افترض أنها تمنح العون والراحة لقاء الهدايا والزلفى ، ومن ثم كانت طقوس القرابين ، والضحايا ، والعبادة ، وصلاة التضرع . ويزدياد التنظيم الاجتماعى حجما واتساعا ، ويخضوع الحكام المحليين للملوك أعظم ، مرت دنيا اللاهوت بتغيير مشابه ، فعزا الانسان فى الخيال الى الالهة نظاما هرميا تسوده الطاعة ، وانبعت التوحيد من الشرك ، وبينما كانت الجماهير لا تزال تجثو للالهة أو القديسين المحليين ، عبد المثقفون زيوس ، أو جوبتر ، أو الله .

ولسوء الحظ أصبح الدين أكثر تعصبا كلما غدا أكثر توحيدا . فالشرك سمح بالوان كثيرة من العقيدة الدينية ، أما التوحيد فقد طالب بالتماثل . وانتشر الاضطهاد ، وغدت الصيحة المطالبة بالعقيدة السنية « اعنف العواطف الانسانية واعتاها جميعا (١٢٥) » . وأكرهت الفلسفة على أن تكون خادما لايمان الجماهير ومدافعا عنه بعد أن كانت مطلقة

نسبياً بين القدامى باعتبارها دين الصفة . وفى هذه المعائد التوحيدية - اليهودية والمسيحية والاسلام - فصل الاستحقاق و « الخلاص » أكثر فأكثر عن الفضيلة ، وربط بحفظ الشعائر والايمان الاعمى . وترتب على هذا ان المتعلمين أصبحوا اما شهداء واما منافقين ، وبما أنهم قلما اخناروا الاستشهاد ، فان حبة البنر لونها النفاق وعدم الاخلاص .

على أن هيوم كان يغضى عن قدر من النفاق ، وذلك فى نوباته الأقل ولعا بالقتال . منال ذلك أنه حين استشاره فسيى شاب فقد ايمانه أبقى فى الكنيسة ويقبل وظائفها ، أجاب دبغد ، ابق :

« ان الوظائف المدنية الصالحة للمثقفين نادرة ... ومن المغالاة فى احترام العامة ونزعاتهم الخرافية ان يعتز المرء باخلاصه معهم . فهل حدث مرة أن التزم انسان بشرفه بأن يقول الصدق للأطفال أو المجانين ؟ ... والوظيفة الكنسية انما تضيف القليل الى الخداع أو قل انضاهر - البرىء - الذى بدونه يستحيل على المرء أن يشق طريقه فى هذه الدنيا (١٢٦) » .

ه - الشيوعية والديمقراطية

اتجه هيوم فى أخريات عمره أكثر فأكثر الى السياسة والتاريخ بعد أن أعياه الجدل حول مسائل يقررها الوجدان - فى رأيه - أكثر مما يقررها العقل . وفى ١٧٥٢ نشر « أحاديث سياسية » . وقد أدهشه اقبال القراء عليها . وأبهج انجلترا أن تنسى نزعة لاهوته المدمرة فى النزعة المحافظة لسياسته .

كان يتعاطف بعض الشيء مع التطلعات الى مساواة شيوعية :

« لا بد فى الحق من الاعتراف بأن الطبيعة سخت على الانسان سخاء يتيح لكل فرد أن يتمتع بجميع ضروريات الحياة ، بل أكثر كمالياتها ، لو أن عطائها كلها قسمت بالقسط بين الانواع ، وحسنت

بالفن والصناعة ، .. كذلك لا بد من الاعتراف بأننا أينما خرجنا على هذه المساواة سلبنا من الفقراء رضى أكثر مما نضيف الى الاغنياء ، وبأن الاشباع الطفيف لغرور طائش فى فرد واحد ، كثيرا ما كلف أكثر مما يكلفه الخبز لكثير من الأسر بل الاقاليم » .

ولكنه أحس أن الطبيعة البشرية تجعل حلم المدينة الفاضلة التى تسودها المساواة ضربا من المحال :

« ان المؤرخين ينبئوننا ، لا بل الفطرة السليمة تنبئنا ، بأن هذه الافكار عن المساواة « التامة » مهما بدت قيمة الا أنها فى صميمها « غير ممكنة عمليا » ، والا لالحقت اشد الأذى بالمجتمع الانسانى . فلو انك سويت تسوية تامة بين الملكيات ، لحطمت درجات الناس ومراتبهم المختلفة من حيث الصنعة والعناية والجد تلك المساواة فورا . أو لو فرضت الرقابة على هذه الفضائل ... لاحتجت الى أكثر محاكم التفتيش صرامة لمراقبة أى ضرب من عدم مساواة بمجرد ظهوره ، وأشد السلطات القضائية صرامة لعقابه واصلاحه فمثل هذا السلطان المفرط لا بد أن ينحدر سريعا الى درك الطغيان (١٢٧) » .

ونالت الديمقراطية من هيوم ، كما نالت الشيوعية ، رفضه المتعاطف . فالمبدأ فى رايه « مبدأ ... نبيل فى ذاته .. ولكن تكذبه كل التجارب ، أن الناس هم الأصل فى كل ضرروب الحكم العادل (١٢٨) » . ورفض النظرية (التى سيحييها روسو بعد قليل) القائلة بأن الحكومة نشأت أصلا من « تعاقد اجتماعى » بين الناس ، أو بين الشعب والحاكم ، لأنها نظرية صبيانية :

« فكل الحكومات الموجودة الآن تقريبا ، أو التى خلفت لنا أى سجل فى التاريخ ، أسست أصلا إما على الاغتصاب ، أو على الغزو ، أو عليهما جميعا ، دون أن تزعم بأننا حظيت بموافقة الشعب ، أو

بخضوعه الاختيارى . وأغلب الظن أن أول سيطرة الانسان على الجماهير بدأت فى حالة الحرب . . . وكان من اثر استمرار تلك الحالة طويلا . . . وهو أمر مألوف لدى القبائل المتوحشة ، أن الشعب تعود الخضوع (١٢٩) » .

وهكذا أصبحت الملكية أكثر أشكال الحكم انتشارا ، ودواما ، واذن فأكثرها عملية على الأرجح . « ان الامير الوراثى ، والنبلاء دون اتباعهم ، والشعب الذى يصوت بواسطة ممثليه ، يؤلفون خير ملكية ، وارسقراطية ، وديمقراطية (١٣٠) » .

وبالاضافة الى تنفيذ هيوم لروسو سلفا ، استخدم أسلوبه « الاديسونى » لينبذ سلفا نظرية مونتسكيو التى تزعم أن مناخ البلد بقرر طبع أهله . كتب يقول فى « مقالات أخلاقية وسياسية » ظهرت طبعتها الثانية فى آن واحد تقريبا (١٧٤٨) مع « روح القوانين » : « اما عن الاسباب الطبيعية فانى أميل الى الشك فى مفعولها فى هذا المجال . كذلك لا أظن أن الناس يدينون بأى شيء فى طبعهم أو نبوغهم للهواء أو الغذاء أو المناخ (١٣١) » . فالخلق القومى يترتب على الحدود القومية لا المناطق المناخية ، وأهم ما يقرره هو القوانين والحكومة وهيكل المجتمع وأعمال السكان ومحاكاة الجيران أو الرؤساء .

فى ظل هذه العوامل المختلفة المحلية تكون الطبيعة البشرية أساسا طبيعة واحدة فى كل زمان ومكان ؛ فالدوافع والغرائز ذاتها ، التى تفرضها دواعى البقاء ، تنتج أساسا ، فى جميع العصور والأقطار ، الأفعال والنتائج ذاتها .

« فالطموح والجشع ومحبة الذات والغرور والصداقة والكرم وروح الجماعة - هذه العواطف ، المختلطة بدرجات متفاوتة ، والموزعة بين أفراد المجتمع ، كانت منذ أن وجدت الدنيا وما زالت مصدر جميع

الأفعال والمشروعات التى لوحظت بين بنى البشر . أتريد أن تعرف عواطف اليونان والرومان وميولهم وسير حياتهم ؟ اذن فادرس جيدا طبائع الفرنسيين والانجليز وأفعالهم ، فلن تخطئ كثيرا أن طبقت على الأولين معظم الملاحظات التى لاحظتها على الآخرين - فالإنسان شديدا التشابه فى كل زمان ومكان حتى ان التاريخ لا يضيف الى علمنا جديدا أو غريبا فى هذا الباب . وأهم فائدة له أنه يكشف عن المبادئ الثابتة والعامة للطبيعة البشرية بعرضه البشر فى شتى الظروف والمواقف ، ويمدنا بالمواد التى نكون منها ملاحظاتنا ونحيط منها علما بالمنابع المنظمة لأفعال البشر وسلوكهم . فهذه السجلات للحروب والدسائس والحزب والثورات هى مجموعات كثيرة من التجارب يستعين بها فيلسوف السياسة أو الأخلاق على تحديد مبادئ علمه (١٣٢) » .

وفد أضاف حيوم اضافات قيمة للفكر الاقتصادى فى كتابيه « أحاديث سياسية » و « مقالات ورسائل فى موضوعات مختلفة » (١٧٥٣) . ذلك أنه رفض رأى الفيزيوقراطيين الفرنسيين القائل بأن جميع الضرائب تقع فى النهاية على الأرض . وذهب الى أنها تقع فى النهاية على العمل ، لأن « كل شيء فى العالم يشترى بالعمل (١٣٣) » (وهو هنا مرادف لوك) . وحتى قبل أن تتشكل الثورة الصناعية تنبأ بأن العمال « سيرفعون أجورهم بالتكتل » ، وندد بتمويل المصروفات والمشروعات الحكومية بالضرائب المرتفعة والاصدارات المتكررة للسندات ، وتنبأ بأن مثل هذه الاجراءات الضريبية ستجر « الحكومات الحرة » الى « حالة العبودية التى ترزخ تحتها جميع الامم المحيطة بنا » (١٣٤) . والنقود ليست هى الثروة ، وسك مقادير تزيد على متطلبات التجارة منها انما يرفع الاسعار ويعرقل التجارة الخارجية . والنظرية « الماركنتلية » الخاطئة التى ما زالت تحمل الدول الاوربية على التركيز على الصادرات ، ومنع الواردات ، وتجميع

الذهب ، ستحرم أوروبا من المنافع الدولية الناشئة عن قدرة كل أمة على انتاج سلع نوعية بفضل التربة والمناخ والمهارات الخاصة بأدنى تكلفة وأعلى جودة . ثم جرؤ على أن يصلى :

« لا بوصفى انسانا فحسب، بل أحد الرعايا البريطانيين ، . . . لأجل التجارة المزدهرة لألمانيا ، وأسبانيا ، وإيطاليا ، بل وفرنسا ذاتها . وانى على الأقل واثق أن بريطانيا العظمى وهذه الامم جميعا سيزيد ازدهارها لو أن ملوكها ووزرائها اعتنقوا هذه الآراء السمحة الخيرة نحو بعضهم البعض . . . فازدياد الثروة والتجارة فى أى أمة لا يؤذى وإنما على العكس من ذلك يدعم عادة ثروة وتجارة جيرانها جميعا (١٣٥) » .

هذه الأفكار ، التى ربما كانت متأثرة بمذهب « عدم التدخل » الذى نادى به الفيزيوقراطيون ، أنرت بدورها فى آدم سميث ، صديق هيوم ، ولعبت دورا فى تطوير سياسة بريطانية تقول بحرية التجارة ، وهى تجد تحقيقها فى أوروبا الغربية فى عصرنا هذا .

و - التاريخ

فى ١٧٥٢ بعد حملة شنها عليه الحزب السنى الذى اتهمه بأنه زنديق وقح ، انتخب هيوم أمينا لمكتبة كلية المحامين بادنبره . وكان المنصب كبير المعنى فى نظره رغم تواضع راتبه الذى لم يزد على أربعين جنيها فى العام ، لأنه جعله السيد المتصرف فى ثلاثين ألف مجلد . وبفضل وجود هذه المكتبة فى متناوله استطاع ان يؤلف كتابه « تاريخ إنجلترا » . وكان فى عام ١٧٤٨ قد اعترف الى صديق له بهذه الكلمات « لقد طالما نويت ان أؤلف كتاب تاريخ فى سنى حياتى الأكثر نضجا (١٣٦) » . وكان يسمى التاريخ « الخليفة العظمى للحكمة (١٣٧) » ، ويؤمل أن يجد فيه أسباب نهوض الأمم وسقوطها ، يضاف الى هذا :

« ان نرى النوع الانسانى كله يمر بنا وكأنه فى عرض امامنا ،
باديا على سجيته ، دون أى من هذه الاستخفاءات التى طالما شوشت.
حكم المتفرجين على هؤلاء الناس اثناء حياتهم - فإى مشهد آخر يمكن.
أن تتصوره بهذا البهاء والتنوع والتشويق ؟ وإى متعة للحواس أو
الخيال يمكن أن تقارن به ؟ (١٣٨) » .

ان من مظاهر القرن الثامن عشر أنه انجب فى جيل واحد ثلاثة
من أعظم مؤرخى العالم ؛ فولتير ، وهيوم ، وجبون ، وكلهم مؤسس
فى الفلسفة ، محاول أن يعيد تفسير التاريخ بلغة غير لغة اللاهوت ،
وفى أعرض منظور للمعرفة حشده زمانهم . ولم يملّ جبون من الثناء
على هيوم والاقرار بفضل تأثيره ، وكان يقدر اطراء هيوم للمجلد الأول
من « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦) فوق
كل اطراء آخر . فهل كان هيوم بدوره مدينا بالكثير لفولتير ؟ كان قد
توصل الى فلسفته وصاغها كباحث مدين للربوبيين الانجليز لا للشكاك
الفرنسيين . « والرسالة فى الطبيعة البشرية » سبقت كل الاعمال
الكبرى التى كتبها فولتير وديدرو ومونتسكيو . ولكن ربما كان كتاب
هيوم « تاريخ انجلترا » (١٧٥٤ - ٦٢) مدينا بشيء لكتاب فولتير
« عصر لويس الرابع عشر » (١٧٥١) ، وحتى لكتاب « مقال فى
العرف » الذى طبعت أجزاء منه فى ١٧٤٥ و ١٧٥٥ . هؤلاء المؤرخون
الثلاثة كلهم أجمعوا على فضح الخرافة ، ورفض التفسيرات الخارقة ،
والتوحيد بين التقدم وتطور المعرفة والعادات والفنون .

وكتب هيوم تاريخه الى الخلف . فغطى مجلده الاول الصادر فى
(١٧٥٤) عهدى جيمس الاول وتشارلز الاول - السنوات ١٦٠٣ - ٤٩ ،
والثانى (الصادر فى ١٧٥٦) امتد من ١٦٤٩ الى ١٦٨٨ ، والثالث
والرابع (الصادران فى ١٧٥٩) من ١٤٨٥ الى ١٦٠٣ ، والخامس
والسادس (الصادران فى ١٧٦١) من غزو يوليوس قيصر لانجلترا الى
ارتقاء هنرى السابع العرش فى ١٤٨٥ .

وقد أدهشه عنف النقد الذى هوجم به المجلد الاول . كان يؤمن بان تسلط حزب الاحرار على انجلترا منذ استقدموا وليم الثالث فى ١٦٨٨ ، وخوفهم من الثورتين الاستيوارتيتين الناشبتين فى ١٧١٥ و ١٧٤٥ ، قد لوثا كتابة التاريخ الرسمى الانجليزى بالعداء لأسرة ستىوارت ، ثم زعم انه برىء من المزاعم المضادة . « رأيتنى المؤرخ الوحيد الذى أهمل فى وقت واحد للحكومة والمصلحة والسلطة الراهنة من جهة ، وصيحة التحيز الجماهيرى من جهة اخرى (١٣٦) » . ولكنه نسي انه اسكتلندى ، وأن اسكتلندة مازالت تبكى سرا أميرها الجميل تشارلى ، وأن الاسكتلنديين ، وأغلب الظن أن هيوم لم يشذ عنهم ، لم يغفروا قط لانجلترا قتلها تشارلز الاول نصف الاسكتلندى ، واستقدامها أولا رجلا هولنديا ، ثم آخر ألمانيا ، لحكم انجلترا واسكتلندة وويلز . فبينما نراه يسلم بأن تشارلز الاول جاوز حدود الامتيازات الملكية واستحق أن يخلع ، نجده بصور البرلمان متجاوزا بالمثل حقه ، ومذنبا بالمثل فى أمر الحرب الأهلية . ولقد سلم بحق لامة فى خلع الملك الطالح ، ولكنه تمنى لو ان أحدا لم يدفع هذا الحق قط الى نهايته ، وخاف من « هياج الشعب وظلمه » وأحس أن اعدام تشارلز « الرجل المعتدل الكريم النفس » قد زعزع بشكل خطر عادات الشعب فى احترام الحكومة . واحتقر البيورتان لأنهم « منافقون متظاهرون بالتقوى » لوثوا « لغتهم » برطانة « غامضة و « وشوا ااثمهم بالصلوات (١٤٠) » . وحكم على فترة الكومنولث (جمهورية كرومويل) بأنها فترة تقوى قاتلة ، وطغيان عسكري ، وفوضى اجتماعية ، لم تبرا البلاد منها الا بعودة أسرة امستىوارت الى العرش . وقد ذهب فولتير فى عرضه لتاريخ هيوم الى انه منصف تمام الانصاف :

« ان المستر هيوم ... غير متحيز للبرلمان ولا للملكية ، ولا هو انجليكانى ولا مشيخى ، انما هو رجل منصف لا أكثر . فلقد طالما حرم جنون الحزبية انجلترا من المؤرخ النزيه كما حرهما من الحكومة الصالحة . فما كتبه محافظ كان يرفضه الاحرار ، الذين يكذبهم المحافظون بدورهم ... ولكننا نجد فى المؤرخ الجديد ذهنا يسمو فوق مظلانه »

يتحدث عن مواطن الضعف وعن الاخطاء الجسيمة وأفعال القسوة حديث الطبيب عن الاويثة (١٤١) » .

اما النقاد البريطانيون فلم يوافقوا فولتير . فهم لم يأخذوا على هيوم انه قل أن رجع الى المصادر الاصلية ، بل (كما ذكر فيما بعد) « هوجم بصيحة واحدة كلها لوم واستنكار ، بل بغض وكراهية . فالانجليز ، والاسكتلنديون ، والارلنديون ، والاحرار ، والمحافظون ، ورجال الكنيسة الانجيكانية واتباع المذاهب المنشقة ، واحرار الفكر والمقدينون ، والوطنيون والحاشية - كل أولئك أجمعوا على السخط على الرجل الذى جرؤ على أن يذرف دمعة كريمة على مصير تشارلز الاول وايرل سترافورد . وبعد ان همدت السورة الاولى لغضبتهم ، كان أشد خزيا ما بدا من أن الكتاب طوى فى زوايا النسيان . وقد اخبرنى المستر ملر انه لم يبيع خلال اثنى عشر شهرا الا خمسا وأربعين نسخة منه (١٤٢) »

وقد فت هذا فى عضده حتى لقد حدثته نفسه حيناً بأن يرحل كما رحل فى شبابه الى مدينة من مدن الأقاليم فى فرنسا ، حيث يستطيع العيش باسم منتحل . ولكن فرنسا وانجلترا كانتا تقتتلان ، وقد أوشك المجلد الثانى على نهايته ، فاعتزم أن يواصل العمل . وازداد تحيزه بسبب ما لقى من معارضة ، ففى تنقيحه للمجلد الاول أدخل « نيفسا ومائة تغيير » . ولكنه يقول بكل البهجة الخبيثة التى يستشعرها عفريت ضخم « جعلتها كلها فى صف المحافظين (١٤٣) » ومع ذلك بيع من المجلدات التالية عدد لا بأس به ، ورحب به المحافظون الآن محاميا شديد المرس ، وسلم بعض الاحرار بسحر أسلوبه البسيط ، الواضح ، البتار ، الصريح ، الذى سبق أحيانا وقار جيون الحضيف . فوصفه للمصراع المثير بين هنرى الثانى وتوماس ابيكيت يضارع رواية جيون لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية . ورفع تأثير المجلدات الستة المتراكم صيت هيوم الى ذروته . وفى ١٧٦٢ ذهب بوزويل تقديره له الى أنه « أعظم الكتاب فى بريطانيا (١٤٤) » - ولكن بوزويل كان اسكتلنديا . وفى ١٧٦٤ صرح فولتير فى تواضع بأن الكتاب « ربما كان أفضل تاريخ كتب فى أى لغة اطلاقا (١٤٥) » وقد نازحه جيون وماكولى الى الظل ، ووازن ماكولى تحيزه بتحيز معادل ، ولا ينصحنا

المؤرخون بقراءة كتاب هيوم اليوم ، لأن تسجيله للوقائع قد طرأت عليه تحسينات منذ أمد بعيد ، ولكن قارئاً بدأ قراءته باعتبارها واجبا فوجد فيه الانارة والمتعة .

ز - الفيلسوف العجوز

فى ١٧٥٥ بدأت حركة يقودها بعض رجال الدين الاسكتلنديين لاتهام هيوم أمام مجمع الكنيسة العام بتهمة الزندقة ، وكان « التنوير الاسكتلندى » قد أنجب حركة متحررة بين شباب القساوسة ، فاستطاعوا أن يحولوا دون أى ادانة علنية للفيلسوف - المؤرخ ؛ ولكن الهجمات الكنسية اتصلت ضده ، ولدغته لدغات جعلته يعود الى التفكير فى الفرار . وواتته فرصته حين دعاه ايرل هرتفورد (١٧٦٣) ليكون نائب سكرتير له فى سفارة لفرنسا ، وحصل له على معاش قدره ٢٠٠ جنيه مدى الحياة .

وكان منذ أمد بعيد معجبا بالفكر الفرنسى ، وقد تأثر بالرعييل الاول من كتاب « التنوير » الفرنسى ، وراسل مونتسكيو وفولتير . وكانت أعماله تحظى فى فرنسا بشناء يفوق كثيرا ما حظيت به فى انجلترا . وعشقه الكونتيسة دبولفيه من قراءة كتبه ، وكتبت له تتملقه ، وجاءت الى لندن لتراه ، فافلت منها . ولكن حين وصل باريس بسطت عليه رعايتها ، وجعلته بطل صالونها ، وناضلت لتوقظ فى صدره عاطفة الرجولة ، ولكنها وجدته أثبت وأرسي من أن تجرفه رياح الغرام . وكان يدعى للمآدب فى الاجتماع تلو الاجتماع . قالت مدام ديبنيه « لا تكتمل وليمة بدونه » . وفتحت له الارستقراطية ذراعيها ، ورشت من حوله عظيمات النساء - حتى بومبادور العظيمة . وكتب يقول : « انى واثق أن لويس الرابع عشر لم يكابد قط فى أى ثلاثة أسابيع من حياته مثل هذا التملق الكثير » . والتقى بطورجو ودالمبير ودولباخ وديدرو ، ودعاه فولتير من عرشه النائى فى فرنیه « با قديمي ديفد » . وأدهش ايرل هرتفورد أن يجد الناس يسعون وراء سكرتيه وينحنون له أكثر كثيرا مما يفعلون معه . ولكن هوراس ولبول غاظه هذا كله ، وسخر بعض « الفلاسفة » من بدانة هيوم غيرة منه . وفى

أحدى الحفلات بعد أن دخل هيوم عقب دامبير بأية من الانجيل الرابع (يوحنا) « والكلمة صار جسدا » وقيل أن إحدى السيدات المعجبات بهيوم ردت هنا على الملاحظة بحضور بديهة عجيب « والكلمة صار محبوبا (١٤٦) » . لا عجب أن يكتب هيوم ، الذى ناكده خصومه فى ادنبرة ، وكرهوه فى لندن ، « أن الحياة فى باريس تبعث على الرضى الحقيقى لوفرة مجتمع الاشخاص المعقولين الاذكىاء المهذبين ، الذين تزخر بهم المدينة (١٤٧) » .

وفى نوفمبر ١٩٦٥ أقبل سفير بريطانى جديد ، فأنهى استخدام هيوم . فعاد الى ادنبرة ، ولكن فى ١٧٦٧ قبل وظيفة وكيل فى وزارة الخارجية بلندن . فى هذه الفترة أتى بروسو الى إنجلترا ، فخلق له متاعب مشهورة ، ولابد من أرجاء هذه القصة الآن . وفى أغسطس ١٧٦٩ ، حين بلغ الثانية والخمسين ، عاد نهائيا الى ادنبرة ، وقد غدا الآن « غنيا جدا (لاننى كنت أملك دخلا قدره ألف جنيه فى العام) صحيح البدن ، أتوقع - رغم أنى طعنت فى السن بعض الشيء - أن استمتع طويلا بالراحة ، وأن أرى شهرتى فى اتساع (١٤٨) » .

وأصبح بيته فى شارع سانت ديفد صالونا يجتمع فيه من حوله آدم سميث ووليم روبرتسن وغيرهما من مشاهير الاسكتلنديين كانه ملكهم المعترف به . ولم يحبوه لرجاحة ذهنه فحسب ، فقد رأوا أنه رغم استدلالاته العقلية المحطمة للمقدسات ، محدث ظريف بشوش معتدل فى الجدل متسامح مع الآراء المعارضة ، لا يسمح للخلاف فى الأفكار بالانتقاص من حرارة صداقاته . ويبدو أنه (كمونتيني وفولتير) كان يضع الصداقة فوق الحب . « أن الصداقة بهجة الحياة الانسانية الكبرى (١٤٩) » . ومع ذلك كان محبوبا من النساء ، ربما لأنه لم يكن متزوجا . وكان الضيف الاثير فى بيوت كثيرة ، وإذا كانت سمنته تتلف المقاعد (١٥٠) ، فإن خفة روحه عوضت عن ثقل بدنه ، وقد اقترح ضريبة على السمنة ، ولكنه توقع أن « بعض القساوسة قد يدعون أن الكنيسة فى خطر » ، وكان يبارك ذكرى يوليوس قيصر لأنه أثر السمان من الرجال - قال آدم سميث : « كنت على الجملة أعده دائما . . أقرب ما تسمح به طبيعة الضعف البشرى من فكرة عن الرجل الكامل الحكمة والفضيلة (١٥١) » .

وإذا لم يكن بد من البحث عن نقائص في هذا الخلق الذي بلغ غاية اللطف ، أو عن بقع معتمة في هذا الذهن الألعى ، فإن أكبر اشغالاته التي يصعب اغتفارها له هي اشاراته الى « الفرض البشع » الذي افترضه سبينوزا « الكافر » (١٥٢) ، وهي اشارات لابد أن الهدف منها كان تغيير لون جلده ليحمى نفسه . ولقد كانت سيكولوجية هيوم أكثر سيكولوجيات زمانه نفاذاً ، ولكنها لم تعلق تماماً الاحساس بالهوية الشخصية ؛ فإن حالة نفسية ما لا تستدعى حالة نفسية أخرى فحسب ، بل قد تستدعيها باعتبارها حالتي « أنا » ، واحلال « التابع المنتظم » محل « العلة » لا يتطلب سوى تغيير في العبارة ؛ و « التابع المنتظم » كاف للعلم والفلسفة ؛ وكتابه « تاريخ انجلترا » لا يفتأ يحاول تفسير الأحداث بالأسباب (١٥٣) « . وإن شكوكه تخلق عنها صاحبها صراحة في الحياة العملية ، لا بد أن تكون خاطئة من حيث نظريتها ، لأن الممارسة هي المحك النهائي للنظرية . ومن الغريب أن هيوم مع رده العلة الى العرف ، والفضيلة الى شعور التعاطف ، لم يعط وزناً يذكر للعرف والشعور في تفسيره للدين ، وأبدى أقل التعاطف مع وظائف الدين الملحة في التاريخ . وكان عديم الاحساس بتعزيزات الايمان ، والراحة التي كان يسمح بها على النفوس المقشعة أمام مر الوجود وضحامته ، أو وحشة الحزن ، أو حتمية الهزيمة القاسية . لقد كان نجاح وسلى رد التاريخ على هيوم .

على أننا برغم هذه الاعتراضات التافهة نعود إلى الاقرار بما اتسم به ذهن هيوم النفاذ من رهافة بتارة . لقد كان هو وحده « التنوير » للجزر البريطانية ، ونحن إذا استثنينا مجال الرؤية السياسية ، وجدنا أن أثر هيوم أساساً كان في بريطانيا معادلاً لأثر نيف وعشرة فلاسفة في فرنسا . . . ومع أنه كان يشعر بالتأثير الفرنسي شعوراً عميقاً ، فإنه توصل إلى أفكار التنوير ، وكال بعض لطماته البالغة الشدة قبل أن يجرد « الفلاسفة » - بل فولتير - مخالهم على « العار » ' l'infâme ' . لقد كانوا مدينين له بقدر دينه لهم ، كتب اليه ديدرو يقول : « انى احبيك ، انى احبك ، انى أجلك » (١٥٤) « وفي انجلترا: أنهى مذهب الربوبية بتحديثه قدرة العقل على الدفاع حتى عن أبسط مقومات الايمان الدينى ، وحمل الحرب لا الى أسوار العقيدة القديمة فحسب ، بل الى

قلعته الحصينة . وكان جيون سليل هيوم فى الفلسفة ، وتلميذ الذى بزه فى التاريخ . وفى ألمانيا أيقظ كتابه « تحقيق فى الفهم البشرى » كانط من « سياته الدجماطيقى » بما بدا من تقويضه لكل العلم والميتافيزيقا واللاهوت عن طريق تشككه فى موضوعية العلة . ويعد أن قرأ كانط مخطوطة الترجمة التى قام بها هامان لكتاب « الحوارات حول الدين الطبيعى » أدمج فى اعدادة الذهاى لكتابه « نقد العقل الخالص » (١٧٨١) انتقادات هيوم للحجة القائمة على القصد ، واعتبر هذه الانتقادات مستعصية على الرد (١٥٥) .

وقد كتب هيوم يقول « أتمنى أن يكون حظى - لأجلى ولأجل أصدقائى جميعا - أن أقف دون عتبة الشيخوخة فلا أوغل فى ذلك الاقليم الكئيب (١٥٦) . واستجاب له الحظ . تقول ترجمته الذاتية :

« فى ربيع ١٧٧٥ أصبت باضطراب فى أمعائى لم يفزعنى لأول وهلة ، ولكنه أصبح بعد ذلك ، كما خشيت ، قتالا لا شفاء منه . وانى الآن أعلق أسمى على الانحلال السريع . لقد عانيت الما طفيفا جدا من اضطرابى هذا ، وأعجب من ذلك أننى برغم التدهور الشديد الذى ألم ببطنى ، لم أعان قط ولو للحظة واحدة أى هبوط فى معنويتى ، بحيث لو طلب الى أن أسمى فترة حياتى التى وثر أن أعيشها من جديد فربما أغربت بأن أسمى هذه الفترة الأخيرة . فعندى الحماسة ذاتها التى أفتها فى الدرس ، والمرح فى صحبة الاخوان ، ثم اننى أحسب أن الرجل اذا مات وهو فى الخامسة والستين انما يوفر على نفسه بضع سنين من العلل والاسقام (١٥٧) » .

واقتمر عليه الاسهال ، ذلك الانتقام الاثير لذى الآلهة من عظماء البشر ، مع النزيف الداخلى ، فهبطا بوزنه سبعين رطلا فى عام واحد (١٧٧٥) . وكتب الى الكونتيسة بوفليه يقول « انى أرى الموت يدنو شيئا فشيئا دون أن أشعر بقلق أو أسي . أحبيك بكثير من الود والاحترام لآخر مرة (١٥٨) » وذهب للاستشفاء بالمياه المعدنية فى باث ، فلم تجد فتىلا فى التهاب المعى الغليظ المقرح المزمن . ولكن ذهنه ظل هائما صافيا .

وعاد الى ادنبره فى ٤ يوليو واستعد للموت « بالسرعة التى
يشتهيها أعدائى ان كان لى أعداء ، واليسر والبشاشة اللذين يطمناهما
لى أصدقائى (١٥٩) » فلما قرأ فى كتاب لوكان « حوارات الموتى »
مختلف الأعذار التى تذرع بها المحتضرون لشارون حتى لا يستطيع
قريبه من فورهم ليعبر بهم نهر الجحيم الى الأبدية ، لاحظ أنه لا يستطيع
أن يجد عذرا يناسب حالته الا بأنه قد يقول متوسلا « قليلا من الصبر
أى شارون الطيب . لقد كنت أحاول فتح عيون الجماهير . فلو عشت
- بضع سنين أخر لطبعت نفسا بأن أرى سقوط بعض مذاهب الخرافة
السائدة » . ولكن شارون أجاب « أيها الوغد المتلكئ » ، بن يحدث هذا
ولو بعد مئات السنين . اتتوهم أننى منحك فسحة طوال هذه السنين ؟
فادخل الزورق ، اذن من فورك » .

أما بوزويل ، الملحاح الوقح ، فقد أصر على توجيه هذا السؤال
الى الرجل المحتضر - يؤمن الآن بحياة آخرة؟ وإجابته هيوم « انه
لوهو غير معقول للغاية أن نعيش الى الأبد » . وثابراً بوزويل على
الحاحه قائلاً « ولكن من المؤكد أن فكرة الحياة المستقبلية تسر النفس ؟ »
وإجابته هيوم « أبدا ، انها فكرة كثيفة جدا » . وأقبلت النساء ورجونه أن
يؤمن ، فصرفهن عن الموضوع بمزاحه (١٦١) .

ومات فى هدوء ، « بغير ألم كثير » (كما قال طبيبه) فى
٢٧ أغسطس ١٧٧٦ . ومشي فى جنازته جمع غفير برغم هطول المطر
الغزير . وسمع صوت يقول « كان كافرا » ، وإجاب صوت آخر « لا يهم ،
فلقد كان رجلا أميناً » (١٦٢) .

الفصل الخامس

الأدب والمسرح

١٧١٤ - ٥٦

١ - دولة القلم

كانت إنجلترا تشغى بالطباعة على الأقل ان لم تشغ بالأدب . فضلا عن زيادة سكانها ، لا سيما فى المدن وخصوصا فى لندن ، كان الامام بالقراءة قد انتشر بينهم باعتبارهم ضرورة للتجارة والصناعة وحياة المدينة . وعكفت البورجوازية المزهرة على قراءة الكتب تميزا وترويحاً ، وعكفت النساء على الكتب فوفرن القراء والحوافز لمرثردسن والرواية . وزاد من جمهور القراء المكتبات الدائرة ، التى انشئ اول مكتبة فيها يعيها التاريخ المدون فى ١٧٤٠ ، وسرعان ما أصبح عددها اثنتين وعشرين فى لندن وحدها . وبدأت الطبقة الوسطى الجماعية تحل محل الطبقة الارستقراطية الفردية بوصفها راعية للأدب ، وهكذا استطاع جونسن أن يهزأ بشترفيلد . ولم تعد الاعانات الحكومية تتحكم فى كبار الاقلام بالمغريات السياسية - كما حدث من قبل مع اديسون وسويفت وديفو .

وشحذت شهية الجمهور للأخبار تلك الصراعات المرة بين الاحرار والمحافظين ، وبين الهانوفريين والاستيوارتيين ، وتورط. إنجلترا المتزايد فى الشئون الاوربية والاستعمارية ، وأصبحت الجريدة قوة يعتد بها فى تاريخ بريطانيا . ففى ١٧١٤ كان هناك احدى عشرة جريدة تصدر بانتظام فى لندن ، وأكثرها أسبوعى ، وفى ١٧٣٣ زادت الى سبع عشرة ، وفى ١٧٧٦ الى ثلاث وخمسين . وكان كثير منها تعينه الاحزاب السياسية ، فكلما رفع الشعب صوته اشتدت الاقليات الموسرة الجرائد لتملى أفكارها . واشتملت كل الجرائد تقريبا على اعلانات ، وخصصت « الديلى أدفرتيزر » التى أسست فى ١٧٣٠ اول الأمر

لإعلانات دون سواها ، ولكنها سرعان ما أضافت عنصرا مثيرا من الأنباء ، كما تفعل جرائدنا الصباحية العملاقة ، لدعم توزيعها وزيادة أجور اعلاناتها . وولدت فى هذه الفترة بعض المجلات الهامة مثل « الكرافتسمان » (١٧٢٦) وهى السوط الذى راح بولنبروك يسوط به ولبول ، ومجلة « جراب ستريت » (١٧٣٠ - ٣٧) ، وهى لسان بوب الحاد ، ومجلة « الجنتلمان » (١٧٣١) التى أعطت جونسون وظيفة فيها ، ومجلة « أدنبره » (١٧٥٥) التى ماتت الى أجل فقط فى ١٧٥٦ . وكثير من الجرائد والمجلات الانجليزية مازال حيا بعد مضي مائتى عام على صدوره .

هذه الدوريات كلها - اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية - أعطت المطبعة قوة أضافت الى مخاطر الحياة البريطانية وحيويتها . ومع أن روبرت ولبول حظرت نشر المناقشات البرلمانية ، فانه أباح للصحفيين أن يهاجموه بكل ما فى أدب القرن الثامن عشر من قسوة وخبث . وقد عجب مونتكيو القادم من فرنسا التى فرضت عليها رقابة المطبوعات ، لتلك الحرية التى كانت صحيفة « جراب ستريت » تقذف بها داوونج ستريت (مقر الحكومة) بالمداد المسموم (١) . وشكا عضو فى البرلمان الى مجلس العموم فى ١٧٣٨ من أن : « شعب بريطانيا العظمى تحكمه قوة لم يسمح بها قط من قبل ، باعتبارها السلطان الاعلى ، فى أى عصر أو بلد . وهذه القوة يا سيدى لا تكمن فى إرادة الملك المطلقة ، ولا فى توجيه البرلمان ، ولا فى قوة جيش ، ولا فى نفوذ الاكليروس ، انها حكومة الصحافة . فالبضاعة التى تحفل بها صحفنا الأسبوعية يتقبلها الشعب باحترام يفوق احترامه لقوانين البرلمان ، وآراء هؤلاء الكتاب التافهين لها عند الجماهير وزن أثقل مما لرأى خيرة السياسيين فى المملكة (٢) » .

وراح الطباعون يعملون بحماسة جديدة ليلبوا الطلب المتزايد فكان فى لندن ١٥٠ منهم ، وفى انجلترا كلها ثلاثمائة ، اثنان منهم فى هذا العهد - وهما وليم كاسلون وجون باسكرفيل - خلفا أسميهما على طقم حروف طباعية . وظل الطبع والنشر وبيع الكتب فى معظم الحالات موحدا فى شركة واحدة . ومن الشركات الباقية الى يومنا شركة لونجمان التى ولدت فى ١٧٢٤ . وكانت كلمة « publisher

الناشر « تدل عادة على المؤلف ، أما الذى يخرج الكتاب فهو بائع الكتب أو تاجرها bookseller . والف بعض باعة الكتب ، كابى جونسن ، أن يحملوا بضاعتهم إلى الأسواق ، أو يسرحوا بها من مدينة إلى مدينة ، ويفتحوا كشكا فى أيام السوق ، وكان الثمن الذى يطلبونه عن كتاب مجلد يتفاوت بين شلنين وخمسة ، ولكن الشلن عام ١٧٥٠ كان يساوى دولارا وريعا تقريبا . وكان البرلمان قد أقر قانونا بحقوق الطبع فى ١٧١٠ ، وكفل للمؤلف أو من يخصصهم حقوق الملكية فى كتابه أربعة عشر عاما ، تمته إلى ثمانين عاما إذا عمر بعد الفترة الأولى . على أن هذا القانون لم يحمه إلا فى المملكة المتحدة ، وكان فى استطاعة المطابع فى أرنلندة وهولندة أن ينشروا طبعات مسروقة ويبيعوها (حتى ١٧٣٩) فى إنجلترا منافسين بذلك بائع الكتب الذى دفع ثمن الكتاب .

فى هذه الظروف المنطوية على المجازفة تشدد باعة الكتب فى مساوماتهم مع المؤلفين . وكان الكاتب يبيع حقه فى الكتاب عادة بمبلغ محدد ، فإذا راج الكتاب على غير توقع فقد ينفخ البائع المؤلف بمبلغ إضافى ، ولكن هذا لم يكن لزاما عليه . أما ثمن الكتاب الذى يؤلفه مؤلف معروف فكان يتفاوت بين مائة ومائتى جنيه . وقد تسلم هيوم خمسمائة جنيه ثمنا للمجلد من كتابه « تاريخ إنجلترا » وهو ثمن مرتفع ارتفاعا استثنائيا . وكان للمؤلف الحق فى قبول الاكتتابات لكتابه ، كما فعل بوب فى ترجمته للألياذة ؛ وفى هذه الحالات كان المكتتب يدفع عادة نصف ثمن الشراء سلفا ، والنصف الثانى عند تسلمه الكتاب ، وكان المؤلف يتولى الدفع للطابع .

وعاشت الكثرة العظمى من المؤلفين فى فقر مسخط . من ذلك أن سيمون اوكلى ، الذى ظل عاكفا عشر سنوات على تأليف كتابه « تاريخ المسلمين » (١٧٠٨ - ٥٧) ، اضطر إلى استكمالته فى سجن المدينين ؛ وكان رتشارد سفدج يتسكع فى الشوارع ليلا لافتقاره إلى مسكن ، وظل جونسن ثلاثين عاما يعانى مرارة الفقر قبل أن يصبح أمير الأدب الانجليزى . وكان شارع جراب (شارع ملتن الآن) الموطن التاريخى « للشعر والفقر » (كما قال جونسن) ، حيث الكتاب الماجورون -

من صحفيين ، ومترجمين ، ومصنفين ، وقراء تجارب الطبع ، وكتاب-
المقالات للمجلات ، ومحققين - ينامون ثلاثة فى فراش واحد ويرتدون
البطاطين لافتقارهم الى غيرها من الملابس . ولم تكن العلة فى هذا
الفقر شح باعة الكتب وعدم الاكتراث ولبول بقدر ما كانت اتخام السوق
الادبية اتخاما لم يسبق له نظير باصحاب المواهب الهزيلة ينافس بعضهم
بعضا فى قبول الاجور المنحطة . وشارك طفيان حالات الاخفاق على
حالات الفلاح فى المال والاعمال ، مع انسلاخ الادب عن الحماية
الارستقراطية ، على الحط من المكانة الاجتماعية للمؤلفين . وفى الوقت
الذى كان فيه الشعراء والفلاسفة والمؤرخون فى فرنسا يستقبلون
بالترحيب فى اروع البيوت والصدور ، كانوا فى انجلترا - باستثنائين
او ثلاثة - يقصون عن « المجتمع المذهب » باعتبارهم بوهيميين غير
مغتسلين . وربما كان هذا هو السبب فى أن كونجريف رجلا فولتير
الا يدرجه فى زمرة الكتاب . وقد تحدى الكسندر بوب تحيزات عصره
بادعائه أنه شاعر وجنتلمان معا . وقد عنى بكلمة جنتلمان الرجل
« الكريم المولد » لا الرجل الكريم السلوك . ولكن الامر كان على
النقيض ! .

٢ - الكسندر بوب : ١٦٨٨ - ١٧٤٤

يستهل جونسن ، الذى كان يحتقر الترجمات التى تبدأ بنسب
صاحبها وتنتهى بماتمه ، ترجمته الممتازة لبوب بانباثنا أن « الكسندر
بوب ولد بلندن فى ٢٢ مايو ١٦٦٨ ، لآبوين لم يتحقق أحد قط من
مرتبتها أو مركزهما (٣) » . أما أبوه فتاجر كتان جمع ثروة متواضعة
ثم اعتزل فى بنفيلد قرب غابة ونزر . وكان أبواه كلاهما يتبعان المذهب
الكاثوليكي الرومانى ، والسنة التى ولد فيها بوب كانت أيضا السنة
التي حطم فيها خلع جيمس الثانى آمال الكاثوليكية فى تخفيف القوانين
المعادية للكاثوليك . وخصت الام الصبى الذى كان وحيدا بكثير من
الترفق ، وقد ورث عنها استعدادا للصداع ، وعن أبيه تقوسا شديدا فى
عسوده الفقرى ، فلم يزد طوله على أربعة أقدام ونصف .

وقد عهد بتعليمه الاول الى القساوسة الكاثوليك ، فاعانوه على
اجادة اللاتينية ، واليونانية بقدر اقل ، وعلمه معلمون خصوصيون

آخرون الفرنسية والاطالية ، واذا اقفلت فى وجهه الجامعات والمهن
الراقية بسبب مذهبه ، فقد واصل دارساته فى البيت ، فلما عاقه جسمه
المحدود وصحته الهشة عن العمل النشط ، ترك أبواه العنان لولعه
بكتابة الشعر . يقول :

« كنت وأنا بعد طفل ، لم تغرر بى الشهرة بعد ،
الغنى ببخور الشعر ، لأن بحوره وافتنى طوعا (٤) » .

وحين بلغ الثانية عشره اتاحت له نظرة خاطفة الى درايدن
يحقل مكان الصدارة فى مقهى ولز ، واثار المنظر فيه رغبة عارمة فى
المجد الادبى . فلما بلغ السادسة عشرة كتب بعض « الرعويات » التى
تداولها الناس مخطوطة وحظيت بثناء اُدار رأسه ، وقبيلت للنشر فى
١٧٠٩ . وفى ١٧١١ ، وبكل الحكمة الناضجة التى احتوتها سذوه الثلاث
والعشرون ، أدهش اُدياء لندن بقصيدته « مقال فى النقد » نراه - حتى
وهو يحذر المؤلفين من أن :

« العلم القليل شيء خطر ؛
فانهلوا من الاعماق ، والا فلا تذوقوا ينبوع الشعر (٥) »

يضع بحسم القاضي قواعد الفن الادبى . هنا هضم الشاعر
« فن الشعر » لهوراس ، و « الفن الشعري » لبوالو فى ٧٤٤ بيتا جيدة
المعانى هضما عجيبيا ، نظمت نظما رائعا ، بالفاظ لا يزيد كثير منها
على مقطع واحد - « افكار طاما خطرت بالبال ، ولكن لم يعبر عنها
بمثل هذه الروعة (٦) » .

وكان للفتى ولع « بالابجرام » ، ويضغط جوامع الحكمة فى بيت
واحد ، وقفل كل فكرة بقافية . وقد أخذ مذهبه فى النظم عن درايدن ،
ونظريته عن بوالو . واذا كان لديه من الفراغ ما يتسع لصقل شعره ،
فانه لم يتردد فى قبول النصيحة الكلاسيكية ، نصيحة تهذيب الشكل
وصقله ، وجعل الكأس اثنى من نبيذها . ومع أنه ظل يجهر بكلكته ،
فانه اعتنق مبدأ بوالو القائل بأن الادب ينبغى أن يكون العقل مفرغا
فى ثوب لائق . أما الطبيعة فنعم ، ولكنها الطبيعة التى روضتها

الإنسان ؛ وأما الوجدان فنعم ، ولكنه الوجدان الذى هذبه وصفاه الذكاء . وأى مرشد أهدى الى مثل هذا الفن المحكوم المنحوت من أعمال قدامى الشعراء والخطباء ، وتصميمهم على أن يكونوا عقلانيين ، وعلى أن يجعلوا كل جزء من كل عمل أدبى عنصرا منظما مدمجا فى كل متناغم ؟ هنا التقليد الكلاسيكى ، المنحدر بطريق ايطاليا وفرنسا ، بطريق بترارك وكورنىي ، والذى يغزو الآن انجلترا ويقهرها على يد الكسندر بوب ، كما قهر شيكسبير بمسرحية أديسون « كاتو » (فى زعم فولتير) ، وكما كست العمارة الكلاسيكية المنحدرة عن طريق بالاديو وسيرليو ، وعن طريق بارو ورن ، الخيالات القوطية والشطحات الجامحة أو غلبتها بقواصر رزينة وصفوف أعمدة هادئة . وهكذا تكون مفهوم الشاعر الشاب عن العقل الكلاسيكى الذى يعمل فى ناقد مثالى :

« ولكن أين هو الرجل الذى يستطيع أن يحض النصح ،
الذى ما زال يغتبط بأن يعلم ، ومع ذلك لا يطغيه علمه ؟
رجل لا يحرفه رضى ولا يميله حقد ، لا هو منحيز فى غبـاوة
ولا مستقيم فى عـمى ،
مذهب رغم علمه ، مخلص مع تهديبه ،
جرىء فى تواضع ، صارم فى انسانية ،
يبصر الصديق بعيوبه فى غير تحرج
ويطرى العدو على فضائله وهو مبتهج ،
رجل أوتى ذوقا مدققا دون تزمت ،
ووهب العلم بالكتب والبشر جميعا ، محدث سمح ، ونفس
تزهت عن الكبرياء ،
يحب أن يثنى ثناء يؤيده فيه العقل (٧) ؟ »

وقد وجد نفر من أمثال هذا الناقد ، على استعداد للترحيب بمثل هذا الشعر وهذه الفضيلة المحسوبة من فتى فى الثالثة والعشرين ؛ وعلى ذلك خلع أديسون ، الذى لابد قد شعر أنه المقصود بهذه الأبيات ، على الشاعر فى العدد ٢٥٣ من صحيفته « اسبكتيتور » ثناء عظيما لن يلبث أن ينسى فى معارك الكلام . أما الشاعر جون دنيس ، مؤلف مسرحية

« ترى هل تحطم الحورية (بليندا - أرابيلا) قانون ديانا (قانون العفة) ،

أم أن قاربوره هشة من الصيني سيصيبها شرخ ،
أتراها تلوث شرفها ، أم ثوبها الموشي الجديد ؟
أئنسى أن تتلو صلواتها ، أم يفوتها عرض بالاقنعة ،
أتضيع قلبها ، أم فلادتها ، فى حفل راقص ... (١) »

وتشارك بليندا فى ثمرات جماعة الاشراف ، وقمارهم فى هامغن
كورت ، حيث :

« تموت سمعة عند كل كلمة (١١) » ؛

ويحشد الشاعر براعته الفنية ليصف لعبة ورق . فاذا انحنت بليندا
لتشرب ، قصّ البارون القوى خصلتها وهرب (وهذا السيل المتدفق
من البحر العميقى « الايامبى iambic » يأخذ بالالباب) .
فتطارده وقد أخذ الغضب منها كل ماخذ ، وتعثر عليه ، وتلقى قبضة
من النشوق فى وجهه ؛

« وبغثة تفيض كل عين بالدموع المنهلة
وتردد قبة السماء صدى عطسه (١٢) »

وفى هذه الاثناء يغتصب الاقزام او السيلفات او المسندلات الخصلة
ويجرونها وفى اثرها سحب الفخر الى السماوات حيث تصبح نجما مذنبا
يفوق بريقه تلالؤ شعر بليندا .

وقد أبهج هذا كله نبلاء لندن ونبيلاتهما ، وإنديتها ومقاهيهما .
ووجد بوب نفسه رجلا يشيد به الناس أبرع شاعر فى إنجلترا ، وغدا
كل من عذاه من الشعراء خصوما له . ولم يصف جديدا لشهرته بالأبيات
المملة التى وصف بها غابة ونزر (١٧١٣) ، كذلك لم ينس
له الاحرار بعد انتصارهم فى ١٧١٤ أنه فى تلك القصيدة
كشف عن ميوله الكاثوليكية نحو الاسرة المالكة التى سقطت (١٣) .
ولكنه عاد فاسر جمهوره فى ١٧١٧ بنظمه فى مقطوعات من بيتين

« أببوس وفرجينيا » فقد خيل إليه أنه المذموم فى أبيات بوب
الطائشة :

« ولكن أببوس يحمر لكل كلمة تقولها
ويحملق حاملة رهبة بعين مهددة
وكانه طاغية متوحش مرسوم على قطعة نسيج قديمة (٨) »

فرد عليها بكتابة « تأملات نقدية وهجائية » (١٧١١) . وقد
انتقى عيوباً حقيقية فى فكر بوب وأسلوبه ، وعرضها فى إطار مقذع .
فوصف بوب بالمنافق القبيح الذى خلق على شكل قوس كيويبد أو ضفدع
أحبد ، وهناه على أنه لم يولد فى اليونان القديمة ، والا لالتقت به
عارباً بعد ولادته لقبحه (٩) . ولحق بوب جراحه وترتب فرصته .

ثم تابع نجاحه بنشر قصيدته « اغتصاب خصلة شعر » (١٧١٢)
وكانت تقليداً سافراً لقصيدة بوالو *Le Lutrin* المقرأ (١٦٧٤) ،
ولكن الناس أجمعوا على أنها فاقت أصلها . وخلاصة الموضوع أن اللورد
روبرت بوتر أعرب عن تحمسه للمسر أرابلا فيمرمر بقصه خصلة من
شعرها الجميل وهروبه بها ، وتلا ذلك فتور بين الغاصب والمغتصبة .
واقترح رجل يدعى كاريل على بوي أن أرابلا قد يهدأ سخطها إذا قص
الشاعر القصة فى شعر مازح وقدم لها القصيدة . وهكذا فعل ، وهكذا
انتهى الأمر . فصفحت المسز فيمرمر عن اللورد ، ووافقت على نشر
القصيدة . ولكن بوب وسع الخطة ، مخالفاً نصيحة أديسون ، وكدها
بعده من الشعر الملحمى - الهزلى ضمت الكائنات الخرافية : السيلفات ،
والسمندلات ، والحواريات ، والأقزام المشاركة فى الملحمة ؛ وراقت هذه
« المليشيا الخفيفة للسماء السفلى » خيالات العصر وميوله ، ولقيت
قصيدة « الاغتصاب » المعدلة استحسان الجميع الا الشاعر دنيس .
وتوقف جورج باركلى فى حملته على المادة ليهنىء المؤلف على لدونة
ربة شعره . ولبابة بوب التنظيمية كلها ، ومعين أخيلته وعباراته الذى
لا ينضب ، يجعلان القصيدة تتألق تألق الأحجار الكريمة التى رصعت
بها الحسناء « بليندا » شعرها . وهو يصف بخبرة النساء مستحضرات
التجميل التى يسلح بها أحد الجان البطلة لحروب الغرام ، ويعدد فى
مرادفات تهكمية ما سيحفل به يوماً من جلائل الأمور :

مقفيين couplets رسائل هلويز وأبيلار المختلقة . فغنى
« الويزا » التى حبست نفسها فى دير للراهبات تطلب الى أبيلار المخصي
أن يضرب بقوانين الكنيسة والدولة عرض الحائط ويأتى الى حضنها :

« تعال ان جرؤت بكل ما فيك من فتنة !
تحد السماء ، وطالب بقلبي ،
تعال ، وبظرة واحدة من تلك العيون المضللة
امح كل فكرة ذكية من أفكار السماء ...
اخطفنى ، وأنت تهتمّ بامتطاء جوادك ، من مسكنى المبارك ،
أعن الأصدقاء ، وانتزعنى من الهى ! »

وفى نزوة أخرى تقول له :

« لا ، أبعد عنى بعد المشرقين ،
لترتفع جبال الألب حاجزا بيننا ! ولتهدر محيطات بأسرها !
أواه ، لا تات ، ولا تكتب ، ولا تفكر فى ولو مرة ،
ولا تشاركنى وخزة واحدة من وخزات الألم الذى ذقته لأجلك (١٤) » .
ومع ذلك تثق أنه أت إليها فى ساعة احتضارها ، لا عاشقا
بل كاهنا :

« ليتك تقف فى ثياب مقدسة
والمشعل المقدس يرتعش فى يدك
وتمد الصليب أمام عيني التى تهفو اليك ،
وتعلمنى وتعلم منى الموت (١٥) » .

وكان بوب يحلم ككل شاعر فى زمانه بأن ينظم ملحمة ، ولقد بدأ
كتابة ملحمة وهو بعد فى الثانية عشرة . فلما شب ودرس هومر خطر له
أن يترجم الالياذة الى ذلك المقطوعات ذات البيتين المقفيين التى كانت
تكون منطقته الذى فطر عليه . واستشار أصدقاءه فأمذوا على الفكرة .
وقدمه أحدهم وهو جوناثان سويغت الى هارلى وبولنبروك وغيرهما
من كبار رجال الحكومة أملا فى أن يحصل له على وظيفة شرفية يرتزق
منها . فلما أخفق فى هذا تكفل بأن يجمع له اكتتابات تعول «الكسندر»
الجديد وهو يطفر بشعره فوق طرواده . واذا كان سويغت فى موقع

استراتيجى بين طلاب الوظائف والكهنوت ، فقد أعلن أن « أفضل شعراء انجلترا هو المستر بوب ، بابوى بدأ ترجمة لهومر بالشعر الانجليزى ، لا بد له ليكملها من أن يكتبوا فيها جميعا ، لأن المؤلف لن يبدأ الطبع حتى أجمع له ألف جنيه ! (١٦) » . واقترح بوب أن يترجم الانلياذة فى ست مجلدات من قطع الربع ، ثمن كل المجموعة منها ستة جنيهات (١٨٠ دولارا ؟) . وأقبلت الاكتتابات تترى رغم هذا الثمن الغالى ، واشتدت الحماسة للمشروع حتى أن برنارد لنتو تاجر الكتب وافق على أن ينقد بوب مائتى جنيه لقاء كل مجلد ، وأن يقدم له نسخا مجانية لمكتبييه . وبما أن المكتبيين (وعددهم ٥٧٥) أخذوا ٦٥٤ مجموعة ، فإن بوب كسب ٥٣٢٠ جنيهها (١٤٨٩٦٠ دولارا ؟) ثمنا للانلياذة ، وهو مبلغ لم يظفر بمثله مؤلف فى انجلترا الى ذلك الحين . وظهر المجلد الاول المحتوى على أربعة أقسام فى ١٧١٥ . وقد لقى منافسه غير متوقعة بسبب نشر ترجمة فى اليوم ذاته للقسم الاول بقلم توماس تيكل . وأثنى اديسون على ترجمة تيكل ، التى اعتقد بوب أنها ليست فى الحقيقة الا بقلم أديسون ، وأحس أن نشرها فى آن واحد مع ترجمته عمل غير ودى ، فأضاف اديسون الى قائمة أعدائه .

ولو كان التفقه فى العلم هو المحك الوحيد لما استحققت ترجمة بوب ثناء يذكر . فعلمه باليونانية متواضع ، وقد اضطر الى الاستعانة بالشرح المدرسيين ، وأنجز أكثر مهمته بالمضاهاة بين الترجمات السابقة وإعادة صياغتها بالأبيات الزوجية المقفاة من البحر الايامبى (العمبى) الخماسى التفاعيل iambs — pentameter couplets التى برع فيها . فأما بنتلى ، أمير علماء الدراسات اليونانية الأحياء يومها ، فقد أصاب فى حكمه على هذا الأداء : « قصيدة لطيفة يا مستر بوب ولكن يجب ألا تسميها هومر (١٧) » فالأبيات الزوجية ونقر قوافيها الشبيه بنقر الطبل ، والعبارات والفقرات والطباقات المتوازنة ، هذه كلها عطلت أسلوب الشعر الاغريقى السداسى التفاعيل ، الأسلوب السريع المتدفق . ومع ذلك كان هناك فخامة زاحفة ، ومعين زاهر من اللغة ، فى تلك الأبيات التى ساقها الشاعر على نحو معجز ، عبرا بها - رغم اعتراضات بنتلى - الى القرنين الثامن والتاسع عشر ، كاحب م ١٦ - قصة الحضارة

ترجمة للابادة . قال فيها جوتسن « انها اسمى ترجمة للشعر شهدها للعالم الى اليوم (١٨) » وقال جرائ انه لن تضارعا أية ترجمة اخرى (١٩) . كذلك كان رأى انجلترا الى أن أجال كيتس بصره فى ترجمة تشابمن لهومر ، واستمطر وردزورت اللعنة على الاسلوب المصطنع الطالبان الذى أبهج الكثيرين جدا فى عصر انجلترا الاوغسطى .

ونشرت الابادة بوب فى ١٧١٥ م ٢٤ ، وأتى نجاحها بتجار الكتب المتنافسين الى بابه . ورجاه أحدهم أن يعلق على طبعه حديثه لمسرحيات شكسبير ، فوافق بغباوة ، غافلا عن الهوة التى تفصله عن شكسبير عقلا وفنا . وراح يكد ويكدح بصبر ذاهب فى تلك المهمة التى لا تلائمه ، وظهرت الطبعة فى ١٧٢٥ ، وما لبث لويس ثيوبولد ، أقدر المتخصصين فى دراسة شكسبير يومها ، أن أوسعها طعنا لقصورها ، فصلبه بوب فى قصيدته « الدنسيادة » (أى ملحمة المغفلين) .

وأقنعه لنتوت أثناء ذلك بأن يترجم الاوديسة ، عارضا عليه مائة جنيه . ثمنا لكل مجلد من مجلداتها الخمسة ، وأخذ المكتتبون ٨١٩ . مجموعة ، ولكن بوب ، وقد افتقد الآن حافز الشباب والحاجة ، سئم نحت مقطوعاته ، وعهد بنصف العمل الى دارسين من كمبردج لم يطل جهما الوقت حتى تعلمتا محاكاة أسلوبه . وكان قد نبه المكتتبين سلفا الى انه سيستخدم معاونين له ، ولكنه حين نشر الاوديسة (١٧٢٥ - ٢٦) . - التى قصرت كثيرا عن اليافته - نسب الى مساعديه هذين الفضل فى خمسة كتب من الكب الاربعة والعشرين ، فى حين انهما ترجما اثنى عشر كتابا فى الواقع (٢٠) . ونقدهما ٧٧٠ جنيه ، أما هو فبلغ صافى ربحه ٣٥٠٠ جنيه ، لذ شعر بحق أن اسمه هو الذى باع الكتاب . وكفلت له الترجماتان الاستقلال المالى ، فقال ان فى وسعه الآن « بفضل هومر أن يعيش ويزكو غير محين لانسان اميرا كان أو نبيل (٢١) » .

وفى ١٧١٨ اشترى فيللا فى تويكنهام وحديقة مساحتها خمسة أفدنة تنحدر الى نهر التيمز . وصمم الحديقة بالطراز الطبيعى ، محتاشيا الرقابة الكلاسيكية التى مارسها فى شعره . وقال « ان الشجرة شيء أنبل من الملك فى ثياب تنويجه (٢٢) » . وحفر له من بيته نفق

تحت شارع معترض ليخرج منه الى الحديقة ؛ وزين هذه « المغارة » زينة حاملة فيها الاصداف ، والبللورات ، والمرجان ، والمتحجرات ، والمرايا ، والمسلات الصغيرة . فى هذه الخلوة اللطيفة للجو استضافا الكثير من الاصدقاء المشهورين - سويقت ، وجرأى ، وكوتجريف ، وبولنبروك ، وأربنتوت ، والليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، والأميرة كارولين ، وفولتير . وكانت الليدى مارى جارتها فى حى أطلقا عليه اسم « تويتنام » ؛ وكان بولنبروك يسكن دولى على مقربة منه ، ولندن لا تبعد أكثر من أحد عشر ميلا فى نزهة لطيفة بالقارب على التيمز ، وأقرب منها القصور الملكية فى رتشموند ، وهامتن كورت ، وكيو .

وانضم الدكتور جون أربنتوت ، الذى أضفى كتابه « تاريخ جون بول » (١٧١٢) على انجلترة شخصية واسما ، الى سويقت ، وكوتجريف وجرأى ، وبوب ، فى نادى سكريليروس للشهير (١٧١٣ - ١٥) ، الذى كرس للتهكم على كل ضروب الدجل والعجز ، وأضيف كل ضحاياهم الى القائمة المتعاضمة من خصوم بوب . وكان له مع الليدى مارى مغامرة اختلط فيها الواقع بالأدب وانتهت بعداوة مرة . وساكنه سويقت أحيانا ، كما حدث أيام نشره « رحلات جلفر » (١٧٣٦) ، وتبادل الاثنان بغضهما للبشر ، وبعض الرسائل التى كشفت عن رقة مخبوءة تحت دروعهما القاسية (٢٣) . أما معرفة بوب ببولنبروك فقد بدأت حوالى ١٧١٣ ، وتطورت الى تأثير فلسفى . وقد اثنى الواحد منهما على صاحبه ثناء يبعث على الغثيان لغسلوه ، فقال بوب « أعتقد حقيقة أن فى ذلك الرجل العظيم شيئا يبدو أنه وضع هنا خطأ من عالم أعلى » ، وقال بولنبروك وبوب يحتضر « لقد عرفته هذه السنين الثلاثين ، ويزيد تقديرى لنفسي بسبب حبى لهذا الرجل » - وهنا خانه صوته كما تقول القصة (٢٤) .

ولا بد أنه كان هناك شيء يحب فى هذا الشاعر الذى صورته الرواية المتواترة ، بل صورته قلمه هو أحيانا ، انسانا مشاغبا خداعا خسيما مغرورا . وينبغى أن نذكر دائما أنه كان ممرورا - وله العذر - بسبب ما استشعره كل يوم من مذلة عجزه البدنى . لقد كان فى صباه جميل الصورة ، لطيف الطبع ، وقد ظل وجهه دائما جذابا ، ولو

لمجرد توقد عينيه . ولكنه كلما شب أصبح تقوس عموده الفقرى سافر بصورة أكثر ايلاما له . وقد وصف نفسه بأنه « مخلوق قصير ، كله حيوية ، طويل الساقين والذراعين ، لا تخطيء اذا رمزت له بالعنكبوت ، وقد حسبه البعض على بعد طاحونة هواء صغيرة (٢٥) » . (ويذكرنا هذا يسكارون المسكين) . فاذا جلس الى المائدة وجب أن يسند على مقعد عال كالطفل ليحاذى غيره . وكان يحتاج الى من يخدمه طوال الوقت تقريبا . وما كان فى استطاعته أن يمضي الى فراشه أو ينهض منه دون أن يعان عليه ، ولا أن يرتدى ثيابه أو يخلعها بنفسه ، وكان يجد مشقة فى الاحتفاظ بنظافة جسمه . فاذا نهض لم يستطع أن ينصب عوده حتى يشده خادمه الى صدر من القنب المقوى ، وبلغ من نحافة ساقيه أنه كان يلبس ثلاثة جوارب طويلة ليضخمهما ويدفئهما ، وكان بسبب حساسيته الشديدة للبرد يرتدى « نوعا من الصدر المضيقة المصنوعة من الفراء » ، تحت قميص من الكتان الثقيل الخشن . وقل أن عرف لذة العافية . وقد قال عنه اللورد باثورست أنه كان يشكو الصداع أربعة أيام فى الأسبوع ، ويمرض فى الثلاثة الباقية . ومن المعجز أن استطاع جوناثان رتشردسن أن يرسم ليوب لوحه بمثل هذه الطلعة الحسنة (٢٦) - كلها تيقظ وحساسية ، ولكننا نستطيع فى التمثال النصفى الذى صنعه له روبياك أن نتبين الجسم المعذب يعذب العقل .

ومن القسوة أن نتوقع من رجل كهذا أن يكون هادىء الطبع ، أو لطيفا ، أو بشوشا ، أو رقيقا . فلقد أصبح شأن كل عليل نزقا ، كثير المطالب ، نكد المزاج . ونذر أن تجاوز فى ضحكه الابتسامة ، واذ حرم كل فتنة الجسد ، فقد عزى نفسه بكبرياء المقام وغرور الفكر . وكما يفعل حيوان ضعيف أو جريح ، وكما يسلك فرد من أقلية مظلومة ، تعلم المكر والمراوغة والدهاء ، وما لبث أن تعلم الكذب ، لا بل ممارسة الخيانة مع أصدقائه . وتملق النبلاء ، ولكنه ترفع عن كتابة الاهداءات التى تستهدف الكسب . وكان فيه من الشجاعة ما حصله على رفض معاش عرضته عليه حكومة يحتقرها .

ونحن نرى فى حياته الخاصة بعض الخلل الجديرة بالحب . قال سويغت عنه أنه « أعظم من عرفت أو سمعت عنه من الأبناء قيما »

بواجبهم نحو آبائهم (٢٨) » . فلقد كان حبه لأمه أظهر عاطفة وأبقاها من عواطف روحه المضطربة . كتب فى عامها الحادى والتسعين يقول ان صحبتها اليومية جعلته لا يحس أى افتقار الى علاقات عائلية أخرى . وكانت أخلاقياته الجنسية أفضل تطبيقا منها كلاما ؛ ولم يكن هيكله يصلح للزنا ، ولكن لسانه وقلمه كان فى وسعهما أن يكونا اباحيين الى حد مفرز (٢٩) . وحتى فى رسائله للمراأتين اللتين ظن أنه يعشقهما كان يكتب بتحرر مفرط لا تطيقه اليوم سوى بغى . ومع ذلك فإن احدهما ، وهى مرتا بالوننت ، أحببت الشاعر العاجز حبا حسبه المنفولون علانة آثمة . وفى ١٧٣٠ وصفها بأنها « صديقة ... كنت اتفق معها كل يوم ثلاث ساعات أو أربعا طوال هذه السنين الخمس عشرة (٣٠) » . وبات هى شيخوخته المبكرة معتمدا على محبتها ، وأوصى لها بكل تركته الكبيرة تقريبا .

واذ كان دائم الوعى بعيوبه البدنية ، فقد كانت تكويه كيا كل كلمة تنقد خلقه أو شعره . لقد كان العصر عصرا يغلب عليه حب الدار فى معاركه الأدبية ، وكان بوب يرد على السباب بسباب لا يصح طبعه أحيانا . وفى ١٧٢٨ حشد خصومه ونقاده فى زريبة شعره ، وأطلق عليهم كل سهام غضبه فى أقوى أعماله الأدبية وأبلغها ابناء . ولم ينشر اسمه عليه ، ولكن كل لندن القارئة استشفت توقيعه فى أسلوب الكتاب . وسيرا على الطريق الوعر الذى سلكته من قبل قصيدة درايدن « ماك فلكنو » (١٦٨٢) ، أشادت قصيدة بوب « الدنسيادة » بكتبة جراب ستريت أقطابا للمغفلين فى بلاط الغباء الذى يتربع ثيوبولد على عرشه . وقد بكى على موت رن وجرأى ، وعلى اقضاء سويقت فى منفاه الارلندى ، حيث يموت « كفار مسموم فى حجر » يعنى كتدراثية دبلن . أما عن الباقيين فلم ير من حوله إلا عجة فاسدين لا طعم لهم ولا مذاق . وتلقى ثيوبولد ، ودنيس ، وبلاكمور ، وأوزبورن ، وكزل ، وكبير ، وأولدمكسون ، وسميدلى ، وأرنل - كل فى دوره جزاءهم من « الجلد والتهكم والقذر - ولا غرو فقد كان للشاعر ولع بالقذارة ، ربما لأن هذه صفة تلازم العجز البدنى (٣١) .

وفى طبعة لاحقة ذكر بوب فى ابتهاج ، على لسان الشاعر سفنج ، كيف أن حشدا من الكتاب حاصروا تاجر الكتب فى تاريخ نشر القصيدة

الأول مرة ، وهددوه باستعمال العنف معه إذا نشرها ، وكيف آن هذا جعل الجمهور أشد تهاافتا على النسخ ، وكيف أن الطبعة تلو الطبعة كانت تطلب وتتفد ، وكيف أن الضحايا ألفوا أندية ليكتلوا النار من بوب ، وصنعوا دمية على صورته وأحرقوها . وجاء ابن دنيس بهراوة ليضرب بوب ، ولكن اللورد باثورست صرفه عنه ، ويعدها ظل بوب حينما يأخذ معه فى جولاته مسدسين وكلبه الدنمركى الضخم . ورد عليه عدد من ضحاياه بكتيبات ، وبدأ بوب وأصحابه (١٧٣٠) « مجلة جراب ستريت » ليواصلوا الحرب . وفى ١٧٤٢ أصدر جزءا رابعا من « ملحمة المغفلين » ، هاجم فيه المربين وأحرار الفكر تعطشا لخصوم جدد - هؤلاء الذين يفخرون قائلين :

« أننا نتخذ فى فخر ذلك الطريق الاعلى
ونجادل هابطين حتى نشك فى الله ،
ونجعل الطبيعة تعدو على قصده ،
وندفعه الى أبعد ما نستطيع
أو ، بوثية واحدة تقفز فوق كل قوانينه ،
نجعل الله صورة للإنسان ، والإنسان العلة النهائية ،
ونجد الفضيلة شيئا محدودا ، ونحتقر كل الصلات ،
نرى الكل فى أنفسنا ، وأننا لم نولد الا لأنفسنا ،
لا نوقن بشيء يقيننا بعقولنا ،
ولا نتشكك فى شيء تشككنا فى الروح والارادة (٣٢) » .

وبواضح أن بوب كان ينتقب فى الفلسفة ، وليس مع بولنبروك وحده ؛ فقد صدرت رسالة هيوم « فى الطبيعة البشرية » فى ١٧٣٩ ، قبل هذا الجزء الرابع من « ملحمة المغفلين » بثلاث سنوات . وهناك بعض الأدلة على أن الفيكونت كان قد نقل الى الشاعر ريوبييه شافتسبرى مشحودة بحكمة الدنيا (٣٣) . وقال له بولنبروك ، حسبك هجاء وسفاسف ، ووجه ربة شعرك وجهة الفلسفة الدينية . يقول جوزف وارتن « لقد أكد لى اللورد باثورست غير مرة أنه قرأ كل خطة « مقال عن الانسان » مكتوبة بخط بولنبروك ، ومفصلة فى سلسلة من القضايا كان على بوب أن ينظمها شعرا ويوضحها (٣٤) » . ويبدو

أن بوب فعل هذا ، الى درجة استعماله عبارات بعينها من وضع المتشكك الكبير (٣٥) ، ولكنه أضاف بعض البقايا المنقذة التي تخلفت عن عقيدته المسيحية . وهكذا أصدر « مقاله عن الانسان » فصدرت الرسالة الأولى فى فبراير ١٧٣٣ ، والثانية والثالثة فى تاريخ لاحق من تلك السنة ، والرسالة الرابعة فى ١٧٣٤ . وسرعان ما ترجم المقال الى الفرنسية ، واشاد به أكثر من عشرة فرنسيين باعتباره 'من ألمع ما ألف من جوامع الشعر والفلسفة معا .

واليوم يذكر هذا المقال أولاً لما حوى من أبيات يعرفها كل انسان ، فلننصف بوب برؤيتها فى اطار فنه وفكره . وهو يستهلها بمناجاة لبولنبروك :

« استيقظ يا قديمي جون : واترك كل التوافه
للطمع الدنيء وكبرياء الملوك .
وما دامت الحياة لا تستطيع أن تهبنا
غير نظرة فيما حولنا يعقبا الموت ،
فطوف ببصرك حراً فوق هذا المشهد كله ، مشهد الانسان ،
يا له من متاهة هائلة ، ولكنها ليست بغير خطة ، ..
فلنضرب معا فى هذا الحقل الفسيح ،
ولنضحك حيث يجب الضحك ، وننتصrach حيث نستطيع المصارحة ،
ولكن لنبرر طرق الله مع الانسان (٣٦) » .

هنا بالطبع ذكرى « لالهيات » لبينتس ، « وفردوس ملتن
المفقود (٣٧) » . ويمضي بوب فيحذر الفلاسفة من أن يؤملوا الفهم أو
يدعوه ، « فهل يستطيع الجزء أن يحتوى الكل ؟ » فلنكن شاكرين
لأن عقلنا محدود ومستقبلنا مجهول :

« فذلك الحمل الذى قضى استهتارك بذبحه اليوم ،
لو أوتى عقلك ، أكان يطفر ويلهو ؟
انه فى ابتهاجه الى النهاية يقضم طعامه اليانع
ويلعق اليد التى رفعت لتريق دمه (٣٨) » .

هاهنا تشاؤم خفى ، فالرجاء لا يمكن أن يبقى حيا إلا بالجهل :

- » فارح فى تواضع اذن ، وحلق بجناحين مرتعشين ،
- وانتظر الموت ، ذلك المعلم العظيم ، واعبد الله .
- انه لا يهلك العلم بالنعيم الآتى ،
- ولكنه يسمح بأن يكون ذلك الرجاء بركتك الآن .
- فالرجاء ينبعث أبدا فى صدر الانسان ،
- وهو لا ينعم بالسعادة ، بل لا يفتأ يرجوها أبدا (٣٩) » .

ولا قدرة لنا على رؤية المبرر لما يبدو فى الحياة من مظالم ؛
وعلىنا ان ندرك ان الطبيعة لم تخلق للانسان ، وان الله لابد يرتب كل
الاشياء لكل الاشياء ، لا للانسان وحده . ويصف بوب « سلسلة الوجود
الشاسعة » ابتداء من أدنا المخلوقات ومرورا بالانسان والملاك الى الله ،
ويحتفظ بايمانه فى نظام الهى وان خفى عن علمنا :

- » ان الطبيعة كلها ليست الا فنا لا علم لك به ؛
- وكل المصادفات توجيهه لا تستطيع رؤيته ؛
- وكل تنافر تناغم غير مفهوم ؛
- وكل شر جزئى خير كلى ؛
- ورغم ما فى حقد العقل الضال من كبرياء ،
- فان هناك حقبة واحدة واضحة ، وهى ان كل الوجود صواب (٤٠) »

اما الدرس الاول فهو التواضع العقلى . ثم هذه الابيات المذكورة
تذكيرا رائعا ببسكال :

- » فاعرف نفسك اذن ، ولا تجسر على فحص الله ،
- فالدراصة الصحيحة للبشر هى الانسان .
- هذا الذى وضع فوق هذا البرزخ فى حالة وسط ،
- كائن حكيم فى غموض ، عظيم فى فجاجة ...
- حكم اوحده فى امر الحقيقة ، مدفوع الى أخطاء لا تنتهى ،
- مفخرة الدنيا ، واضحوكتها ، ولغزها المحير ! (٤١) »

فلنوافق فى نطاق هذه الحدود البشرية على أن . « محبة الذات ، منبع الحركة ، تحفز الروح » ، ولكن لابد للعقل أيضا أن يدخل ليثبت النظام والتوازن فى عواطفنا وينقذنا من الرذيلة . لأن

« الرذيلة مخلوقة متوحشة رهيبة السحنة ، نكرها حالما نراها ، ولكننا لكثرة ما نراها نالف وجهها ، ونحتملها أولا ، ثم نرثى لها ، ثم نعانقها (٤٢) » .

هذه العواطف وإن كانت كلها إلوانا من محبة الذات إلا أنها جوانب من المخطط الإلهى ، وقد تفضي الى نهاية طيبة حتى لبصرنا الأعشى . فشهوة الجسد تبقى على النوع ، وتبادل المصلحة ولد المجتمع . والنظام الاجتماعى والايمان الدينى نعمتان واضحتان ، رغم أن الملوك وأصحاب المذاهب لطخوا التاريخ بدماء البشر :

« ليختلف الحمقى حول أشكال الحكم فاصلحها هو أفضلها إدارة وتصريفا وليقتتل المتعصبون الثقلاء حول ضروب الايمان ، فلن يخطيء من عاش حياة فاضلة (٤٣) » .

أما الرسالة الرابعة من مقال الانسان فتتنظر فى السعادة ، وتحاول جاهدة أن تسوى بينها وبين الفضيلة . فإذا رأيت الرجل الصالح يبغى بالكوارث ، والأشرار يفلحون أحيانا ، فانما السبب أن :

« العلة الكونية لا تعمل وفق قوانين جزئية بل كلية (٤٤) ؛ »

والله ينظم بالكل ، ولكنه يترك الاجزاء لقوانين الطبيعة ولارادة الانسان الحرة . وقد يأسى البعض لفوارق الملكية باعتبارها مصدرا للشقاء ، ولكن الفوارق الطبقيّة ضرورية للحكم :

« فالنظام أول قوانين السماء ، وإذا سلمنا بهذا كان البعض ، ولا بد أن يكونوا ، أعظم من الباقين (٤٥) » .

وليس هذا واضحا وضح النهار ، ولكن أى كلام آخر يمكن أن يقال للفيكونت بولنبروك ، (أو يقوله بولنبروك) ؟ والسعادة موزعة بالقسط رغم عدم المساواة فى العطايا الطبيعية والمكتسبة ؛ فالفقير سعيد سعادة الامير . وليس سعيدا ذلك الوغد الغنى ؛ فهو يحتضن أمواله ولكنه يشعر باحتقار العالم له ، أما البار فتتعم روحه بالسلام حتى فى الظلم .

أما ما يسترعى نظرنا لأول وهلة فى مقال الانسان ، فهو هذا الاسلوب المحكم الذى لا يضارع فى ايجازه . يقول بوب « لقد اخترت الشعر لأننى رأيتنى قادرا على التعبير عن هذه الافكار بالشعر بأوجز مما بالنثر (٤٦) » . ولم يبلغ شاعر ، حتى شكسبير نفسه ، ما بلغه بوب من قدرة على حشد ذخائر لا حصر لها - وحشد المعنى الكبير على الأقل - فى حيز ضيق . فهنا فى ٦٥٢ بيتا زوجيا ، هى أدعى لأن تعيها الذاكرة من نظيرها فى أى ميدان أدنى معادل غير العهد الجديد . وكان بوب عليما بحدود قدراته ، فقد أنكر صراحة أصالة أفكاره ، وأراد أن يصوغ من جديد فلسفة ربوبية متفائلة بفن موجز ، ووفق فيما أراد . وفى هذه القصيدة نحى عقيدته الكاثوليكية ولو الى حين . ورأى فى الله علة أولى فقط ، لا يعنى « عناية الهية خاصة » ليقى الرجل الفاضل من خبث الاشرار . وليس فى هذا النسق معجزات ، ولا أسفار مقدسة موحاة من الله ، ولا آدم ساقط أو مسيح مكفر ، انما هو رجاء مبهم فى الجنة ، ولكن لا ذكر للنار اطلاقا .

وقد هاجم نقاد كثيرون القصيدة باعتبارها فلسفة « انسانية أو بشرية » منطلومة . فالقول بأن « دراسة البشر الصحيحة هى الانسان » عرف وجهها من وجوه هذه الفلسفة ، وبدأ أنه يغرق اللاهوت كله . فلما ترجم المقال الى الفرنسية انقض عليه قسيس سويسرى يدعى جان كروزاز ، فزعم أن بوب قد ترك الله فى طريق جانبى فى قصيدة مغرورض فيها أنها تبرر طرق الله للانسان . ولم يخف للدفاع عن بوب أمام هذا الهجوم من الخارج رجل غير وليم ويررتون الفحل ، فقد شهد أسقف المستقبل أن القصيدة عمل من أعمال التقوى المسيحية التى لا شائبة فيها . ورغبة فى تهدئة رجال الدين نشر بوب فى ١٧٣٨ ترنيمة

حلوۃ سماها « الصلاة العالمية » . ولم يقتنع المسنيون تمانا ، ولكن العاصفة هدأت . أما فى القارة فقد استقبلت القصيدة بعواطف مسرقة . فقال فولتير فى حكمه عليها « انها فى رأى ابدع وأنفع وأسمى قصيدة وعظيمة نظمت فى أى لغة (١٧) » .

وفى ١٧٣٥ كتب بوب مقدمة لمجلد من الهجائيات سماها « رسالة الى الدكتور آريتنوت » دافع فيها عن حياته وأعماله ، وقتل خصوصا جددا . هنا وردت صورته الشهيرة لاديسون الذى سماه « أتيكوس » ، وفضيحتة القتالة للورد هرقى المخنث الذى كان قد زل فوصف بوب بأنه « قاس كقلبك ، مجهول كأصلك (١٨) » . وطعنه بوب طعنات نجلاء تحت اسم « سبوراس » فى أبيات يتجلى فيها الشاعر فى أروع صورته وأسوئها . قال :

« ماذا ؟ ذلك الشيء المصنوع من الحرير ،
سبوراس ، ذلك الخثارة البيضاء من لبن الحمير ،
وا أسفاه ! لا يجدى معه هجاء ولا كلام معقول ! איסטطيع
سبوراس أن يحس ،

وهو الذى يحطم فراشة على دولاب التعذيب ،
ولكن دعونى أصفع هذا البقرة المذهبة الأجنحة ،
ابن القدر هذا المزوق ، الذى ينتن ويلدغ ...
وسواء تكلم وهو عاجز عجزا فاضحا
وزيق كالدمية حين ينفخ فيها الملحن ؛
أو جلس الى اذن حواء ، كانه الضفدع الكليف ،
ينفث حديثا نصفه زبد ونصفه سم ،
فى توريات أو أحاديث سياسية ، أو حكايات ، أو أكاذيب ،
أو غل أو سناج أو قوافى أو كفريات .
ذكاؤه كله متأرجح هنا وهناك ،
صاعد حيناً ، هابط حيناً ، سيد مرة وفتاة مرة ،
وهو ذاته تناقض حقير .
شيء ذو وجهين ، يلعب كلا الدورين ،
الرأس التافه ، أو القلب الفاسد ؛

غندور فى زينته ، متملق فى مجلسه ،
يخطر آنا كالنساء ، ويتبختر آنا كالسادة (٤٩) « .
وكان بوب فخورا ببراعنه فى هذه الهجمات القتالة -

« أجل ، انى فخور ، ويجب أن أفخر برؤية
الرجال الذين لا يخشون الله يخشوننى (٥٠) » .

وقد اعتذر عن مرارته بأن العصر يتهدده انتصار الغباوة ، وأنه
فى حاجة الى عقرب يلدغه ليفيق ويعقل ، ولكنه انتهى فى ١٧٤٣ الى
أنه خسر المعركة . ففى آخر تنقيح لمحنة المغفلين رسم صورة قوية -
هى نذر الشاعر « دون » بالويل والثبور صاغها بلهجة ملتن ونبراته
للدين ، والخلق ، والنظام ، والفن ، وقد لفها كلها ظلام واضمحلال
شاملان . فالاهة الغباء المتوجة تتعائب فوق عالم محتضر :

« انها قادمة ، انها قادمة ، تأمل العرش الأسود ،
عرش الظلمة الأزلية والفوضى القديمة !
أمامها تتبدد كل سحب الخيال الذهبية ،
وتتلاشي كل أقواسه القزحية
بينما تأفل النجوم الذابلة نجما بعد نجم
من الأفق الأثيرى ، عند سماع لحن ميديا الرهيبة
وهكذا عند الاحساس بدنوها ، وخشية جبروتها الخفى ،
ينطفئ الفن تلو الفن ، وتمسي الدنيا ظلاما فى ظلام .
فانظر الى الحقيقة وقد هربت متسللة الى كهفها القديم ،
وفوق رأسها أهيلت جبال من الفتاوى !
والفلسفة التى كانت من قبل تستند الى السماء ،
تنكمش الى علتها الثانية ثم تموت .
والطبيعة (العلوم) تسال ما بعد الطبيعة الدفاع (ضد هيوم ؟)
وما بعد الطبيعة يستنجد بالحس الطبيعى (لوك ؟) !
وترى الأسرار الخفية تلجأ الى الرياضيات (نيوتن ؟) !
ولكن عبثا نحاول ! نأبى تحملى ، وتترنج ، وتهذى ، ثم تموت .
ويستر الدين نيرانه المقدسة وقد احمر وجهه خجلا ،

وتذوى الفضيلة دون أن تدري ...
فهناك دولتك الرهيبة وقد عادت أيتها الفوضى ،
والنور ينطفئ أمام كلمتك القاتلة ،
وبدك أيتها الفوضى الجبارة تنزل الستار
فاذا الظلام الدامس بلف كل شيء (٥١) » .

ولعله حسب تحليله هو انهيارا للكون كله . ففد كان وهو بعد
فى الخامسة والخميس يموت من الهرم . وأصبح المني عسبرا عليه
لأصابته بالانسقاء ، والغذفس مؤلما لأصابته بالربو . وفى ٦ مايو
١٧٤٤ أصابه هذيان كان يفبق منه فترات ، وأعرب فى أحداها عن ايمانه
بحياة بعد الموت . وسأله صديق كاثوليكي أيستدعى له كاهنا فاجاب بوب
« لست أراه ضروريا ولكنه سيكون عين الصواب ، وشكرا لأنك ذكرتى
بهذا » (٥٢) . ومات فى ٣٠ مايو ، « هادئا رابط الجأش » (٥٣) .
صدقنا جونسن) ، « حتى أن خدمه لم يتبينوا بالضبط وقت وفاته » . ولم
يكن من حقه أن يدفن فى دير وستمنستر لأنه كاثوليكي ، فوورى التراب
الى جوار أبيه وامه فى نويكنهام .

أكان جنتلمانا ؟ لا ، فان أحقاده الفياضة بالقدر والذم ساركت
فى تسميم هواء انجلترا الأدبى فى النصف الأول من القرن الثامن
عشر ، وقد أخرجت آلامه الجسدية أحماضا لاذعة وحرمت العافية التى
تفيض بالحب والود على من حولها . أكان عبقرى ؟ بالطبع ، لا فى
الفكر الذى استعاره ، بل فى الشكل الذى بلغ به مرتبة الكمال فى النوع
الأدبى الذى اختاره . وقد وصفه ثاكرى بأنه « أعظم فنان أدبى شهده
العالم (٥٣) » . ففى لباقة الكلام ، وإيجاز التعبير ، وخصب العبارة ،
كان أمام عصره غير منازع . وحتى الفرنسيون قبلوه أعظم شاعر فى
جيله ، وتطلع اليه فولتير مثلا له وقلده ، كما نرى فى « أحاديثه عن
الإنسان » . ولقد ظل ثلاثين عاما - أطول من أى شاعر آخر - أمير
الشعر الانجليزى ، وثلاثين عاما آخر نموذجا يحتذى الشعراء الانجليز ،
الى أن جاء وردزورت بشيرا بعصر جديد .

ونحن الذين نهول فى حياتنا اليوم رغم فراغنا كله ، نرى فى
مقطوعات بوب ، فى تشطيرها الالى ، او فى صعودها وهبوطها

« كالأرجوحة » (٥٤) القدرة على التنويم ، فلا توقظنا الا بين الحين والحين بالابجرامات ، وحتى مقاله البارع عن الانسان ، ليس شعرا الا فى أوزانه وقوافيه . والصنعة فيه ظاهرة فوق ما ينبغى ، فلقد نسي الفنان نصيحة هوراس له بستر فنه . كذلك غفل عما نبه اليه هوراس من أن الشاعر لابد أن يملك الشعور قبل أن يستطيع نقله ؛ وقد شعر بوب ، ولكن غالبا ليحتقر ويسب ؛ وقد افتقد الاحساس بالجمال نحو الأفعال الذبيلة أو اللطف الانثوى . واستنفذ خياله فى العثور على ألفاظ رقيقة ، بتارة ، مركزة ، لأفكار قديمة ؛ فلم يتناول ليمسك بالشكال المألوية التى تلهم عظماء الشعراء والفلاسفة . ولم تعطه الأجندة سوى أحقادها .

وهو لم يزل الى اليوم الرمز الشعري الأكبر لعصر انجلترا الاوغسطى - الذى يجوز ان نرسم حدوده بعمره ، ١٦٨٨ - ١٧٤٤ . ومعرفة الذهن الانجليزى المتزايدة بعيون الأدب اليونانى والرومانى ، وبمسرحية « القرن العظيم » الفرنسية ؛ وتأثير الارستقراطية - تأثير الطبقة المسيطرة على الكثرة - فى الحديث ، والعادات ، والألفاظ المهدبة ، ويسر السلوك واطفه ؛ وانتفاض العقل والواقعية على الشطح الاليزابيثى وعلى التدين البيورثانى المتزمت ، وانتقال المعايير الفرنسية الى انجلترا مع عودة الملكية ، والمكانة الجديدة للعلم والفلسفة - كل أولئك تضافر لاختراع أشكال الشعر الانجليزى السائدة لقواعد هوراس وبوالو الكلاسيكية . وجاء عصر من النقد بعد عصر الخيال ، فبينما غزا الشعر فى انجلترا الاليزابيثية النثر ولونه ، نرى النثر فى انجلترا الاوغسطية يحل من قدر الشعر ويغير لونه . وكان أثر هذا الأدب « الكلاسيكى الجديد » على اللغة الانجليزية حسنا وسيئا : فقد أعطاهما دقة ووضوحا ورشاقة جديدة ، ولكنها خسرت حيوية الكلام الاليزابيثى وقوته ودفعه . وخضعت ثورة الشخصية والتعبير وفردانيتهما القديمة لنظام مفروض من فوق ، ألزم بالتطابق فى الحياة ، وبالشكل فى الأدب . وهكذا استحال الشباب كهولة .

على أن الأسلوب الكلاسيكى الجديد لم يعبر الا عن شطر من الحياة الانجليزية ، فلم يكن فيه متسع للتمرد ولا للعاطفة ولا للحب .

وقام شعراء بريطانيون ، حتى أيام سلطان بوب ، نددوا بالصنعة والمنطق ، وتحولوا من العقل الى الطبيعة ، ووجدوا صوتا يعبر عن الوجدان ، والدهشة ، والخيال ، والاكتئاب المتفكر ، والامل المحزون . فبدأت بذلك الحركة الرومانسية فى ذروة عصر انجلترا الكلاسيكى .

٣ - أصوات الوجدان

لم يكن الشعر الكلاسيكى الجديد يتأمل شيئا غير عالم الكتب . فقد رأى شومر وهوراس ، وأديسون وبوب ، رؤية أوضح من رؤيته للرجال والنساء الذين يمرون فى الشوارع ، أو الدلقس والمناظر الطبيعية التى تفعل بها أمزجة الناس كل يوم . ولكن الادب كشف الآن من جديد ما كان الفلاسفة يزعمونه طويلا ، وهو أن « الانسان » فكرة عامة غامضة ! وأنه لا وجود الا « للناس » ، المعتزين بفرديتهم الحريصين على واقعهم . وعمق الشعراء ذواتهم بلسمهم الأرض ، وشعورهم بالحقول والتلال والبحر والسماء واستجابتهم لها ، ويتغلغلهم الى ما وراء الأفكار ليجلوا الى المشاعر الدفينة التى يعلنها الكلام اقل مما يخفيها . فلم يبالوا كثيرا بالكلام واعتزموا الغناء ، وعادت القصيدة الغنائية وذوت الملحمة . وغلب الشوق الى العزاء المنبعث من الايمان بما فوق الطبيعة ، والى الانبهار الصوفى الذى يوسع الحياة ، هجوم الربوبية على المعجزات ، والتمس بازدياد ، فى أساطير العصور الوسطى ، ورومانسيات الشرق ، والأشكار القوطية ، شيئا من الهروب من الواقع القاسي لهذه الحياة الدنيا .

وبالطبع لم يخل عصر من أصوات الوجدان . ألم يشد « البطل المسيحى » للكاتب ستيل (١٧٠١) بالايمان القديم والعاطفة الرقيقة ؟ وألم تركز « السمات المميزة » لشافتسبرى (١٧١٠) حياة البشر فى « العاطفة » و « المحبة » ؟ والن يشق المتشكك هيوم والاقتصادى سمث كل الفضيلة من شعور الأخوة والتعاطف ؟ ولكن جيمس طومسن هو الذى ضرب أول ضربة واضحة جلية دفاعا عن قضية الاحساس ورقة الشعور .

وكان ابن قسيس فقير فى تلال اسكتلنده . نزل الى أدنبره ليدرس للقسوسية ، ولكن عاقه عن غايته اداة الاساتذة لأسلوبه لأنه شعري

بصورة لا تتفق ولغة الدين . فهاجر الى لندن ، وسرق ماله فى الطريق ،
وأشرف على الهلاك جوعا ، وباع قصيدته « الشتاء » (١٧٢٦) ليشترى
حذاء (٥٥) . على أن اهداه اياها الى السر سبنسر كونتس أتابه
بعشرين جنيهها ثمنا لثناؤه ؛ ولا غرابة فان النبلاء الانجليز لم يكونوا
صما أو بخلاء بالقدر الذى خاله جونسون . وتصور طومس فى قصيدته
صوت النعال وهى تطحن قشرة الجليد ، وكيف :

« سمع الرياح تزار والسيل العميق يهدر ،
أو رأى العاصفة العميقة الثوران تتجمع
فى سماء المساء الكالحة ؛ »

وكيف راقب من الشاطئ الرياح وهى تحرث البحر ، وتقلب
« اليم من قاعه وقد تغير لونه » ، وتمزق المراكب من مراسبها ، وترفعها
رفعا خطرا فوق موجة وتهوى بها هويا منذرا تحت أخرى ، وتقذف
بها فوق « صخر مدبب أو مياه ضحاحة غادرة » ثم تبددها « شظايا
متناثرة ... تطفو فى حركة دائرة » . وصور الفلاح وقد اقتنصته
عاصفة من الثلج الذى يعمى العيون ، تغوص قدماه المتجمدتان فى
الثلوج العميقة وهو يكافح فى سيره ، حتى يعجز عن رفع حذائه ، فيقع
منهوكا فريسة للموت متجمدا .

« أواد ، ما أقل ما يخطر ببال المستكبرين ، المستبشرين المرحين ،
كم من الناس يحسون فى هذه اللحظة بالموت
وكل ضروب الألم الحزينة .. »
وكم يذوون فى الفاقة وغياهب السجون محرومين مما ينعم به
الخلق كلهم من تنسم الهواء
وتحريك الأطراف ، وكم يتجرعون كاس
الحزن القتال ، أو يأكلون خبز الضيق المر ، وقد اخترمت
أجسامهم رياح الشتاء ،
وكم ينكمشون فى ذلك الكوخ القدر ،
كوخ الفقر التعس . »

هنا نغمة جديدة من الشفقة تخزى « بل مل » وداونج سترتت ،

وعودة تنعش النفس الى شعر ملتن المرسل عقب ما وصف به طومسن
قوافى بوب من « بهرجة تافهة » .

وشهد عام آخر ، وراع جديد لطومسن ، طبع قصيدته « المصيف »
(١٧٢٧) ؛ وفى ذلك العام شارك بقصيدة شهيرة فى صيحة الحرب
على أسبانيا :

« حين انبعثت بريطانيا أول مرة
بأمر السماء من اليم الأزرق ،
كان هذا دستور أرضها ،
وتغنت ملائكتها الحارسه بهذا اللحن :
احكمى يا بريطانيا ، تسلطى على الأمواج ؛
ان البريطانيين لن يستعبدوا أبدا » .

ومن لندن راح يجول الأيام والأسابيع فى الريف ، مستوعبا بحواس
الشاعر المرهفة « كل مشهد ريفى ، وكل صوت ريفى » ، يحب « رائحة
الالبان » المنبعثة من المزارع ، وينتشي بمنظر الشمس منتصرة عقب
المطر ، أو يسبق كيتس فى اكتئابه لرأى الخريف . وهكذا نشر قصيدته
« الربيع » فى ١٧٢٨ ، وبإضافة قصيدة « الخريف » ومطلعها (« حين
تبدأ الورقة المسمومة فى الالتواء ») جمع القصائد الأربع كلها فى
ديوان « الفصول » (١٧٣٠) . وقد كوفىء بجولة فى القارة رقيقا
لتشارلز تالبوت ، ابن وزير الخزانة فى ذلك الحين . فلما عاد عاش
فى دعة ونظم الشعر الرديء الى أن مات الوزير (١٧٣٧) . وبعد أن
صاحب الفقر فترة أخرى قدموه الى ولى العهد (أمير ويلز) الذى
سأله عن أحواله ، فأجاب « انها فى وضع أكثر شاعرية من ذى قبل » .
وتلقى معاشا قدره مائة جنيه مكافأة على ملاحظته الساخرة هذه . ثم
قضى عليه برد أصيب به على التيمز ، ومات غير متجاوز الثامنة
والأربعين .

وقد قررت « الفصول » أسلوبا جديدا فى شعر إنجلترا الأقل شائنا،
ووجدت أتباعا فى فرنسا ؛ هناك نظم جان فرانسوا دسان - لامبير ،
م ١٧ - قصة الحضارة

الذى سرق اميلى من فولتير ، قصيدته « الفصول » (١٧٦٩) . وبينما كانت مقاطع الشعر الملحمى تختال عبر القرن ، كان ادورد ينج ، ووليم كولنز ، ووليم شنستون ، ومارك اكينسايد ، وتوماس جراى ، يوسعون الطريق الرومانسى المفضي الى وردزورث وتشاترتن . أما ينج فبعد ان ظل ينظم الشعر التافه المرح حتى الستين من عمره ، عمل لآخرته بديوان شعر اسمه « خواطر لبلىة فى الحياة والموت والخلود » (١٧٤٢ - ٤٤) . وقد شجب فولتير هذا النتاج اللبلى لانه « مزيج مهوش من الشعر الطنان والتوافه الغامضة » ، ولكن ربما كان دافعه الى هذا الحكم أن ينج كان قد وخزه ببيتين لاذعن قال فبهما :

« اذك مسرف فى الذكاء ، والحلاعة ، والنحول ،
حتى لنحسبك ملتن ، والموت ، والخطيئة ، مجنعة كلها فى
رجل واحد (٥٦) » .

وأما وليم كولنز فعاش نصف عمر ينج ، وكتب أقل مما كتب ينج وأجود منه مرتين . هرب من دعوة لاحتراف القسوسية ، وأنفق آخر دراهمه فى صقل الابيات الالف والخمسمائة التى نظمها قبل أن يجن ويموت (١٧٥٩) وهو بعد فى الثامنة والثلاثين . وأجمل من قصيدته « نشيد المساء » التى ظفرت بالتقريظ القبرية التى كتبها رثاء للجنود البريطانيين صرعى المعركة فى ١٧٤٥ :

« كيف ينام الشجعان الذين يسقطون ليرقدوا
وفد باركتهم كل دعوات وطنهم !
حين يعود الربيع الذى بلل الندى أصابعه الباردة
لجمل ترابهم المقدس ،
هنالك بكسو بالعشب ثرى أعطر
مما وطئته أقدام الخبال .
اجراءهم ندقها أيدى الجان
ولحن الموت نرتله أفواه لا ترى ،
هنالك بحخر « الشرف » ، حاجا أشيب الشعر ،

ليبارك العشب الذى يكسو شراهم ،
وتذهب « الحرية » برهة
لتقيم كالناسك الباكى على قبورهم » .

وأكثر من يذكر بين شعراء الوجدان هؤلاء ذلك الروح الغريب
الذى أسبغ على اكتئاب الشباب كثيرا من العبارات الرقيقة . ذلك
هو توماس جراى ، الذى كان أحد اننى عشر طفلا ولدوا لكاتب عمومى
لندن ، مات منهم أحد عشر فى طفولتهم . ولم يتخط توماس هذه السن
الخطرة الا لأن أمه استعملت متصها لتفتح وريده بعد أن رآته يتشنج .
فلما بلغ الحادية عشرة ذهب الى اتن ، حيث بدأ صداقاته المشثومة مع
هوراس ولبول ورتشرد وست نم مضي الى كمبردج ، التى وجدها
« مملوءة بالمخلوقات المكتتبة والعلمين المجدبين » . وأراد أن يدرس
القانون ، ولكنه انزلق الى دراسة الحشرات وقرض الشعر ، وانتهى الى
التبحر فى اللغات والعلوم والتاريخ الى حد خنق العلم فيه شعره .

وفى ١٧٣٩ جاب أوربا مع هوراس ولبول . فلما عبر جبال
الالب فى الشتاء كتب يقول « ما من جرف ، ولا سيل ولا منحدر فيها
الا وهو مفعم بالدين والشعر » ، وفى ١٧٤٠ حين كتب من روما أدخل
الى اللغة الانجليزية كلمة جديدة هى picturesque (أى الشبيه
بالصورة الرائعة) . ولم يكن قاموس جونسن يعرف هذه الكلمة حتى
فى ١٧٥٥ . وفى ريدجو ايميليا تشاجر مع ولبول ، فقد كان هوراس
شديد الوعى بنبالته ، وتوماس شديد الفخر بفقره ، ووشي « صديق
للطرفين » لكل منها برأى الآخر المستتر فيه ، فافترقا ، وواصل جراى
رحلته منفردا الى البندقية وجرينوبل ولندن .

وبغضه فى الحياة موت صديقه وست (١٧٤٢) فى السادسة
والعشرين من عمره . فاعتكف فى بيت عم له فى ستوك بوجز ، وهناك ،
وسط دراساته المتصلة ، كتب (١٧٤٢) « قصيدة غنائية فى نظرة من
بعيد لكلية ايتن » . اذ نظر من مسافة مأمونة الى هذه المشاهد المدرسية ،
فقد تذكر صديقه الذى قصف الموت عمره قبل الاوان ، ووراء ألعاب هؤلاء
الشباب ومرحهم رأى ببصر مكتئب مصائرهم الشقية :

« هؤلاء ستمزقهم الانفعالات والعواطف الجامحة ،

ونسور العقل الجارحة ،
والغضب المفعم بالاحتقار ، والخوف الشاحب الوجه ،
والخجل الذى يتوارى مختبئاً ؛
أو يفنى الحب المعذب شبابهم ،
أو الغيرة المكثرة عن نابها ،
التي تقرض القلب فى شغافه
والحسد المساحب ، والهم الذابل ،
والإياس المتجهم الذى لا يقبل العزاء ،
وسهم الحزن الذى يخترم النذل .

انذر ، فى وادى الحياة أسفلك
تر رهطاً رهيباً ،
هم أسرة الموت المؤلمة ،
الابشع منظرًا من ملكتهم .
فهذا يحطم المغاصل ، وهذا يلهب الأوردة ،
وذاك يوجع كل عضلة مجعدة ،
وأولئك يحدثون ثورة فى الأحشاء الدفينة .
ثم ها هو الفقر أقبل ليكمل الفرقة ،
الفقر الذى يخلد الروح بيده الباردة ،
والهرم الذى يبرى الناس على مهل .
لكل انسان آلامه ، والكل بشر ،
قضى عليهم كلهم بالآنين ،
فالحنون يئن لألم غيره ،
والقاسي يئن لألم نفسه ،
ولكن واهاً لهم ! فلم يبصرون بحظوظهم ،
ما دام الحزن لا يبطلء مجيئه أبداً ،
والسعادة سربعة الهروب ؛
أن التفكير كفيل بأن يدمر فردوسهم ،
فأمسك ، لأنه حيث يكون الجهل نعيماً
فمن حماقة أن تكون حكيماً » .
وفى أواخر ١٧٤٢ قفل جرای الى كمبردج لیستانف دراساته .

وأرسل الى ولبول ، بعد أن اصطلحا ، (١٧٥٠) « مربية مكتوبة فى فناء كنيسة ريفية » . وداولها ولبول بين أخصائه وطبعها ناشر لص وحرفها . . وحماية لشعره سمح جراى لددسلى بأن يصدر نسخة أفضل وان شابهها النقص هى أيضا (١٧٥١) ، فى هذه القصيدة التى نعد من أروع قصائد القرن اليمس جراى الاكتاب الرومانى لبوسا كلاسيكيا دقيق النحت ، مسندلا بمفطوعات بوب الزوجية العالية الرنين رباعيات هادئة تتحرك فى وقار نسجى الى خاتمتها الحزينة .

وفى ١٧٥٣ ماتت أمه ، فكتب لها قبرة رقيقة ، ودفن همومه فى الشعر . وفى قصيدة غنائية عن « تقدم الشعر » حيا انتقال ربات الفن والادب من اليونان والرومان الى « ألبيون » ، واعترف بتطلعات صباه الى مباراة الشاعر بندار ، والتمس من الشعر أن يهبه عطية « العقل الذى لا يقهر » . وفى قصيدة غنائية أكثر شموخا حنى من هذه ، واسمها « الشاعر » ، رأى جراى فى الشعراء ضربا من التكفير عن سيئات الحياه البريطانية يفضح الرذيلة والطغيان . هانان « القصيدتان الغنائيتان البنداريتان » ، اللتان نسرتهما مطبعة ولبول فى ستروبرى هل ، بلغتا فى افتعال الشكل والازدحام بالشواهد القديمة والوسيلة مبلغا جعل فهمهما عسيرا على القراء الا الراسخين منهم فى الادب . وقد لف جراى نزوعه هذا للعزلة فى ثوب من الكبرياء فقال « ما كنت لاضيف حاشية (تفسيرية) أخرى لانقذ أرواح جميع اليوم الذين فى لندن . ان الوضع الراهن حسن جدا - فلا أحد يفهمنى ، وأنا راض بهذا تمام الرضى . وكان اليوم معتادا على مثل هذا الصغير فى الظلام .

واذ انكفأ مكتئبا الى غرفته ببيتتر هاوس فى كمبردج يعانى من فقر وتهيب منعه من الزواج ، ومن حساسية شديدة قعدت به عن نضال الحياه ، فقد أممي انسانا منطويا محزونا ؛ وروعه بعض الطلاب ذات ليلة ، وقد ساءهم منه عزوفه ووقاره ، وعرفوا فيه الخوف من النار ، فصاحوا تحت نافذته بأن الردهة تحترق . وفى رواية مختلف عليها انه أدلى نفسه من النافذة وهو فى قميص النوم وانزلق على حبل - ليقع فى حوض ماء وضعه العابثون ليتلقاه (٥٨) . وفى ١٧٦٩ جاب اقليم البحيرات الانجليزية ، وفى اليومىة التى كتبها (بخط غاية فى الجمال) جعل انجلترا تدرك لأول مرة جمال ذلك الاقليم . وفى جولة أخرى

بالمفيرن تلقى نسخة من قصيدته « القرية المهجورة » (لجولدسميث) فقال « هذا الرجل شاعر » ثم وضع النقرس نهاية لرحلاته ، ثم لحياته بعد قليل (١٧٧١) .

وطبقت شهرته الآفاق حيناً . فانعقد الأجماع فى ١٧٥٧ على أنه يقف على قمة الشعراء الانجليز ، وعرضت عليه امارة الشعر فرفضها . وقال فيه كوبر متخطيا ملتن « انه الشاعر الوحيد بعد شكسبير الذى يحق له أن ينعت شعره بالسمو » . اما آدم سميث فاضاف متخطيا شكسبير « ان جراى يضيف الى سمو ملتن أناقة بوب وتناغمه ، ولا ينقصه شيء ليكون - ربما - أول شاعر فى اللغة الانجليزية ، الا أن يكون قد نظم شعرا أكثر قليلا مما فعل (٥٩) » . وأعجب جونسن بالمرثية ، ولكنه كان يملك من العلم ما جعله يجد عشرات العيوب فى القصائد الغنائية . « ان لجراى ضرا من الوقار المختال ، وهو طويل القامة بفضل مشيه على أطراف أصابعه . . . وانى لأعترف أننى أتأمل شعره برضى أقل مما أتأمل حياته (٦٠) » .

ونستطيع أن نقاب هذه الحكمة مطمئنين . فقد كانت حياة جراى تعسة لا اغراء فيها ، من شجاره مع ولبول الى قصة الحوض . وكانت أنبل أحداثها ثلاث قصائد أو أربعة ستظل أجيالا كثيرة من ادمغ البراهين على « تقدم الشعر » من اليونان والرومان الى الببون .

٤ - المسرح

ماذا كانت مسارح لندن تصنع فى نصف القرن هذا الذى نحن بصددده ؟ كان أهمها مسرح درورى لين . ثم (من ١٧٣٣) كوفنت جاردن ؟ وكان هناك مسارح صغيرة فى لنكولنز ان فيلدز وجودمانز فيلدز ، وكان فى هياماركت « مسرح صغير » للتمثيليات الهزلية ، « ومسرح جلالة الملك » للاوبرا ؛ وبلغت جملة المسارح فى لندن مثلى عددها فى باريس . وكانت حفلات التمثيل تبدأ فى السادسة مساء . أما النظارة فقد غيروا طابعهم منذ أيام عودة الملكية ، فتحول « المجتمع الراقى » الآن عن المسرح الى الاوبرا . وكان المتفرجون المحظوظون أو الاثرياء لا يزالون يجلسون على خشبة المسرح . واتسع

« قاع » المسرح وأعلاه لقراءة ألفى شخص جالسين ؛ هنالك غلبت الطبقة الوسطى ، وقررت بتصفيق الاستحسان استقبال التمثيليات ونوعيتها ؛ ومن هنا ازدياد المنافسة بين الموضوعات البورجوازية والرومانسية . واستولت النساء على كل الأدوار النسائية وعلى كثير من قلوب الرجال ؛ وبدأ الآن سلطان الممثلات الشهيرات من أمثال كتي كلايف ، وبج ووفنجتن - النى رسمها هوجارت ، وحاك تشارلز ريد رواية حولها .

ولقد قال جاريك ، بما أن « هواية الممثلين الاولى ، والعظمى ، والمسيطرة ، هي الأكل (٦١) » فانهم فضلوا التمثيليات المتبله بالجنس . وقال آدمز ، القسيس الذى رسمه الروائى فيلدنج : لم أسمع قط بتمثيليات تصلح لأن يقرأها مسيحي الا تمثيليات أديسون ، ورواية ستيل « العشاق الواعون » . على أن فيلدنج ذاته كتب هزليات فاجرة (٦٢) . وقد وصف فولتير المسارح فى إنجلترا بأنها « مجردة من اللياقة » . وناشد السرجون برنارد مجلس العموم فى ١٧٣٥ بأن يكبح شيئا من جماح المسارح ، وزعم أن « الأمة البريطانية ... أصبحت شديدة الادمان على الملاهى الدائرة العاطلة ... حتى لقد أدهش أوروبا كلها أن يتقاضى السنيورات والخصيان الايطاليون رواتب تعادل رواتب وزراء الخزانة (٦٣) » . ولم يفعل أحد شيئا فى أمر المناظر والعبارات الخليعة ، ولكن حين سخر فيلدنج وجاى المسرح للهجو السياسى فهاجما روبرت ولبول وجورج الثانى ، استصدر الوزير ، المتسامح عادة مع المعارضة ، بطريق البرلمان قانون الرخص (١٧٣٧) ، الذى وجه أمين البلاط الى المزيد من التشدد فى منح الأذن بالحفلات المسرحية ★ .

وقد غالى ديدرو فى « موسوعته » فى الثناء على مسرحية « التاجر اللندنى » ، التى أخرجت بلندن فى ١٧٣١ ، والتى أثارت اهتمامه لأنها المسرحية التى أدخلت مأساة الطبقة الوسطى الى المسرح البريطانى . وكانت الدراما الكلاسيكية الفرنسية قد أرست مبدأ مؤداه أن المأساة وقف على الارستقراطية ، وأنها تفقد مقامها ووقارها ان هى نزلت

★ هذا القانون بصيغته المعدلة فى ١٨٤٣ مازال قانونا بريطانيا ، ولكنه يطبق بتساهل كبير .

الى المساهد البورجوازية . وقام جورج ليللو بمغامره مزدوجة ؛ أنزل
المساة الى بيت تاجر ، وكتبها نثرا . فترى فيها التاجر الأمين ثوروجود
يعتز « بكرامة مهنتنا » ويتق بأنه « لما كان اسم التاجر لا يشين الجنتلمان
أبدا ، فهو إذن لا يقصيه اطلاقا عن المجتمع الراقى » . والفكرة فى
المسرحية هى تدمير حياة صبي تاجر على يد غانية أغوته ، والموضوع
موثى بالحض على مكارم الاخلاق وملغوف فى العاطفة الرقيقة . وقد
صفت للمسرحية دافقا ، وسطى أبهجها أن ترى فضائلها ومثلها العليا
معروضة على مسرح بريطانى . ورحب بها ديدرو وحكاها فى حملته
لادخال « المساة البيتية والبورجوازية » فى المسرح الفرنسى . ونقل لسنج
نبرتها فى « الكذبة سارا سامسن » (١٧٥٥) . وهكذا راحت الطبقات
الوسطى تؤكد ذاتها فى الأدب كما تؤكد فى السياسة .

أما فى اسكتلنده ، فقد أجم النار تحت قدر الدراما جون هيوم ،
الذى أغضب زملاءه رجال الدين بكتابته واخراجته تمثيلية « دجلاس »
(١٧٥٦) ، وهى أنجح مساة فى زمانها . وقد حياه ابن عمه ديفد
هيوم فى نوبة من الحماسة المتدفقة لا تكاد تليق بفيلسوف شاك ، فقال
انه « تلميذ صادق لسوفوكليس ورأسين قد يوفق فى الوقت المناسب لتبرئة
المسرح الانجليزى من تهمة الهمجية (٦٤) » . فلما رفض جاريك
المسرحية ، رتب هيوم ، ولورد كيمس (هنرى هيوم) ، و « المعتدلون »
من رجال الدين الاسكتلنديين اخراجها فى ادنبره ، وقام ديفد ببيع
التذاكر . وكان الحدث نصرا لآل هيوم جميعا ولباقى اسكتلنده ، لأن
جون هيوم حول أغنية شعبية اسكتلندية قديمة الى دراما وطنية ملأت
عيون الاسكتلنديين بدموع الفرح ، اللهم الا هيئة شيوخ الكنيسة بادنبره ،
التي نددت بهيوم لانه جلب العار على ردهائه ، وذكرته « بالرأى الذى
كانت الكنيسة المسيحية تراه دائما فى تمثيلات وممثلى المسرح لأضرارهم
بالدين والفضيلة (٦٥) » . ثم صدرت اتهامات رسمية لهيوم وقسيس
آخر يدعى الكسندر كارلبل لحضوره التمثيل . أما ديفد هيوم الذى
اضطرم بالغيرة على قريبه فقد أهدى « المقالات الأربع » لابن عمه ،
وكتب اتهاما حارا لاتعصب . واستقال جون من قسوسبته ، وذهب الى
لندن ، وتهد مسرحيته « دجلاس » تخرج ، وعلى رأس ممثلاتها
بج ووفدجت (١٧٥٧) . هناك أيضا انتصرت المسرحية ، واحتشد

الاسكتلنديون الساكنون لندن ليصفقوا لها ، وفى نهاية هذه الحفلة الافتتاحية فى لندن هتف اسكتلندى من أعلى المسرح « اخسأوا يا قوم : فما قولكم الآن فى ويلي شكسبيركم (٦٦) ؟ » وظلت التمثيلية تتردد على المسرح جيلا بأكمله ، مع أنها اليوم ميتة موت تمثيلية أديسون « كاتو » . وحين مثلتها المسز . بيدونز بادنبره فى ١٧٨٤ ، اضطر المجمع العام للكنيسة « الى توقيت الاجتماع لأعماله الهامة بالتناوب مع أوقات تمثيلها ، بحيث يجتمع فى الايام التى لا يمدل فيها (٦٧) » .

أما اطرب نجاح حفلة المسرح اللندنى فى هذه الفترة فكان « أوبرا الاتحاد » . وقد بدأ مؤلفها جون جاي حياته صببا فى متجر ، وارتقى حتى أصبح سكرنيرا لأيرل كلارندن ، وواحدا من أكثر أعضاء نادى « سكرليروس » حيوية ومرحا . وقد وصفه بوب بأنه :

« دمث الطبع ، رقيق العاطفة ،
فى ذكائه رجل ، وفى بمادته طفل ؛
مفطور على مرح يخفف من غمته للحق ،
مخلوق ليبهج العصر ويسوطه معا (٦٨) » .

وقد وضع جاي بصمته على المسرح عام ١٧١٦ بتمثيلية « تريفيا أو فن التسكع فى شوارع لندن » . فقعة عجلات المركبات على أحجار الرصف ، والمائقون يستحثون خيلهم بالسوط واللسان ، و « الصبية الموحلة » تحمل السمك الى بلنجزجيت ، وهدهد « بل مل » سيداته المعطرات ينكن على أذرع العشاق ، والسائر يشق طريقه الملتوى وسط مباراة فى كرة القدم تسد الشارع ، واللصوص الملهذبون « يخفون جيبك من أنقله بأصابع لا تحس » ، والحارس الضخم يهدى خطاك المضطربة بمصباحه المرشد الى الطريق الأمين « ويقودك الى بايك ؛ كل هذا وأكثر منه يجده فى « تريفيا » من يريد أن يتصور لندن فى ١٧١٦ .

وفى ١٧٢٠ نشرت « قصائد » جاي بنظام الاكتتاب ، فوافته بآلف من الجنيهات خسرهما فى انهيار شركة بحر الجنوب . وخف بوب وغيره لنجدته ، ولكنه أدرك الثراء من جديد عام ١٧٢٨ بتأليفه « أوبرا الشحاذ » . وتقدم لنا مقدمتها الشحاذ ، الذى يقدم لنا بدوره أوبراه .

وتبدأ بأغنية شعبية يغنيها بيتشوم ، الذى يتظاهر (كما تظاهر جوناثان وايلد) بخدمة القانونون بالابلاغ عن اللصوص (اذا رفضوا خدمته) ، ولكنه فى حقيقة الامر يتجر فى البضائع المسروقة . ويصف نفسه بالرجل الامين لأن « كل اصحاب المهن الراقية يحتال بعضهم على بعض » ، ويحدوهم الجشع للربح . ويفسد عليه امره ان ابنته بولى وقعت فى غرام قاطع الطريق الوسيم الانيق الكبتن ماكهيث ، وربما تزوجته ، ومن شأن هذا الغرام أن يعطل تسخير مقاتن بولى فى ملاطفة المشترين والبائعين ورجال الشرطة . وتطمئن المسز بيتشوم قائلة :

« بحقك لم يجب أن تختلف ابنتنا بولى عن غيرها من بنات جنسها ، فلا تحب الا زوجها ، ولم يجب أن يقلل زواجها من ملاحقة الرجال الآخرين لها ، على عكس ما نلاحظه فى كل مكان ؟ كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزيد من حبههم للمرأة أن تكون ملكا لغيرهم (٦٩) » . على أن الأم تحذر ابنتها قائلة :

« لست أعارض يا بولى ، كما تعلمين ، فى أن تعبثى قليلا مع زبون خدمة للعمل ، أو سبيلا لاستخلاص سر أو نحوه ، ولكنى سأقطع رقبتك لو وجدتك تصرفت كالحمقى ، وتزوجت . أيتها اللعوب » .

وتعتذر بولى عن زواجها فى أغنية شعبية :

« أيمكن أن تحكم النصيحة الغرام ؟
أيطيع كيوبيد أمهاتنا ؟
لو كان قلبى باردا كالثلج
لذاب من لهيب ناره .
حين قبلنى ضمنى بشدة
وكان عناقه حلوا فلم أملك غير الامتثال ،
ورأيت أسلم وأفضل
أن أتزوج مخافة لومك وتقريعك (٧٠) » .

ويشتعل غضب بيتشوم ، وهو يخشى أن يقتله ماكهيث ويقتل زوجته ليرث ثروتهما من طريق بولى . فيببب أن يشي بماكهيث لرجال القانون

ليشبقوه دون ريب . ويظهر ماكهيت على المسرح ، ويهدى روع بولى بعناقه ، ويؤكد لها أنه منذ الآن سيكون ملكا لها دون غيرها من النساء :

« لقد كان قلبى طليقا
يتنقل كالنحلة ،
حتى سلبت بولى لبي
كنت أرشف رحيق كل زهرة ،
وأتقلب كل ساعة ،
ولكن هنا اجتمعت كل الزهور فى واحدة » .

وتضرع اليه أن يقسم أن يأخذها معه اذا نقل . فيقسم قائلا
« أفى استطاعة أى قوة ... أن تنتزعنى منك ؟ أيسر من هذا أن
تنتزعى راتبا من رجل بلاط ، أو اتعابا من محام ، أو امرأة جميلة
من مرآة » ثم يشتركان فى ثنائية جميلة :

« هو ... لو ألقيت على شاطيء جرينلند ،
واحتضنت فتاتى بين ذراعى ،
دافئة الجسد وسط صقيع لا ينقضي
لانقضي سريعا ليل نصف العام .
هى ... لو باعونى فى أرض الهند
لاستطعت عقب انقضاء النهار المحرق
أن أهزا بالكدح فى القيظ الشديد
ما دمت أستريح على صدر فانتى .
هو ... ولاحببتك اليوم كله ،
هى ... ولتعانقنا ولعبنا كل ليلة ،
هو ... لو سرحت معى فى هيام
هى ... فوق التلال ، بعيدا جدا » .

وتبوح له بأن أباهما يدبر تسليمه للقانون ، وتطلب اليه فى أسي
أن يختفى برهة . فينصرف ، ولكنه يتوقف فى حانة ليعطى أعوانه
تعليماته بشأن احدى سرقاته . فاذا انصرفوا رقص وعبث مع فتيات

الحانة ، وكان بيتشوم قد رشاهن ليشين به ، فيسرقن مسدسيه وهن يدللنه ، ثم يستدعين الشرطة ، ونراه فى سجن نيوجيت فى المنظر التالى . هناك تتنافس عليه بولى واحدى زوجاته ، وتحررانه من السجن ، ولكن يقبض عليه من جديد ويرسل الى المشنقة ، وفى طريقه اليها يعزى نساءه بهذه الاغنية :

« وداعا اذن يا حبيبى - وداعا يا ساحراتى العزيزات !
انى اصوت راضيا - وهذا خير لكن .
هنا ينتهى كل نزاع طوال ما بقى لنا من حياة ،
لانى بهذا ارضي زوجاتى اجمعين (٧١) » .

ويظهر الآن الشحاذ المؤلف ، ويفخر بانه جعل الرذيلة تلقى ما تستحقه من عقاب ، كما هى الحال فى جميع التمثيليات اللائقة ، ولكن ممثلا يعترض بان « الاويرا يجب أن تنتهى نهاية سعيدة » (لشد ما تتغير العادات !) . ويذعن الشحاذ ، وينقذ ماكهيت من جبل المشنقة ويحيط عنقه بحبل آخر هو بولى ، ويرقص الجميع حولهما ، بينما يتساعل الكبتن ، اتراه لقي مصيرا شرا من الموت .

وكان من حسن حظ جاي أن أفاد من خدمات يوهان بوش ، وهو مؤلف موسيقى المانى يقطن انجلترا ، واختار بوش موسيقى لأغانى جاي من الالحان الانجليزية القديمة ، وكانت النتيجة رائعة . فقد استجاب الجمهور بحماسة فى حفلة الافتتاح بمسرح لنكولنز ان فيلدز (٢٩ يناير ١٧٢٨) رغم ما جاء فى المسرحية من هجو للرشوة والنفاق . واستمر عرضها ثلاثا وستين ليلة متوالية ، وفاقته فى هذا كل ما سبقها من تمثيليات ، وعرضت عروضاً طويلة فى كبرى المدن البريطانية ؛ ومازالت تشغل المسرح فى قارنتين ، وقد حولت الى فلم من أبهج الافلام فى عصرنا . أما الممثلة التى قامت بدور بولى فقد أصبحت معبودة الفتيان الطائشين المرحين ، وتزوجت دوقا . ولكن رجلا من رجال الكنيسة الشديدة الاحتفال بالطقوس ندد بجاي لانه جعل قاطع طريق بطلا لتمثيليته ، ولانه تركه يفلت من العقاب . فلما حاول جاي أن يخرج تنمة للتمثيلية سماها « بولى » رفض كبير الامناء الترخيص

بها . فنشرها جاي ، وراجت ، وتصاعدت حصيلة « أوبرا الشحاذ » تصاعدا سارا ، حتى قال ظريف ان التمثيلية جعلت جاي غنيا (rich) وجعلت رتش (المدير) مبتهجا (gay) . وبعد أربع سنوات من انتصار الشاعر أصيب بمغص أودى بحياته .

٥ - الرواية

كان الحدث البارز فى التاريخ الأدبى لهذه الحقبة هو ظهور الرواية الحديثة . فروايتا « كلاريسا » و « توم جونز » من الناحية التاريخية أهم من أى قصيدة أو مسرحية إنجليزية فى ذلك العهد . ومنذ عام ١٧٤٠ ، باتساع مجال الحياة العامة وامتداده من البلاط الى الشعب ، ومن الافعال الى الأحاسيس ، حلت الرواية محل الدراما صوتا ومرآة لانجلترا .

أما القصص فكانت قديمة قدم الكتابة . فلهند حكاياتها وخرافاتها ؛ واليهودية ضمنت أدبها أساطير لراعوث وإستير وأيوب ؛ واليونان الهلنستية والأقطار المسيحية الوسيطة أخرجت رومانسيات مغامرة وحب ، وإيطالية النهضة أنتجت آلاف « النوفلى novelle » (أى المستحدثات الصغيرة) ، كما فى بوكاتشو وبانديللو ، وإسبانية النهضة وإنجلترا الاليزابيثية كتبتا حكايات تشرد لاوغاد رائعين ، وفرنسة القرن السابع عشر أثقلت الدنيا بقصص حب أطول كثيرا من الحب . وقص لساج قصة جيل بلاس ، وجود ديفو حكاية المغامرة بيانا لشجاعة الانسان ؛ وسخر سويغت قصة الرحلات ليسلخ بها جلد البشر .

ولكن أكادت هذه الآثار روايات بمعناها الحالى ؟ لقد أشبهت قصص القرن الثامن عشر فى كونها حكايات خيالية ، وامتاز بعضها بميزة الطول الذى لا شك فيه ، وصور بعضها الشخص بجهد يحاول تجسيد الواقع ؛ ولكنها (ربما باستثناء كروسو) افترقت الحبكة التى تربط بين الأحداث والشخص فى كل متطور . لقد كان فى قصة « الأورونوكو » للسيدة أفرا بن (١٦٨٨) ، وهى قصة عبد أفريقى ، حبكة رابطة ، وكذلك قصص ديفو « الكبتن سنجلتون » (١٧٢٠) ،

و « مول فلاندرز » (١٧٢٢) ، و « روكسانا » (١٧٢٤) ، ولكن هذه كلها كانت لا تزال سلسلة من الأحداث المترابطة أكثر منها وحدة بنائية يعمل كل جزء فيها على تقديم موضوع يوحد بينها . فلما ملك رتشردسن وفيلدنغ ناصية فن التطوير هذا ، وصورا الشخصية وهي تنمو خلال الأحداث ، وجعلا رواياتهما تصور العادات فى عصرنا ، كان هذا استهلالا للرواية الحديثة .

١ - صموئيل رتشردسن : ١٦٨٩ - ١٧٦١

كان الرجل الذى استهل عصر الرواية الجديدة ابن نجار من داربيشير انتقل الى لندن عقب مولد صموئيل . وكانت الأسرة ترجو أن تجعل الصبى قسيسا ، ولكن الفقر عافها عن تأهيله التأهيل المدرسي المطلوب ؛ على أنه وفق فى أن يضمن كتبه شيئا من الوعظ . وكان الوسط الذى شب فيه يحتفظ بالفضيلة البيورتانية . والحق صبيا لطباع ، وأعانه اشتهاره بجمال الخط على زيادة دخله بتدبيجه الرسائل للفتيات الأميات اللاتى أضناهن الحب ، وقد قررت هذه المصادفة الشكل الذى اتخذته رواياته ، أعنى شكل الرسائل ، وما أفاضت فيه هذه الروايات من ريادة لسيكولوجية المرأة وسبر لعواطفها . وأفاده جده واقتصاده ، فأنشأ مطبعة خاصة به ، وتزوج ابنة مخدومه السابق (١٧٢١) ، وأنجب منها ستة أطفال ، مات منهم خمسة فى حدائتهم . كذلك ماتت أمهم (١٧٣٠) وهى ما تزال صغيرة السن محبوبة ، وأعانت هذه الاحزان على خلق مزاجه الذى تغلب عليه الكآبة . وتزوج ثانية ، وأنجب ستة أطفال آخرين ، واكتوى بمزيد من الاحزان ، ثم ارتقى لوظيفة طباع مجلس العموم . وبلغ الخمسين من عمره قبل أن ينشر كتابا .

وفى ١٧٣٩ كلفه صديقان طباعان بكتابة مجلد صغير من نماذج للرسائل مرشدا « للقراء الريفيين الذين لا قدرة لهم على التحرير بأنفسهم » ، ومعلما فى « التفكير والتصرف بصواب وحكمة فى الشؤون العادية لحياة الانسان (٧٢) » . وبينما كان رتشردسن يعد هذا الكتاب - وهنا اغتنمت العبقرية فرصة الظرف - خطر له أن ينسج سلسلة من الرسائل فى قصة حب تشرح الفضيلة الحكيمة فى بطلتها العذراء . ولعل

الموضوع ، وهو العفة المصونة خلال سلسلة طويلة من المغريات ، قد أوحى به قصة « حياة ماريان » (١٧٤١ - ٤١) التى ألفها الكاتب الفرنسى ماريفو . أيا كان الأمر ، فإن رتشرdsn أقام فى نوفمبر ١٧٤٠ معلما على طريق الأدب الانجليزى بإصداره كتابا فى مجلدين سماه « باملا ، أو الفضيلة التى كوفئت ؛ سلسلة من الرسائل العائلية من آنسة شابة جميلة الى أبويها ؛ منشورا لأول مرة ليربى مبادئ الفضيلة والدين فى عقول الشباب من الجنسين » وراج الكتاب ، وأصاف اليه رتشرdsn مجلدين آخرين فى ١٧٤١ ، « باملا فى أسمى حالاتها » ، يقصان فضائلها وحكمتها بعد زواجها .

ومازال نصف القصة الأول طريفا ، لأننا لا نكبر أبدا على استطرافنا لقصص الأغواء - وإن كان كل شيء حتى الاغواء يصبح مملا بعد ألف صفحة . ويبدأ التركيز على العاطفة فى الصفحة الأولى ، حيث تكتب باملا « أواه ! لكم تذرف عيناي الدمع مدرارا ! لا تعجبا اذا رأيتما الورق شديد التلوث » . وهى مثال الطيبة والتعذيب والتواضع . فلما أرسلت خارج الأسرة لكى « تخدم » وهى فى السادسة عشرة حولت لأبويها أول ما كسبت من مال « لأن العناية الالهية لن تتركنى فى عوز ... فاذا حصلت على المزيد فاذنى واثقة بأنه من واجبى ، وسيكون موضع اهتمامى أن أحبكما وأعتز بكما ، لأنكما أحببتمانى واعتزرتما بى حين لم كن أقوى على صنع شيء لنفسي (٧٣) » . أما الابوان الحذران فيرفضان اتفاق المال حتى يطمئنا الى أنه ليس عربونا يدفعه مخدومها الأعزب لوصالها . وينبهانها الى أن جمالها يعرض عفتها للخطر « اننا نخاف - نعم ، يا بنيتى العزيزة ، اننا نخاف - لئلا تشتطى فى عرفان الجميل ، فتكافئيه بتلك الجوهرة ، بفضيلتك ، التى لا يستطيع مال ... أن يعوضك عنها » . فتعهدهما بأن تكون حذرة وتضيف « ما أجمل فعل الخير ! انه كل ما أحسد عليه العظماء » . وعواطفها جديرة بالاعجاب وإن فقدت بعض فتنتها لأنها تصرح بها . وفى مأساة متفاقمة يدخل مخدومها مخدعها دون التمهيد الواجب ، ويضمها الى صدره المضطرب . فيغشي عليها ، وتفسد خطته . فلما أفاقت « وضعت يدي على فمه وقلت : أواه ! قل لى ، ولكن لا تقل لى ، ماذا عانيت أنا فى هذه المحنة ؟ (٧٤) » . فيؤكد لها أن مقاصده

أخفقت . واذ تقدر ما ينطوى عليه اشتهاؤه لها من تحية ، تتعلم شيئا فشيئا أن تحبه ، وتعد المراحل التى تتدرج فيها عاطفتها من الخوف . الى الحب ، لمسة من اللمسات الرقيقة الكثيرة التى تدعم شهره رتشرسن كاتبها سيكولوجيا . على أنها تقاوم كل حصاراته رغم ذلك ، وينتهى به الحال الى الانهيار ، فيعرض عليها الزواج . واذ أسعد باملا انها انقذت فضيلتها وروحه ، فانها تعتزم أن تكون زوجة انجليزية مثالية : تلزم بيتها ، وتجنب الحفلات الفخمة ، وتمسك حسابات الأسرة بعناية ، وتوزع الصدقات ، وتطهو الهلام والكحك والحلوى والفاكهة المحفوظة ، وتكون شاكرا اذا تفضل عليها زوجها بالحديث معها بين الحين والحين هابطا السلم الطبقي اليها . ويختتم رتشرسن المجلد الثانى بعظة فى فوائد الفضيلة فى المساومة بين الجنسين ، « ان ناشر هذه الصفحات سيحقق هدفه اذا أوحى (فضيلة باملا) بالقوة المحمودة فى عقول أى أشخاص أفاضل ، قد يكتسبون بهذا حقا فيما نالته باملا عن جدارة من أسباب اللواب والثناء والبركة » .

وأضحك هذا بعض الانجليز ، مثل فيلدنج القوى الصب ، ولكن آلاف مؤلفة من قراء الطبقة الوسطى شاركوا باملا خفقات قلبها فى تعاطف . وأطرى رجال الدين الكتاب ، وقد سرهم أن يجدوا مثل هذه الدعامات لعظاتهم فى أدب بدا أنه باع نفسه لرئيس الشياطين (بعلزبول) . ونفدت أربع طبعات من باملا فى ستة أشهر . وبالطبع حث الناشر رتشرسن على مزيد من التنقيب فى هذا المنجم الغنى ، ولكنه لم يكن بالكاتب المرتزق ، ثم ان صحته بدأت تعتل . فترى ، ومضى فى أعماله الطباعية . ولم يخرج رائعته التالية التى جاءت باوربا البورجوازية كلها عند قدميه الا عام ١٧٤٧ .

وقد صدرت هذه الرائعة ، واسمها « كلاريسا ، أو تاريخ شابة » وطولها ألفا صفحة ، فى سبعة مجلدات ، ما بين نوفمبر ١٧٤٧ وديسمبر ١٧٤٨ . وكان قد ساءه اتهامه بأن قصة باملا أظهرت الفضيلة مجرد خطة للمساومة ، وأنها صورت فاسقا صلحت حاله تصويرها لزوج صالح ، لذلك عمد الى اظهار الفضيلة هبة إلهية سوف تثاب فى السماء ، واظهار فاسق سادر فى غيه مقضيا عليه لا محالة بنهاية سيئة مدمرة ،

وخلصة القصة ان لفليس الطائش الذى اشتهر بانه شيطان مع النساء ، يطلب يد كلاريسا هارلو ، فلا تتق به ، ولكنها مفتونة أشد الفتنة بشهرته . وتحظر عليها أسرتها لقاء وغد كهذا وتغلق أبوابها فى وجهه ، وتعرض عليها مستر سومز ، وهو رجل لا رذائل فيه ولا شخصية ، فترفضه ؛ ولكى يكرهوها على الأذعان يويخونها ويعذبونها ويحبسونها . ويسناجر لفليس مساعدا ليزيف هجوما مسلحا عليها من أقاربها ؛ ولكى تفر منهم تسمح له بخطفها الى سانت البانس . وهى راغبة فى الزواج منه ، ولكنه يرى فى هذا مغامرة يائسة جدا . فيكتب لصديق له :

« ... كنت أصمم على الزواج لولا هذا الاعتبار ، وهو اننى متى تزوجت مرة أصبحت متزوجا مدى الحياة . تلك هى المصيبة ! لو أن الرجل استطاع أن يفعل كما تفعل الطير وغير (زوجته) كل عيد من أعياد القديس فالنتين .. لما كان فى الأمر بأس على الإطلاق ... وتغيير كهذا سيكون وسيلة للقضاء على .. أربع أو خمس كبائر فظيعة : هتك العرض ، الذى يطلق عليه هذه التسمية السوقية ، والخيانة الزوجية ، والزنا ؛ كذلك لن يلهث الرجل وراء تعدد الزوجات ، وستمتنع كثيرا جرائم القتل والمبارزة ، ولن يسمع الناس بشيء اسمه الغيرة (وهى العلة فى أعمال العنف المفزعة) ... ولن تكون هناك امرأة عاقر ... فكل الجنسين سيحتمل الآخر ، لأن فى استطاعتهما أن يرفعى كل منهما مصلحته بعد بضعة أشهر ... وستزدحم الصحف بفقرات تعنى بتعارف المحبين . عندها أن يكون التميز جميلا جدا يا جاك ؟ تماما كما فى الزهور ، فهذا السيد ، أو هذه السيدة ، اما موسمى (أو موسمية) ، واما مستديم (أو مستديمة) (٧٥) » .

ويحاول اغواء كلاريسا ، فتنذره بانها قاتلة نفسها ان لمساها ، فيحبسها حبسا خسيسا وان تلتطف معها فيه ، وترسل خلاله الرسائل المفهمة حزنا لأنها هوى ، صديقتها التى تأتمنها على سرها . أما هو فيخترع الحيلة تلو الحيلة ليخترق معازل دفاعها ، فتقاومه ، ولكنها م ١٨ - قصة الحضارة

ترى أن عرضها تلوث تلوثا لا براء منه لأنها قبلت نصف قبول أن تهرب معه . وتكتب الرسائل الأليمة لأبيها ضارعة إليه أن يغفر لها بل أن يسحب اللعنة التي استمطرها عليها ، والتي تعتقد أنها ستقفل في وجهها أبواب الجنة إلى الأبد ، ولكنه يابى ، فتصيبها علة مدمرة لا يستند فيها غير إيمانها . أما لفليس فيختفى في فرنسا ويقتل في مبارزة بيد عم كلاريسا ، وأخيرا يأتى أبواها عارضين عليها المغفرة ، فيجدانها ميتة .

إنها قصة بسيطة ، طال عزفها على نغمة واحدة طولا لا يمكن أن يشد عقولنا المحمومة ، ولكنها أصبحت في إنجلترا القرن الثامن عشر مثار خلاف قومي . فكتب مئات من القراء إلى رتشردن في فترات النشر يتوسلون إليه ألا يدع كلاريسا تموت (٧٦) . ووصف أحد الآباء بناته الثلاث بأنهن « في هذه اللحظة تمسك كل مذهب بمجلدها الخاص (من كلاريسا) ، وعيونهن كلها بللها الدمع كأنها زهرة مخضلة في الربيع (٧٧) » . أما الليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، التي بلغت غاية ما تبلغ نساء عصرها الانجليزيات من علم وثقافة ، فقد تقبلت الكتاب على أنه استرضاء لعواطف الطبقة الوسطى وحماسة الجماهير ، ولكنه أذى ذوقها الأرستقراطى . قالت :

« كنت تلك الحمقاء العجوز التي بكت على كلاريسا هارلو كما تبكى أى بائعة لبن في السادسة عشرة لسماعها أغنية « سقوط السيدة » الشعبية . والحق أن المجلدات الأولى ألاننتنى بما حوت من شبه كبير بأيام صباى ، ولكن الكتاب في جملة بضاعة غثة ... ان كلاريسا تتبع قاعدة الانقضاء بكل أفكارها لكل من تراه ، وقد غاب عنها أن أوراق التين في وضعنا البشرى الشديد النقص لازمة لعقولنا لزومها لأجسامنا ، وليس من اللياقة أن نعرض كل أفكارنا ، تماما كما أنه ليس من اللياقة أن نعرض كل أبداننا (٧٨) » .

وألحت نساء إنجلترا الآن على رتشردن المنتصر في أن يصور لهن رجلا مثاليا كما صور المرأة المثالية - في ظنهن - في باملا . فتردد أمام هذه المهمة الشائكة ، ولكن حفزه إليها هجو فيلدنج لباملا في روايته

« جوزف أندروز » ، كما حفزته اللوحة الكاملة المفصلة التي رسمها فيلدينج لرجل في روايته « توم جونز » ، وعليه فقد أخرج بين نوفمبر ١٧٥٣ ومارس ١٧٥٤ ، في مجلدات سبعة ، « قصة السر تشارلز جرانديسن » . ومزاج عصرنا الذي لا يبالي يصعب عليه أن يفهم لم لقيت هذه الرواية الثالثة نجاحا عظيما كما لقيت اختاها من قبل ؛ فانتقاض القرن العشرين على البيورتانية ، وعلى التوفيق الذي حاوله العصر الفكتوري الوسيط ، ختم على قلوبنا فلم تعد ترى صور الطيبة المثالية ، على الأقل في الذكور ؛ فقد لقينا رجالا طيبين ، ولكن أحدا منهم لم يخل من عيوب تكفر عن طيبته . ولقد حاول رتشرdsn أن يجعل السر تشارلز ببعض الهنات ، ولكننا ما زلنا نكره هذه الشقة البعيدة بينه وبيننا . أضف الى ذلك أن الفضيلة تفقد فتنتها اذا عرضت على الانظار . ولقد أفلت جرانديسن بالجهد من أن يسلكه صانعه في زمرة القديسين .

والح رتشرdsn على الوعظ الحاحا جعله يسمح لبعض العيوب أن تشوب فنه الأدبي . فانعدمت أو كادت الفكاهة والنكتة الذكية عنده ، وأوقعته محاولة حكاية قصة طويلة بالرسائل في أشياء بعيدة الاحتمال (كذكر العدد الهائل من الاحاديث) ، ولكنها أتاحت له عرض الاحداث نفسها من مختلف وجهات النظر ، وأضفت على الحكاية ألفة لا تكاد تتيسر في شكل أقل ذاتية . وكان معا يتمشي تماما مع العرف في ذلك العصر أن يكتب الانسان الرسائل الطويلة الحميمية الى من يثق بهم من ذوى القربى أو الاصدقاء . ثم ان طريقة الرسائل هذه أفسحت المجال أمام موهبة رتشرdsn الكبرى - وهى عرض خلق المرأة . هنا أيضا توجد عيوب . فعلمه بالرجال أقل من علمه بالنساء ، وبالنبلاء أقل من العامة ، وقل أن لقط ما فى النفس الانسانية من تقلبات وتناقضات وتطور - ولكن مئات التفاصيل تدل على ملاحظته الدقيقة للمسلوك الانسانى . ففى هذه الروايات ولد القصص السيكولوجى الانجليزى والنزعة الذاتية التى بلغت فى روسو مبلغ الحمى .

وتقبل رتشرdsn نجاحه فى تواضع وواصل عمله طباعا ، ولكنه بنى لنفسه بيتا أفضل . وكتب رسائل طويلة ضمنها النصائح لدائرة كبيزة من النساء ، كان بعضهن يدعوهُ « بابا العزيز » - وفى أخريات عمره

دفع ثمن الفكر المركز والفن المسهب حساسية غصبية وأرقسا . وفى
٤ يوليو ١٧٦١ قضت عليه اصابة بالفالج .

وكان تأثيره الدولى أعظم من تأثير أى انجليزى آخر فى عصره
باستثناء وملى وبث الاب . وقد أعان فى وطنه على صوغ المزاج
الخلقى لانجلترا جونسن ، وعلى الارتفاع بأخلاقيات البلاط بعد جورج
الثانى . وأسهم التراث الخلقى والأدبى الذى خلفه فى تكوين رواية
جولدسمث « قسيس ويكفيلد » (١٧٦٦) ورواية جين أوستن « العقل
والوجدان » (١٨١١) . أما فى فرنسا فقد عد كابسا لا ضريب له فى
القصة الانجليزية . يقول روسو « لم تكتب قط فى أى لغة رواية نعدل
أو حتى تقترب من كلاريسا (٧٩) » . وقد ترجم الأبيه بريغوست
رتشردسن ، ومسرح فولتير بأملا فى « نانين » وصاغ روسو « هلويز
الجديدة » على غرار كلاريسا موضوعا وشكلا وهدفا خلقيا . وارتفع
ديدرو الى المناجاة المفرطة الحماسة فى مقاله « تقریظ لرتشردسن »
(١٧٦١) ، فقال انه لو أكره على بيع مكتبته لما احتفظ من كتبه كلها
الا بهومر ويوربيديس وسوفوكليس ورتشردسن . وفى ألمانيا ترجم
جيلليرت بأملا ، وحاكها ، وبكى تأثرا من جرانديسن (٨٠) ؛ وانتشى
كلوبشتوك طربا بكلاريسا ؛ وبنى فيلاند تمثيلية على جرانديسن ؛ وراح
الالمان يحجون الى بيت رتشردسن (٨١) . وفى ايطاليا مسرح جولدونى
قصة بأملا .

واليوم لا يقرأ أحد رتشردسن الا مضطرا بحكم الدرس ، ونحن
لا نملك الفراغ الذى يتسع لكتابة رسائل كهذه ، فضلا عن قراءتها ؛
والناموس الأخلاقى الذى يدين به عصر صناعى داروينى يهرب فى
ضجر من المحاذير والقيود البيورطانية . ولكننا نعترف أن هذه الروايات
مثلت ثورة الوجدان على عبادة الفكر والعقل ، أكثر مما مثله شعر
طومسن ، وكولنز ، وجرای ، وكتبين فى رتشردسن الأب - كما تتبين
فى روسو البطل - لتلك الحركة الرومانسية التى سنتنصر فى أواخر
القرن على صنعة بوب الكلاسيكية وواقعية نيلدنج العامرة .

٢ - هنرى فيلدنج : ١٧٠٧ - ٥٤

حين قدم الى لندن فى ١٧٢٧ أعجب الناس كلهم بقوامه الفارع ، وبنيته القوية ، ووجهه الوسيم ، وحديثه المرح ، وقلبه المفتوح ؛ فهنا رجل أعدته الطبيعة ليستمتع بالحياة فى كل لذتها وواقعها السيئ السمعة . كان يملك كل شيء الا المال ؛ واذ كان مضطرا - على حد قوله - الى أن يكون سائقا أجيرا ، أو كويتبا أجيرا ، فإنه شد نفسه الى قلم ، واكتسب قوت يومه بكتابة الهزليات والممثليات الكاريكاتورية . واستعملت الليدى مارى مونتايجو ، وهى ابنة خال له من المرتبة الثانية ، نفوذها ليخرج له مسرح درورى لين تمثيلية « الحب وراء أقنعة عذبة » (١٧٢٨) ، وذهبت مرتين لتشاهدها معنة عن نفسها فى تفضل : وفى ١٧٣٢ ساعدت على عرض تمثيلية « زوج عصرى » فترة طويلة . وواصل تأليف المسرحية تلو المسرحية ، وكلها غير ممتاز ، ووقع على عرق من انهجاء المرح فى « مأساة الماسى ، أو حياة وموت توم ثم الكبير » (١٧٣١) .

وفى ١٧٣٤ تزوج شارلوت كرادوك بعد خطبة اتصلت أربع سنين . وورثت عقب زواجهما ١٥٠٠ جنيه ، فآخذ فيلدنج معها الى حياة الدعة سيدا من سادة الريف . ووقع فى حب زوجته . وقد وصفها وصف الزوج المفتون بزوجته فى شخص صوفيا وسترن الجميلة فى خفر ، وأميليا بوث التى لا حد لصبرها وإثباتها . وتؤكد لنا الليدى بيوت « أن اللغة المشرقة التى عرف كيف يستعملها لم تزد على أن أنصفت محاسن الأصل وجمالها (٨٢) » .

وفى ١٧٣٦ عاد الى لندن وأخرج تمثيليات لا تستحق الذكر ؛ ولكن فى ١٧٣٧ وضع قانون الرخص قيودا على الدراما ، وانسحب فيلدنج من المسرح . ودرس القانون ، وقبل محاميا (١٧٤٠) ؛ وتحول مسار حياته فى ذلك العام بظهور رواية رتشردن « باملا » . وأثارت فضائل البطلة وخالفها المتعمدة كل ما فى فيلدنج من فروع الى الهجو . و « قصة مغامرات جوزف أندروز وصديقه مستر ابراهام آدمز ، مكتوبة بطريقة سرفاديس » (١٧٤٢) يدانها تقليدا سنانورا

لباملا . فجوزف ، الذى يقدمه لنا المؤلف على أنه أخو باملا ، فتى طاهر جميل بين الفتيان كباملا بين الفتيات ، تراوده مخدومته المرة بعد المرة كما وقع لباملا ، ويقاوم مثلها ، ويفصل مثلها فى رسائله المحاولات الخبيثة للعدوان على عذريته . ورسالته لاخته باملا رسالة تكاد تكون « رتشردسونية » ، وان لم تكن كذلك تماما :

« اختى العزيزة باملا :

« أرجو أن تكونى بخير ، عندى خبر ويا له من خبر أفضى به اليك ! ... لقد وقعت سيدتى فى غرامى - أى ما يسميه عليه القوم بالوقوع فى الغرام - وفى نيتها أن تدمرنى ، ولكنى أرجو أن يكون لدى من العزم والحصافة ما يعصمنى من التفريط فى عرضى لآى سيدة على ظهر البسيطة .

« لقد طالما أخبرنى المستر آدمز أن العفة فضيلة كبرى فى الرجل كما هى فى المرأة سواء بسواء . وهو يقول انه لم يعرف قط امرأة غير زوجته ، وسأحاول أن اقتدى به . والحق ان الفضل كله لمواعظه ونصائحه الممتازة ولرسائله فى قدرتى على مقاومة اغراء يقول ان أحدا لا يذعن له إلا ندم فى هذه الدنيا وهلك عفابا فى الآخرة ... ما أجمل النصائح والمثل الطيبة ! ولكنى مسرور لأنها طردتنى من مخدعها كما فعلت ، فلقد كدت أنسى مرة كل كلمة قالها لى القس آدمز .

« ولست أشك يا اختى العزيزة فى أن لك من الحصافة ما تصونين به فضيلتك من كل اغراء ، وأتوسل اليك فى الحاج أن تصلى لى يمنحنى الله القوة على صون فضيلتى ، لأنها فى الحق تهاجم هجوما عنيفا من أكثر من امرأة ، ولكنى أرجو أن اقتدى بمثالك ، وبمثال يوسف الصديق سمي ، فأصون فضيلتى من كل اغراء (٨٣) » .

وينجح جوزف ، ويظل بكرا حتى يتزوج العذراء فانى . اما باملا ، التى رفعت درجة فى سلم المجتمع حين تزوجت مخدومها الغنى ، فتعدين فانى لتجاسرها على الزواج من جوزف ، الذى ارتفعت منزلته

فى المجتمع بزواج باملا برجل من علىة القوم . ولام رتشر دسن فيلدنج
لأنه اقترف « اضافة فاجرة خسيسه » الى باملا (٨٤) .

ولم تشبع سهوة فيلدنج للهجو بتقليده الساخر لرتشر دسن ، وراح
يحاكى الالياذة محاكاة ساخرة ، بالتضرع الى ربات الفنون والاداب
ويجعل كتابه ملحمة . وقد فاض ينبوع فكاهته فى مختلف الشخصيات
التي تلقاها جوزف وآدمز فى طريقهما ، لا سيما الفندقى تو - واوز ،
الذى تفاجئه الممز تو - واوز مثلها « بالجرم الفاضح » مع الخادمة
بتى ثم نصفح عنه ، و « احتمل غى هدوء ورضي أن يذكر بذنوبه ...
مرة أو مرتين كل يوم طوال حياته الباقية » . واذ لم يكن فى طبع
فيلدنج أن يصنع بطلا ، ورواية باكملها ، من شاب لا عيب فيه ، فانه
سرعان ما فقد اهتمامه بجوزف ، وجعل القس آدمز الشخصية المحورية
لكتابه . وقد بدا هذا خيارا بعبد الاحتمال ، لان آدمز كن قسا سنيا
فى اخلاص وصدق ، يحمل معه مخطوطة بمواعظه باحثا عن ناشر
متهور . ولكن المؤلف أعطاه « بيبة » متبنة ، ومعدة قوبة ، وقبضتين
صلبتين ؛ ومع أن القس يعارض الحرب ، فانه مقاتل كفاء يصرع
سلسلة من الأوغاد يتعقبونه لسرقة قصته . وهو الى حد بعيد أحب
شخص رسمه فيلدنج ، ونحن نشارك لذة المؤلف فى مواجهته مواجهاة
غريبة مع الخنازير ، والوحل ، والدم . والذين كانوا فى شبابهم
يتأثرون تأثرا عميقا بالمثل المسيحى الاعلى ، لا بد يستشعرون المحبة
الحارة لرجل دين خلا تماما من الغش وفاضت نفسه برا . ويقابل فيلدنج
بينه وبين القس ترايبير الجشع ، الذى كان « من أضخم الرجال الذين
يجدر بك أن تراهم ، وكان فى استطاعته أن يقوم بدور السرجون
فلستاف دون أن يحشو بدنه (٨٥) » .

وازدهى النجاح فيلدنج ، فأصدر فى ١٧٤٣ ثلاثة مجلدات وضع
عليها عنوانا متواضعا هو « منوعات » . وقد احتوى المجلد الثالث على
آية من آيات التهكم المتصل فى « حياة المستر جوناثان وايلد العظيم »
ولم يكن ترجمة حقيقية للص القرن الثامن عشر الا شهر ، « فان قصتى
تروى على الاصح أفعالا كان من الجائز أن يقوم بها (٨٦) » . وكان
فى شكله الاول سخرية من المر روبرت ولبول لاتجاره فى الاصوات

الانتخابية المرسوقة ، فلما مات ولبول أصدره المؤلف من جديد فى صور هجاء « للعظمة » كما درج الناس على تقديرها وتحقيقها . وذهب فيلدنج الى أن معظم « عظماء الرجال » أساءوا الى البشر أكثر مما أجسّسوا اليهم ؛ وهكذا لقب الاسكندر بالكبر أو « العظيم » لأنه بعد أن اجتاح امبراطورية شاسعة بالحديد والنار وأهلك العدد الهائل من الجؤساء الذين لا ذنب لهم ، ونشر الخراب والدمار كأنه العاصفة الهوجاء يقال لنا ان من أعمال الشفقة التى تذكر له انه لم يذبح عسوزا ولم يغتصب بناتها (٨٧) « واللص أحرى بضمير أكثر راحة واطمئنانا من ضمير رجل الدولة ، لأن ضحاياه أقل وغنيمته أضال (٨٨) .

وبأسلوب التراجم السياسية يخلع فيلدنج على جوناثان شجرة نسب رفيعة ، فيرجع بأصله الى « ولفستن وايلد ، الذى قدم مع هنجست » . وكان لأمه صفة غروية فى أصابعها غاية فى العجب (٨٩) . ومنها تعلم جوناثان فن اللصوصية وآدابها . وسرعان ما مكّنه ذكاؤه الفائق من تنظيم عصابة من الشبان البواسل الذين كرسوا حياتهم لأراحة الناس الزائدين عن الحاجة من سلعم الزائدة عن الحاجة ، أو من حياتهم التى لا معنى لها . وكان يصيب حظ الأسد من مكاسبهم ، ويتخلص من المتمردين من مساعديه بتسليمهم لسلطات القضاء والأمن . وقد أخفق فى اغواء ليتيتيا المطاردة ، التى آثرت أن يعتدى على عرضها مساعده فايريلود ، الذى « اغتصب هذه المخلوقة الجميلة فى دقائق ، أو على الأقل كاد يغتصبها ، لولا أنها منعتة من ذلك بامثالها فى الوقت المناسب (٩٠) » . وبعدها تزوجت وايلد . وبعد اسبوعين يدخلان فى « حوار زوجى » تشرح فيه حقها الطبيعى فى حياة الفسق ، فيدعوها بالكلية ، ثم يتبادلان القبل ويتصالحان . ويتصاعد حجم جرائمه أكثر فأكثر حتى يطيب لزوجته أن تراه محكوما عليه بالاعدام . ويرافقه قسيس الى المشنقة . فينشله وايلد فى الطريق ، ولكنه لا يجد معه سوى فتاة للقوارير ، لأن الكاهن كان ذواقا للخمور ، أما « جوناثان العظيم ، فيبعد كل مغامراته الجبارة ، كانت خاتمتة - التى قبل من عظماء الرجال من يستطيعون تحقيقها - أن علق من عنقه حتى مات (٩١) » .

وفى أواخر عام ١٧٤٤ فقد فيلدينج زوجته ، وكدر موتها مزاجه حتى طهر حزنه بتصويرها تصوير المحب ، خلال أسي البعد ، فى شخص صوفيا وأميلييا . وبلغ به العرفان بالوفاء الصادق الذى أبدته خادمه زوجته التى بفيت معه لترعى أبناءه أنه تزوجها فى ١٧٤٧ . وكان خلال ذلك يعانى من المرض والعوز ، ثم أنقذه من الفقر تعيينه (١٧٤٨) فاضى صلح لوستمنسندر ، ثم لدلسكس بعد قليل . وكانت وظيفة شاقه ، ينقد عليها راتباً غير مضمون من رسوم المتقاضين الدين يوافونه فى محكمته بشارع بو . وقد وصف الجنيهاة الثلاثمائة التى جمعت له من هذه الوظيفة كل عام بأنها « أقذر نقبود على وجه الأرض (٩٢) » .

ولابد أنه كان خلال هذه السنوات الحافلة بالشدائد (١٧٤٤ - ٤٨) عاكفا على أعظم رواياته ، لأنها صدرت فى فبراير ١٧٤٩ فى مجلدات ستة باسم « قصة توم جونز اللقيط » . وهو يروى لنا أن الكتاب ألف فى « بضعة آلاف من الساعات » استنقذها من الفضاء والكتابة المأجورة ، ولم يستطع أحد أن يتبين من فكاهه الكتاب القوبة وأدبه الفحل أن هذه كانت سنوات الحرن والنقرس والعوز . ومع ذلك فهأنا ألف ومائتا صفحة فى رواية يعدها الكثيرون أعظم الروايات الانجليزية . فلم يسبق فى الأدب الانجليزى أن وصف رجل هذا الوصف الكامل الصريح ، بدنا وعفلا وخلقا وشخصية . ويحضرنا فى هذا المجال تلك الكلمات الشهيرة التى قدم بها ثاكرى لقصته « بنديس » .

« منذ أن وورى مؤلف توم جونز التراب لم يؤذن لروائى منا أن يرسم « رجلا » باقصى ما يملك من قدرة . فحتم علينا أن نستره وأن نخلع عليه ابتسامة متكلفة تقليدية معينة . والمجتمع مصر على رفض « الطبيعى » فى فننا . . . وأنت تأبى أن تسمع . . . ما يتحرك فى دنيا الواقع ، وما يدور فى المجتمع ، وفى اللاندية ، والكليات ، وقاعات الطعام - تأبى أن تسمع واقع حياة أبناءك وحديثهم » .

ويطالعنا توم أول ما يطالعنا طفلا غير شرعى وجد فى فراش المستر أولورذى الطاهر النقى . وبين هذه البداية وزواج توم فى النهاية

حشر فيلدنج مائة حدث ، بأسلوب يوهم بأنه أسلوب قصص التشرذ ذات الفصول المتتابعة في غير ترابط ، ولكن القارئ سيدهشه أن هو ثابر على القراءة إلى النهاية أن يجد أن هذه الأحداث كلها تقريبا ضرورية للحبكة البارعة ، أو لعرض الشخصيات وتطويرها ؛ وأن يجد الخيوط تحل والعقد تفك . والعديد من الأشخاص مرسومون في صورة مثالية ، مثل أولوردي الذي يكاد يشبه جرانديسن ، وبعضهم مبسطون تبسيطاً شديداً ، مثل بلايفل الذي يكرهنا على احتقارة ، أو القس نواكوم ، المريب « الذي سيطرت العصا على أفكاره (٩٣) » . ولكن كثيراً منهم يظهر فيهم ماء الحياة ، ومنهم سكوإير وسترن « الذي يعتز ببناذقه وكلايه وخيله (٩٤) » أكثر من أي شيء في الدنيا ، ثم تأتي زجاجة شرابه ، ثم ابنته صوفيا الفريدة في بابها . ها هنا « كلاريسا » أخرى تعرف مسالكها بين فخاخ الرجال ، وبأملأ أخرى تصيد رجلها دون أن تزعجها تجاربه الماضية قبل الزواج .

أما توم ففيه شيء من التحلل الجنسي ، وفيما عدا ذلك فهو أطيب من أن يصلح للبقاء . تبناه أولوردي ، وعلمه نواكوم وأدبه بعضاه ، فأدرك الرجولة القوية التي لا يكدر صفوها غير الخبثاء الذين يذكرونه بأصله الغامض . وهو يسطو على بستان فاكهة ويسرق بطة ، ولكن أباه بالتبني يغتفر هذه الألاعيب جرياً على أفضل التقاليد الشكسبيرية . وتعجب به صوفيا وهي على بعد عفيف منه ، ولكن توم ، الشاعر بمولده غير الشرعى ، لا يجرؤ إطلاقاً على الوقوع في حب سيدة تبعد عنه هذا البعد السحيق مكانة ومالا وهو يقنع بمولى سيجرم ، ابنة حارس الصيد ، ويعترف بأنه ربما كان أباً لطفلها ، ويروح عنه كثيراً أن يجد أنه ليس إلا واحداً من عديدين يحتمل أن يكون أحدهم أباً للطفل . وتعانى صوفيا إذ تعلم بهذا الغرام الاثم ، ولكن أعجابها بتوم لا يفتقر إلا لحظة عابرة . وهو يمسك بها بين ذراعيه إذ تسقط من جوادها أثناء الصيد ، ويشي أحمرار وجهها بشعورها نحوه ، فيسارع إلى مطارحتها الغرام . ولكن أباه ، سكوإير وسترن ، كان قد هيا جيبه لصفقة تزويجها من المستر بلايفل ، وهو ابن أخت أولوردي الغنى الذي لم يعقب ، ووريثه الشرعى . وترفض صوفيا الزواج من هذا المنافق الشاب ، ويصر أبوها ، وتكدر المعركة الناشبة بين ارادة الأب

ودموع ابنته عدة مجلدات . أما توم فيبتعد محجما ، ويدعهم يفاجئونه فى أليكة ومولى بين ذراعيه ، وتظهر صوفيا فى هذا المشهد فتقع مغشيا عليها . ويطرده أولورذى توم كارها ، فيبدأ هذا أسفاره الحافلة بالأحداث ، التى بدونها كان عسيرا على فيلدنج أن يكتب رواية ، أذ كان لا يزال مقلدا لسرفانتس ولساج . ويظل قلبه مع صوفيا الكسيرة الخاطر ، ولكنه وقد ظن أنه فقدتها الى الأبد ينزلق الى فراش المسر ووترز . وبعد شذائد كثيرة ، ونعقيدات لا تصدق ، يصفح عنه أولورذى ، ويحل محل بلايفل وريثا له ، ويصلح ذات البين مع صوفيا الخجول الصفوح ، ويرحب به سكواير وسترن صهرا له ترحيبا صادقا مع أنه كان قبل أسبوع على أهبة قتله . ويتعجل وسترن الخاتمة الآن فيقول :

« اليها يا بنى ، اليها ، أمض اليها .. هل انتهى كل شيء ؟ هل حددت اليوم يا فتى ؟ ماذا ، أليكون غدا أم بعد غد ؟ لن أرضى بالتأجيل دقيقة أكثر من بعد غد ... يمينا انها لتود من كل فليها أن تزف الليلة ، أليس كذلك يا صوى ؟ ... أين بالله أولورذى ؟ اسمع يا أولورذى ، أراهن حمسه جنيهاات لكراون أن سبولد لنا صبى بعد تسعة أشهر من عد (٩٥) » .

ان أحدا لم يصف الحياة الانجليزية منذ شكسبير بمثل هذه الخصوبة أو الصراحة . ذلك أن أوصافهم لا تشمل كل جوانب تلك الحياة ؛ ونحن نفتقد فيها الرقة والوفاء والبطولة والمجاملات والعاطفة - هذه التى توجد فى أى مجتمع . أما فيلدنج فأكثر رجل الغريزة عن رجل الفكر . واحتقر مهذبي الكتب ومطهرىها الذين حاولوا فى زمانه أن ينقوا تشوسر وشكسبير ، كما احتقر الشعراء والنقاد الذين ظنوا أن الأدب الجاد يجب ألا يتناول غير علية القوم . وفيهم الحب بين الجنسين على أنه حب جسدى ، وأحال نواحيه الأخرى الى دنيا الأوهام . واحتقر جنون المال الذى لحظه فى كل طبقة ، وكره الدجل والنفاق كرها شديدا . ولم يرحم الوعاظ ، ولكنه أحب القس آدمز ، والبطل الوحيد فى « اميليا » هو الدكتور هاريسن ، وهو قس انجليكانى ؛ وكان فيلدنج نفسه يعظ فى كل مناسبة فى رواياته .

وبعد أن نشر توم جونز جرد قلمه لحظة لتناول المشكلات التى

بكابدها فى عمله قاضيا . وكانت تجربته تواجهه كل يوم بما فى لندن من عنف واجرام . فاقترح وسائل لتشديد حراسة الأمن العام وتصريف القضاء . ويفضل جهوده ، وجهود المر جون فيلدنج ، وأخيه لأبيه ، الذى خلفه قاضيا فى شارع بو ، قضي على عصابة بثت الرعب فى لندن ، وشنق كل أفرادها تقريبا . وذكر متفائل فى ١٧٥٧ أن « الشر المسيطر ، شر سرقات الشوارع ، قد قمع كلية تقريبا (٩٦) » .

فى هذه الأثناء كان هنرى قد نشر آخر رواياته « أميليا » (ديسمبر ١٧٥١) . انه لم يستطع نسيان زوجته الأولى ، ولقد نسي أى عيوب ربما شابتها ، فاقام الآن لذكرها أثرا صورها فيه الزوجة الكاملة لجندى مبذر قصير النظر . فالكبتن بوث رجل لطيف شجاع كريم ، وهو يعبد زوجته أميليا ، ولكنه يقامر حتى يتردى فى الدين ، ويبدأ الكتاب بالكبتن فى السجن ، وهو يستغرق مائة صفحة يقص فيها قصته على نزيلة أخرى هى الآنسة ماثيوز ؛ يفصل لها جمال زوجته وتواضعها ووفاءها وحنانها وغير ذلك من صفاتها المثالية ، ثم يقبل دعوة الآنسة ماثيوز له أن يشاركها فراشها ، وينفق «أسبوعا كاملا فى هذا الحديث المجرم (٩٧) » . وفى مشاهد السجن هذه وغيرها من المشاهد اللاحقة ، يفصح فيلدنج ، ربما فى شيء من المغالاة ، نفاق الرجال والنساء وفساد الشرطة والقضاء ووحشية السجانين . ويجد القارئ هنا وصف سجون المدينين التى ستعمر قرنا آخر لتثير سخط دكنز . ويستطيع القاضى ثراشر أن يعرف جريمة سجين من لهجته الارلندية ، « يا غلام ، لسانك يشي بذنبك . فانت ارلندى ، وهذا دائما دليل كاف فى نظرى (٩٨) » . ويتصاعد عدد الأوعاد مع كل فصل ، حتى تصرخ أميليا لأبنائها الذين عضهم الفقر قائلة « سامحونى لأننى أتيت بكم الى هذه الدنيا (٩٩) » .

وأميليا ، مثل جريزلدا ، هى المثل الأعلى للمرأة الصبور كما تخيله فيلدنج . يكسر أنفها فى أحد الفصول الأولى ، ولكن جراحة الأنف تصلحه ، وتعود جميلة جمالا يغرى بمحاولة العدوان على عرضها مرة فى كل فصلين تقريبا . وهى تسلم بقصورها الفكرى عن زوجها وتطيعه فى كل شيء ، إلا أنها ترفض الذهاب الى حفلة تنكرية ؛ وتحضر

لحنا دينبا (أوراتوريو) ، ولكنها تتردد فى تعريض نفسها لنظرات العابثين فى فوكسهول . فإذا عاد بوث إليها بعد احدى مغامراته الطائشة وجدها « تؤدى عمل الطاهى باللذة التى تستشعرها سيدة راقية فى ارتداء نيابها استعدادا لحفلة رقص (١٠٠) » . وتتلقى رسالة من الأنسة مانيوز اللئيمة نثي فيها بخيانة بوث لزوجته فى السجن ، فتمزق الرسالة وتكتم خبرها عن زوجها ، وتظل تحبه رغم كل سكره وقماره وديونه وسجنه ، وتبيع حليها الضئيلة النمن ، ثم ملابسها ، لتطعمه وتطعم أطفالها . ولا تغت فى عمدتها أخطاؤه بقدر ما تغت فيه قسوة الرجال والانظمة التى توقعه فى شباكها . فلقد كان فيلدنج ، شأنه فى ذلك سان روسو وهلنتجون ، يرى ان أكثر الناس طيبون بفطرتهم ، وان ما يفسدكم هو البيئات الشريرة والقوانين السيئة . وعند ثاكري أن أميليا « أكثر الشخصيات فتنة فى القصص الانجليزى (١٠١) » . ولكن ربنا لم نك سوى حلم زوج . وفى النهاية تصبح أميليا بطبيعة الحال وارنه ، واعتزل هى وبوثر فى ضيعتها ، وبستقبح حال بوثر .

أما خاتمة الرواية فلا نكاد ببررها مقدماتها ؛ فبوثر يبقى بوثر على الدوام . ولقد حاول فيلدنج أن يربط كل عقد حبكته فى وحدة سعيدة ، ولكن خفة يده هنا مكشوفة جدا ، فلقد أدرك التعب هذا الرواى الفحل ، وأثار تقززهم جو اللصوص والقتلة الذى أحاط به . كتب بعد أن فزع من أميليا يقول « لن أزج العالم بعد اليوم بمزيد من أطفالى الذين تلدهم لى ربة الأدب ذاتها » . وفى يناير ١٧٥٢ بدأ « مجلة كوفنت جاردن » ، وكتب بعض المقالات القوية ، ورد على نقد سمولت ، وصوب طلفه الى روايته « روديك راندوم » ، وفى نوفمبر ترك المجلة نموت . وكان شتاء ١٧٥٣ - ٥٤ أقسى من أن يحتمله بدنه الذى هذه العمل والاستسقاء والصفراء والربو . وجرب ماء القار الذى نصبح به الأسقف باركلى ، ولكن الاستسقاء استفحل ، وأشار عليه طبيبه بالسفر الى بلد أدفأ . وفى يونيو ١٧٥٤ استقل سفينة تدعى « ملكة البرتغال » مع زوجته وابنته . وفى الطريق كتب « يوميات رحلة الى لشبونة » ، وهى من ألطف ما كتب . ومات فى لشبونة فى ٨ أكتوبر ١٧٥٤ ، ودفن هناك فى الجبانة الانجليزية .

فما الذى انجزه ؟ لقد أرسى دعائم رواية السلوك الواقعية ؛ ووصف حياة الطبقات الوسطى الانجليزية وصفا أنصع من أى وصف أتى به مؤرخ ، وفتح كتبه عالما بأسره . ولكنه لم ينجح مثل هذا النجاح مع الطبقات العليا ، وكان عليه أن يقنع فى هذا الميدان ، كما قنع رتشرdsn ، بنظرة الدخيل . ولقد عرف من حياة وطنه الجسد خيرا مما عرف الروح ، ومن الحب جسده خيرا مما عرف روحه ، وغابت عنه معومات الخلق الانجليزى الأكثر رهاقة وخفاء . ومع ذلك فقد ترك بصمته على سمولت ، وستيرون ، ودكنز ، وثاكرى ؛ لقد كان أبا لهم أجمعين .

٣ - طوبياس سمولت : ١٧٢١ - ٧١

لم يكن سمولت يحبه ، لأنهما تنافسا على استحسان القراء فى الميدان نفسه . وكان أصغر الرجلين اسكتلندياً وأفق هيوم على التحسر لأن انجلترا عاقت الطريق الى فرنسا . ولكن جده كان قد شجع الاتحاد البرلمانى مع انجلترا عمليا (١٧٠٧) ، وكان عضواً فى البرلمان المتحد . ومات الأب وطوبياس فى الثانية من عمره ، ولكن الأسرة اتفقت على تعليم الصبى فى مدرسة دمبرتون الثانوية وفى جامعة جلاسجو حيث درس المقررات المصهدة لدراسة الطب . ولكنه بدلا من أن يواصل الدرس حتى يحصل على درجته الطبية أدرسته عدوى الكتابة ، وهرع الى لندن وجاريك ، يحمل مأساة ضعيفة ألفها ، ورفضها جاريك . وبعد أن جاع طوبياس فترة قصيرة التحق مساعدا لجراح فى البارجة « كمبرلاند » وأبحر معها (١٧٤٠) فى الحرب التى نشبت مع أسبانيا بسبب « أذن جنكيز » . واشترك فى الهجوم الأخرق على قرطاجنة لمواجهة لساحل كولومبيا . وفى جمیکا ترك الخدمة ، وهناك التقى بنانسي لاسيل التى تزوجها عقب عودته (١٧٤٤) الى انجلترا . وسكن بيتا فى داونج سقرت ومارس الجراحة ، ولكن شهوة الكتابة غلبته ، وكانت تجاربه فى البحرية تطالبه على الأقل بقصة واحدة . لذلك نشر أشهر رواياته فى سنة ١٧٤٨ .

أما هذه الرواية ، واسمها « مغامرات رودريك راندوم » ، فهى

رومانسية التشهر القديمة ، الحافلة بالأحداث الدائرة حول إحدى الشخصيات . ولم يعترف سمولت بأى فضل لفيلدنج ، ولكنه اعترف بالفضل الكبير لسرفانتيس ولساج . وقد شدة البشر وأفعالهم أكثر مما شدته الكتب والألفاظ ، فحشد قصته بالأحداث وأضفى عليها نغمة الاقتدار ولون الدماء ، وملأها ناسا تفوح منهم رائحة الشخصية والحديث الفجّل ، وهذه الرواية من أقدم وأفضل مئات الروايات الانجليزية التى كتبت عن البحر . ولكن قل أن يجند رودريك فى البحرية يختبر - كما اختبر صابعه - عينات من الفنادق الانجليزية والأخلاق اللندنية . وما أكثر ما اقتعدناه لأننا لم نجرب السفر فى مركبات القرن الثامن عشر تلك والنزول فى تلك الفنادق ! - مسرح حافل بالأنفس المصطرعة والجنود المحتضرين ، والقوادين والمومسات ، والباعة الجوالين بحملون حزمهم ويخفون نقودهم ، والرجال يقلبون المبالى بحثا عن الفرائش الخطا ، والنساء يصرحن مستغنيات من مغنصب ثم تسكتن النقود ، وكل صعلوك يتظاهر بالعظمة ، وكل انسان يسب ويستتم . فالآنسة جنى تخاطب البائع الجوال قائلة « أنت أيها الفاسق العريق فى الزنا مائة فى المائة » وتسال الكبتن « لعنك الله يا سبدي ، من أنت ؟ ومن جعلك كبتنا أيها المتملق ، القواد ، كناس الخنادق الحقيق ؟ تبأ لك ! ووبل للجيش اذا كان أمثالك من ضباطه (١٠٢) » .

وفى لندن يصبح رودريك (وهو هنا = سمولت) مساعدا لصيدلانى . ويفلت من الزواج حين يجد خطيبته فى الفراش مع رجل آخر . « لقد أعطتنى السماء من الصبر وحضور الذهن ما جعلنى أنسحب فوراً ، وشكرت حظى ألف مرة على هذا الكشف السعيد الذى عولت على الافادة منه فأكف عن كل تفكير فى الزواج مستقبلا (١٠٣) » وهو يقنع بحياة الفسق ، ويطلع على حياة البغايا وبلاوبهن ، ويعالج أمراضهن ، ويندد بالدجاجة الذين يبتزون مالهن ، ويلاحظ كيف أن المومس « مع كثرة شكوى الناس من أنها مصدر ازعاج تقلت من العقاب بفضل مالها من نفوذ على القضاة ، الذين تدفع لهم هى وجميع من يعملن فى خدمتها تبرعات ربع سنوية لقاء حمايتهن (١٠٤) » .

ثم يفقد وظيفته لاتهامه باطلا بالسرقة ، ويتردى فى مهاوى الفاقة حتى « لم أجد ملجأ الود به غير الجيش والبحرية » . ويعقبه من

عذاب اتخاذ القرار عصابة لجمع المجندين بالقوة ، تصرعه على الأرض فاقد الوعي وتجره الى متن سفينة صاحب الجلالة « نندر » . ويستسلم لمصيره ، ويصبح ضابطا جراحا . وبعد يوم واحد فى البحر يدرك أن للكبتن أوكم ليس الا وحشا نصف مجنون ، يلزم البحارة المرضى بالعمل ضنا منه بالمال حتى يموتوا . ويقاثل رودريك فى قرطاجنة وتتحطم به السفينة ، فبسبح الى بر جمیکا ، ويصبح خادما لشاعرة عجوز عليلة ، ويقع « فى حب » ابنة أخيها نارسيسا ، « وداعته الأحلام بأنه سيستمتع يوما ما بهذه المخلوقة اللطيفة (١٠٥) » . وهكذا نجرى القصة فى تدفق سمولت اللاهت ، بفقرات تتصل الواحدة منها ثلاث صفحات ، فى لغة بسيطة فوية بذئثة . وفى لندن يصادق رودريك مجموعة جديدة من الاصدقاء الغربى الطوار ، بما فيهم الانسة ميلندا جوستراب والانسة بدى جرايبيول . ثم بمضي الى باث بمزيد من مناظر مركبات السفر ؛ هناك يلتقى بنارسيسا الحلوة ويظفر بمحبنتها له ، تم يفقدها ، ويشتبك فى مبارزة ... ويعود الى البحرية جراحا ، ويبحر الى غينيا (حيث « يشتري » قبطان سفينة أربعمائة عبد لبييعهم فى بارجواى « بريح كبير ») ، ثم يعود الى جمیکا ، حيث يجد أباه الذى فقده منذ أمد طويل وأصبح الآن ميسور الحال ، ويعود الى أوربا ثم الى نارسيسا ، فيتزوجان ويعود بها الى اسكتلنده وضيفة أبيه ؛ أما نرسيسا « فيبدأ خصرها يستدبر بشكل ملحوظ » . وأما رودريك :

« فإذا كان على الأرض شيء يسمى السعادة الحققة فأنى أستمتع بها . لقد سككت الآن اضطرابات عاطفتى العاصفة ولانت فى حنان الحب وهدوئه ، بعد أن رسخ جذورها ذلك الاتصال الحميم والتعاطف القلبى الذى لا وجود به غير رباط الزوجية الطاهر » .

وراجت رواية رودريك راندوم . وأصر سمولت الآن على نشر مسرحيته « قاتل الملك » متفوعة بمقدمة محق فيها أولئك الذين رفضوها من قبل ؛ وقد داب على أن يطلق العنان لطبعه الحاد فى خلق الأعداء . وذهب الى أبردين فى ١٧٥٠ وتسلم درجة الطب ، ولكن شخصيته كانت عقبة فى طريق مارسته الطب ، فأنكفأ الى الأدب . وفى ١٧٥١ أصدر « مغامرات بريجرين بيكل » . وهنا ، كما فى راندوم ، دعا العنوان

القارئ لجولة من الأحداث المثيرة فى حياة جوابة ؛ ولكن سمولت وقع الآن على عرق من الفكاهة اللاذعة فى أنجح شخصه ، ذلك هو الكومودور ترنيون ، الذى يصفه بأنه « سيد من طراز غاية فى الغرابة » كان « مقاتلا مغوارا فى زمانه ، وفقد عيننا وعقبنا فى الخدمة العسكرية (١٠٦) » وهو يصير على أن يقص للمرة التاسعة كيف قصف بالدافع بارجة فرنسية تجاه رأس فنستير . ويأمر خادمه توم بابير بأن يؤمن على كلامه ، وهنا « فتح توم فمه كأنه سمكة » قد « لاهثة » وباقاع أشبه بعصف الريح الشرقية تصفر فى شق « فاه بالتأييد المطلوب (وقد رأى فيه ستيرن هنا آثارا طفيفة من العم توبى والجاويش تريم) . ويواصل سمولت مرحة خلال وصف صاخب لمسز جريزل وهى تخطب ود الكومودور الذى يتوسل اليه مساعده ذو الساق الواحدة ، جاك هانشواى ، ألا يسمح لها بأن « تجره تحت مؤخر سفينتها » لأنها « متى أحكمت وثاقلك الى مؤخرها ، انطلقت والله حثيثا ، وجعلت كل عرق من عروق جسدك ينشق من الشد » . ويطمئنه الكومودور قائلا « لن يرى انسان هوسر ترنيون طريقا فى مؤخر السفينة فى ذيل أى - فى العالم المسيحى (١٠٧) » على أن مختلف الخطط والمكائد تحطم عقته ؛ فيوافق على أن « يثبت مركبه بمرسة » أى يتزوج ، ولكنه يعصي الى رباط الزوجية « كمجرم ماض الى اعدامه ... وكأنه يخشى فى كل لحظة من تحلل عناصر الطبيعة » . ويصر على أن يكون فراش زواجه أرجوحة شبكية ، فتنهار تحت ثقل الجسدين ، ولكن هذا لم يقع الا بعد أن « ظننت السيدة أن هدفها العظيم قد تحقق ، وسلطانها أصبح مكفولا أمام جميع صدمات الحظ » . على أن هذا التلاحم بين جسدين ينتهى بغير ثمر ، فتتكفى المسز ترنيون الى البرندى و « فروض الدين التى راحت تؤديها بصرامة تفيض حقدا » .

وقد صور السر ولتر سكوت سمولت فى أربعيناته بأنه « وسيم جدا ، جذاب الملامح ، وحديثه - بشهادة كل أصدقائه الباقين على قيد الحياة - منير ومسل الى أبعد حد (١٠٨) » . وأجمع الناس على أنه رجل حاد الطبع فى حديثه . قال يصف السر تشارلز نولز أنه « اميرال بغير ارادة ، ومهندس بغير معرفة ، وضابط بغير عزيمة ، ورجل بغير م ١٩ - قصة الحضارة

السجن ثلاثة أشهر ، وغرامة قدرها مائة جنيه (١٧٥٧) . على أن خدة طبعه كانت ترافقها فضائل كثيرة ، فقد كان كريما رحيمًا ، أعان فقراء المؤلفين ، وأصبح كما قال السر ولتر « أبًا شديد التعلق بأبنائه ، وزوجًا محبًا لزوجته (١١٠) » . وكان منزله فى لورنس لين بحى تشلمى ملتقى لصغار الكتاب الذين كانوا يصيبون من طعامه وأن لم يتبعوا نصائحه ؛ وقد نظم بعضهم فى فرقة من المساعدين الأدبيين . وكان رائدًا بين الناشرين (ودرايدن بين الشعراء) ؟ فى الزامه تجار الكتب بتأييده فى شرط يلحق بعقريته . وكان أحيانًا يكسب ستمائة جنيه فى العام ، ولكن كان عليه أن يكد ويكدح ليكسبها . وكتب ثلاث روايات أخرى ، اثنتان منها لا تستحقان الذكر . واقنع جاريك بأن يخرج تمثيليته « العقاب » ، التى نجحت بفضل هجماتى على فرنسا ؛ ثم كتب لعدة مجلات مقالات تتسم بروح التحرش والمشاكسة ؛ ورأس تحرير صحيفة « البريطانى » لسان حال المحافظين . وترجم جيل بلاسي ، وعدة مؤلفات لفولتير ، ودون كخوته (مستعينا بترجمة سابقة) ، وكتب - أو أشرف على كتابة - تاريخ لانجلترا من تسعة مجلدات (١٧٥٧ - ٦٥) . ومن المؤكد أنه استخدم « مصنعه الأدبى » المؤلف من الكتاب المجاورين فى جراب ستريت ليصنف « تاريخًا للعالم » وكتابًا ذا ثمانية مجلدات اسمه « الحالة الراهنة للأمم » .

وحين بلغ الثانية والأربعين عام ١٧٦٣ ، كان قد دفع باعتلال صحته ثمن حياته المتطلعة ، الحافلة بالمغامرة والجهد والشجار والكلام . ونصحه طبيبه بأن يستشير أخصائيًا فى مونبلييه يدعى الدكتور فيز . فمضى إليه ، وأخبره الأخصائى أن ربوه ، وسعاله ، وبصاقه الصديدي ، دليل على إصابته بالسل ، وأذكر العودة الى رطوبة انجلترا وخضرتها ، فقد ظل عامين فى القارة ، يغطى نفقاته بكتابة « رحلات فى فرنسا وإيطاليا » (١٧٦٦) ، وقد أبدى هنا ، كما أبدى فى رواياته ، تلك النظرة الحادة للماحة التى ترى سمات خلق الأفراد والأمم ومميزاته ؛ ولكنه تبيل أوصافه بالشتائم الصريحة . وأخبر سائقى مركبات السفر ، وزملاءه المسافرين ، وأصحاب الفنادق ، والخدم ، والأجانب المتحمسين لأوطانهم ، رأيه فيهم دون موارد ؛ واعترض على كل فاتورة حساب ، وحطم الفن الفرنسى والإيطالى ، وسخر من الكاثوليكية ، وحكم على

الفرنسيين بأنهم لصوص جشعون لا يغفلون دائما سرقاتهم بغلاف من اللادب والكياسة . استمع اليه يقول :

« لو أن فرنسيا أدخل الى أسرتك . . . لكان أول رد له على مجاملتك أن يطارح زوجتك الغرام اذا كانت جميلة ؛ والا فاختك ، أو ابنتك ، أو ابنة أخيك أو أختك . . . أو جدتك . . . فانذا كشف أمره . . . صرح فى صفاقة بأن ما صنعه لم يكن سوى تودد لا غبار عليه ، مما يعد فى فرنسا من مقومات التربية الحسنة (١١١) » .

وعاد سمولت الى إنجلترا وقد تحسنت صحته كثيرا . ولكن عائلته عاودته فى ١٧٦٨ ، فحاول الاستشفاء فى باث . غير أنه وجد مياهها عديمة الجدوى له ، وهواءها الرطب خطرا عليه ؛ وفى ١٧٦٩ عاد الى ايطاليا . وفى فيلا قرب لجهورن كتب آخر كتبه وأفضلها وهو « رحلة هسغرى كلنكر » وفى رأى ثاكرى أنه « أفكه قصة كتبت منذ بدأ ذلك الفن الجميل ، فن كتابة الروايات (١١٢) » . وهو ولا شك أمتع وألطف كتب سمولت اذا استطعنا أن نطيق شيئا من القدر . وفى مطلع القصة تقرىبا نلتقى بالدكتور - الذى يتحدث عن الروائح « الطيبة » أو « الخبيثة » باعتبارها ميولا ذاتية خالصة « لأن كل شخص يزعم أنه يتفزز من رائحة افرازات شخص آخر يستنشق رائحة افرازاته هو برضا تام ، وقد ناشد جميع الحاضرين من السيدات والسادة هناك أن يشهدوا على صدق قوله (١١٣) » ، ولى ذلك صفحة أو اثنتان من شروح أشد لدعا وحرافة حتى من هذه . وبعد أن تخفف سمولت من هذه اللقمة ، عمد الى اختراع سلسلة مرحلة من الشخص ، يواصلون الحكاية بخطاباتهم فى أسلوب غاية فى العجب والامتناع ، وعلى رأسهم ماثيو برامبل وهو « سيد عجوز » وعزب عصي ، ينطقه سمولت بأرائه . وهو يذهب الى باث للاستشفاء ، ولكنه يجد خبث رائحة مياهها أشد وقعاً فى نفسه من قوتها الشافية . وهو يكره زحام الجماهير ، ويغنى عليه مرة من رايحتهم المتجمعة ، ولا يطيق هواء لندن الملوث ، أو أطعمتها المغشوشة . يقول :

« إن الخبز الذى أكله فى لندن عجين مؤذ اختلط به الجير والشب

ورماد. العظام؛ غث المذاق مدمر للجسم . ولا يجهل القوم الطيبون. هذا الغش لكنهم يفضلونه على الخبز الصحى ، لانه أكثر بياضا . . . وهكذا يضحون بمذاقهم وصحتهم . . . والطحان أو الخباز مضطر الى تسميمهم . . . ومثل هذا الفساد الشديد يظهر فى لحم العجول الذى ياكلونه ، والذى يبيضون لونه باستنزاف دمه مرارا وتكرارا ، وبغير هذا من الوسائل الخبيثة ؛ وقياسا على هذا يصح للمرء أن يتناول غذاءه بمثل هذا الاطمئنان من قطعة محمرة من قفاز جلد الماعز . . . ولن تصدقوا أن الجنون بلغ بهم أن يسلقوا خضرهم ومعها قطع نحاسية من نصف البنس لينضروا لونها (١١٤) » .

وعليه يهرع ماثيو عائدا الى ضيعته الريفية ، حيث يستطيع أن يتنفس ويأكل دون أن يعرض حياته للخطر . وفى طريقه اليها ، بعد أن انتهى ربيع القصة ، يلتقط غلاما ريفيا فقيرا فى أسمال بالية يدعى همفرى كلنكر « كانت نظراته تنبئ بالجوع ، ولم تكد الخرق التى يلبسها تستر ما تقتضى اللياقة اخفاه » . ويعرض هذا الصعلوك أن يسوق العربية ، ولكن حين يتربع على مقعد السائق العالى تنشق سراويله العتيقة ، وتشكو المسز طابيثا برامبل (أخت ماثيو) من أن همفرى « جرؤ على أن يؤذى بصرها بإبداء أردافه العارية » . ويكسو ماثيو الصبر ، ويلحقه بخدمته ، ويحتمله بصبر حتى حين يصبح الفتى واعظا مثوديا عقب سماعه جورج هوايتفيلد .

ويبدو جانب آخر من الموقف الدينى فى المستر - الذى يقابله برامبل فى سكاربرو ، والذى يفاخر بأنه تحدث الى فولتير فى جنيف « عن تسديد اللطمة القاضية للخرافة المسيحية (١١٥) » ويدخل خارجى آخر اسمه الكبتن لزماها جو القصة فى درم - « رجل طويل هزيل ، يتفق مظهره هو وحصانه مع وصف دون كخوته مستطيا جواده روزنانتى » . وقد عاش بين هنود أمريكا الشمالية ، وهو يقص فى لذة كيف أن هؤلاء الهنود قد شؤوا على النار مرسلين فرنسيين لقولهما ان الله سمح لابنته « ان يدخل أحشاء امرأة ، ويعدم كما يعدم المجرمون » ، ولأنهما زعما انهما يستطيعان « تكثير الله الى مالا نهاية بالاستعانة بقليل من الدقيق والماء » وكان لزماهاجو « يكثر استعمال الفاظ مثل

العقل ، والفلسفة ، وتناقض الحدود ؛ وقد أنكر خلود نار الجحيم .
بل قذف ببعض مفرقاته عقيدة خلود الروح قذفا شيط شوارب ايمان
المسيدة طابيثا قليلا (١١٦) » .

ولم يكتب لسمولت أن يرى « همفري كلنكر » مطبوعة . ففي
١٧ سبتمبر ١٧٧١ مات في فيلته الايطالية غير متجاوز الخمسين ،
بعد أن خلق من الأعداء والشخصيات الحية أكثر مما خلقه أى كاتب
آخر فى زمانه . ونحن نفتقد فيه ما نجده فى فيلدنج من ابتهاج وتقبل
صحى للحياة وبناء للحبكة فيه جهد وعناية ، غير أن فى سمولت حيوية
عارمة ، وفيه رنين ورائحة مدن بريطانيا ومراكبها وطبقته الوسطى ،
وحكاياته ذات الأحداث المترابطة البسيطة تتدفق بحرية وحيوية أكثر
دون أن يعوقها عائق من المواعظ . . ورسم الشخص اقل لفتا للنظر
فى فيلدنج ، ولكنه أكثر تعقيدا . وكثيرا ما يقنع سمولت بتكديس
السمات المميزة للأفراد بدلا من ارتياده للتناقضات والشكوك والتجارب
التي تصنع الشخصية . وهذا الأسلوب فى تمييز الأفراد - بالمبالغة فى
خصيصة ما باعتبارها « لازمة » فى كل شخص - انتقل الى دكنز ،
الذى واصل بمذكرات بكوك الرحلة التي بدأها ماثيو براهميل .

هؤلاء الكتاب - رتشرسن وفيلدن وسمولت - اذا أخذناهم معا ،
وجدناهم يصفون انجلترا منتصف القرن الثامن عشر وصفا أكمل وأدق
من أى وصف أتى به مؤرخ أو جميع المؤرخين - الذين يضلون طريقهم
وسط الشذوذات . فكل شيء موجود هنا ، اللهم الا تلك الطبقة العليا
التي أخذت عن فرنسا عاداتها ومستعمراتها . هؤلاء الروائيون أدخلوا
الطبقات الوسطى دخول الظافرين الى ميدان الأدب ، كما أدخلهم
ليلو الى الدراما ، وجأى الى الاوبرا ، وهوجارث الى التصوير . لقد
خلقوا الرواية الحديثة وتركوها تراثا لا يبلوى .

٦ - الليدى ماري

بهذا اللقب ألفت انجلترا أن تلقب المع الانجليزيات فى جيلها ،
المرأة التي دخلت تاريخ الآداب والعلوم بعجولها على التقاليد التي
حبست جنسها ، ودخلت تاريخ آداب اللغة بكتابتها رسائل تنافس رسائل
مدم دسفينيه .

وقد حظيت بظروف مواتية للانطلاق ؛ فهي حفيدة المر جون ايفلين ، وابنه ايفلين بييريونت الذى انتخب عضوا بالبرلمان سنة مولدها (١٦٨٩) ، والذى ورث عقب ذلك ضيعة غنية ولقب ايرل كنجزتن ، ومن هنا لقيت ابنته بـ « ليدى مارى » منذ طفولتها . أما أمها ، الليدى مارى فيلدنج ، فكان أبوها ايرلا ، وابن عمها هو الروائى المعروف . وماتت الأم وبطلتنا لا تتجاوز الرابعة من عمرها . وأرسل الأب أطفاله الى أمه لتكفلهم ، فلما ماتت عادوا الى مقره الريفى المتفرع ، ثورزى بارك ، فى مقاطعة نوتنجهامشير ، وكانوا يعيشون أحيانا فى منزله اللندنى فى بيكاديللى . وكان شديد التعلق بمارى التى اختارها « نخباً » (أى شخصاً يشرب نخبه) للعام فى نادى الكيت كات ؛ هناك كانت تنتقل من حجر الى حجر ، ويبدى ذكائها فى شيطنة . وقد علمت نفسها فى مكتبة أبيها بمعاونة مربيها ، فكانتا تتفقدان هناك أحيانا ثمانى ساعات فى اليوم ، تستوعبان الرومانسيات الفرنسية ، والتمثيلات الانجليزية . والتقطت بعض الفرنسية والاطيالية ، وعلمت نفسها اللاتينية بالاستعانة بـ « تحولات » الشاعر أوفيد . وكان اديسون وسقيل وكونجرىف يختلفون الى البيت ، ويشجعونها على الدرس ، ويحفزون ذهنها المتطلع . ونحن نعرف ، من مصدر وحيد هو مصدرها هى ، أن المأما بالآداب اللاتينية هو الذى جذب اليها اهتمام ادورد ورتلى .

وكان حفيدا لادورد مونتاجيو ، اول ايرل لساندوتش ، واتخذ أبوه سدننى مونتاجيو اسم ورتلى عند زواجه بوارثة ذلك اللقب . وكان ادورد حين التقى بمارى (١٧٠٨) - وهو فى الثلاثين - رجلاً ذا شأن وتطلعات كبيرة ، تزود بتعليم جامعى ، ودعى لاحتراف المحاماة فى الحادية والعشرين ، وظفر بكرسى فى البرلمان وهو فى المسابعة والعشرين . وهو لا يدرى كيف بدأ توددها اليه ، ولكن هذا التودد احرز شيئاً من التقدم ، لأنها كتبت له فى ٢٨ مارس ١٧١٠ تقول :

« اسمح لى بأن أقول هذا (وأنا عليمه بأن قولى قد يبدو غروراً) ، وهو أنى أعرف كيف أسعد رجلاً معقولاً ؛ ولكن على ذلك الرجل ... أن يسهم هو نفسه بشيء فى هذا ... وهذه الرسالة ... هى اول رسالة كتبتها فى حياتى لإنسان من جنسك ، وستكون الأخيرة . فعليك ألا تتوقع رسالة أخرى على الاطلاق (١١٧) » .

وأفلحت استراتيجيتها المقاتية ، فلما مرضت بالحصبة أرسلت إليها رسالة قصيرة كانت آخر مما ألف أن يرسل : « كان يفرحني كثيرا أن أسمع بأن حسنك قد أودى جدا لو كنت أسر بأى شيء يسوءك ، لأن من شأن هذا أن يقلل من عدد المعجبين بك (١١٨) » . ودفع جوابها حملتها خطوة أخرى « انك تظن أنني - لو تزوجتني - ساهم بحبك شهرا ، ويجب آخر فى الشهر التالى ، ولكن لن يحدث هذا ولا ذاك . ففى استطاعتى أن أقدر انسانا ، وأن أكون صديقة لانسان ، ولكننى لا أدرى أستطيع أن أعشق (١١٩) » . ولعل هذه الصراحة جعلته يترثى ، لأنها كتبت فى نوفمبر « تقول انك لم تستقر على رأى بعد ، فدعنى أقرر نيابة عنك ، وأعفيك من مشقة الكتابة ثانية . وداعا الى الأبد ! لا ترد (١٢٠) » . وعادت تكتب فى فبراير ١٧١١ لتقول له « هذه آخر رسالة أبعث بها (١٢١) » . واستأنف تودده اليها ، فتقهقرت ، وأغرته بالمطاردة الحثيثة . وتدخلت الاعتبارات المالية واعتراض الأب ، فدبرا الهرب ، وإن كان معنى هذا ألا تتوقع مهرا من أبيها . وأنذرت ورتلى إنذارا أمينا « فكر الآن لآخر مرة بأى طريقة يجب أن تأخذنى . سأحضر اليك بقميص نومى وتنورتى ، وذلك كل ما ستحصل عليه معى (١٢٢) » والتقيما فى نزل ، وتزوجا فى أغسطس ١٧١٢ ، وبعدها لقبت بالليدى ماري ورتلى مونتايجو ، هذا الاسم الأخير اتخذته من نسب زوجها ، ولكن لما كان ابنا لابن ثان للمرأة (غير البكر) ، فقد ظل اسمه إدورد ورتلى دون القاب شرف .

وما لبثت دواعى العمل والسياسة أن نقلته الى درم ولندن ، بينما تركها بدخل متواضع جدا فى عدة بيوت فى الريف انتظارا لوصول وليدها . وفى إبريل لحقت بورتلى فى لندن . وهناك ولد طفلها الأول فى شهر مايو . على أن سعادتها كانت قصيرة الأجل ، فقد رحل زوجها سعيلا لإعادة انتخابه فى البرلمان ، وما لبثت أن أخذت تشكو الوحدة ؛ لقد تطلعت الى شهر عسل حالم ، وتطلع هو الى مقعد فى البرلمان الجديد . واخفقت حملته الغالية التكلفة ، ولكنه عين عضوا لجهة صغيرا . واستاجر بيتا قرب قصر سانت جيمس ، وهناك ، فى يناير ١٧١٥ ، بدأت الليدى ماري غزوها للندن .

وقد خبرت فيها دوامة الحياة الاجتماعية . فكانت تستضيف
الأصحاب أيام الاثنين ، وتختلف الى الاويرا أيام الاربعاء ، والى
المسرح أيام الخميس . وتزور وتزار ، وترفرف حول بلاط جورج الأول ،
ومع ذلك ظفرت برضي الأميرة كارولين . وصادقت الشعراء ، وتبادلت
النكت الذكية مع بوب وجاى . وافتتن بوب ببديقتها الحاضرة ، ونسى
لحظة احتقاره للجنس الأنعم ، وصفق لجهودها فى تعليم البنات ،
وأهداها بعض قوافيه التى نظمها فى هرولة :

« فى الحسن أو الذكاء

لم يجرؤ بشر بعد

أن يشك فى علو كعبك ،

ولكن من الرجال ذوى الفطنة

من رأى أن التسليم لسيدة

فى أمور العلم أمر عسير .

ان المدارس الوقحة ،

بقواعدها الغبية البالية ،

أنكرت التعليم على الاناث ،

وكذلك يفكر البابويون

على الناس قراءة الكتاب المقدس

مخافة أن تغدو الرعية حكيمة كراعيها .

ان المرأة كانت أول

من ذاق لذة المعرفة

(رغم أنها لعنت)

ويجمع الحكماء

على أن القوانين يجب أن تقضى

بالحق لأول مالك .

اذن فاستأنفى أيتها السيدة الحسنة

فى جراءة ذلك الحق القديم

الذى هو مطلب جنسك كله ؛
واجعلى الرجال يتلقون
على يد حواء ثمانية ذكية
معرفة الخير والشر .

ولكن اذا كانت حواء الاولى
قد عوقبت عقابا صارما
لأنها لم تقطف غير تفاحة واحدة ،
فأى عقاب جديد
يقضى به عليك ،

يا من سرت الشجرة كلها بعد أن ذقت حلاوتها (١٢٣) ؟ »

وكتب جاى الآن نشيدا رعويا سماه « التبرج » هجا فيه بعض
اعلام لندن تحت أسماء زائفة شفاقة . وشاركت اللىدى مارى فى هذه
النعبة . وبمساعدة بوب وجاى نظمت نشيدى رعويين نافست أبياتهما
الزوجية البتارة أبيات الشاعرىن رشاقة ولذعا . ولم تنشر هاتين
المقصيدتين ، ولكنها سمحت بتداول نسخ مخطوطة منهما بين
الأصدقاء - واكتسبت الآن شهرة بأنها قريع بوب بين النساء ، امرأة
تحذق فنون القلم والقوافى والسخرية الموجهة .

على أنها فى ديسمبر ١٧١٥ كابدت لطمة أوجع من سهامها . ذلك
أن الجدرى الذى قتل من قبل أخاها هاجمها هجوما قاسيا حتى شاع
أنها ماتت . وقد نجت من الموت ، ولكن وجهها تشوه ببثور الجدرى ،
ورموشها سقطت ، ولم يبق غير عينيها السوداوين النجلاوين أثرا من
ذلك الجمال الذى اعتمدت عليه فى دفع زوجها الى الأمام . ومع ذلك
ظفر ورتلى بالمكافأة ، ففى أبريل ١٧١٦ عين « سفيرا فوق العادة »
فى البلاط العثمانى . وابتهجت اللىدى مارى ، فلقد حلمت بالشرق
مرتعا للأحلام والشعر ، وحتى وهى فى صحبة زوجها قد تجد الرومانس
فى الاستانة أو فى الطريق إليها . وكتب لها بوب وقد طاف هذا الحلم

بخياله كذلك ، فى أول يوليو ، رسالة اشرفت على شفا الغرام بأسلوب أنيق :

« لو خطر لى أننى لن أراك ثانية نقلت هنا أشياء ما كنت لأقولها لشخصك . فما أريد أن أتركك تموتين مخدوعة فى ، أى تذهبين الى الاستانة دون علم بأننى ، بشيء من المبالغة ، وبغاية التعقل أيضا ، يا سيدتى » .

ثم وقع بالتحية الممقنة المألوفة ، تحية العبد الخاضع المطيع (١٢٤) .

وفى أول أغسطس ، عبر ورتلى ومارى وابنهما البالغ ثلاث سنين ورهط من الخدم والحشم البحر الى هولندة . ومروا بكونلونيا الى ريجنزيرج ، حيث ابحروا على ذهبية يجذف فيها اثنا عشر ملاحا مرورا بقمم جبلية تعلوها القلاع . وفى فيينا وجدت رسالة من بوب يقدم فيها قلبه ويؤكد لها :

« لا لأنى أرى فى كل انسان متجرد مشهدا رائعا مثلك أنت وقلة اخرى من الناس .. فى وسعك أن تتخيلى بسهولة مبلغ رغبتى فى مراسلة شخص علمنى منذ أمد بعيد أن الاحترام من أول نظرة محال كالحب ، وأفسد على منذ ذلك الحين لذة كل حديث مع أحد الجنسين ، وكل صداقة مع الجنس الآخر تقريبا .. لقد فقدت الكتب تأثيرها على ، وآمنت منذ رأيتك أن هناك شيئا أقوى من الفلسفة ، وأن هناك ، منذ سمعتك ، انسانا حيا هو أحكم من جميع الحكماء (١٢٥) » .

ولكنه أضاف أمله بأن تكون سعيدة مع زوجها . وردت عليه

قائلة :

« ربما ضحكت منى لشكرى اياك بكل وقار على اهتمامك المتفضل الذى أعربت عنه . ومن المؤكد أنه يحق لى ، أن شئت أن أحمل الأشياء الجميلة التى قلتها لى على محمل الفكاهة والمزاج ، وربما كان حملى

لها على هذا المحمل صوابا . ولكننى لم أكن فى حياتى ميالة ولو نصفه .
ميلي الآن لتصديقك (١٢٦) » .

وفى ٣ فبراير ١٧١٧ بعث لها بوب بتصريح آخر ييوح فيه بحبه العميق ، محتجا على اعتبارها أياه ، « صديقها فقط » . واحتفظت مارى بهذه الرسائل لنفسها ، سعيده بأنها حركت حطام أعظم الشعراء الأحياء .

وبلغت الجماعة الاسنانة فى مايو . وهناك عكفت مارى على تعلم التركية بعزيمة ماضية ، وبلغت من ذلك مبلغا أتاح لها فهم الشعر التركى والاعجاب به ، واتخذت الثياب التركية ، وزارت النساء فى الحريم ، ووجدتهن أرقى من خليلات جورج الأول . ولاحظت ممارسة التطعيم فى تركيا بشكل منتظم وناجح وقاية من الجدري ، وطعم الدكتور هيتلاند الجراح الانجليزى فى الاسنانة ولدها بناء على طلبها . ورسائلها من تلك المدينة لا تقل فتنه عن أى رسائل فى هذا الجانب من جوانب مقام دسغنييه ، أو هوراس ولبول ، أو ملشيور جريم . ولم تنتظر حتى يخبرها انسان بأنها 'أدب' ، فلقد كتبت بهذا التطلع ، وقالت لأصدقائها ' أن أحدث اللذات التى صادفتها فى طريقى هى رسائل مدام دسغنييه ، جميلة جدا هذه الرسائل ، ولكنى أؤكد ، دون أدنى غرور ، أن رسائلى لن تقل عنها استاعا بعد مضي أربعين سنة من الآن . لذلك أنصحكم بالآ تقذفوا بأى منها فى سلة المهملات (١٢٧) » .

واتصلت رسائلها مع بوب . فتوصل إليها أن تأخذ تأكيداتاه مأخذ الجد ، ولكن نبرته كانت مزيجا محيرا من المزاج والحب . وقد تصور تركيا فى خياله الشاطح « بلد الغيرة ، حيث لا تحدث النساء التلصعات مع أحد الا الخصيان ، وحيث يؤتى لهن بالطعام - حتى الخيسار - مقطعا » . ثم أضاف وهو يفكر فى تشوه جسده محزونا « انلى شخصيا قادر على أن أتبع انسانا أحببته ، لا الى الاسنانة فحسب ، بل الى أرجاء الهند التى يقولون لنا أن النساء فيها يعظم حبهن لأقبح الرجال صورة ، ... ويرين فى التشوهات دلائل الرضى الالهى » . ويقول انه سيعتق الاسلام ان اعتنقته ويصحبها الى مكة ، وأنه لو وجد التشجيع

صدق (١٠٩) « . وأقام عليه الأميرال دعوى القذف ، فكابد سمولت الكافى لالتقى بها فى لباردية ، « مسرح تلك الغراميات المشهورة بين الاميرة الجنية وقزمها (١٢٨) » . فلما علم أنها عائدة الى أرض الوطن هزه الطرب حتى كاد ينتشي : « أكتب وكاننى ثمل ، فاللذة التى أجدها فى التفكير فى عودتك تطرينى فوق حدود التعقل واللياقة ... تعالى بالله ، تعالى يا ليدى مارى ، تعالى سريعا ! (١٢٩) » .

وأخفقت بعثة ورتلى ، ودعى للعودة الى لندن . ونحن نقرأ عينة من أسفار القرن الثامن عشر فى رحيلهم من الاستانة فى ٥ يونيو ١٧١٨ ووصولهم الى لندن فى ١٢ أكتوبر . هناك عاودت الليدى مارى حياتها فى البلاط ومع الأدهاء والظرفاء ، ولكن بوب الذى كان الآن عاكفا على ترجمة هومر ، كان مشغولا فى ستانتون هاركورت . على أنه انتقل فى مارس ١٧١٩ الى تويكنهام ، وفى يونيو وجد ورتلى والليدى مارى بمعونته بيتا هناك أيضا باعه لهما السر جودفرى نلر . وعقب ذلك دفع بوب لنلر عشرين جنيها ليرسم له صورتها (١٣٠) . وقد أجساد نلر رسمها مع أنه كان فى الرابعة والسبعين . فاليدان رائعتان ، والوجه يكاد يكون شرقيا كلباس الرأس التركى ، والشفتان ممثلتان امتلاء شهوانيا ، والعينان نجلاوان سوداوان لا تزالان تخبئان الكلاباب - وقد اشاد بهما جاي فى أبيات فى هذه الفترة . وعلق بوب اللوحة فى حجرة نومه ، وخلدها فى قصيدة بحث بها اليها :

« البسمات اللعوب حول الفم المغمز ،

وسيماء الجلال والصدق السعيدة ،

ونظير هذا من تائق فى الذهن الرفيع

حيث اجتمعت كل المفاتن والفضائل ،

علم فى تواضع ، وحكمة فى اعتدال ،

عظمة فى غير تكلف ، وذكاء فى غير ادعاء (١٣١) » .

فى ذلك العام بلغ نجمها أوجها ، وبدأت الكوارث التى ابتليت بها . ذلك أن زائرا فرنسيا يدعى توسان ريمون أودع عندها ألفين من الجنيهاات لتستثمرها على الوجه الذى تستصوبه . فاشتريت بها أسهما

من شركة بحر الجنوب بناء على نصيحة بوب ، ولكن الاسهم هبطت هبوطاً مدمراً ، فأصبح الكلفان خمسمائة ، فلما أنهت الأمر الى ريمون اتهمها بسرقة ماله (١٧٢١) . وفى السنة نفسها هدد حياة ابنتها التى ولحتها فى ١٧١٨ وباء جدرى أصابها ، فأرسلت فى طلب الدكتور ميتلاند الذى كان قد عاد من الامتانة ، فطعم الفتاة بناء على طلبها . وسئرى فى مكان لاحق تأثير هذا المثل على الطب البريطانى قبل جنر .

وفجأة ، فى سنة ١٧٢٢ ، انهارت صداقتها ليوبوب . كانا الى شهر يوليو يلتقيان فى كثرة اثار القيل والمقال فى تويكنهام . ولكن فى سبتمبر بدأ يكتب الرسائل الودية الى جوديث كوبر ، ذكر فيها على سبيل تعزيتها ، أن هناك اضمحلالا واضحا فى « الملع ذكاء فى العالم » . وزعمت الليدى مارى أن بوب قد باح لها بحبه فى حرارة ، وأنه لم يغتفر لها قط الاستخفاف الذى قابلت به هذه المغامرة الجريئة (١٣٢) . ولزم الصمت برهة ، ولكنه كان بين الحين والحين يرهف شعره فى مناسبات يساهم يستشفها القارىء بسهولة . ولما كتبت لصديق تذكر أن سويقت ويوب وجاى هم الذين اشتركوا فى كتابة قصيدة غنائية شعبية ظن الصديق أنها من نظمها ، بعث اليها بوب بتوبيخ حاد ؛ وفى قصائده « المنوعات » التى نشرها فى ١٧٢٨ أذاع هذا التوبيخ بوضوح صارخ :

« تلك لأعيبك يا ليدى مارى ،

ولكن ما دمت تفقسين ، فاعترفى بأفراخك ،

وكونى أكثر حذقا فى نقراتك ،

فلا تنقرى كبار ديوكك كما تفعلين بصغارها (١٣٣) » .

وفى قصيدة سماها « التقليد » (١٧٣٣) أشار الى « سافو الهائجة . . . التى ابتلاها حبها بمرض . . . » وهو يعنى أن عشيقها أصابها بالزهري (١٣٤) . ويقول هوراس ولبول أنها هددت بأن ترسل اليه من يضره بالوسط .

وكانت هذه المشاحنة القبيحة ضربة أخرى أعانت على انهيار زواجها . ذلك أن ورتلى بعد أن استعاد مكانه فى البرلمان تركها مهملة

اهملا واضحا في تويكنهام . وقد جعله موت أبيه (١٧٢٧) رجلا عريض الثراء ، فزودها بحوائجها المادية ، ولكنه تركها لمواردها الخاصة في شئون الحب . وأخذ ابنها يثبت أنه وغد كمول . أما ابنتها التي غدت امرأة ذكية مهذبة فكانت سلواها الوحيدة . وحاول اللورد هرفي أن يحتل مكان بوب في حياتها ، ولكن كان في طبيعة جسمه ما جعله لا يستطيع أن يغفر لها ، ولا لزوجه ، كونها امرأة . ولابد أنه عرف بتقسيم الليدي ماري النوع الانساني الى رجال ، ونساء ، وهرفيين (١٣٥) .

وفي ١٧٣٦ دخل نيزك ايطالي فلها وغير مساره . ذلك هو فرانكسكو الجاروتي ، الذي ولد بالبندقية في ١٧١٢ ، وكان قد اثار بعض المضجة في دنيا العلم والادب الخالص . وفي ١٧٣٥ كان ضيفا في بيت فولتير ومدام دشاتليه في سيريه حيث درس ثلاثتهم نيوتن . ثم قدم الى لندن بخطابات تعريف من فولتير ، واستقبل في البلاط ، والتقى بهرفي وبالليدي ماري عن طريقه . ووقعت في غرامه كما لم تقع قط في غرام ورتلي لأن قلبها كان خاليا ، ولأنه كان جميلا ، ذكيا ، شابا . وكانت ترتعد حين يخطر لها أنها في السابعة والأربعين وأنه في الرابعة والعشرين . وبدأ أن طريقها الى الرومانس قد غدا ممهدا بزواج ابنتها من إيرل بيوت (أغسطس ١٧٣٦) . فلما سمعت أن الجاروتي عائد الى ايطاليا أرسلت اليه خطابا يفيض بعاطفة الصبايا المشبوبة :

« لم أعد أعرف بأي طريقة أكتب اليك . فمشاعري أقوى مما ينبغي ، وليس في طاقتي أن أفسرها ولا أن أخفيها . فلكي تغفر لي رسائلتي يجب أن تجيش في صدرك حماسة كحماستي . وإنني لأرى كل ما في هذا من حقاقة دون أي أمل في اصلاح نفسي . فمجرد فكرة مشاهدتك أعطتني نشوة تذيبني ، فماذا جرى لتلك اللامبالاة الفلسفية التي صنعت مجد أيامي الماضية وهدوعها ؟ لقد فقدتها الى الأبد ، ولو أن هذا الغرام المشبوب شفى لما رأيت أمامي غير الملل القاتل . فاغفر هذا الشطط الذي كنت السبب فيه ، وتعال لتراني (١٣٦) » .

وأتى ، وتناول العشاء معها عشية رحيله . وكان هرفي قد دعاه أيضا : فلم يلب دعوته . فجن من الغيرة ، وكتب الى الجاروتي طعنا

مرا في الليدى مارى ، منبها اياه الى انها كانت تبيع على لندن كلها
Veni. Vidi; Vici غزوها الايطالى بهذه العبارة المزهوبة
« جئت ، ورأيت ، وغلبت » ربما ، ولكن رسائلها الى الجاروتى لم تكن
رسائل الغالب :

« ما أجب انسان حين يحب : أخشى أن أسوء اليك بارسالى
هذا الخطاب حتى لو كان قد أتى أن أسوءك . والحق أننى مجسونة
فى كل أمر يتصل بك حتى أننى لست وأنت من خواطرى .. كل ما هو
مؤكد هو أننى سأحبك ما حبيت ، برغم نزوتك وتعقلى (١٣٧) » .

ولم يرد على هذه الرسالة ، ولا على ثانية ، ولا ثالثة ، رغم
تهديدها بالانتحار . أما الرابعة فقد انتزعت منه ردا جاء كما تقول
« فى وقت مناسب جدا لأنقاذ البقية الباقية من عقلى » . فقد عرضت
أن تتبعه الى ايطاليا ، ولكنه ثناها عن الفكرة ، وراحت تجتر غرامها
فى عزلتها ثلاث سنوات . ولكن فى ١٧٣٩ أقنعت زوجها بانها فى حاجة
الى رحلة لايطاليا . وكان قد فقد حبه لها ، فاستطاع أن يتصرف تصرف
الانسان المهذب . فودعها حين غادرت لندن ، ووافق على أن يرسل لها
راتباً ربع سنوى قدره ٢٤٥ جنيهها من دخله الخاص ، وأن يحول اليها
دخلها السنوى الذى أوصى به أبوها وقدره ١٥٠ جنيهها . وسافرت
بأسرع ما تستطيع الى البندقية أملا فى أن تجد الجاروتى هناك ، ولكنه
كان قد ذهب الى برلين (١٧٤٠) ليعيش مع فردريك الثانى المتوج
حديثاً ، وكان يحبه حب اللوطيين . واتخذت مارى لها بيتا على قناة
البندقية الكبرى وقد استبد بها الحزن ، وافتتحت فيه صالونا ،
وامتضافت الادباء والكبراء ، وحظيت بالتودد اللطيف من نبلاء
البندقية وحكامها .

ثم غادرت البندقية الى فلورنسة بعد عام ، وأقامت شهرين فى
قصر ريدولفى ضيفا على اللورد والليدى بومفريت . ورآها هوراس
ولبول هناك ، وأرسل الى ه . س . كونواى وصفا رقيقا لها :

« هل أنباتك بأن الليدى مارى ورتلى هنا ؟ انها تضحك من
الليدى ولبول (زوجة أخى هوراس) . وتفرغ الليدى بومفريت ،

وتضحك منها المدينة كلها . ولا بد أن لباسها ، وجشعها ، ووقاحتها ،
تكشفن أى انسان لم يسمع باسمها . فهى ترتدى قبعة بشعة (ترتبط
تحت الذقن) لا تخفى خصلاتها السوداء الدهنية القوام التى ترسلها
دون تمشيط أو تجعيد ، وازارار أزرق قديما يفغر فاه ويكشف عن تنورة
من التيل . وقد انتفخ وجهها انتفاخا شديدا من أحد جانبيه بمخلفات -
غطى بعضها بلزقة ، وبعضها بالطلاء الابيض . . وقد قامرت مرتين
أو ثلاثا فى لعبة ورق (تسمى الفرعونية) فى قصر الاميرة كراءون
حيث تغش بكل وسيلة فى اللعب . وهى فى الحق مسلية ، كنت أقرأ
أعمالها التى تعيرها مخطوطة ، ولكنها نسائية الى حد مفرط ، وأعجبني
القليل من أعمالها (١٣٨) » .

والواقع أن هذا الكاريكاتور كان له أساس ، فقد جرى العرف فى
ايطاليا على أن ترتدى المرأة فى بيتها الثياب الفضفاضة المهملّة توخيا
للراحة ، وما من شك فى أن وجه ماري كان منقرا جدا ، ولكن ليس
بالزهرى بالتأكيد (١٣٩) . وكان من عادات المؤلفين أن يعيروا الأصدقاء
مخطوطاتهم . وقد أثارت الليدى ماري استياء ولبول الشاب بمصادقتها
لمولى سكيريت ، التى ساءه منها أنها أصبحت الزوجة الثانية لابييه .
ولعل الليدى ماري كانت أكثر اهمالا لمظهرها مما اعتادت بعد أن خلعت
أنها فقدت الجاروتى الى الأبد .

ثم علمت أنه فى تورين ، فهرعت اليها ، ولحقت به (مارس
١٧٤١) ، وعاشت معه شهرين . ولكنه عاملها بخشونة وعدم مبالاة ،
وسرعان ما تشاجرا وافترقا ، فمضى هو الى برلين ، وهى الى جنوه ،
هناك رآها ولبول مرة أخرى ، واستمتع بكرم ضيافتها ، ووجهه الى
مركبتها أبياتا تنفث السم :

« ايه ايتها العربية ، يا من حكم عليك بأن تحملى
جلد الليدى ماري العفن ،
اذهبي بها الى أقصى ركن فى ايطاليا ،
وانزليها بالله حية ،
ولا تعجنى بهزاتك ولطماتك

نصف الأنف الذى مازالت تحتفظ به (١٤٠) » .

وفى ١٧٦٠ أبهجها أن تعلم أن صهرها أصبح عضواً فى المجلس الخاص لجورج الثالث . وفى ٢١ يناير ١٧٦١ مات زوجها تاركاً معظم ثروته لابنته ، و ١٢٠٠ جنيه فى العام لأرملة . وعادت الليدى ماري الى إنجلترا (يناير ١٧٦٢) بعد غيبة امتدت إحدى وعشرين سنة ، أما لأن صوت زوجها أزال عقبة خفية فى سبيل رجوعها ، وأما لأن سطوع نجم صهرها فى عالم السياسة قد اجتذبها الى وطنها .

غير أن الأجل لم يمهلها أكثر من سبعة أشهر ، ولم تكن بالأشهر السعيدة . ذلك أن مطاردتها للأجارتوى ، وأنباء كنتك التى أشاعها عنها هوراس ولبول ، كانت قد سوات سمعتها ؛ ثم ان ابنتها لم تسعد بصحبة أمها رغم حرصها على صحتها وراحتها . وفى يونيو بدأت الليدى ماري تشكو ورماً فى صدرها . وتقبلت فى هدوء مصارحة طبيبها لها بأنها مصابة بالسرطان ، وقالت إنها عاشت من العمر ما يكفى . وماتت بعد شهر من الألم (٢١ أغسطس ١٧٦٢) .

وكان من آخر طلباتها أن تنشر رسائلها لتعطى القراء جانبها من القصة ، وتدعم حقها فى تذكر الناس لها . ولكنها كانت قد عهدت بمخطوطاتها الى ابنتها ، فبذلت هذه الابنة (الليدى بيوت) التى غدت الآن زوجة لرئيس الوزراء ما وسعها لتمنع نشرها . على أن الرسائل التى كتبها من تركيا نسخت سرا قبل أن تسلم لابنتها ، وصدرت فى ١٧٦٣ . وسرعان ما نفدت عدة طبعات منها ، وكان من قرائها الذين ابتهجوا بها جونسون وجبون . أما النقاد الذين قسوا على المؤلفة وهى حية ، فقد أسرفوا الآن فى أطراء رسائلها . وكتب سمولت يقول ان الرسائل « لم يكتب نظيرها أى كاتب رسائل من أى جنس ، أو من ، أو أمة » وفضلها فولتير على رسائل مدام سفينييه (١٤١) . وقد م ٢٠ - قصة الحضارة

أحرقَت الليدي بيوت قبل أن تموت في ١٧٩٤ يومية أمها الضخمة ،
ولكنها تركت الرسائل ليتصرف فيها ابنها البكر . فسمح بنشر بعضها
في ١٨٠٣ ، أما الرسائل التي كتبتها للجاراتي فظلت طي الخفاء الى
أن اقنع بايرون جون مري بأن يشتريها من صاحبها الايطالي (١٨١٧) .
ولم يكتمل نشرها الا عام ١٨٦١ ، واعترف الناس بان الليدي ماري
تشارك بوب ، وجراي ، وجاي ، ورتشردسن ، وسمولت ، وهيوم ،
الفضل في جعل أدب انجلترا أعظم آداب ذلك العصر الفحل تنوعا
وحيوية وتأثيرا

الفصل السادس

التصوير والموسيقى

١٧١٤ - ٥٦

١ - المصورون

لم تكن إنجلترا التى سطع نورها الأصيل فى عالم الأدب والسياسة سوى تابع متواضع فى دنيا الموسيقى والتصوير . وكان لتخلفها فى التصوير أسباب كثيرة ، ليست منها أجوائها المعتمة ، فالأجواء اُعتمت فى الأراضي المنخفضة كذلك ، ومع ذلك حققت هولندة بمصورين كتيرين كثرة طواحين هوائها . وربما كان المانش أحد الأسباب ، لأنه كان أشبه بالترس منع عن إنجلترا الفنون كما وقاها حروب القارة ، وربما كانت الموهبة الانجليزية غارقة فى التجارة وفى الحرب بعد ولبول . وقد تلام البروتستنتية على ركود الفن الانجليزى ، لأن الفن ينمو ويتزعرع على الخيال ، والبروتستنتية أقصت الخيال عن الفن وكرسته للأدب واللاهوت ، ولكن يرد على هذا أيضا بأن هولندة كانت بروتستنتية . وأغلب الظن أن العامل الأهم كان الثورة والتراث البيورتانيين ؛ اعدام تشارلز الأول عاشق الفن ، وتشتيت مجموعته الفنية ، وانحسار الذهن الانجليزى - باستثناء ملتن - خلال فوضى الجمهورية (الكومنولث) . وقد طابا التأثير البيورتانى رأسه خلال عودة الملكية ، ولكنه عاد يرفعه مع وليام الثالث والهانوفريين ، ثم اتخذ فى الثودية صورة منبعثة القوة ، وغدا الجمال خطيئة مرة أخرى .

كان هناك مجزئات صغيرة فى الفنون الصغرى . من ذلك أن الخزف البديع الناعم العجيبة صنع فى تشلسي (١٧٥٥) تقليدا لخزف مايسين وسيفر . وأثرى خزافو برمنجهام من صنع الآنية من اللك (الملاكيه) . وبلغ ثراء أحدهم ، وأسمه جون بسكرفيل ، مبلغا أتاح له إشباع هوايته بطبع طباعات جميلة للشعراء الانجليز . وزينت حنايا الرويكوك المتسمة بالخيال الجامح الكتب والقماش والاثاث والأواني

وقصة شفيلى وقاعة الروتندا فى حدائق فوكسهول ، وبعض الحجرات فى قصر تشستر فيلىد وسترويرى هل .

اما المثالون فكان الناس قد بداوا يفرقون بينهم وبين البنائين . وكان اقطاب المثالين فى انجلترا اجانب المولد وان اصبحوا عادة مواطنين بريطانيين . فوفد بيتر شاميكز من أنتويرت ، واشرك مع لوران ديلفو فى نحت تمثال دوق بكنجهام ونورمانديه فى دير وستمنستر . وكان اعظم هؤلاء الاجانب لوى روبياك ، وهو ابن مصرفى من ليدن ، قدم الى انجلترا فى ١٧٤٤ وارتقى سريعا بفضل رعاية آل ولبول . وقد نفذ تمثال شكسبير النصفى المعروض الآن بالمتحف البريطانى ، وتمثال هندل المعروض بقاعة الصور القومية ، وحبته الملكة كارولين برعايتها ، وجلست اليه ليصنع لها تمثالا ، وكلفه بان ينحت تماثيل نصفية لبويل ، ونيوتن ، ولوك ، وغيرهم من افاضل الانجليز لتضعها فى مغارتها برتشموند . وقد لقب تشستر فيلىد (وكان ذواقة للفنون) روبياك - « فيدياس زمانه (١) » . ومات روبياك مفلسا فى ١٧٦٢ بعد ان عاش حياة ملؤها التفانى فى خدمة فنه .

اما العمارة فكانت فى نشوة من فن بالاديو . ذلك ان الثروة المتصاعدة التى حققتها الدايقات الحلييا التى اثرت وهى منبرمة فى ظل السلام الوبولى قد مولت مئات الرحلات الكبرى ، التى تشرب فيها السادة البريطانيون حب معابد الرومان وقصور النهضة . وكانت البندقية دائما تدخل فى اسفارهم ، فيقف المسافرون فى الطريق عند فتشنتسا ليعجبوا بواجهات بالاديو ، فاذا عادوا ملأوا انجلترا بالاعمدة والاعتاب والقواصر الكلاسيكية . وفى ١٧١٥ - ٢٥ اصدر كولين كامبل كتابه « فتروفويس بريتانىكوس » الذى اصبح انجيل البلاديويين ، ودفع وليم كنت (١٧٢٧) وجيمس جبز (١٧٢٨) الطراز دفعة اخرى بتاليف كتيبات فى العمارة ، وفى ١٧١٦ نشر رتشرد بويل ، ايرل برلنجن الثالث ، طبعة فاخرة من نصوص بالاديو ، وفى ١٧٣٠ نشر ترميمات بالاديو للصروح القديمة . واحتوى بيته الريفى فى تشريك على نسخة من « فيلا روتندا » التى بناها بالاديو فى

فتشتنما ، برواقها المعمد وقبتها الوسطى . وكان برلنجن راعيا سخيا
للآداب والموسيقى والفن ، وصديقا لباركلى وهندل وبوب وجاى .

وفى ١٧١٩ جلب معه من روما معماريا شابا يدعى وليم كنت ظفر
بجائزة بابوية على رسومه ، وكان شديد التحمس لكل ما هو كلاسيكى .
وغدا كنت أحب الفنانين وأحفلهم بالمواهب فى إنجلترا ، بعد أن سكن
قصر برلنجن حتى وفاته (والقصر مازال بعد تجديده مركزا من مراكز
الفن الانجليزى) فصور أسقف قصور هوتن وستو وكنزنجتن ؛ وصمم
الآثاث وصحاف الطعام والمرايا والزجاج ، ومركبا للمهرجانات وملابس
لسيدات المجتمع ، ونحت تماثيل شكسبير فى دير وستمنستر ؛ وكان ممن
تزعموا حركة تشجيع الحديقة الانجليزية « الطبيعية » ؛ وفى ميدان
العمارة شيد معبد الفضيلة القديمة فى حدائق ستو ، وقصر ديفونشير
ببيكادلى ، وقصر حرس الخيالة فى هوايتهول ، وقاعة هولكم المدهشة
فى نورفوك .

وفى ١٧٣٨ رفع اللورد برلنجن الى مجلس مدينة لندن تصميم
كنت البيلاديو لمسكن عمدة لندن « مانشن هاوس » ، واعترض عضو
بأن بالاديو كان بابويا ، فرفض تصميم كنت ، وتلقى جورج دانس
الاب التكليف (وكان بروتسنتيا) وقام به خير قيام . ولكن فى ذلك
العام بدأت الحفائر فى هر كولانيوم ، وأفضت الكشف فيها الى الحفر
عن بومبى (١٧٤٨ وما بعدها) ، وفى ١٧٥٣ نشر روبرت وود
« أطلال بلميرا (تدمر) » وفى ١٧٥٧ « أطلال بعلبك » ، وأعطت
هذه الكشف للحملة الكلاسيكية فى إنجلترا دفعة لا تقاوم ، ووضعت
حدا لوفرة التزييق الباروكى الذى ازدهر فى قصر فانبروج « بلنيم »
الذى بنى لأسرة تشرشل . وفى ١٧٤٨ بنى اسحاق وير ، وهو معمارى
آخر كان يرعاه برلنجن ، قصر تشترفيلد فى شارع كرزن .

وقد فات البالاديويين فى تحمسهم هذا أن العمارة الكلاسيكية
انما صممت لأجواء البحر المتوسط لا لرياح إنجلترا وغيوها . وأخطأ
كولن كامبل خطأ جسيما بنقله عن النماذج الايطالية دون أن يطوعها
لشتاء إنجلترا ؛ فقلعة ميروث التى بناها لم تسمح الا لبصيص من أشعة

الشمس بحولها ، أما قاعة هوتن التي شادها لروبرت ولبول فقد ضحت بحجرات المعيشة ايثارا للصالات الفخمة التي تلقف التيارات الشديدة البرودة . واستخدم جيمس جيز ، أحد تلاميذ كرسطوفر رن ، الطراز الكلاسيكى استخداما رائع التأثير فى كنيسة سانت مارى - لستراند يلندن (١٧١٤ - ١٧) ، ويرج هذه الكنيسة أشبه بأغنية من الحجر . وأضاف جيز (١٧١٩) الى كنيسة سانت كلمنت دين التي بناها رن برجا يعطو علوا لا يتناسب مع قاعدته ، ولكنه مع ذلك جميل جمالا محفوفا بالخطر . وتوج عسله فى ١٧٢١ برواق كلاسيكى وأعمدة كورنثية فى سانت مارتنز - ان - ففيلز ، بميدان ترافلجار . وأخيرا خلق فى مكتبة رادكليف باكسفورد (١٧٣٧ - ٤٧) لحنا منسجما من الأعمدة والقبه .

أما بهاء بات المعمارى فالفضل الأول فيه لجون وود . وكانت الفكرة المسيطرة عليه هى ربط المبانى المفردة فى كتلة واحدة ، ومن ثم صمم وبدا - واكمل ابنه جون بكفاية - « الهلال الملكى » الضخم - وهو ثلاثون بيتا وراء واجهة موحدة من ١١٤ عمودا كورنثيا - دمرت تدميرا شديدا فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن أمكن ترميمها . وعلى مقربة من هذا المكان بقى وود الأب والابن « السيركس » (الميدان) (١٧٥ - ٦٤) ، وهو دائرة جميلة من المساكن يكسو واجهتها أفريز متصل وثلاثة صفوف من الأعمدة ؛ هنا سكن بت الأب ، وتوماس جيتزموور ، وكليف حاكم الهند . وصمم وود - دون أن يكمل - لجوانب ثلاثة من « كوين سكوير » سلسلة أخرى من المنازل الموحدة وراء واجهة تحكى واجهات قصور النهضة . والكثير من هذا البرنامج ، برنامج تصميم وبناء المدن ، موله رالف ألين الذى اتخذه فيلدنج نموذجا صاغ على غرار « سكواير أولورذى » . وبنى وود الأب لأن قصرا فاخرا بلاكديوى الطرقات فى برايمور بارك (١٧٣٥ - ٤٣) ، خارج باث . بميلين .

لقد كان فقر جماهير بريطانيا يعدله بهاء قصورها . فقد تكلف معبد آلن فى برايمور بارك ٢٤٠.٠٠٠ جنيه . وأوحت نزوة المباراة للتجارة بإقامة القصور الضخمة للضيافة والتباهى . ويقول.

هرفى ان روبرت ولبول اكتسب عدااء اللورد تاوونشند الابدى بينائه هوتن هول على مستوى أشد ترفا حتى من قصر تاوونشند المجاور المسمى رينهام بارك . وقد ندد اللورد لثقتن بهذا « الجنون الوبائى » جنون بناء القصور ، ومع ذلك طالبت زوجته بقصر جديد يبنى على الطراز الايطالى ، فأذعن لها تحت ضغط اللاحاح والى حد أشرف به على الافلاس . فلما تم بناء القصر هجرت زوجها الى مغنى أوبرا ايطالى مشكوك فى رجولته ، ومرعان ما انتشرت فى انجلترا ، وحتى فى ارلندة الانجليزية ، أمثال هذه البيوت المظهيرية التى بناها الأغنياء . ونظمت الرحلات السياحية ، ونشرت الكتب المرشدة ، لزيارة هذه المساكن الفخمة وحدائقها وقاعات صورها . وطبقت شهرة هذه الصروح الكفائى حتى بلغت روسيا ، فطلبت كاترين الكبرى الى جوسيا ودجود ان يصنع لها طقم مائدة امبراطوريا مزيئا بمناظر من قصور الريفه الانجليزية (٢) .

وأودعت معظم الصور فى انجلترا ، وإخفيت فى كثير من الحالات ، فى هذه البيوت الارستقراطية اذ لم يكن هناك بعد متاحف يستطيع الجمهور العام ان يشاهد فيها الصور . وكانت الرعاية تغدق بوجه خاص على الفنانين الأجانب ، وكلها تقريبا لقاء لوحات تصور الاعيان الذين داعبهم الامل فى ان يخلدوا على القماش بينما تولى أجسادهم داخل توابيت من الخشب ؛ ولم يكن هناك سوق للمناظر الطبيعية ولا للوحات « التاريخية » . فلما وفد كارل فانلو على انجلترا فى ١٧٣٧ تهافت الكثير جدا من الوجوه النبيلة عليه ليصورها ، حتى ان رتل العربات المقترية من بيته ظل أسابيع يتافس ذلك الواقف أمام المسارح . ودفعت المبالغ الطائلة للرجل الذى كان يسجل مواعيده رشوة يؤدونها له ليسبقوا غيرهم والا فقد يضطر الواحد منهم الى الانتظار ستة أسابيع (٣) .

وحاولت « الجمعية الملكية للفنون » التى أسست عام ١٧٥٤ أن تشجع المواهب الوطنية بالمباريات والمعارض ، ولكن الطلب على التصوير الانجليزى تباطأ جيلا آخر . وظفر جوزف هايمور ، وهو تلميذ لنلر ، ببعض المشترين للوحاته حين رسم مشاهد من رواية

« باملا (٤) » ؛ والتقط توماس هدرن بعض حيوية هندل فى لوحته التى رسمها له فى ١٧٤٩ (٥) . وكان من تلاميذ هدرن مصور يدعى جوشوا رينولدز ، تنبأ أستاذه بأنه « لن ينبغ أبدا (٦) » . ولكن المر جيمس ثورنهل كان أبعد نظرا . فقد حقق نجاحا بصور نيوتن ، وينتلى ، وستيل ، وصور القبة الداخلية لكنيسة القديس بولس ، وأسقف مستشفى جرينتش وقصر بلنهم ، وأحرز الخلود بالانابة ، لأنه زوج ابنته لأعظم مصورى العصر الانجليز قاطبة .

٢ - وليم هوجارث : ١٦٩٧ - ١٧٦٤

كان أبوه مدرسا وكاتبا أجيرا ، الحقه فى صباه بنقاش للأسلحة . وانتقل من ذلك الى الحفر على النحاس ، ثم الى رسم الرسوم الايضاحية للكتب . وفى ١٧٢٦ أعد اثنتى عشرة محفورة (كلشيئات) كبيرة لكتاب بطر « هودبيراس » . ثم التحق بفصل التصوير الذى كان يعلم فيه ثورنهل ، وتعلم التصوير بالزيت ، ثم هرب مع ابنة أستاذه ، وصفح عنه ثورنهل وعيئه مساعدا له .

كانت الرسوم الايضاحية التى رسمها هوجارث لمسرحية العاصفة ، ولمسرحيتى هنرى الرابع ، ولأوبرا الشحاذ ، صورا نابضة بالحياة . فميراندا رقيقة حنون ، وكالبان فظ غليظ ، وبروسبرو عطوف كريم ، وإيريل يداعب مزهرا فى الهواء ، والسير جون فلسطاف يتكلم من كرشه بخيلاء ، والكبتن ماكهيث فى أغلاله وألحانه ، بطل فى عيون زوجاته رغم كل شيء . ووقع هجاء المستقبل على ذلك العرق الذى تميز به ، وذلك فى لوحة « المصلين النيام » ، فقد كره هوجارث كل المواعظ الا مواعظه ؛ أما فى « حفلة الاطفال » فقد تلذذ بأجمل جوانب الحياة الانجليزية . وهذه الصور تلذنا الآن ، ولكنها لم تائه بثناء وقتها .

وجرت تصوير الاشخاص ولكنه لم يحقق نتائج تذكر ، وكانت المنافسة قاسية ، فأكثر من عشرة مصورين يجمعون ثروات صغيرة بتملق زبائنهم وتوزيع العمل على مساعديهم ؛ فهم يرسمون الرأس ولكنهم يحيلون رسم الخلفيات والستائر لمساعدين يبخسونهم أجورهم . يقول هوجارث

« وكل هذا يتم بسرعة مريحة تتيح للرئيس الحصول فى أسبوع واحد على مال أكثر مما يستطيع أن يحصل عليه رجل ذو مواهب فنية من أعلى المراتب فى ثلاثة أشهر (٧) » . وندد بتجار الوجوه هؤلاء الذين جملوا وجوه زبائنهم اشباعا لغرورهم واستدرازا للمالهم . أما هو فمذهبه أن يصور زبائنه بكل ما فيهم من دمايل والا فلا . فلما جلس اليه نبيل تغلب عليه سيماء القردة صوره هوجارث باهانة مؤذية . ورفض اللورد أن يأخذ صورته اذ لم يكن قد رأى نفسه قط كما يراه الآخرون . فأرسل اليه المصور رسالة جاء فيها :

« المستر هوجارث يقدم احتراماته الواجبة للورد - واذا وجد أنه لا يريد أن يأخذ الصورة التى رسمت له ، فهو يذكره مرة أخرى بحاجة المستر هوجارث الى اللال . فاذا لم يرسل سيادته فى طلب الصورة خلال ثلاثة أيام ، فسيبيعها ، بعد اضافة ذيل وغيره من الملحقات الصغيرة ، الى المستر هير مقتنى الوحوش الشهير ؛ لأن المستر هوجارث قطع لذلك السيد عهداً باعطائه الصورة لعرضها فى معرض للصور (٨) » .

ودفع اللورد المال .

وكان هوجارث واثقا من أن فى استطاعته أن يرسم صور الاشخاص كأي فنان قدير . وبينما كان يصور هنرى فوكس (البارون هولاند فيما بعد) أخبر هوراس ولبول أنه وعد فوكس انه اذا جلس متبعا تعليماته فانه سيرسم له صورة لا تقل روعة عن صور روبنز أو فانديك (٩) ، وهو ما صدم هوراس فى الصميم من تقاليد . وربما برر كثير من لوحات هوجارث التى رسمها للذكور استنكار ولبول لها ، فالوجوه « مقولبة » جدا ، وبعضها يستحق وصف هوجارث الهازى لبعض الصور الانجليزية بالـ « ساكنة » ولكن يجب أن نستثنى منها لوحة « السر توماس كورام » التى أسلفنا ذكرها فى معرض الحديث عن الاحتفال بمستشفى اللقطاء الذى أسسه كورام ، والذى ترى فيه صورته ، فقد التقط هوجارث الطبيعة البارة بالناس فى الوجه المتبسّم ، والخلق الحازم فى اليدين المقبوضتين . ولقد كانت فرشاته ، بوجه عام ، أرفق بالنساء منها بالرجال . مثال ذلك أن « صورة سيدة » تنافس صور

جانزبورو ، وصورة « سيدة فى ثياب بنية (١١) » لها الملامح القوية لامرأة أفلحت فى تربية أطفال كثيرين ؛ واذا كانت صورة « الأنسة مارى ادوردز (١٢) » مينة نوعا ما ، فإن الكلب - وهو حاضر دائما فى لوحات هوجارث - يبعث فيها الحياة ، وأروع من هذه الصور اللوحات الجماعية مثل « أسرة برايس (١٣) » و « أبناء جراهام (١٤) » وأفضل حتى من هذه « خدم هوجارث (١٥) » ، حيث ترى كل وجه مرسوما فى حب بكل طابعه المتفرد . وأبدع صوره كلها بالطبع هى « بائعة الجمبرى (١٦) » - وهى ليست لوحة شخصية بل ذكرى رجل سليم قوى المصيبة التى رآها تبيع الجمبرى من سلة متزنة على رأسها ؛ فتاة عطلت من كل زينة أو زخرف ، لا تستحى من الأسمال التى تكسوها ، تطل على الدنيا وقد توردت وجنتاها وتالقت عيناها صحة وعافية بفضل الحركة والنشاط .

وقد ترك هوجارث على الأقل أربع لوحات صور نفسه فيها . وفى ١٧٤٥ صور نفسه مع كلبه السمين « ترمب (١٧) » . وفى ١٧٥٢ أرانا نفسه جالسا الى حامله ، جسم قصير متين ، ووجه مستدير قصير سمين ، وأنف أقطس عريض ، وعينان زرقاوان أتعبهما طول النضال وشفقتان مزمومتان تحفزا لاستئناف النضال . كان فى رأى ثكرى « مواطننا لندنيا أميذا مرحا ، ورجلا مخلصا صريحا ، يحب نكته ، وأصحابه ، وكاسه ، وروزبيفه - روزبيف انجلترا العجوز (١٨) » . ولم يكن يصل طوله الى خمسة أقدام ، ولكنه كان يحمل سيفا (١٩) ولا يطيق اللغو من أى انسان . ووراء حبه للقتال دفاعا عن النفس قلب محب ، مسرف فى العاطفة أحيانا ، قطع على نفسه العهد أبدا بشن الحرب على النفاق والقسوة . وكان يحتقر النبلاء الذين يصورهم ، ويحب اللندنى البسيط البرىء من الخيلاء . وقد أدخل الجماهير الانجليزية الى دنيا الفن ، فصورهم فى آثامهم وآلامهم ، فى مستشفى المجاذيب ، والسجن ، والدين ، والكذ المضى . وكره الفرنسيين لأنهم أفسدوا الانجليز بغلوهم فى الزينة وبخيلائهم الارستقراطية . ولم ينس قط أنه قبض عليه لانه رسم رسوما تخطيطية لبوابة كاليه ، فثار لنفسه بتصويره الفرنسيين كما رآهم هناك : عمالا أجلافا ، وجمهورا يؤمن بالخرافة ، وراهبا بدينا يحدق بنشوة فى كتف من لحم البقر (٢٠) .

وقد أنبأنا هوجارث فى كتابه « نوادر » كيف حولته ضالة ربحه من صورته الى الاتجاه الذى اكسبه الشهرة ، قال :

« كرهت أن أنحدر الى درك « صانع » الصور الشخصية ، واذ كنت لا أزال أصبو الى الاستقلال فى عملى ، فقد طلقت كل أمل فى الانتفاع من ذلك المورد . . . وبما أننى لم أستطع اقناع نفسي بالعمل كما يعمل بعض اخوانى ، وجعل تصوير الأشخاص ضربا من الصذاعة يدار بالاستعانة بمصورى الخلفيات والستائر ، لذلك لم تحقق لى هذه الطريقة من الربح ما يكفى لسد نفقات أسرتى . ومن ثم وجهت أفكارى الى رسم وحفر الموضوعات الخلقية العصرية ، وهذا ميدان لم يطرق لى أى بلد أو عصر (٢١) » .

وعلى ذلك رسم فى ١٧٣١ - ١٧٣٢ صور سماها « رحلة بنى » ، وحفرها على النحاس ، ومن هذه المحفورات صنع سلسلة من النسخ المطبوعة عرضت للبيع بعد عام ، ترى فيها الفتاة القادمة من الريف تقدمها قوادة قادرة على الاقناع الى سيد ملهوف ؛ والصبية سريعة التعلم ، ولا تلبث أن تحرز ثراء قبيحا . ثم يقبض عليها لا للبقاء بل للمرقة ، وتؤدى عملها المفروض عليها فى السجن وهو نفخ القنب ، ثم تسير حثيثا الى المرض والموت ، ولكن يعزيها أن يشيع جثمانها رهط من المومسات . وكان فى استطاعة هوجارث أن ينقل شخوصه من الواقع دون مشقة أو عناء ، فقد رأينا المسز نيدهام ينكل بها فى المشهرة عقابا لها على احترافها البغاء ، ويحصبها الجمهور ، وتموت من اصابتها . (ومع ذلك فان الكولونيل تشارتريز ، الذى اتهم مرتين بهتك العرض وحكم عليه مرتين بالاعدام ، عفا عنه الملك مرتين ، ومات فى أبهة النبلاء بمقره بالريف (٢٢)) . وقد أخطأ هوجارث حين خيل اليه أنه طرق ميدانا جديدا فى هذه الرسوم التى تمثل الحياة اليومية ، فقد سبقها الكثير فى ايطالية النهضة ، وفى فرنسا ، وفى الأراضي المنخفضة ، وفى المانيا . ولكن هوجارث جعل الآن من « الموضوعات الخلقية » فنا وفلسفة . على أنه ، ككل الأخلاقيين ، لم يكن مبررا من اللام ، فقد أطلق فى غير اشمئزاز صلبة السكارى والبغايا (٢٣) ، وكان الهدف من صورته المطبوعة أولا التكسب ، ثم التبشير بالفضيلة إن أمكن .

وراجت صور « البغى » المطبوعة ، فاستهوت ألفا ومائتى مكتب ،
يونيف ربحها الصافى على ألف جنيه . ومع أن طبعات مسروقة كانت
تنتقص من ربح المصور ، فانها أبعدت شبح الجوع عن بابه . واقتبل
الجمهور البريطانى فى غير تردد على مناظر الخطيئة هذه ، وهو
الذى لم يكن به ولع باللوحات ، فهنا فاكهة محرمة ، طهرتها الفضيلة
ولكنها لم تنتقص من بهجتها ، وهنا يستطيع المرء لقاء ثمن زهيد أن
يتعرف الى الرذيلة وهو فى مأمن ، وأن يرقب عقابها الذى تستحقه
وهو راض . واستطاع هوجارث الآن أن يطعم أسرته من مكاسبه ، لا بل
اتخذ مسكنا له فى حى لستر فيلدز العصرى ، وعلق على بابه رأسا
مذهبا يشير الى مهنته فنانا . وقد اشترى بعد ذلك بيتا ريفيا فى
كزيك .

ثم رسم صورا كبيرة فى السنوات القليلة التالية ، لا سيما
« مهرجان سذيرك » - وهى لوحة « بروجلية » انجليزية - ولوحة
جماعية لطيفة تدعى « أسرة أدوردز » ولكنه عاد الى رسومه المطبوعة
فى ١٧٣٣ ، وعارض سلسلة « البغى » بسلسلة سماها « رحلة الفاجر »
ترى فيها شابا طائشا مفتونا يرث فجأة تركة كبيرة ، فيهجر أكسفورد
الى لندن ، ويستمتع بالحانات والمومسات ، ويبدد ماله ، ويجر الى
السجن لعجزه عن الوفاء بديونه ، ثم تنقذه خليلته التى نبذها ،
ويستعيد قدرته على الوفاء بديونه بالزواج من كهله عوراء غنية ، ولكنه
يقامر بثروته الجديدة فى نادى هوايت ، فيودع السجن مرة أخرى ،
ويختتم سيرته مجنونا فى مستشفى « بدلام » . لقد كانت تمثيلية
أخلاقية فى صور سهلة الفهم تصور قطاعا من الحياة تصويرا دقيقا .
ولكى يحمى هوجارث سلسلة صور « الفاجر » المطبوعة من السرقة
شن حملة تستهدف الحماية القانونية لحقوقه . وفى ١٧٣٥ أقر
البرلمان « قانونا لتشجيع فنون الرسم ، والحفر ، والنقش الخ » ،
وهذا القانون ، الذى تعارف الناس على تسميته « قانون هوجارث »
أعطاه حقا يعادل حق التأليف على صورته المطبوعة . وفى ١٧٤٥ باع
بالمزاد اللوحات التى حفر عنها سلسلتى « البغى » و « الفاجر » ،
فربح منها ٤٢٧ جنيها .

وتوافرت له الآن الكفاية المالية والثقة بالنفس ، فغزا غزوة أخرى

فى التصوير . « لقد راودتنى بعض الافعال فى أن أنجح فيما يسعني .
المغالون فى اطراء الكتب « الأسلوب العظيم فى تصوير التاريخ (٢٤) » .
وفى العقد الممتد من ١٧٣٥ الى ١٧٤٥ أنتج صوراً رائعة كان عليها أن
تنتظر قرناً لتحظى بالتقدير . فلوحة « الشاعر المحزون (٢٥) » هى
القصة القديمة ، قصة المؤلف الذى افتقر يطالب فى الحاج بايجار مسكنه
بينما تحيك زوجته فى عصبية وبنام قطه فى رضى خلى من الهم .
وحاولت لوحته « بركة بيت حسدا » رسم مشهد من الانجيل ، ولكن
هوجارث تباه بحسنا نصف عارية تقف أمام المسيح وجها لوجه . ولم
يكن الفنان معصوماً من اغراء جسد الانثى ، ففي محفوريته « المثلثات
المتجولات يرتدين ثيابهن فى جرن » خلغ على هذا الجسد مزيداً من
الفتنة والاغراء بالثياب نصف المجردة . وتقرب لوحة « السامرى
الصالح (٢٦) » من مستوى « أئمة التصوير القدامى » . والطف منها
لوحة كبيرة سماها « ديفد جاريك فى دور رتشرد الثالث (٢٧) » وقد
كلفه بها رجل يدعى دنكوم دفع فيها مائتى جنيه ، وهذا أغلى ثمن دفع
لمصور انجليزى الى ذلك الحين .

ومع ذلك لم تظهر هذه الاعمال باستحسان النقاد . فعاد هوجارث
(١٧٥) الى هجو الحياة اللندنية فى محفورات أكد فيها المناقش درساً
أخلاقياً بقصة . ففي المشهد الأول من « الزواج العصرى » يتعاقد ايرل
مفلس مصاب بالنقرس ليزوج لقبه وابنه الكاره فتاة كارهة هى ابنة حاكم
أقليمي غنى . ويعرض الأيرل نسب الأسرة فى شكل شجرة على درج ،
ويرش المحامى المسحوق المجفف على التوقيعات ، ثم يدير العريس ظهره
للعروس التى تلقى أذناً مصغية لعشيقها ، ويختص كلبان نفسيهما بالسلام
العائلى . وفى المنظر التالى يبدو الزوجان وقد تخاصما . فقد عاد اللورد
الشاب منهوكاً من مغامرة أنفق فيها ليله ودلت على طبيعتها قلنوسة فتاة
من الدنتلا تطل من جيبه ؛ أما الزوجة الشابة فتتشاب بعد أن قضت الليل
ترفه عن أصحابها بالموسيقى والقمار و « الدردشة » ، وهنا أيضاً ليس
هناك مخلوق سعيد الا الكلب . أما المشهد الثالث فهو هوجارث فى أجراً
حالاته ، ترى فيه اللورد الوغد يأتى بخيلته الى طبيب دجال ليجهضها ،
والمنظر الرابع يرينا الزوجة أثناء ترجيل شعرها فى استقبال الصباح ،
ونرى عشيقها معها وهى تتجاهل الموسيقى التى يعزفها أو يغنيها

ضيوفا ، وفيهم مخنث فى شعره أوراق ملفوفة . وفى المنظر الخامس امسكها زوجها متلبسة مع عشيقها ، ويستل الرجلان سيفيهما ، ويجرح الزوج جرحا مميتا ، ويفر العشيق من النافذة ، ويغلب الندم الزوجة ويظهر رجل الشرطة بالباب . وفى المنظر الأخير ترى الأرملة الشابة تحتضر ، وينزع أبوها خاتما ثمينا من أصبعها ليستنقذ البقية الباقية من الثروة التى دفعها ثمنا للقبها .

وفى ١٧٥١ أعلن هوجارث أنه سيبيع بالمزاد فى ساعة محددة فى مرسه اللوحات الزيتية التى رسمها لسلسلة « الزواج العصرى » ، ولكنه أنذر تجار الصور أن يبتعدوا عن المزاد . فلم يظهر غير شخص واحد ، عرض ١٢٦ جنيهها ثمنا للوحات وأطرها . ونزل عنها هوجارث لقاء هذا الثمن ، ولكنه سخط فى سره على ما رآه اخفاقا معيبا . وفى ١٧٩٧ بيعت هذه اللوحات بمبلغ ١٣٨١ جنيه . وهى اليوم من أغلى ما تملكه قاعة الصور القومية بلندن .

وكان أثناء ذلك قد أسخط الملك بلوحتة « زحف فرقة الحرس الى اسكتلندة » (١٧٤٥) وكانت السنة التى حاول فيها « الأمير تشارلى الجميل » الاطاحة بالهانوفرين . وصور هوجارث رجال الحرس الملكى يتجمعون عند احدى ضواحي لندن المسماة فنشلى . يدعوهم زمار وطبال ، ويستعين الجند على تقبل قدرهم بالسكر ، وهم جماعة مظهرهم زرى ، وأصلح للقصف فى حانة منهم للقاء مع الموت فى ساحة الأبطال ، وأطلع جورج الثانى على اللوحة كطلب الفنان الذى استأذن فى اهدائها اليه . ولكن الملك رفض وهو يصيح «ماذا ؟ مصور يهزأ بجندى ؟ انه يستحق أن يحبس عقابا على وقاحته . اغربوا باللوحة الحقيرة عن وجهى » وتقول رواية غير مؤكدة أن هوجارث أهدى الصورة الى فردريك الأكبر بوصفه « مشجعا للفنون والعلوم (٢٨) » .

وعاد الى صوره المطبوعة الهجائية . فتتبع سيرة صبيين من صبيان الصناعات فى اثنتى عشرة لوحة سماها « الجد والكسل » (١٧٤٧) . فاما فرائدك جودتشايلد فيكد ويكدج ويقرأ الكتب الجيدة ويختلف الى الكنيسة كل أحد ، ويتزوج ابنة معلمه ويحسن الى الفقراء ، ويصبح عمدة البلدة وحاكما اقليميا ثم عمدة على لندن ، وأما توم أيدل فينام

ويشخر فوق نوله ، ويقرأ الكتب الخبيثة مثل « مول فلاندرز » ، ويسكر ويقامر وينشل ، ثم يؤتى به أمام الحاكم جودتشايلد الذى يحكم عليه بالشنق وهو يبكى شفقة عليه . وقابلت محفورتان ، هما « زقاق الجين » و « شارع الجعة » (١٧٥١) بين « النتائج الرهيبة لشرب الجين » والآثار الصحية للجعة . أما « المراحل الأربع للقسوة » (١٧٥١) فقد قال الفنان انهما استهدفت « تهذيب تلك المعاملة الهمجية للحيوان ، التى تجعل منظر شوارع عاصمتنا محزنا جدا لكل نفس حساسة . واننى لاشد فخرا برسمى لهذه الصور مما لو كنت صاحب رسوم رفائيل الهزلية (٢٩) » . وفى سلسلة « صور أربع لأحد الانتخابات » (١٧٥٥ - ٥٨) استهدف، شرورا أبهظ ثمنا ، فقد هاجمت فساد السياسة الانجليزية .

ولو أخذنا صور هوجارت المطبوعة على أنها مجرد رسوم لكانت فجة فى فكرتها وتنفيذها متعجلة غير دقيقة فى تفاصيلها . ولكنه كان ينظر الى نفسه على أنه مؤلف أو كاتب مسرحى أكثر منه مصورا ، وقد أشبهه صديقه فيلدنج أكثر من الد خصومه وليم كنت ، ولم يكن يعرض تقنيات التصوير بل يقدم صورة للعصر ، « لقد حاولت تناول موضوعى كما يتناوله كاتب للدراما ، فصورتى هى خشبة مسرحى ، والرجال والنساء هم ممثلو الذين يراد منهم ببعض الحركات والالاماعات أن يقدموا عرضا صامتا (٣٠) » . ونحن اذا نظرنا الى صور المطبوعة على أنها هجائيات وجدناها مبالغات متعمدة ، فهى تشدد على جانب وترهف نقطة وهى أكثر ازدحاما بالتفاصيل مما ينبغى أن يكون عليه العمل الفنى ، ولكن كل تفصيل فيما عدا الكلب الذى لا مناص منه يسهم فى الموضوع . وصوره المطبوعة فى مجموعها تتيح لنا نظرة الى طبقة لندن الوسطى - الدنيا فى القرن الثامن عشر ؛ البيوت ، والحانات وحى المل ، وكوفنت جاردن ، وكوبرى لندن ، وتشيسايد ، وبرايدويل ، وبدلام ، وشارع فليت ، وهذه ليست كل لندن ، ولكن ما صورته منها ينبض بالحياة نبضا رائعا .

أما ناقدو الفن وجماعوه وتجاره فى ذلك العهد فلم يعترفوا لا بكفاية هوجارت فنانا ولا بصدقه هجاء . فاتهموه بأنه لا يصور غير

حالة الحياة الانجليزية ، وسخروا منه لأنه اتجه الى صور مطبوعة شعبية لعجزه عن تصوير اللوحات الشخصية الناجحة أو المناظر التاريخية . ونددوا برسمه لأنه مهمل وغير دقيق . وقد رد عليهم بأن اتهم التجار بأنهم يتآمرون على الاشادة بما يحتفظون به من مخلفات كبار المصورين القدامى ، بينما يتركون الأحياء يتصورون جسوعا . قال :

« ان أفضل الصور صيانة واكملها صقلا ، بغير تكريس لها من سلطتهم وتأييد من التقاليد . . . لا تباع فى مزاد علنى بخمسة شلنات ، فى حين أن لوحة قماشية عتيقة ، حقيرة ، معطوبة ، مرممة ، اذا كرسها ثنائهم عليها ، لا بد أن تباع بأى ثمن مهما غلا ، وتحتل مكانا بين أرقى المجموعات . كل هذا يفهمه التجار فهما تاما (٣١) » .

وقد رفض أن يخضع رأيه لامثال هؤلاء التجار أو الخبراء . وندد باسترقاق المصورين الانجليز لمحاكاة فاندريك أو للى أو نلر ؛ لا بل أنه أطلق على عمالقة التصوير الايطالى لقباً هزلياً هو « الأستاذة السود » ، لأنهم ألّقوا على التصوير الانجليزى حجاباً كثيفاً بالسحر الأسود (الشيطانى) الكامن فى ألوانهم القاتمة الشبيهة بالصلصة البنية . فلما بيعت لوحة منسوبة الى كوريدجو باريعمائة جنيه فى مزاد بلندن ، لشكك فى صحة نسبتها وفى قيمتها ، وقال ان فى وسعه أن يرسم صورة لا تقل عنّها جودة فى أى وقت شاء . فلما تحداه بعضهم ، رسم لوحة « سجموند » (١٧٥٩) - وهى محاكاة جيدة لكوريدجو ، فيها الدانتيل والملايس الزاهية والأيدى الرقيقة والوجه الجميل ، ولكن العينين كان يشوبهما من الاكتئاب ما لم يسر المشتري المنتظر ، الذى أبى أن يدفع الجنيهاات الأريعمائة التى طلبها هوجارث ثمناً لها . وقد بيعت بعد موته بستة وخمسين جنيها .

ثم أعطى خشومه سلاحاً جديداً بتأليفه كتاباً . فعلى لوحة الألوان الظاهرة فى الصورة التى رسمها لنفسه ولكلبيه (١٧٤٥) كان قد تتبع خطاً ملتفاً لاح له أنه العنصر الاساسى فى الشكل الجميل . وقد عرف هذا الخط فى رسالة تربوية سماها « تحليل الجمال » (١٧٥٣) بأنه

ذلك الخط الذى يتكون بلف سلك فى توال مطرد حول مخروط ، وذهب الى أن خطأ كهذا ليس سر الجمال فحسب ، بل حركة الحياة . وكان هذا كله فى رأى نقاد هوجارث هراء سخيفا .

على أنه أثرى برغم أنوفهم ، فاقتنى كل بيت مثقف تقريبا صوره المطبوعة ، وتاخ له بيعها المتصل دخلا ثابتا . وفى ١٧٥٧ ، وبعد أن نسيت لوحته « زحف فرقة الحرس » ، عين « رئيس المصورين لكل أعمال جلالتة » ، وهى وظيفة ألتته بمائتى جنيه أخرى فى السنة . وكان فى وسعه الآن أن يختصم أعداء جدد . وفى ١٧٦٢ أصدر صورة مطبوعة سماها « العصر الحاضر » هاجم فيها بت وولكس وغيرهما لأنهما تاجار حرب . ورد ولكس فى مجلته « البريطانى الشمالى » يصف هوجارث بأنه عجوز مغرور جشع لا يستطيع تصور « فكرة واحدة عن الجمال » ورد هوجارث بنشره لوحة صور فيها ولكس وحشا أحول . ورد تشرشل ، صديق ولكس ، بخطاب شرس سماه « رسالة الى وليم هوجارث » ، فأصدر هوجارث صورة مطبوعة بدا فيها تشرشل على هيئة دب ، وكتب يقول « أن اللذة والفائدة المالية اللتين حصلتا عليهما من هاتين المحفورتين ، بالإضافة الى ركوبى الخيل بين الحين والحين ، أعادا الى من الصحة الموفورة أكثر ما يرجى فى مثل عسى » . ولكن فى ٢٦ أكتوبر ١٧٦٤ انفجر أحد شرايينه فمات .

ولم يترك بصمة منظورة على فن زمانه . وفى ١٧٣٤ افتتح « مدرسة حياة » ليدرب الفنانين ، وقد أدمجت فى ١٧٦٨ فى الأكاديمية الملكية للفنون . ولكن حتى الفنانون الذين تعلموا فى مدرسته هجروا واقعته مؤثرين عليها المثالية الفاشية يومها ، مثالية رينولدز وجينزبورو . على أن تأثيره أحس به الناس فى مجال الكاريكاتور ؛ هناك انتقلت فكاهته وقوته من توماس رولاندسن الى إسحاق وجورج كروكشانك ، وأصبح الكاريكاتور فنا . أما شهرة هوجارث الحالية مصورا فقد بدأت بملاحظة لهويسلر قال فيها أن هوجارث « هو المصور الانجليزى العظيم الوحيد (٣٤) » . وقد استثنى هويسلر نفسه فى حرص من هذه المقارنة . وقال قاض أقل تحوطا فى تقديره لهوجارث « اننا لو نظرنا اليه فى أفضل صوره لوجدناه أعظم شخصية فى تصوير (م ٢١ - قصة الحضارة)

المقرن الثامن عشر (٣٥) » . وهذا التقدير يمثل ما يشيع اليوم من بخس لقدر رينولدز بدعوى أنه كان مجعلا للارستقراطيين همه جمع المال ، وتلك نزوة عارضة ستختفى . ومن العسير تقييم هوجارث كفنان ، لانه لم يكن فنانا فحسب ، فلقد كان صوت انجلترا الغاضبة لما فيها من فساد وانحطاط ، ولقد عد نفسه بحق قوة اجتماعية . كذلك فهمه فيلدنج فقال فيه « أكاد أجرؤ على التأكيد بأن عمليه هذين اللذين يسميهما « رحلة فاجر » و « رحلة بغى » ، قصد بهما خدمة قضية الفضيلة . . أكثر مما خدمتها كل المجلدات الضخمة التى كتبت اطلاقا فى الاخلاق (٣٦) » . على أن شيئا واحدا لا شك فيه ، هو انه كان الانجليزى الصميم بين جميع من عاش من الفنانين الانجليز .

٣ - الموسيقى

من الغاز التاريخ المحيرة ذلك السر فى أن انجلترا التى أسهمت هذا الاسهام الموفور فى التطور والنظرية الاقتصادية والسياسيين ، وفى الأدب والعلم والدين والفلسفة - انجلترا هذه أقفزت نسبيا فى أشكال التأليف الموسيقى الأكثر تعقيدا منذ عصر اليزابيث الأولى . وربما وجدنا بعض تعليل لهذه الظاهرة فى زوال الكتلكة من انجلترا ؛ فالمذاهب الجديدة شجعت المؤلفات الموسيقية الرفيعة تشجيعا أقل ، ومع أن الشعائر اللوثرية فى المانيا والانجليكانية فى انجلترا تطلبت الموسيقى ، فإن أشكال البروتستنتية الأكثر تزمنا فى انجلترا وفى الجمهورية الهولندية لم تبذل تشجيعا يذكر لآى موسيقى تزيد على الترنيمة الجماعية التى يرئمها المصلون . وحل محل أساطير كنيسة روما وطقوسها ، التى طالما شددت على مباحج الايمان ، عقائد جبرية قائمة تشدد على هول الجحيم ، ولم يستطع غير « أورفيوس » أن يغنى فى وجه الجحيم . وماتت أغانى انجلترا الاليزابيثية الغرامية المشعربة فى الصقيع البيورتانى . وقد جلبت عودة الملكية من فرنسا روحا أكثر مرحا ، ولكن بعد موت بيرسل اسدل حجاب كثيف على الموسيقى الانجليزية من حديد .

هذا باستثناء الاغانى التى تفاوتت من الجهوريات الجماعية المنتشرة فى أندية الطرب glee clubs الى الرقة الهفافة التى تميزت

بها الغنائيات المأخوذة من تمثيليات شكسبير . وكلمة glee هي الكلمة الانجلو - سكسونية glee ، ومعناها الموسيقى ؛ ولم تتضمن بالضرورة الفرع ، وكانت تطبق عادة على الاغاني التي لا ترافقها الموسيقى لثلاثة أصوات أو أكثر . وازدهرت أندية الطرب قرنا ، وبلغت أوجها حوالي عام ١٧٨٠ في عز أيام أكبر مؤلف لأغاني الطرب ، وهو صموئيل وب . وكان أجمل منها موسيقات توماس آرن التي لحنها لأغاني شكسبير - « هبى ، هبى ، يا ربح الشتاء » و « تحت شجرة الغابة الخضراء » و « حيث ترشف النحلة رحيقها هناك أرشف رحيقى » ؛ وما زالت هذه نسمع في انجلترا . والموسيقى المشجى آرن هو الذى لحن قصيدة طومسن « احكمى يا بريطانيا » ! « وفي هذه الفترة ، أو قبلها ، لحن وطنى مجهول نشيد بريطاني الفوسى ، « حفظ الله الملك » . وعلى قدر ما نعلم ، غنى هذا النشيد علنا أول مرة فى ١٧٤٥ حين جاء نبأ بان قوات جورج الثانى هزمها الاسكتلنديون بقيادة المطالب الشاب بالعرش عند بريستونبانس ، ولاح أن أسرة هانوفر قد حان حينها . والنشيد فى أقدم صورته المعروفة (وهى لا تختلف الا اختلافا طفيفا عن الكلمات واللحن الحاليين) دعا الى الله بالنصر على الحزب الاستيوارتى فى السياسة الانجليزية ، وعلى الجيش الاستيوارتى الزاحف من اسكتلندة :

« حفظ الله مولانا الملك »

ليحى ملكنا النبيل (جورج الثانى) طويلا ،

حفظ الله الملك .

ربنا انصره نصرا عزيزا

واجعله سعبدا عظيما ،

ليملك علينا طويلا ،

حفظ الله الملك .

ربنا والهنا قم ،

وشتت أعداءه ،

واجعلهم يسقطون ،

واحبط سياساتهم

وافسد مكائدهم الوضيعة

آمالنا معلقة عليه (فى النص الحالى « عليك ») ،
« احفظنا اللهم أجمعين (٣٧) » -

واقبست اللحن لفترات شتى تسع عشرة دولة ، لحننت به أغاني
وطنية ، ومن هذه الدول ألمانيا وسويسرة والدنمرك والولايات المتحدة
الامريكية - التى أحلت فى ١٩٣١ محل « أمريكا » نشيدا قوميا « الراية
المرصعة بالنجوم » يغنى وفق لحن عسير من أغنية شراب انجليزية
عتيقة .

ويدل رواج الأغاني الرقيقة فى إنجلترا على ذوق موسيقى واسع
الانتشار . فكان فى كل بيت هاريسيكورد فيما عدا بيوت الفقراء ، وكان
كل انسان تقريبا يعزف على احدى الآلات الموسيقية ، وتوفر من
العازفين فى الاحتفال بذكرى هندل عام سنة ١٧٨٤ بدير وستمنستر
عدد يكفى للعزف على خمسة وتسعين كمانا ، وست وعشرين فيولا ،
واحدى وعشرين فيولنتشلو ، وخمسة عشر دبل باصا ، وستة نايات ،
وست وعشرين أوبوا ، واثنى عشر بوقا ، واثنى عشر نفيرا ، وست
ترمبونات ، وأربعة طبول ، مع فرقة غنائية من تسعة وخمسين
سوبرانو ، وثمانية وأربعين تينورا وأربعة وثمانين باصا - وهذا عدد
كان خليقا لكبره بأن يرتجف له هندل فرقا فى مقبرته بالدير .
ولم يدخل الكلارينت الا فى أواخر القرن . وكان هناك أرغن رائعة ،
وعازفون عظماء عليها مثل موريس جرين الذى كانت أناشيده وتسبيحات
شكره - مع تلك التى لحنها هندل وبويس - هى تقريبا موسيقى إنجلترا
الكنسية الوحيدة الجديرة بالذكر فى ذلك العصر .

أما وليم بويس فقد ارتقى حتى أصبح مديرا للفرقة الموسيقية الملكية
(أى الأوركسترا) وعازف الأرغن فى الكنيسة الملكية رغم ما شاب سمعه
من خلل فى صباه . وكان أول « مايسترو » يقود العازفين واقفا . أما
هندل ومعاصروه الآخرون فكانوا يقودونهم من الأرغن أو الهاريسيكورد
وما زالت بعض أناشيده - لا سيما « على أنهار بابل » - تسمع فى
الكنائس الانجليكانية ، وما زالت البيوت الانجليزية تسمع على الأقل
أغنيقتين من أغانيه « قلوب من البلوط » التى كتبها لأحدى تمثيليات

جاريك الايمائية ، و «رفقا فى هبوبك يا نسيم الجنوب » وهو لحن فى كنتاجا « سليمان » . أما سمفونياته فتبدو ضعيفة هزيلة لأذاننا التى عراها الذبول .

كان الشيء المثير الوحيد فى دنيا الموسيقى الانجليزية فى مطلع القرن الثامن عشر هو مجيء الاوبرا ، وكانت هناك عروض سابقة ترجع الى عام ١٦٧٤ ، ولكن الاوبرا لم تستهو المزاج الانجليزى الا حين قدم المغنون الايطاليون من روما فى ١٧٠٢ . وفى ١٧٠٨ صدمت لندن وافتتنت بصوت مغن سوبرانو ، خصي (castrato) يدعى نيكوليني . وتلاه مغنون خصيان آخرون ، وقد ألفتهم انجلترا ، وكادت تجن بصوت فارينللى . فما وافى عام ١٧١٠ حتى كان فى لندن من المغنين الايطاليين عدد اتاح لهم تقديم أول أوبرا فيها بالايطالية دون غيرها . وقامت الاحتجاجات الكثيرة على هذا الغزو . وخصص له أديسون العدد الثامن عشر من صحيفته « سبكتيتور » مستهدفا :

« أن يسلم الى الأجيال القادمة وصفا أمينا للأوبرا الايطالية ان حقدتنا البعيدين سيشتد فضولهم لمعرفة السر فى أن أجدادهم اعتادوا الجلوس معا كأنهم جمهور من الأجانب فى وطنهم ليستمعوا الى تمثيليات بأكملها تمثل ألمهم بلسان لا يفهمونه » .

واستنتج من حركات هذه التمثيليات انه ما من شيء فى الاوبرا « يصلح للتلحين الجيد الا كان لغوا فارغا » . وسخر من المناظر التى يغازل فيها البطل حبيبته بالايطالية ، فترد البطلة بالانجليزية - وكان اللغة أمر ذو بال فى مثل هذه الأزمات . واعترض على المناظر المسرحية المسرفة - على العصافير الحقيقية التى تطير حول المسرح ، ونيكوليني يرتعش فى قارب مكشوف على بحر من الورق المقوى .

وكان فى صدر أديسون ضغينة يريد شفاءها ، فقد كتب النص لأوبرا توماس كلايتون الانجليزية « روزاموند » التى فشلت (٣٨) . وأغلب الظن أن ثورته (٢١ مارس ١٧١١) فجرها العرض الأول (٢٤ فبراير) لأوبرا ايطالية تسمى « رينالدو » فى دار أوبرا هايماركت .

وزاد الطين بلة أن الموسيقى ألفها المانى وفد مؤخرا على انجلترا ، هذا الى أن الكلام كان بالاطالية . وبما أفرع أديسون أن الأوبرا الجديدة حققت نصرا عظيما ، فما مضت ثلاثة أشهر حتى كانت قد عرضت خمس عشرة مرة اكتظ المسرح فيها دائما برواده ، ورقصت لندن على مختارات من موسيقاها ، وتغنت بالحانها الأكثر بساطة (٣٩) . تلك هى بداية الطور الانجليزى فى أروع سيرة فى تاريخ الموسيقى .

٤ - هندل : ١٦٨٥ - ١٧٥٩ (٤٠)

١ - نشأته

كان جيورج فريدرش هندل ★ أشهر مؤلف موسيقى على عهد يوهان سباستيان باخ . انتصر فى ألمانيا وذاذت له ايطاليا الموسيقية ، وكان روح الموسيقى وتاريخها فى انجلترا طوال النصف الأول من القرن الثامن عشر . واتخذ تفوقه قضية مسلمة ، لم يجادله فى ذلك مجادل ، وشمخ فى دنيا الموسيقى كانه مارد مسيطر يزن ٢٥٠ رطلا .

ولد فى مدينة هاله بمسكونيا العليا فى ٥٣ فبراير ١٦٨٥ قبل مولد يوهان سباستيان باخ بستة وعشرين يوما ، وقيل مولد دومنيكو سكارلاتى بثمانية أشهر . ولكن بينما أشرب باخ وسكارلاتى الموسيقى منذ طفولتهما ، وإتيح لهما أبوان من مشهورى المؤلفين ، وربيا على سلم موسيقى ملزم ، ولد هندل لأبوين لا يكثران للموسيقى ؛ فأبوه كان الجراح الرسمى فى بلاط الدوق يوهان أدولف أمير ساكس - فايسنفلز ، وأمه ابنة قسيس لوثرى . ولم يرضيا عن ادمان الغلام على عزف الأرغن والهاريكورد ، ولكن حين أصر الدوق بعد أن سمعه يعزف على ضرورة تدريبه على الموسيقى ، سمحا له بأن يدرس على فريدرش تساخاو ، عازف الأرغن بكنيسة ليبفراوينكيرش فى هاله . وكان تساخاو معلما مخلصا دقيقا . فما بلغ جيورج الحادية عشرة حتى كان يؤلف

★ كان فى ألمانيا يوقع باسمه Händel (هندل) ، وفى ايطاليا وانجلترا Hendel (٤١) .

السوناتات (التي بقى منها ست) ، وحقق العزف على الأرغن الى حد
حمل تساخاو والابوين المستسلمين على ايفاده الى برلين ليعزف أمام
صوفيا شارلوت ناخبة براندنبورج المثقفة ، التي ستصبح عما قليل ملكة
بروسيا . فلما عاد جيورج الى هاله (١٦٩٧) وجد أن أباه قد مات .
أما أمه فعمرت الى سنة ١٧٢٩ .

وفى ١٧٠٢ دخل جامعة هاله ليحضر لمهنة المحاماة في ظاهر الامر .
وبعد شهر عينه القائمون على الكندراثية الكلفنية في هاله مكان عازف
أرغنهم السكر . أما العبقري الشاب الذي لا يستقر على حال ، والذي
هفت نفسه الى مجال أرحب ، فبعد أن قضى عاما واحدا هناك اقتلع كل
جذوره التي في هاله باستثناء حبه المقيم لأمه وانطلق ميمما هامبورج ،
حيث كان الناس يحبون الموسيقى حبا يكاد يبلغ حبهم للمال . وكان في
هامبورج دار للأوبرا منذ ١٦٧٨ . هناك وجد هندل ، وهو في الثامنة
عشرة ، مكانا له عازفا ثانيا للكمان . وصادق يوهان ماتيسون البالغ من
العمر اثننتين وعشرين عاما ، و « التينور » الأول في الأوبرا ، الذي
أصبح بعد ذلك أشهر النقاد الموسيقيين في القرن الثامن عشر . ورحلا
معا الى لوبك (أغسطس ١٧٠٣) ليستمعا الى الشيخ بوكستيهودي
يعزف ، ويتحسسا مكان خلافته في العزف على الأرغن في كنيسة
مارينكرشي ، ووجدوا أن خليفته يجب أن يتزوج ابنة هذا الشيخ . فنظروا
الى الشيخ وابنته ثم رحلا عن المدينة .

وانهارت صداقتهما في مبارزة سخيفة سخف المبارزات في أي
مسرحية . ذلك أنه في ٢٠ أكتوبر ١٧٠٤ أخرج ماتيسون أوبراه
« كليوبطره » ومثل دور البطل فيها . ولقيت نجاحا لا شك فيه ، وأعيد
تمثيلها مرارا . وفي هذه الحفلات قاد هندل الأوركسترا والمغنين من
الهاريسيكورد . وكان ماتيسون أحيانا ينزل من خشبة المسرح بعد أن
يموت في دور أنطونيوس ، وفي نشوة الفخر يأخذ مكان صديقه قائدا
وعازفا على الهاريسيكورد ، ويسعد بنصيب من التصفيق الأخير . وفي
٥ ديسمبر أبى هندل أن يحل صديقه محله على هذا النحو . فالحق
الصديقان الأوبرا بشجار ساخن ، وعقب انتهاء التمثيل سارا الى الميدان
العام ، واستلا سيفيهما ، واقتتلا على أنغام المديح من رعاة الأوبرا

والمارة • وصك سيف ماتيسون زرا معدنيا على ستره هندل فانكسر • وانقلبت الماساة مهزلة فى نظر الجميع الا بطلها ، وراحا يجتران سخطهما الى أن قبل مدير الفرقة أوبرا هندل « الميرا » التى احتاجت الى ماتيسون ليؤدى دور التينور • وأعاد نجاح الأوبرا (٨ يناير ١٧٠٥) الخصمين صديقين كما كانا من قبل •

وأحب الناس أوبرا « الميرا » ، التى احتوت على واحد وأربعين لحنا بالألمانية وخمسة عشر بالإيطالية ، حبا أتاح عرضها عشرين مرة فى سبعة أسابيع • ودب دبيب الغيرة فى قلب راينهارت كايزر الذى كان مشرفا على الفرقة ومؤلفا لمعظم أوبراتها • وضعت شعبية أوبرا هامبورج ، وعاش هندل عامين على دخل ضعيف • وكان الأمير جوفان جاستونى دى مديتشي ، أثناء مروره بهامبورج ، قد نصحه بأن يرحل الى إيطاليا حيث يجن الناس كلهم بالموسيقى ويصدق حتى خدم المطاعم بالأغاني الجميلة • واقتحم هندل ثلوج جبال الألب فى ديسمبر وفى محفظته مائتا دوقاتية ، وخطاب من جاستونى الى أخيه فرديناند راعى الأوبرا فى فلورنسة ؛ وبلغها أواخر عام ١٧٠٦ • فلما وجد جيوب فرديناند منيعة نزل الى روما • ولكن دار الأوبرا هناك كان قد أغلقها البابا انوسنت الثانى عشر باعتبارها بؤرة للفساد • وعزف هندل على الأرغن فى كنيسة سان جوفانى لاترانو ، وصفق له الجمهور عازفا بارعا ، ولكنه عاد الى فلورنسة لأن أحدا لم يرد أن يخرج أوبراه الجديدة • هناك وجد جاستونى الذى دافع عنه ، ففتح فرديناند كيس نقوده ، ومثلت « رودريجو » ، وسر الجميع بها • ونفح فرديناند مؤلفها الشاب بمائة سكوين (٣٠٠ دولار ؟) وطقم عشاء من الخبز • ولكن فلورنسة لم يكن بها دار أوبرا عامة ، أما البندقية فكان بها ست عشرة دارا • ومن ثم مضى هندل الى البندقية •

كان ذلك فى خريف ١٧٠٧ ، ومملكة الادرياتي مبهورة بسحر أليساندرو سكارلاتى ، تصفق لأعظم أوبراته « مترداتى أوباتورى » ، فلا مجال فيها لألمانى شاب حديث العهد بتعلم أسرار الميلوديا الإيطالية ودرس هندل أوبرات سكارلاتى ، ووجد له صديقا وفيما فى ابن أليساندرو • وتقول الرواية أنه حين عزف هندل وهو مقنع على الهاريسيكورد فى حفلة تنكرية فى البندقية ، صاح دومنيكو سكارلاتى

« هذا اما السكسونى المعجز أو الشيطان (٤٢) » . والصدادة الخالدة التى ربطت قلبى أعظم عازفين للهاريسيكورد فى ذلك العهد أشبهه بلحظة تناعم وانسجام وسط نشاز التاريخ . وقد ترك كلاهما البندقية للموسقيين الأكبر منهما سنا وانطلقا الى روما (يناير ١٧٠٨ ؟) .

وفى هذه المرة لقى هندل استقبالا أفضل . فقد بلغ نبا « رودريجو » العاصمة ، وفتح الامراء والكرادلة أبوابهم له ، وهم أسد ضيقا بلهجته الألمانية منهم بمذهبه اللوثرى . وبنى المركيز دى روسبولى مسرحا خاصا فى قصره ليخرج عليه أول أوراتوريو لهندل ، واسمها « القيامة » ، وكانت موسيقاها مفاجأة ملهمة فى قوتها وتعقيدها وعمقها ، وسرعان ما راحت الصفوة المثقفة كلها فى روما تتحدث عن « السكسونى الطويل الجبار » . غير أن موسيقاه كانت أصعب مما يحبه العازفون الايطاليون . فلما أخرج الكردينال ببيترو أوتوبونى أوراتوريو هندل « سريناتا » اتعبت الموسيقى أركانجلو كوريللى ، الذى كان عازفا أول للكمان وقائدا للأوركسترا . فتمتم فى تأدب « أيها السكسونى العزيز ، هذه الموسيقى تنهج النهج الفرنسى الذى لا أفهمه (٤٣) » . وأخذ هندل الكمان من يدى كوريللى وعزف بحيويته المعهودة . وسامحه كوريللى .

بقى على هندل أن يغزو نابلى . وتقول رواية لا يعتمد عليها ان هندل وكوريللى ، وسكارلاتى الآب والأبن ، كلهم قصدوا تلك المدينة معا (يونيو ١٧٠٨) . وتزعم قصة أخرى مشكوك فيها أن هندل وقع فى غرام هناك ؛ ولكن التاريخ الحذر يعترف فى أسف بأن ليس لديه أى دليل سليم على أى غرام وقع فيه هندل ابان حياته فى أى بلد ، اللهم الا غرامه بأمه وبموسيقاه . وقد يبدو أمرا لا يصدق أن يخلو قلب رجل استطاع أن يكتب مثل هذه الالحان المشبوبة من شعلة الحب ، ولعل التعبير عنها بدد حرارته على أجنحة الغناء . أما أهم الأحداث فى هذه الفترة التى أقام فيها هندل فى نابلى فهو - على قدر علمنا - لقاءه بالكردينال فنتشننتسو جريماتى ، حاكم نابلى وسليل أسرة بندقية غنية . وقد قدم للمؤلف نص أوبرا تتناول موضوع أم نثرون القديم . وأتم هندل المهمة فى ثلاثة أسابيع . ورتب جريماتى تمثيلها فى مسرح أسرته بالبندقية ، فأسرع اليها هندل حاملا موسيقاه .

كانت الحفلة الافتتاحية لأوبرا « أجريينا » (٢٦ ديسمبر ١٧٠٩) أبهج الانتصارات التي عرفها هندل الى ذلك الحين . ولم تخالج الايطاليين الكرماء الغيرة لأن المانيا تفوق عليهم فى لعبتهم ، وأراهم روائع من النغم ، واقتحامات من الانتقال ، وأفانين من الصنعة قل أن أدركها حتى موسيقيهم المفضل اليساندرو سكارلاتى ، فهتفوا « يحى السكسونى الحبيب (٤٤) » . ونال نصيبا من هذا الهتاف المغنى الباصو الممتاز جوزيى بوسكى الذى تذلل صوته فى يسر بين سلسلة كاملة من تسع وعشرين نغمة .

وخطب الكثيرون ود هندل الآن . فذصح تشارلز مونتاجيو ، ايرل مانشستر الذى كان سفيرا لبريطانيا فى البندقية ، بان يذهب الى لندن ، وعرض عليه الامير ارنست أوغسطس الأخ الاصغر للناخب جورج لويس ، وظيفة قائد الفرقة الموسيقية الكنسية فى هانوفر . لقد كانت البندقية رائعة ، تتنفس الموسيقى ، ولكن الى متى يستطيع المرء أن يكسب قوته من أوبرا واحدة ، والى متى يستطيع الركون الى هؤلاء الايطاليين المقلبين ؟ أما هانوفر ففيها ضباب ، وغيوم ، وكلام خارج من الحناجر ، ولكن فيها أيضا دار فخمة للأوبرا وراتب ثابت وطعام ألمانى دسم ؛ ثم انه يستطيع بين الحين والحين أن يركب منها ليزور أمه فى هاله . وعليه ففى ١٥ يونيو ١٧١٠ عين هندل قائدا للفرقة الكنسية فى هانوفر ، وكان يومها فى الخامسة والعشرين ، براتب سنوى قدره ألف وخمسمائة كراون ، مع الاذن له بالغياب بين حين وحين . وفى خريف ذلك العام ، طلب الاذن له بزيارة إنجلترا ، فحصل عليه ، ووعد بالرجوع سريعا .

ب - غزو إنجلترا

كانت أوبرا لندن فى محنة . ففيها فرقة ايطالية تغنى ، مغنيها الباصو بوسكى ، ومغنيها الكونترالتو زوجته ، ومغنيها السوبرانو نيكولينى الذى ذهب تشارلز بيرنى ، مؤرخ الموسيقى الغيور ، الى أنه « أول مغن عظيم حقاً غنى فى مسرحنا (٤٥) » . ولكن دار أوبرا هايماركت (وكانت يومها تسمى مسرح صاحبة الجلالة) ، ومسرح

دروزي لين ، كانا يقعان فى قسم سوقى من المدينة ، تنشل فيه الجيوب وتحطم الرموس . وتردد « المجتمع الراقى » فى المغامرة بباروكاته وإكياس نقوده هناك .

وسمع آرون هل مدير الفرقة بان هندل فى لندن ، فعرض عليه نص أوبرا مأخوذاً عن « تحرير أورشليم » لتاسو . وعكف هندل على العمل بنشاطه الهائل ، ونقل فى غير تحرج عن ألحانه هو ، فلم ينقض أسبوعان حتى أتم أوبرا « رينالدو » . فأخرجت فى ٢٤ فبراير ١٧١١ ، وأعيد عرضها أربع عشرة مرة أمام جمهور حافل قبل أن ينتهى الموسم فى ٢٢ يونيو . وهاجمها أديسون وستيل ، ولكن لندن أقبلت عليها ، وتغنت بالحنانها فى الشوارع ، وأكثر ما مس أوتار العاطفة من ألحانها بل يستطيع أن يحرك مشاعرنا حتى فى يومنا هذا ، لحنان هما أتركنى اننى أبكى *Lascia ch'io pianga* و *Cara Sposa* يا زوجتى العزيزة ، وقد ربح جون وولش ألفا وأربعمئة جنيه بنشره أغانى من أوبرا مينالدو ، واقترح هندل فى سخرية أن على وولش أن يكتب موسيقى الأوبرا القادمة ويترك له نشرها (٤٦) . وما لبثت هذه الأوبرا ، وهى خير أوبرات هندل ، أن أخرجت فى دبلن وهامبورج ونابلى ، وقد شغلت المسرح فى لندن عشرين عاماً .

ومد هندل أجازته حتى بلغت سنة كاملة وهو يرشف نجاحه على مهل ، ثم عاد كارها الى هانوفر (يونيو ١٧١١) ولم يكن هناك أسداً فى قاعات الاستقبال ، بل خادما فى قصر الامير الناخب ؛ وأغلقت دار الأوبرا فترة الموسم ، فالف الكونشرتوات الكبيرة والكنكثات ، بينما كان خياله يحلق فى سماء الأوبرات . وفى أكتوبر ١٧١٢ استأذن فى زيارة أخرى « قصيرة » لاندلتره . وأذن له الامير الناخب ، ربما وهو شاعر أن اندلتره ستكون على أية حال اقطاعية هانوفرية بعد قليل . ووصل هندل الى لندن فى نوفمبر ، ومكث هناك ستا وأربعين سنة .

وقد حمل معه أوبرا جديدة هى « الراعى الوفى » ، التى مازال استهلالها اللطيف يسحر جونا . وقد أخرجت فى ٢٢ نوفمبر ، وفشلت . وللغور بدأ موضوعاً آخر وقد حفزه هذا الفشل أكثر مما ثبت همته .

والموضوع هو « تيسيو (ثيوسيو) » وكانت حفلة الافتتاح نصرا له ، ولكن المدير هرب بعد الليلة الثانية حاملا ايصالات شباك التذاكر . وتسلم عمله مدير آخر اسمه جون هيديجر ، وواصل عرض « تيسيو » حتى بلغت عروضها ثلاثة عشر ، وكافا المؤلف الذى لم ينقد أجره بتنظيمه حفلة خيرية لأعانة « المستر هندل » ، ظهر فيها المؤلف وهو يعزف على الهاريسيكورد . ودعا ايرل بيرلنتن ، وكان مستمعا متحمسا ، هندل لينزل ضيفا عليه فى قصر بيرلنتن ، وقبل هندل الدعوة ، ووجد المسكن الطيب والطعام المترف ، والتقى هناك ببوب ، وجاى ، وكنت ، وغيرهم من أئمة الادب والفن .

وأقبلت عليه الدنيا أيما اقبال . ذلك أن الملكة آن تأقت لوضع حد لحرب الوراثة الأسبانية ، وأتت النهاية مع معاهدة أوترخت ، فأبهج هندل آن بـ « تسبحة أوترخت » وبـ « أغنية الميلاد » فى عيد ميلادها . وأثبت فيهما أنه درس « كولارس » بيرميل . وأنبأته الملكة العطوف بمعاش قدره مائتا جنيه . أما وقد ظفر بالالطمئنان والرخاء ، فانه استراح الآن على مجدافيه طوال سنة من التهرب .

ولكن فى أول أغسطس ١٧١٤ ماتت آن ، وأصبح الناخب جورج لويس أمير هانوفر ملكا على إنجلترا باء سم جورج الأول . وتوجس هندل بعض الشيء من هذا الاتجاه الذى اتخذته الأحداث . فالواقع أنه هرب من هانوفر ، وله أن يتوقع أن يكون الملك غير راض عنه ، وقد حدث هذا ، ولكن جورج لزم الهدوء . وأعيدت تسمية مسرح هايماركت الآن فسمى « مسرح جلالة الملك » ، وأحس الملك أنه ملزم ببسط رعايته على هذا المسرح ، ولكنه كان يعرض أوبرا « رينالدو » التى لحنها ذلك المتهرب ، فذهب جورج متنكرا الا فى لهجته ، واستمتع بالعرض . وكان هندل خلال ذلك قد كتب أوبرا أخرى « أماديجى الغالى » ، وأخرجها هيديجر فى ٢٥ مايو ١٧١٥ ، وأحبها جورج . وبعد قليل طلب عازف الكمان والمؤلف الايطالى فرانتشيسكو جيمينيانى ، الذى دعى للعزف فى البلاط ، أن يصاحبه هندل ، لأنه عازف الهاريسيكورد الوحيد فى إنجلترا الذى يصلح لمصاحبته . وكان له ما أراد ، وأبدع هندل فى العزف فعفا عنه الملك ، ورفع معاشه الى أربعمائة جنيه فى السنة .

وولت اليه الاميرة كارولين تدريس بناتها ، وازافت معاشا قدره مائتا جنيه . وهكذا الان صاحب اعلى اجر بين المؤلفين الموسيقيين فى اوربا .

فلما غادر جورج الاول لندن (٩ يوليو ١٧١٦) ليزور هانوفر اصطحب هندل معه . وزار الموسيقى امة فى هاله ، وبدأ نفحاته الدورية لارملة معلمه القديم تساخو التى اخنى عليها الدهر . وعاد الملك والمؤلف الى لندن فى مطلع ١٧١٧ . ودعا جيمس بريدجس ، ايرل كارنارفون - دوق تشاندوس فيما بعد - هندل ليعيش فى قصره الفاخر المسمى « كانونز » بمدل سكس ، ويحل محل قائد الموسيقى فيه ، الدكتور يوهان بيبوش ، الذى انتقم لنفسه فيما بعد بتأليفه موسيقى « اوبرا الشخاذ » . هناك كتب هندل « متابعات موسيقية للهاري سيكورد » وهى « فنتازيات » على الهاري سيكورد بأسلوب دومنيكو سكارلاتي وكوبران ، وبعض الكونشرتوات الكبيرة ، واثنى عشر « نسيدا تشاندوسيا » وموسيقى لتمثيلية تنكرية لجاي سمها « آسيس وغلاطية » ، و« اوبرا راداميستو » .

ولكن من يخرج الاوبرا ؟ لقد هبط عدد رواد مسرح صاحب الجلالة ، وأشرف هيديجر على الافلاس . ورغبة فى انقاذه وانقاذ الاوبرا أسس نفر من النبلاء والاعيان (فبراير ١٧١٩) الاكاديمية الملكية للموسيقى ، ومولوها بخمسين سهما طرحت على الجمهور بسعر مائتى جنيه للسهم ، واشترى جورج الاول خمسة أسهم . وفى ٢١ فبراير أعلنت صحيفة لندنية أسبوعية أن « المستر هندل ، وهو أستاذ موسيقى شهير ، أبحر الى القارة بأمر جلالة الملك ليجمع فرقة من صفوة المغنين فى أوربا للأوبرا فى مسرح هايماركت (٤٧) » وأغار هندل على مختلف الفرق فى ألمانيا ، وزار أمة مرة أخرى . وبعد ساعات من مغادرته هاله الى إنجلترا ظهر يوهان سبستيان باخ فى المدينة بعد أن مشى اليها نحو خمسة وعشرين ميلا من كوتن ، وطلب أن يقابل الألماني العظيم الذى غزا إنجلترا ؛ ولكنه وصل متأخرا ، ولم يلتق الموسيقيان قط .

وفى ٢٧ أبريل ١٧٢٠ مثلت « راداميستو » أمام الملك ، وخيلته ، وجمهور تالق بالالاقاب والجواهر ، وناضل أشخاص من ذوى الالاقاب

ليدخلوا . يقول مينووينج » لقد رد العديد من السادة الذين عرضوا دفع أربعين شلنا ثمنا لكركسي من المقاعد الرخيصة (٤٨) « . ونافس الجمهور الانجليزى فى تصفيقهم وهتافهم البنادقة الذين صفقوا وهتفوا لأوبرا » أجربينا « قبل ذلك بأحد عشر عاما . وهكذا غدا هندل مرة أخرى بطل لندن .

ولكن البطولة شاب تمامها نقصان . ذلك أن جماعة منافسة من عشاق الموسيقى ، يتزعمهم إيرل بيرلنتن الراعى الأسبق لهندل ، فضلوا عليه جوفانى باتيستا بونونتشىنى . فاقنعوا الاكاديمية الملكية للموسيقى بأن تفتتح موسمها الثانى بأوبرا بونونتشىنى « أستارتو » (١٩ نوفمبر ١٧٢٠) ، وضمنوا لدور البطل فيها مغنيا سوبرانو كان الآن معبودا للجماهير أكثر من نيكولينى . وكان لـ « سنسينو » هذا (فرانتشيسكو برناردى) ، الكريه الطباع ، الساحر الصوت ، الفضل فى انتصار أوبرا أستارتو والوصول بعروضها الى العشرة . أما المعجبون ببونونتشىنى فقد أشادوا به موسيقيا أعظم من هندل . ولم يكن أحد هذين المؤلفين مسئولاً عن الحرب التى قسمت الآن جمهور الأوبرا اللندنى الى فريقين متخاصمين ، ولكن لندن كانت فى ذلك العام ، عام انفجار فقاعة بحر الجنوب ، عصبية كباريس . أما الملك والاحرار ففضلوا هندل ، وأما ولى العهد والمحافظون فناصروا بونونتشىنى ، واحتشد الطرفاء وكتاب الكراريس لدخول المعركة . وبدا أن بونونتشىنى قد أثبت تفوقه بأوبرا جديدة سماها « كرسبو » (يناير ١٧٢٢) وفقت توفيقا حمل الاكاديمية على أن تتبعها بنصر آخر لبونونتشىنى هى « جريزدا » . فلما مات ملبره العظيم (فى يونيو) اختير بونونتشىنى ، لا هندل ، ليؤلف النشيد الجنائزى ، ونفحت ابنة الدوق هذا الايطالى معاشا سنويا قدره خمسمائة جنيه . لقد كان ذلك العام عام بونونتشىنى .

ورد هندل بأوبرا « أوتونى » ومغنية سوبرانو جديدة أغراها من ايطاليا بضمن لم يسبق له نظير مقداره ألفا جنيه . وكانت هذه المغنية ، واسمها فرانتشيسكا كوتزونى ، كما رآها هوراس ولبول ، « قصيرة سمينة ، لها وجه عجبنى القوام نزق ، وبشرة ناعمة رقيقة ،

ممثلة غير قديرة ، سيئة الهمام ، غبية ، شاححة الاحلام (٤٩) » ، ولكنها كانت تصدح بصوت ساحر . وقد حفلت « بروفاتها » بصراع الارادات والطباع الحادة . قال لها هندل « أعرف جيداً أنك شيطانة حقيقية ، ولكننى أنا نفسي أريدك أن تعرفى أننى بعزيبول (رئيس الشياطين) » . فلما أصرت على غناء لحن مخالفة لتعليماته ، أمسك بها وهدد بأن يقذفها من النافذة (٥٠) . ولما كانت الألفان من الجنيات ستبعاها ، فانها اذعنت لأمره . وفى حفلة الافتتاح (١٢ يناير ١٧٢٣) أبدعت الغناء حتى صاح أحد المتحمسين من المقاعد الرخيصة وسط غنائها « على اللعنة أن فى بطنها عشا من البلابل (٥١) » . وقد نافسها سنسينو ، وأعانها « باصو » بوسكى . وفى الليلة الثانية بيعت الكراسي بزيادة قدرها خمسة جنيهات . وفى نحو هذه الفترة كتب جون جاي الى جوناثان سويغت يقول : -

« أما التسلية المسيطرة على المدينة فهى الموسيقى دون سواها ؛ هى الكمانات والفيولات الجهيرة والأوبوات الواقعية ، لا القيائير والمزامير الشعرية . ولا يسمح لأحد بأن يقول « أنا أغنى » إلا اذا كان خصياً أو امرأة إيطالية . وكل انسان أصبح الآن حكماً عظيماً فى الموسيقى كما كان الناس فى أيامك حكماً فى الشعر ؛ والقوم الذين لم يكونوا يستطيعون التمييز بين نغمة وأخرى يتشاجرون الآن كل يوم على الأساليب المختلفة التى ينتهجها هندل ، وبونونتشينى ، وأتيليو (أريوستى) . . . وفى لندن ووستمستر ، فى كل حديث مهذب ، يجمع الراى على أن سنسينو هو أعظم رجل ظهر فى الوجود (٥٢) » .

ثم اشترى هندل بعد أن صعد نجمه ثانية بيتاً فى لندن (١٧٢٣) وأصبح مواطناً بريطانياً (١٧٢٧) . وواصل حرب الأوبرا حتى ١٧٢٨ . ونشأ التاريخ بحثاً عن الموضوعات ، فعرض على المسرح فلافيوس ، وقيصر ، وتيمورلنك ، وسكيبو ، والاسكندر ، ورتشرد الأول . ورد بونونتشينى بامستياناكس ، وارمينيا ، وفارناسس ، وكلبورنيا ؛ ولحن مؤلف آخر هو أريوستى أوبرات عن كريولانوس ، وفسبازيان ، وارتابزرسيس ، ودارا ؛ ولم يسبق فى أى عهد أن لحن التاريخ على هذا النحو المتناغم . وفى ١٧٢٦ ازداد وطيس الصراع الثلاثى بوصول

فاوستينا بوردونى ، وهى مغنية نصف - سويرانو ، دانت لها قبل ذلك البندقية ونابلى وفينا . صحيح أنها لم توهب نبرات كوتزونى الرقيقة العذبة ، ولكنها وجدت لصوتها سندا من وجهها وقوامها ورشاقتها . وفى أوبرا « اليساندرو » (٥ مايو ١٧٢٦) جمع هندل بين المغنيتين ، وأعطاهما عددا متساويا من الألحان المنفردة ، ووازن بينهما بعناية فى لحن ثنائى ، وصفق لهما السامعون معا بضع أمسيات ، ثم انقسموا فريقين ، فكان فريق يصوت سخرية بينما الآخر يصفق استحسانا ، وهكذا أضيف بعد جديد لحرب الأنغام . وفى ٦ يونيو ١٧٢٧ حين غنت المغنية الأولى فى أوبرا بونونتشينى « استياناتى » انفجر أنصار كوتزونى محدثين جلبة شائنة من صفير الاستهجان وصيحات الاستنكار حين حاولت بوردونى الغناء . واندلع القتال فى قاع الصالة وسرى الى خشبة المسرح ، وشاركت فيه مغنيتا الأوبرا وراحت الواحدة منهما تشد شعر الأخرى ، وحطم النظارة منظر المسرح مبتهجين - وكل هذا فى حضرة كارولين ، أميرة ويلز ، وهى شاعرة بالخزى والمهانة .

ولعل « قياس الخلف » هذا كان وحده كافيا لقتل الأوبرا الإيطالية فى إنجلترا . أما الضربة القاضية فقد كالمها لها واحد من أرق الناس فى لندن . ففى ٢٩ يناير ١٧٢٨ ، قدم جون جاى « أوبرا الشحاذ » فى مسرح لنكولنز ان فيلدز . وقد وصفتا أغانيها بالمرحة الذكية البذيئة ، ولكن الذين سمعوها تغنى على أنغام الموسيقى التى وضعها أو اقتبسها يوهان بيبوش - هؤلاء فقط هم الذين فى وسعهم أن يفهموا لم تحسول جمهور المسارح بجملكته تقريبا عن هندل وبونونتشينى وأريوستى ، الى بيبوش وبوللى وجاى ، وظلت « أوبرا الشحاذ » تمثل الليلة تلو الليلة طوال تسعة أسابيع ، بينما راحت « سيرانات » مسرح صاحب الجلالة وخصيانه يغنون لكراسي خاوية . ثم ان جاى كان قد هجا الأوبرا الإيطالية وسخر من حكاياتها البلهاء ، وهزأ بالارتعاشات و « الشلغعات » فى غناء المغنين والمغنيات السويرانو ، واتخذ اللصوص والشحاذين والمومسات شخوصا للتمثيلية بدلا من الملوك والنبلاء والعذارى والملكات ، وعرض القصائد الشعبية الانجليزية أغانى أفضل من الألحان الإيطالية . وابتهج الجمهور بالالفاظ التى يستطيع فهمها ، خصوصا اذا كانت مكشوفة بعض الشيء . ورد هندل بمزيد من الأوبرات - سيروى ، وطولوميو ملك مصر

(١٧٢٨) وقد حظيت كلاهما بلحظات مجيدة ولكنهما لم تاتيا بريح .
وفى ٥ يونيو شهرت الاكاديمية الملكية للموسيقى افلاسها ولفظت أنفاسها
الاخيرة .

على أن هندل لم يسلم بالهزيمة . فبعد أن هجره النبلاء الذين لاصوه
على خسائرهم ، كون مع هيديجر (يونيو ١٧٢٨) « الاكاديمية الجديدة
للموسيقى » ، وأنفق عليها عشرة آلاف جنيه - وهى كل مدخراته تقريبا -
وتلقى من الملك الجديد ، جورج الثانى ، وعدا بالف جنيه فى العام معونة
له . وفى فبراير انطلق الى القارة فى رحلة أخرى ليجند مواهب جديدة ،
لأن كوتزونى وبوردونى وسنسينو ونيكولينى وبوسكى ، هجروا سفينته
المشرقة على الغرق وراحوا يغنون للبندقية . واستخدم هندل بدلا منهم
ديوكا وينابل جددا . انطونيو برناكى السوبرانو ، وأنيبالى فابرى
التيثور ، وأنا ماريا سترادا ديل بو السوبرانو . وفى رحلة عودته توقف
ليزور أمه آخر مرة . وكانت يومها فى التاسعة والسبعين ، عمياء مشلولة
تقريبا . وبينما كان فى هاله زاره فلهم فريدمان باخ ، الذى أتاه بدعوة
لزيارة ليبزج ، حيث عرضت قبيل ذلك أول مرة « آلام المسيح كما رواها
متى البشير » . واضطر هندل الى رفض الدعوة . فهو لم يسمع بيوهان
سباستيان باخ الا لما ، ولم يخطر بباله قط أن شهرة هذا الرجل ستحجب
شهرته يوما ما . وهول قافلا الى لندن ، والتقط فى طريقه الباصو
الهامبورجى يوهان ريمنشneider .

وظهرت الفرقة الجديدة فى أوبرا « لوتاريو » فى ٢ ديسمبر
١٧٢٩ دون أن تلقى نجاحا . وجرب حظه ثانية فى ٢٤ فبراير بأوبر
« بارتدوبى » ، فلم يوفق . وأعيد برناكى وريمنشneider الى القارة ،
واستدعى سنسينو ثانية من ايطاليا ، وبفضله هو وسترادا ديل بو ،
ونص كتبه متاستاسيو ، اجتذبت أوبرا هندل « بورو » أسماع لـ لندن
(٢ فبراير ١٧٣١) ، وكان قد خلع على هذه الأوبرا طائفة من أعظم
الحنان تأثيرا . وامتلا مسرح الجلالة برواده مرة أخرى .
واستقبلت أوبرتان أخريان ، هما « ايتسيو » و « سوزارمى » استقبالا
طيبا .

ولكن الكفاح للبقاء على جمهور انجليزى بأوبرا ايطالية أخذ
(م ٢٢ - قصة الحضارة)

يصبح أشد عمرا ، وقد بدا الآن أنه طريق مسدود ينتهى دائما بالانهك البدنى والمالى . لقد قهر هندل إنجلترا ، ولكن إنجلترا بدت قاهرته الآن ، فلقد كانت أوبراته شديدة التشابه ، مصيرها المحتوم الى الضعف والهزال . ولقد سمت بها الألحان الرائعة ، ولكن هذه الألحان انما كانت موصولة بالحبكة وصلا هزليا ، وكادت بلغة غير مفهومة مهما كان فيها من انساب رقيق ، وكثير منها لحن للسوبرانو من الرجال ، وهؤلاء ازداد العنور عليهم صعوبة . وتحكمت القواعد الجامدة والغيرة بين الفنانين فى توزيع الألحان ، وزادت من افتعال القصة . ولو أن هندل واصل السير على الخط الايطالى لكاد يصبح اليوم نسيا منسيا . على أن سلسلة من المصادفات انتزعت انتزاعا من دربه المطروق ووجهته الى الميدان الذى سيطل فيه نسيج وحده حتى فى أعين زماننا هذا .

ج - هزيمته

فى ٢٣ فبراير ١٧٣٢ ، وفى حانة « التاج والمرساة » عرض برنارد جيتس ، احتفالا بعيد ميلاد هندل السابع والاربعين ، أوراتوريو هندل « استير » عرضا خاصا . وقد اجتذبت جمهورا مجزيا أغرى جيتس بتكرار عرضها مرتين - مرة لجماعة خاصة ، ومرة (فى ٢٠ أبريل) للجمهور . وكان هذا أول أداء علنى فى إنجلترا . واقترحت الأميرة آن عرض « استير » بمرح جلالة الملك وتزويدها بالملابس والمناظر والحركة ، ولكن أسقف لندن أحتج على تحويل الكتاب المقدس الى أوبرا . فاتخذ هندل الآن قرارا من أهم القرارات فى حياته ، وأعلن انه سيخرج « قصة استير المقدسة » « أوراتوريو : الانجليزية » فى مسرح هيماركت فى ٢ مايو ، ولكنه أضاف أنه « لن يصاحب الأداء حركة على المسرح » ، وأن الموسيقى « ستؤدى بطريقة حفلة التتويج الدينية » ، وهكذا فرق بين الأوراتوريو والأوبرا . وجاء بكورسه وأوكستراه ، وعلم لاسترادا والايطاليين الآخرين أن يغنوا أغانيهم المنفردة بالانجليزية . وحضرت الأسرة المالكة ، واحتملت « استير » عروضاً خمسة فى أول شهر لها .

وأخفقت أوراتوريو أخرى سماها « أسيس وغلطية » (١٠ يونيو) فى ارضاء مشاهديها ، وأرتد هندل الى الأوبرا . فعرضت أوبرا

« أورلاندو » (٢٧ يناير ١٧٣٣) فترة طيبة ، ولكن حتى مع هذا التحسن ، واجهت شركته مع هيديجر الافلاس . فلما اخرج هندل الاوراتوريو الثالثة « دبوره » (١٧ مارس) حاول أن يستعيد كفايته المالية بمضاعفة أجر الدخول . ونددت رسالة غفل من التوقيع موجهة الى صحيفة « كرافتسمان » بهذا الاجراء ، ودعت للثورة على سيطرة « المستر هندل الوقح . . . المستبد ، المصرف (٥٣) » على موسيقى لندن . ولما كان هندل قد ظفر برعاية الملك ، فقد فقد اوتوماتيا مودة فردريك ، أمير ويلز ، وابن جورج الثاني وعدوه . وأخطأ هندل - الذى كثيرا ما خضع سلوكه لحدة طبعه - بالاساءة الى جوزف جوبى ، الذى كان يعلم الرسم لفردريك ؛ وثار جوبى لنفسه برسمه كاريكاتورا للموسيقى ظهر فيه مخلوقانها متوحشا له خطم خنزير برى ؛ ووزعت نسخ من الرسم فى أرجاء لندن فأضافت الى تعاسة هندل . وفى ربيع ١٧٣٣ شجع أمير ويلز حاشيته على تأليف فرقة منافسة سميت « أوبرا الاشراف » . واستقدمت الفرقة من نابلى أشهر معلمى الغناء فى ذلك العهد ، وهو نيكولو بوربورا ، وأغرت سنسينو بترك هندل ، وكوتزونى بالمجئ من ايطاليا ؛ وفى ٢٩ ديسمبر ، وفى مسرح لنكولنز أن قيلدز ، أخرجت أوبرا بوربورا « آريانا » التى لقيت استحسانا عظيما . أما هندل فقد قابل هذا التحدى الجديد بأوبرا تناولت موضوعا مشابها مشابها تنطوى على التحدى ، « آريانا فى كريت » (٢٦ يناير ١٧٣٤) ، فلقبت هى أيضا استقبالا حسنا . ولكن فى نهاية الموسم انتهى عقده مع هيديجر ، وأجر هيديجر مسرح جلالة الملك لأوبرا الاشراف ، ونقل هندل فرقته الى مسرح كوفنت جاردن الذى يملكه جون رتش .

وانتقم بوربورا بدعوة كارلو بروسكى ، أشهر المغنين الخصيان ، المعروف لأوبرا كلها باسم « فارينللى » . وقد نقصل الحديث عن غناء هذا الرجل حين نلتقى به فى وطنه بولونيا ، وحسبنا هنا أن نقول انه حين انضم الى سنسينو وكوتزونى فى أوبرا بوربورا « ارتازرسى » كان ذلك حدثا فى تاريخ انجلترا الموسيقى ، وأعيد عرض الاوبرا أربعين مرة فى السنوات الثلاث التى مكثها فارينللى - وقابلها هندل بأوبرا « أريودانتى » (٨ يناير ١٧٣٥) ، وهى من أروع أوبراته ، غنية غنى فريدا فى موسيقاها الالكية ، وقد ظفرت بعشرة عروض فى شهرين ،

ووعدت بأن تغطي نفقات هندل . ولكن حين أخرج بوربورا أوبرا « بوليفيمو » (أول فبراير) التى لعب فيها فارينللى دور البطل ، لم يستطع الملك ولا الملكة ولا الحاشية أن يمتنعوا عن مشاهدتها ، وفاقت فى مرات عرضها « أرتازيرمي » ، بينما لم تلبث أوبرا هندل «التشيننا» (١٦ أبريل) أن أقفر مسرحها من رواده - ولو أن الحانا أوركسترالية متتابعة (سويت) من موسيقاها لا تزال تظهر على البرامج اليوم . واعتزل هندل ساحة القتال نصف سنة ليطبيب آلامه الروماتزمية بمياه ينابيع تنبردج .

وفى ١٩ فبراير عاد الى كوفنت جاردن بأوراتوريو لحنها لقصيدة درايدن «وليمة الاسكندر» . كتب معاصر أن جمهور الآلاف والثلثمائة مشاهد الذين ملأوا المسرح استقبلوا الأوراتوريو بتصفيق « ندر أن سسمع فى لندن (٥٤) » . وتعزى هندل بريح منها بلغ ٤٥٠ جنيهها ، ولكن القصيدة كانت أهزل من أن تحتمل إعادة عرضها أكثر من أربع مرات ، رغم أن هندل قام بعزف مثير على الأارغن فى فترة الاستراحة ، وانقلب المؤلف - المخرج - القائد - العازف اليائس الى الأوبرا من جديد . وفى ١٢ مايو قدم « أطلالانطا » مسرحية رعوية تحتفل بزواج أمير ويلز . وكان قد دعا من ايطاليا مغنيا خصيا جديدا يدعى جيتسبلو (جواكينو كوتتى) لغناء السوبرانو ، وخص دوره بلحن (كارى سلفى) وهو من أجمل وأخلد أغانيه . وبلغ من سرور فردريك أنه نقل رعايته من فرقة بوربورا الى فرقة هندل ، ولكن هذا النصر كدره الغاء الملك لتبرعه السنوى بالف جنيه لمشروع هندل حين سمع بالخطوة التى اتخذها ابنه .

وكف بوربورا عن المعركة فى ربيع ١٧٣٦ . وملا هندل مسرحه بمناوبة الأوبرا مع الأوراتوريو ، وأضاف الى فرقة « جوستينو » (١٦ فبراير ١٧٣٧) « الدببه ، والحيوانات الغريبة ، والتنانين التى تقذف النار (٥٥) » . ولكن الجهد الذى اقتضته مسؤولياته المنوعة حطمه . وفى أبريل أصابه انهيار عصبى ، ونقطة شلت ذراعه اليمنى فترة . وفى ١٨ مايو عرض « برينيتشي » ، آخر أوبرا كتبها لفرقة . ثم أغلق مسرحه فى أول يونيو مقفلا بديون كثيرة ، متعهدا بالوفاء بها جميعا كاملة ، وقد فعل . وبعد عشرة أيام حلت « أوبرا الاشراف »

المنافسة له ، مثقلة بدين قدره اثنا عشر ألف جنيه . وهكذا انتهى عصر الاوبرا العظيم فى إنجلترا .

وكانت صحة هندل من بين ما تخلف من حطام . فالرومانزم فى عضلاته ، والتهاب المفاصل فى عظامه ، والنقرس فى أطرافه - هذه كلها تفاقم فى صيف ١٧٣٧ بنوبة جنون عارضة (٥٦) . فغادر إنجلترا ليستشفى بعياء آخن . وكتب السرجون هوكنز يقول أنه هناك:

« احتمل من افرازات العرق التى بعثتها حمامات البخار ما أدهش كل انسان . وبعد بضع محاولات من هذا النوع ، بدت معنويته خلالها ترتفع ولا تهبط من أثر العرق الغزير ، فارقه اضطراب عقله ، وبعد بضع ساعات . . . ذهب الى كنيسة المدينة الكبرى ، ووصل الى الارغن ، ثم عزف عليه عزفا جعل الناس يعززون شفائه الى المعجزة (٥٧) » .

وفى نوفمبر عاد الى لندن ، والى الكفاية المالية وأسباب التشريف . وكان هيديجر قد عاد ثانية الى مسرح صاحب الجلالة . ونقد هندل ألف جنيه لقاء أوبراتين ، واحتوت احدهما وهى « سرسي » (١٥ أبريل ١٧٣٨) على اللحنين المشهورين « لارجو » و « أومبرا ماى فو » . ودفع مستأجر حدائق فوكسهول الى روبياك ثلاثمائة جنيه لينحت تمثالا يظهر فيه الموسيقى وهو يداعب أوتار قيثاره ؛ وفى ٢ مايو أزيح الستار عن هذا التمثال الثقيل الوقفة ، الغبى التعبير ، فى الحدائق فى حفلة موسيقية . ولا بد أن هندل قد سره أكثر من هذا تلك الحفلة التى أعين بها فى ٢٨ مارس ، والتى أثته بأكثر من ألف جنيه . فدفع الآن ديون أعجل دائنيه ، وكان أحدهم يهدد بإيداعه سجن المدينين . ولكنه كان مشرفا على الافلاس برغم كل تشريف . ولم يستطع أن يتطلع بعد ذلك لهيديجر ، الذى أعلن (٢٤ مايو) أنه لم يقلق من الاكتتابات . ما يتيح له اخراج أوبرات فى ١٧٣٨ - ٣٩ . هنا ، ودون تكليف ولا فرقة ، بدأ هندل أعظم أطواره ، وهو فى الثالثة والخمسين ، والاوصاب والالوجاع تهز بدنه .

د - الاوراتوريو

نشأ هذا الشكل الجديد نسبيا من كورالات العصور الوسطى التى تمثل أحداثا فى التاريخ المدون فى الكتاب المقدس أو حياة القديسين . وكان القديس فليب نيرى قد خلع على هذا الشكل اسمه بتفضيله أياه وسيلة للعبادة والتعليم الدينى فى مصلى آباء الاوراتوريو فى روما . وطور جاكومو كاريسى وتلميذه أليماندرو سكارلاتى الاوراتوريو فى ايطاليا ، ونقلها هنريش شوتس من ايطاليا الى ألمانيا ، وبلغ رينهارت كيزر بهذا اللون شاوا بعيدا قبل موته (١٧٣٩) . وهذا هو التراث كيزر بهذا اللون شاوا بعيدا قبل موته (٢٧٣٩) . وهذا هو التراث الذى بلغ غايته فى « مسيا » Messiah هندل عام ١٧٤١ .

والفضل فى نجاح هندل يرجع بعضه الى توفيقه بين هذا الشكل وبين الذوق الانجليزى . وقد واصل اختيار موضوعات الاوراتوريو من الكتاب المقدس ، ولكنه أضفى عليها بين الحين والحين عنصر تشويق غير دينى ، كما فعل فى موضوع الحب فى « يوسف واخوته » . وفى « يفتاح » ؛ وركز على الطابع الدرامى لا الدينى ، كما فعل فى « شاول » و « اسرائيل فى مصر » ؛ واستعمل نسا انجليزيا خالصا ، أخذ جزءا منه فقط من الكتاب المقدس . لقد كانت فى جزء كبير منها موسيقى دينية ، ولكنها مستقلة عن الكنائس والطقوس . وقد مثلت على مسرح تحت رعاية علمانية . يضاف الى هذا أن هندل استخدم الموضوعات الكتابية ليرمز بها للتاريخ الانجليزى ، فاسرائيل ترمز لانجلترا ، وتمرد ١٦٤٢ الكبير وثورة ١٦٨٨ المجيدة يمكن سماعهما فى كفاح اليهود للتحرر من ربقة المصريين (اسرة ستيوارت) والسيطرة الهلنستية (الغالية) ؛ ولم يكن الشعب المختار فى حقيقته سوى الأمة الانجليزية ، والله اسرائيل هو نفس الاله الذى قاد الشعب الانجليزى الى النصر بعد المحن . وكانت فكرة هندل عن الله أشبه بفكرة البيورتان ، فهو « يهوه » اله العهد القديم الجبار ، لا الله الاب كما يصوره العهد الجديد (٥٨) . وكان هذا احساس انجلترا ، فاستجابت فى فخر لاوراتوريوات هندل .

بدأ الطريق الصاعد الى « المسيا » بأوراتوريو « شاول » التى أخرجت على مسرح صاحب الجلالة فى ١٦ يناير ١٧٣٩ . « ان مارش الموتى المهيب ، الجليل ، لكفيل وحده بأن يخلد هذا العجل (٥٩) » .

ولكن الجمهور لم يعتد شكل الأوراتوريو ، لذلك لم تعمر « شاول » أكثر من عشرة عروض . وبهمة لا تصدق ألف هندل وقدم (٤ أبريل) آية أخرى من آياته هي « إسرائيل في مصر » . هنا جعل الكورس هو البطل ، صوت أمة تولد ، ووضع موسيقى يعدها الكثيرون أسمى ما كتب (٦٠) . ولكن اتضح أنها مترامية عسيرة فوق ما يحتمله الذوق السائد آنئذ ، وأنهى هندل موسمه التاريخي بديون جديدة .

وفى ٢٣ أكتوبر اندفعت انجلترا الى الحرب مع أسبانيا بسبب إذن جنكنز . وفى وسط ضجيج الحرب وصخبها استأجر هندل مسرحا صغيرا ، وفى عيد القديسة راعية الموسيقيين قدم الاطار الموسيقى الذى ألفه لقصيدة درايدن الغنائية التى كتبها بمناسبة « عيد القديسه سيسيليا » (٢٢ نوفمبر ١٧٣٩) ولم تستطع لندن ، حنى فى برد تلك الليلة من ليالى الشتاء وفوضاها ، أن تقاوم ذلك الاستهلال الرخيم المشرق ، أو لحن السوبرانو الانيرى فى القسم الثالث ، أو « الناي الشاكي الخافت » و « العود الصادح » فى الخامس ، فى حين اتفق « دق الطبل الراعد ، ذلك الدق المضاعف المضاعف المضاعف » مع روح الحرب المدممة فى النوازع . وعادو الأمل هندل ، وجرب أوبرا سماها « أمينيو » (١٧٤٠) ، ولكنها فشلت ، وجرب أخرى اسمها « ديداميا » (١٧٤١) ، ففشلت هى أيضا ، واعتزل العملاق المرهق المسرح الموسيقى اللندنى . قرابة عامين .

وكان هذان العامان أروع ما فى حياته . وفى ٢٢ أغسطس ١٧٤١ بدأ يؤلف أوراتوريو « المسيا » . وقد اقتبس النص تشارلز جيننز من أسفار أيوب والمزامير وأشعيا ومراثى أرميا وحجى وزكريا وملاخى - وكلها من أسفار العهد القديم ، ومن أناجيل متى ولوقا ويوحنا ، ورسائل بولس ، وسفر الرؤيا - وهى من أسفار العهد الجديد . وأتم كتابة الموسيقى فى ثلاثة وعشرين يوما ، وقال لصديق انه فى بعض هذه الأيام « حسبتنى حقا أبصر السماء كلها أمامى فعلا ، والله العلى ذاته (٦١) » . واذ لم يتح له أمل مبكر فى العثور على جمهور لها ، فقد انتقل الى كتابة أوراتوريو كبيرة أخرى هي « شمشون » ، بناها على قصيدة ملتن عن معاناة شمشون Samson Agonistes وفى تاريخ غير معروف خلال

هذه النشوات تلقى دعوة لعرض بعض أعماله فى دبلن . وبدأ له الآن الاقتراح آت من العناية الالهية التى تقدره حق قدره ، ولكن الحقيقة لأنه آتى من وليم كافندش ، دوق ديفونشير ، ونائب الملك فى أيرلندة .

ووصل الى دبلن فى ١٧ نوفمبر ١٧٤١ . واستخدم أفضل من وجد من المغنين ، ومنهم سوزانا ماريا كير ، الابنة المثقفة لتوماس آرن . ونظمت عدة هيئات خيرية ست حفلات موسيقية له ، نجحت نجاحا حمله على تقديم سلسلة ثانية . وفى ٢٧ مارس ١٧٤٢ نشرت مجلته فى دبلن اعلانا جاء فيه :

« رغبة فى اغانة المسجونين فى عدة سجون ، واعانة مستشفى ميرسر . . . سيقدم يوم الاثنين ١٢ أبريل على قاعة الموسيقى فى شارع فيشامبل ، اوراتوريو المستر هندل الكبرى الجديدة ، المسماه « المسيا » . وسيشارك فيها أعضاء الكورس فى كلتا الكتدراكتين ، ويعزف المستر هندل بعض الكونشرتوات على الأرغن (٦٢) » .

وبيعت التذاكر كذلك للبروقات التى ستجرى فى ٨ أبريل ، والتى قالت مجلة فوكسر انها « تؤدى أداء رائعا . . . اعترف معه أعظم الحكام بانها أبدع لحن موسيقى سمعه الناس اطلاقا » . واضيف الى هذا اعلان يؤجل حفلة الاثنين الى الثلاثاء ، ويرجو السيدات « أن يحضرن بغير أطواق لأثوابهن ، لأن هذا من شأنه أن يدعم عمل البر ، اذ سيفسح المكان لعدد أكبر من الحاضرين » . وطلبت فقرة أخرى الى الرجال أن يحضروا بغير سيوفهم . وبهذه الطرق اتسعت قاعة الموسيقى لسبعمائة شخص بدلا من ستمائة .

وأخيرا ، وفى ١٣ أبريل ١٧٤٢ ، قدم أشهر الألحان الموسيقية الكبرى قاطبة . وفى ١٧ أبريل احتوت ثلاثة صحف دبلنية نقدا واحدا :

« فى يوم الثلاثاء الماضى قدمت اوراتوريو المستر هندل الكبرى المقدسة ، « المسيا » . . . وقد اعترف أفضل الحكام بانها أفضل القطع الموسيقية صقلا . وتعوزنا الألفاظ للأعراب عز، المتة الفائقة التى أتاحتها للجسم المزدحم المعجب . وقد تضافرت عناصر السمو والفخامة

والرقة ، التى واعم بينها وبين أنبل الالفاظ وأجلها وأشدّها تأثيرا ،
لتطرب وتسحر القلب والأذن المسلوبين . ومن الانصاف لمستر هندل
أن يعرف العالم أنه تبرع فى سخاء بحصيلة هذه الحفلة الكبرى لتوزع
بالتساوى بين جمعية اغاثة المسجونين ، ومبرة العجزة ، ومستشفى
ميرسر ، وهو عمل ستذكره له هذه الهيئات بالشكر على الدوام (٦٣) «

وأعيد عرض « المسيا » فى دبلن فى ٣ يونيو . وقد أعيدت ألف
مرة منذ ذاك التاريخ ، ومع هذا فمندا الذى مل تلك الألحان - سواء
الهادئة منها أو الفخمة - ، تصاحبها الترانيم الخافتة الرقيقة اللطيفة
مثل « سوف يطعم قطيعة » و « أعلم أن قادى حى » ، و « ليتمجد
اسمه » و « كان مزدرى مرفوضا » ؟ لقد حدث والمسز كبر تترنم بهذا
اللحن الأخير فى أول عرض بدبلن أن صاح قسيس انجليكانى من بين
الحاضرين قائلا « لتغفرلك خطاياك من أجل هذا أيتها المرأة ! » فكل
ما فى الرجاء الدينى من عمق وحرارة ، وكل ما فى الترتيل الورع من
رقة وحنان ، وكل ما وهب الموسيقى من فن وعاطفة - كل هذا اجتمع
لبجعل من هذه الألحان أرفع اللحظات فى الموسيقى الحديثة .

وفى ١٣ أغسطس غادر هندل دبلن منتعش الروح ممثلىء الجيب
وقد عقد النية على أن يغزو إنجلترا من جديد . ولابد أن قد سرى عنه
غلو بوب فى الثناء عليه فى الجزء الرابع من « ملحمة الأغبياء »
(١٧٤٢) :

« ها هو هندل العملاق يقف قويا وهو مدجج بسلاح جديد !
مثل برياريوس الشجاع ، وله مائة يد (أى الأوركسترا)
يأتى ليحرك ويوقظ ويهز النفوس
ورعود جوييتر تتبع طبول مارس .

وعليه ففى ١٨ فبراير ١٧٤٣ ، فى المسرح الملكى بكوفنت جاردن ،
قدم الموسيقى الذى استعاد شبابه أوراتوريو « شمشون » . وكان جورج
الثانى على رأس الصفوة اللندنية التى حضرت حفلة الافتتاح . وإبهج
الاستهلال الجميل كل انسان سمعه الا هوراس ولبول ، الذى صمم على
إلا يعجب بشيء قط ؛ وكان اللحن الرفيع الذى مطلع « يارب الجنود »

رائعا روعة تقرب من روعة الخان المسيا ، وكما فعل شمشون الجبار الذى سحق بقوته المحتفلين اذ اسقط عليهم المعبد ، فكذلك كان تأثير أوراتوريو « شمشون » ساحقا على الحاضرين . ولكن حين عرضت المسيا نفسها بعد شهر (٢٣ مارس) على لندن ، لم يستطع حتى الملك - الذى أُرسي يومئذ تقليدا دائما بوقوفه عند ترنم الفرقة بلحن « هلوليا » - أن ينهض بالأوراتوريو الى مقام التقبل . فرجال الدين نددوا باستعمال المسرح للموسيقى الدينية ، اما النبلاء فما زالوا على صدهم وجراح اخفاق فرقتهم الأوبرالية توجعهم . ولم تعرض المسيا فى العامين التاليين الا ثلاث مرات ، ثم توقف عرضها حتى عام ١٧٤٩ . ففى ذلك العام أهدى هندل ، الذى كان رجلا بارا بالانسانية فيما بين افلاسائه ، أرغنا جميلا لمستشفى اللقطاء الذى كان صديقه هوجارث يحبه حبا جما ، وفى أول مايو ١٧٥٠ قدم أول عرض من عروض المسيا السنوية لأعانة أولئك البؤساء المحظوظين .

وفى ٢٧ يونيو ١٧٤٣ قاد جورج الثانى جيشه للنصر فى معركة ديتنجن . فلما عاد الى لندن حيته المدينة بالعروض والأضواء والموسيقى ، وصدحت الكنيسة الملكية فى قصر سانت جيمس بـ « تسبيحة ديتنجن » التى لحنها هندل لهذه المناسبة (٢٧ نوفمبر) . وكانت نتاج العبقرية والمقص ، لأنها احتوت فقرات مسروقة من مؤلفين أسبق وأقل شأنا من هندل ، ولكنها كانت معجزة من متجزات اللصق . وابتهج الملك .

فلما أن تشجع هندل بالابقسامات الملكية ، جدد جهوده ليقتنص أذان لندن من جديد . وفى ١٠ فبراير ١٧٤٤ قدم أوراتوريو أخرى سماها « سملى » احتوت ترنيمة بديعة اسمها « حيثما سرت » ما زالت تترنم بها إنجلترا وأمريكا ، ولكن الأوراتوريو لم تستطع تجاوز عروض أربعة . وظل النبلاء على عداثهم لهندل ، وحرصت نبيلات كثيرات على إقامة الولائم المترفة فى الأمسيات المقررة للحفلات الموسيقية التى يحييها هندل ، واستؤجر الأوباش ليمزقوا اعلاناته . وفى ٢٣ أبريل ١٧٤٥ ألغى الحفلات الموسيقية الثمان التى أعلن عنها من قبل ، وأغلق مسرحه ، واعتزل فى تنبردج ولز . وأرجفت الشائعات أنه مجنون . كتب حامل لقب إيرل شافتمبرى فى تلك الفترة يقول (٢٤ أكتوبر) « ان هندل المسكين يبدو

أحسن قليلا ، وأرجو أن يتماثل للشفاء تماما ، ولو أن عقله قد اختلط
اختلاطا تاما (٦٤) » .

وربما أخطأت الشائعات ، لأن هندل الذى بلغ السنين استجاب بكل
قواه لدعوة من ولى العهد ليحيى ذكرى انتصار أخى الأمير الأصغر ، دوق
كمبرلاند ، على القوات الاستيوارتية فى كالودين . واتخذ هندل انتصار
يهوذا المكابى (١٦٦ - ١٦٦ ق .م) على خطط أنطيوخس الرابع لقرض
الهلنستية على وطنه موضوعا رمزيا للأوراتوريو الجديدة . وقد أحسن
الجمهور استقبالها (أول أبريل ١٧٤٧) حتى احتملت إعادة عرضها
خمس مرات فى أول موسم لها . أما يهود لندن الشاكرون هذا الاحتفال
النبل بأحد أبطالهم القوميين ، فقد أعانوا على تكثير جمهور النظارة ،
فمكنوا هندل من تقديم الأوراتوريو أربعين مرة قبل موته . واعترافا
بفضل هذا الدعم الجديد اتخذ أكثر موضوعات ألبانه الدينية بعد ذلك
من تاريخ اليهود أو أساطيرهم ، أسكندر بالوس ، ويشوع ، وسوسنة ،
وسليمان ، ويفتاح . وعلى عكس ذلك لم تجذب أوراتوريو « تيودورا »
- وهو اسم مسيحي - من الجمهور إلا أقل القليل ، حتى لاحظ هندل
فى مرارة أنه « كان هناك مكان يتسع للرقص » وغادر تشستر فيلد المسرح
قبل نهاية العرض معتذرا بأنه « لا يريد ازعاج الملك فى خلوته (٦٥) » .

هـ - بروميثيوس

ليست الأوراتوريو إلا « نوعا » واحدا من ذلك « الجنس » المسمى
هندل . ذلك أن روحه المتعددة الأشكال اتجهت بتوافق تلقائى تقريبا لآى
شكل من الأشكال الموسيقية الكثيرة . فالأغاني التى مازالت تمس أوتار
العاطفة ، وقطع الأرقن أو البيان المتناهي الرقة ، والسوناتات ،
والمقتabعات ، والرياعييات ، والكنشرتو ، والأوبرا ، والأوراتوريو ،
وموسيقى الباليه ، والقصائد الغنائية ، والرعويات والكنتاتات ،
والتراتيل ، والأناشيد الوطنية ، وتسيحات الشكر ، وترانيم أسبوع
الآلام - كل شيء تقريبا إلا السمفونية الوليدة نجده فى موسيقاه ،
منافسا بذلك فيض بيتهوفن أو باخ المتدفق ، و « متتابعات
الهاري سيكورد » تبدو اليوم على الهاري سيكورد وكأنها أصوات أطفال
سعداء لم يعرفوا التاريخ بعد . وهناك مجموعة ثانية من المتتابعات .

بجاءت بذلك الاستهلال الذى لعب به الموسيقى برامز لعبا مرحا فى « تنويعات وفوجه على موضوع لهندل » .

وكما أخذ هندل الاوراتوريو عن كاريسىمى وكايذر وارتفع بها الى أوجها ، كذلك أخذ عن توريللى وكوريللى « الكونشرتو الكبير » - لالتين أو أكثر لمغن واحد أو مغنيين مع أوركسترا صغير (أوركسترا الحجرة) . وفى مجموعته الموسيقية السادسة ترك اثنى عشر من هذه الكونشرتوات الكبيرة ، مقابلا كمانين وفيلوننتيللو بمجموعة وترية ، وبعضها يبدو لنا اليوم رتيبا ، وبعضها يقرب من كونشرتو براندنبورج لباخ . كذلك نجد فى هندل كونشرتوات ممتعة لآلة منفردة - الهاريسيكورد أو الكمان ، أو الفيولا ، أو الأوبوا ، أو الهارب . أما تلك المخصصة للوحات المغاتيح فكان يؤديها هندل بنفسه فى المقدمات أو الفواصل . وكان أحيانا يترك متسعا فى موسيقى الكونشرتو لما يجب أن نسميه اليوم « ارتجالا » *cadenza* ، حيث يستطيع العازف أن يطلق العنان لخياله ويظهر براعته . وكانت ارتجالات هندل فى مثل هذه الافتتاحات أعاجيب تحدث الناس بها طويلا .

وفى يوليو ١٧١٧ نظم جورج الاول « رحلة » ملكية فى ذهبيات حفلت بالزينات على نهر التيمز . وتكشف صحيفة « الديلى كورنت » عدد ١٩ يوليو ١٧١٧ عن هذا المشهد فتقول :

« فى مساء الأربعاء حوالى الثامنة نزل الملك الى النهر عند هوايتهول فى ذهبية مكشوفة ، كان فيها أيضا دوقه نيوكاسل ، وكونتيسة جودولفن ، ومدام كيلمانسيك ، وايرل أوركنى ، وصعدوا فى النهر جنوب تشلسي . ورافقتهم ذهبيات كثيرة أخرى يستقلها بعض عليه القوم ، وزوارق كبيرة العدد بحيث غطت صفحة النهر تقريبا . وخصص زورق فرقة موسيقية من فرق المدينة لعزف الموسيقى ، زود بخمسين آلة من جميع الأنواع ، عزف عليها العازفون طوال الطريق من لامبث أبدع السمفونيات ، التى لحنها المستر هبذل خصيصا لهذه المناسبة وأعجبت جلالته جدا حتى طلب عزفها أكثر من ثلاث مرات فى الذهاب والاياب (٦٦) » .

وهذه هي « موسيقى المياه » ، التي هي اليوم أبقي وألذ ما تخلف من مؤلفات هندل الآلية . ويبدو أنه كان هناك في الأصل إحدى وعشرون حركة - وهو عدد أكبر من أن يحتمله المستمعون العصريون اللذين تعوزهم الذهبيات والوقت ، ونحن لا نستمتع عادة لأكثر من ست . وبعضها متعبة بعض الشيء في تطوافها المشجى ، ولكن أكثرها موسيقى صحية مرحة مثالقه ، كأنها متدفقة من ينبوع لتهدد خليات الملك . و « موسيقى المياه » أقدم قطعة موسيقية في الذخيرة الأوركسترالية الحالية .

وبعد جيل كامل ، ومن أجل جورج ثان ، أضفى هندل الكرامة على مناسبة خلوية أخرى . ذلك أن الحكومة قررت إقامة عرض للألعاب النارية في جرين بارك احتفلا بصلح اكس - لا - شابل ، وولت هندل بتأليف « موسيقى الألعاب النارية الملكية » . فلما عزفت بروفا هذه الموسيقى في حدائق فوكسهول (٢١ أبريل ١٧٤٩) ، دفع اثنا عشر ألف شخص مبلغ الشلنين - الكبير في ذلك الوقت - للاستماع إليها ؛ وبلغ التزامهم مبلغا عطل المرور على الطريق الذي يعبر كوبري لندن ثلاث ساعات - « ولعل هذا كان أروع ثناء ظفر به أى موسيقى على الإطلاق (٦٧) » . وفي ٢٧ أبريل شق نصف سكان لندن طريقهم الى جرين بارك ، واقتضى الأمر ست عشرة ياردة من سور الحديقة لتمكينهم من الدخول في الميعاد . وعزفت « فرقة » من مائة موسيقى لحن هندل ، وتألفت الألعاب النارية في السماء ، وشبت النار في مبنى أقيم لهذه المناسبة ، فذعر الجمع المحتشد وأوذى كثيرون ومات شخصان . ولم يبق من المهرجان الا موسيقى هندل . واذا كان هدف هذه الموسيقى أن تخلد حربا ظافرة وأن تسمع عن بعد فقد كانت عبارة عن دوى هتافات وطبطن طبول أشد ضجيجا مما تحتمله الأذن التي ألفت الحركة البطيئة . ولكن فيها حركة بطيئة جدا تقع وقعا محمودا على الأعصاب المرهقة .

وانتهت انجلترا آخر الأمر الى محبة الألمانى العجوز الذى ناضل جاهدا ليكون انجليزيا . لقد فشل فى نضاله ، ولكنه حاول ، حتى الى حد السب والشتم بالانجليزية . وتعلمت لندن ان تغفر له بدانته الهائلة ،

ووجهه العريض وخديه المنتفخين ، وساقيه المقوستين ومشيته الثقيلة ، ومعطفه القرمزى المخملى ، وعصاه الذهبية المقبض ، وعجبه وتعالیه ؛ لقد كان لهذا الرجل بعد كل المعارك التى خاضها الحق فى الظهور بمظهر الفاتح ، أو على الأقل بمظهر اللورد ، نعم كان فى سلوكه جلافة ، وكان يدرّب موسيقييه بالحب والغضب ، ويوبخ جمهور المستمعين على كلامهم خلال البروفات ، ويهدد مغنياته باستعمال العنف ، ولكنه غلف عنفه بالفكاهة . فلما التحت كوتزونى وبوردونى بالأيدي على خشبة المسرح قال هدوء « اتركوهما لتنهيا المعركة » ، وراح يندق لحنا مصاحبا مرحا على النقاريات ليرافق سورة عضبهما (٦٨) . ولما هدده مغن بالونب على الهاريسيكورد لأن عزف هندل المصاحب اجتذب السامعين أكثر من غناء المغنى ، طلب اليه هندل أن يحدد تاريخ هذه التمثيلية المقترحة للاعلان عنها قائلا أن « الذين سبأتون لبروك تقفز أكثر من الذين سبأتون لبسموك تغنى (٦٩) » . وكانت ملاحظاته الظريفة تعدل فى براعتها تعليقات جونان سويفت ، ولكن الاستمتاع بها كان يقتضى الامام بأربع لغات .

وفى ١٧٥٢ بدأ يفقد بصره . فبينما كان يكتب « يفتاح » اختلطت الرؤية أمام عينيه حتى أضطر الى الكف عن الكتابة . وفى المخطوطة الأصلية المحفوظة بالمتحف البريطانى أخطاء عجيبة - « سيقان رسمها بعيدة بعض الشيء عن النوتات التى ننتمى إليها ، ونوتات واضح أنها صلت طريقها (٧٠) » . وفى أسفل الصفحة سطر كتبه المؤلف « الى هنا وصلت ، الأربعاء ١٣ فبراير . منعتنى عينى اليسرى من الاستمرار » . وبعد عشرة أيام كتب على الهامش « ٢٣ فبراير ، حالتى أحسن قليلا . اسنانفت العمل » . ثم ألف موسيقى لهذه الكلمات « فرحنا يضيع فى الحزن . . . كما يضيع النهار فى الليل (٧١) » . وفى ٤ نوفمبر كتبت صحيفة «الجنرال أدفرتيزر» : « بالأمس أعد (لعملية السد أو الكتركت) السيد جورج فردريك هندل التى يجريها له الطبيب وليم برومفيلد جراح سمو أميرة ويلز » . وبدا أن الجراحة نجحت ، ولكن فى ٢٧ يناير ١٧٥٣ أعلنت جريدة لندنية أن « المستر هندل كف بصره فى النهاية تماما لسوء الحظ » . على أن التقارير اللاحقة تشير الى أنه احتفظ ببصيص من النور حتى موته .

وواصل التأليف والقيادة سبع سنين آخر . فقدم فى ستة أمسيات (٢٣ فبراير الى ٦ أبريل ١٧٥٩) حفلتين عرض فيهما « سليمان » ، وحفلة عرض فيها « شمشون » واثنين « يهوذا المكابى » وثلاثا « المسيا » . ولكن بينما كان يغادر المسرح عقب حفلة عرض المسيا فى ٦ أبريل وقع مغشيا عليه ، واقتضى الأمر حمله الى بيته . فلما أفاق كان دعاؤه أن يفسح له فى الأجل أسبوعا آخر . « أريد أن أموت فى يوم الجمعة الكبيرة ، رجاء أن ألحق بالآلة الصالح ، ربى ومخلصي الحبيب ، فى يوم قيامته (٧٢) » . وأضاف الى وصيته ملحفا أوصي فيه بالف جنيه لجمعية اعانة الموسيقيين العجزة وعائلاتهم ، وبمبالغ كبيرة لنلاثة عشر صديقا ، وإلى « خادمانى راتب سنة لكل واحدة » . ومات فى سبت النور (غنية القيامة) ، ١٤ أبريل ١٧٥٩ ، ودفن فى دير وسمنستر فى ٢٠ أبريل ، فى مشهد من « أعظم حشد للبشر من جميع الرتب روعى فى مثل هذه المناسبة دل وفى أى مناسبة أخرى (٧٣) » .

ولقد ترك نروة موسيقية لا تصارع ، سنا وأربعين أوبرا ، وانين وثلاثين أوراتوريو ، وسبعين مقدمة ، واحد وسبعين كنانا ، وستة وعشرين كوسرنا كبيرا ، وثمانية عشر كوشرتا للأرغن ، وكثيرا وكثيرا غير هذا بحيث يملأ كل هذا مائة مجلد ضخمة ، تكاد تعدل أعمال باخ وبيتهوفن مجتمعة . وكان بعض هذا التراث مكررا ، وبعضه مسروقا ، لأن هندل سطا على موسيقى تسعة وعشرين مؤلفا على الأقل دون اقرار بفضلهم ليستعين بهم على الوفاء بمواعيده (٧٤) ، مثال ذلك أن المينيوويت فى مقدمة « شمشون » أخذت انغامها نصا من أوبرا كلوديوس لكايزر .

ومن العسير تقدير هندل بقدره الصحيح ، لأنه لا يعرض علينا اليوم الا اليسير من أعماله . أما الأوبرات ، فانها باستثناء بعض الألحان الساحرة لا سبيل الى بحثها ، فقد وضعت، ونق نساخ ايطالية ذهبت ولا أمل فى رجوعها فيما يبدو ، ونصوص موسيقاها الموجودة الآن ناقصة ، وهى تستعمل رموزا واختصارات أكثرها غير مفهوم الآن ، وقد كتبت لأوركسترات يختلف تكوينها عن تكوين أوركستراتنا اختلافا تاما ، ولاصوات لجنس ثالث مختلف كل الاختلاف عن المتوسط من

أعفاس عصرنا . وتبقى بعد ذلك موسيقى الكونشرتو الشبيهة بأرض صيد سعيدة تحوى كنوزا منسية ، و « موسيقى المياه » ، والأوراتوريوات - ولكن حتى هذه الأوراتوريوات « عتيقة » ، لأنها كتبت لانجليز يعدون للمعركة ويهود شاكرين ؛ وتحتاج تلك الكوارس الضخمة والحركات الصوتية المتكاثرة الى معدة ضليعة فى الموسيقى لتضمها - وإن كان مما يبهجنا أن نسمع « يفتاح » و « اسرائيل فى مصر » من جديد . ويخبرنا الموسيقيون أن فى الأوراتوريوات المهمة فخامة ووقارا ، وسموا فى الوجدان ، وقوة فى التصوير والتعبير والدrama ، وتنوعا وبراعة فى التقنية التركيبية ، لم يدركها أحد بعده فى ذلك اللون من التأليف الموسيقى . وقد عاشت «المسيا» الى اليوم رغم ما شابها من تكرار ونقطيع أوصال لأنها من جهة تصون وتدخر أهم العقائد المسيحية العزيزة حتى على من تنكروا لها ، ولكن أهم من ذلك أن الحانها العميقة و « قراراتها » المعبرة عن الانتصار تجعلها فى جملتها أعظم تأليف مفرد فى تاريخ الموسيقى .

وقد أدركت انجلترا عظمته بعد موته ، فلما اقتربت ذكرى ميلاده انضم النبلاء الذين كانوا يخاصموه من قبل الى الملك والنسواب فى أحيائها بثلاثة أيام من موسيقاه . ولما كان مولده فى ١٦٨٤ طبقا للتقويم الانجليزى ، فقد أقيمت أول حفلة فى ٢٦ مايو ١٧٨٤ بدير وستمنستر ، والثانية والثالثة فى ٢٧ و ٢٩ مايو . ولم تكف هذه لتلبية الطلب ، فاقامت حفلتان أخريان فى الدير فى ٣ و ٥ يونيو . وبلغ عدد المرتلين ٢٧٤ ، والعازفين فى الأوركسترا ٢٥١ ، وبدأ الآن ذلك التقليد الذى يسبغ على عروض هندل الضخامة العارمة والجلال الطاغى . وأحببت عروض هائلة كهذه احتفالات لاحقة بذكرى مولد هندل ، حتى اذا جاء عام ١٨٧٤ ازداد عدد المشاركين فى الأداء حتى بلغ ٣٥٠٠ . وقد ذهب بيرنى الذى سمع أحد هذه العروض الكبرى الى أن ضخامة الصوت لم تنتقص من حلاوة الموسيقى (٧٨) . على أى حال كانت هذه أضخم حفلات أقيمت لاهياء ذكرى أى موسيقى كائنا من كان . والآن وقد خفت فورتها فقد يصبح فى الامكان الاستماع الى موسيقى هندل من جديد .

٥ - فولتير فى انجلترا ١٧٢٦ - ٢٨

كان يعيش فى انجلترا عام ١٧٢٦ شاب فرنسي سيبوا فى تاريخ القرن الثامن عشر مكانا أهم كثيرا من مكان هذدل . لقد بلغ فولتير السواحل الانجليزية عند جرينش قرب لندن فى ١٠ أو ١١ مايو . وكان أول انطباع له فياضا بالحماسة . فقد كان أسبوع مهرجان جرينتش ، وكادت صفحة التيمز تغطبها الزوارق والأشعة الضخمة ، وكان الملك هابطا النهر فى ذهبية حافلة بالزينة ، تسبقها قرفة موسيقية ، وعلى الشاطئ رجال ونساء يختالون على جياد تخطر ، ثم عشرات من الفتيات الحسان يمشين وقد تزين ليوم عطلة . وأنارت مشاعر فولتير البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة أجسادهن الرشيقة ، واحتشامهن ، ووجنتهن المتوردة . على أنه نسيهن حين وصل الى لندن ووجد أن المصرفى الذى كان يحمل البه خطاب تحويل على رصيده بعشرين ألف فرنك قد أسهر أفلاسه . وأنفذه أفرارد فوكنز ، وهو تاجر التقى به فى فرنسا ، فاقام عدة شهور فى ضيعة هذا البريطانى الكريم بواندزورث ، وهى ضاحية من ضواحي لندن . وأرسل جورج الأول الى فولتير مائة جنيه حين سمع بحادثه المؤسف .

وكان يحمل رسائل تعريف من هوراشيو ولبول ، السفير البريطانى لدى فرنسا ، الى كثير من مشاهير الانجليز ، وقد التقى عاجلا أو آجلا بكل انسان تقريبا ممن يشار اليهم بالبنان فى ميدان الادب أو السياسة الانجليزية . فاستقبله روبرت ولبلول ، رئيس الوزراء ، ودوق نيوكاسل ، وسارة دوفن ملبره ، وجورج أوغسطس وكارولين أمير وأميرة ويلز ، ثم آخر المطاف الملك الذى ننحه بساعة ثمينة أرسلها فولتير عربون صلح لآبويه .

ثم زار « سيدى اللورد بولنبروك وسيدتى الليدى بولنبروك » و « وجد محبتهم لاتزال كما هى (٧٧) » . وفى أغسطس قام برحلة خاطفة الى فرنسا ، وهو لم يزل على تلهفه لفتال رومان ، ولكن سبب الرحلة كان فى أغلب الظن لتنظيم شؤنه المالية . وعاش ثلاثة أشهر - بعضها مع سويقت - ضيفا على الايرل الاثالث لستربورو . واستمتع (م ٢٣ - قصة الحضارة)

ثلاثة أخرى فى قصر ايستبرى بضيافة بوب دودنجتن ، ذلك السيامى الفاسد والراعى العطوف لفيلدينج ، وطومسون ، وبنج . والتقى فولتير بكلا الشاعرين هناك ، وقرأهما دون أن يخرج بفائدة من القراءة . ومن ثم عكف على تعلم اللغة بعزم صادق ، فما وافت نهاية عام ١٧٢٦ حتى كان يكتب الخطابات بالانجليزية (٧٨) . واقتصر فى الشهور الاولى على المجالس التى كانت تفهم فيها الفرنسية ، ولكن كل من كان ذا شأن من الرجال أو النساء فى الادب الانجليزى أو السياسة الانجليزية كان يعرف الفرنسية . وكتب المذكرات التى ملأها الآن باللغتين على السواء ، وهى تدل على أنه تعلم الالفاظ النابية أول ما تعلم من الانجليزية .

وقد اكتسب من الاحاطة بالادب الانجليزى ما لم يكتسبه فرنسي مرموق بعده حتى ايبوليت تين . وقرأ بولنبروك ، ولكنه وجد قلم الفيكونت أقل المعية من لسانه ؛ على أنه ربما أخذ عن كتاب بولنبروك المسمى « مفهوم الملك الوطنى » الاعتقاد بأن خير أمل فى الاصلاح الاجتماعى يجرى على يد الملكية المستنيرة . وشق طريقه وسط أحقاد سويقت المقطرة ، وربما تعلم منه بعض فنون الهجاء ، وحكم بأنه « يفوق رابليه بما لا يقاس (٧٩) » . وقرأ ملتن ، ووقع من فوره على هذه الحقيقة ، وهى أن الشيطان هو البطل الحقيقى للمحنة الفردوس المفقود (٨٠) . وقد رأينا فى مكان آخر انفعاله المختلط بشكسبير - الاعجاب ببلاغة « الهمجى المحبوب » ، و « درر » السمو أو الرقة الدفينة وسط « كومة روث هائلة » من المهازل والمباذل (٨١) . وقلد « بوليوس قيصر » فى « موت قيصر » ، وعطيل فى « زائير » . كذلك ظهرت رحلات جلفر من جديد فى « ميكروميجاس » ، ومقال بوب عن الانسان فى « رسائل منظومة فى الانسان » .

وبادر بعد وصوله الى انجلترا بزيارة بوب . وصدمه منه تشوّهه وعذابات ، واذهلته حدة ذهن برب وارهاف عبارته ، وفضل مقال بوب فى النقد على مقال بوالو فى « فن الشعر (٨٢) » . وزار كونجراف المسن وساءه أن يجد أن الرجل الذى كان بوما ما مسرحيا عطيما أراد أن يعتبر « جنتلمانا لا مؤلفا (٨٣) » . وعلم فى حسد بأمر الوظائف الشرفية والمعاشات التى منحتها الوزارة الانجليزية قبل ولبول

للمؤلفين ، وقارن بين هذا الوضع وما صار اليه أمر أكبر شعراء فرنسا ،
الذى زج به فى السجن لأنه استاء من اهانة نبيل له .

ومن الأدب انتقل الى العلم ، فالتقى بأعضاء الجمعية الملكية ،
وبدأ يدرس نبوتن تلك الدراسة التى أتاحت له بعد ذلك أن يحل نيوتن
محل ديكارت فى فرنسا . وتأثر تأثرا عميقا بالجنازة الرسمية التى
شيعت بها صفوة الانجليز نيوتن ، ولاحظ كيف رحبت الكنيسة
الانجليكانية بعالم يدفن فى دير وستمنستر . ومع أنه كان قد أصبح
ربوبيا قبل زيارته لانجلترا - اذ تعلم فن الشك من رابليه ومونتيني
وجاسندى وفونتنبيل وبيل - فانه الآن اتخذ دعما له من ربوبى
انجلترا - من تولاند وولسن وتندال ونسب وكولنز ومدلن وبولنبروك ؛
وسيلح مكتبته بكتبهم فى فترة لاحقة . وكان أقوى حتى من هؤلاء
تأثير لوك الذى امتدحه فولير لأنه أول من درس العمل دراسة واقعية .
ولاحظ أن القليل جدا من هؤلاء المهرطقين المصريين على هرطقتهم
سجنوا بسبب آرائهم . ثم لاحظ نمو التسامح الدينى منذ ١٦٨٩ ،
وذهب الى أنه لا يوجد فى انجلترا تعصب دينى أعمى ، وحتى
الكويكرز خفت فورتهم فغدوا رجال أعمال هادئين . وزار أحدهم ،
وسره أن ينبأ بأن بنسلفانيا بلد مثالى يخلو من الطبقات والحروب
والاعداء (٨٤) .

كتب بعد ذلك الى مدام دو دفان يقول « ما أشد حبى للانجليز ،
ما أشد حبى لهؤلاء القوم الذين يقولون ما يعتقدون (٨٥) ! » وعاد
يقول :

« انظرى ما حققته قوانين الانجليز ، لقد ردت لكل انسان حقوقه
الطبيعية التى سلبتها اياها كل النظم الملكية تقريبا . وهذه الحقوق
هى : الحرية الكاملة للفرد وما يملك ؛ وحقه فى أن يكلم الناس بقلمه ؛
وأن يحاكمه محلفون من الرجال الاحرار اذا اتهم بجريمة ؛ والا يحاكم
فى أى أمر الا طبقا لقوانين محددة ؛ وأن يجهر وقت السلم بالدين الذى
يفضله ايا كان ، مع البعد عن تلك المناصب التى لا يختار لها
الا أعضاء الكنيسة الانجليكانية (٨٦) » .

والسطر الأخير يدل على أن فولتير أدرك حدود الحرية
الانجليزية . فقد عرف أن الحرية الدينية لم تكن قط كاملة ، وقد سجل.

فى مذكراته القبض على « مستر شبنج » لما ابدى من ملاحظات مهينة على خطاب العرش (٨٧) . وكان فى استطاعة أى من مجلسي البرلمان أن يستدعى المؤلفين لمحاكمتهم على تصريحاتهم المؤذية عن أعضاء البرلمان ؛ وكان فى استطاعة كبير الامناء أن يرفض التصريح بالتمثيلات ؛ وقد وضع ديفو فى المشهرة عقابا على نشره حشاها تهكما . ولكن فولتير أحس بأن حكومة انجلترا رغم فسادها أعطت الشعب قسطا من الحرية يحفره حفزا خلاقا فى كل مجالات الحياة .

ف هنا على سبيل المثال كانت التجارة حرة نسبيا ، لا يغل يدها ما يعرقها فى فرنسا من مكوس داخلية . و خلعت على رجال الأعمال المناصب الادارية الرفيعة ، وسيعين صديقه فوكنر بعد قليل مسفيرا لانجلترا فى تركيا . وأحب فولتير ، رجل الأعمال ، روح الانجليز العملية ، واحترامهم للحقائق والواقع والمنفعة ، وبساطة سلوكهم وعاداتهم وملبسهم حتى الأثرياء منهم . وأحب أكثر من هذا كله الطبقة الوسطى الانجليزية . وقارن بين الانجليز وجعتهم : رغبة على السطح ، وحنالة فى القاع ، ولكن الوسط رائع (٨٨) . كتب فى ١٢ أغسطس ١٧٢٦ يقول : « لو خيرت لأثرت المكث هنا لغرض واحد هو أن أتعلم أن أفكر » ، وفى دفقة من حماسه دعا تييريى الى زيارة « أمة مغرمة بالحرية ، مثقفة ، ذكية ، تحتقر الحياة والموت ، أمة من الفلاسفة (٨٩) » .

وقد كدر صفاء غرامه هذا بانجلترا ما حام حوله حينما من اشتباه بوب وغيره فى أنه يعمل جاسوسا على أصدقائه المحافظين لوزارة وليول (٩٠) . فلما اتضح أن الشبهة ظالمة نبذت للتو ، وظفر فولتير بشعبية كبيرة بين النبلاء وصفوة المثقفين اللذنيين . وحين قرر أن ينشر ملحمة الهنريادة فى انجلترا ، أرسلت له كل الدوائر المثقفة تقريبا اكتتاباتها ، بما فيها جورج الاول ، والاميرة كارولين ، والابلطان المتنافسان ؛ وطلب سويغت الى بعض هؤلاء ، أو قل أمرهم ، بالاكتتاب . فلما ظهرت القصة (١٧٢٨) أهديت الى كارولين ، التى كانت الملكة الآن ، مشفوعة بباقة من الازهار الى جورج الثانى ، الذى رد على التحية بنفحة قدرها أربعمائة جنيه ، ودعوة الى حفلات العشاء الملكية . ونفذت ثلاث طبعات فى ثلاثة أسابيع ، رغم أن النسخة بيعت جثمان باهظ قدره ثلاثة جنيهات . وقد قدر فولتير دخله من هذه الطبعة

الانجليزية بمبلغ ١٥٠,٠٠٠ فرنك . واستخدم بعض هذا المال ليعين عدة فرنسيين فى انجلترا (٩١) ، أما الباقي فقد استثمره بغاية الحكمة ، حتى لقد حكم بعد ذلك على هذا الربح الذى لم يتوقعه بأنه الاصل فى ثرائه . ولم يكف قط عن عرفانه بصنيع انجلترا .

لقد دان لها قبل كل شيء بحفز هائل لذهنه وانضاج لفكره . فلما عاد من منفاه جلب معه كتب نيوتن ولوك فى حقائقه . وأنفق جزءا من سنيه العشرين التالية فى تعریف فرنسا بهما . كذلك جلب معه كتب الرئويين الانجليز ، الذين زودوه ببعض الذخيرة التى سيستعملها فى الحرب على « العار » . وكما أن انجلترا على عهد تشارلز الثانى تعلمت الخير والشر من فرنسة لويس الرابع عشر ، فكذلك ستتعلم فرنسة لويس الخامس عشر من انجلترا الاعوام ١٦٨٠ - ١٧٦١ . ولم يكن فولنير وسيط التبادل الاوحد فى هذا الجيل ؛ فان مونتسكيو ، وموبورتوى ، وبريفوست ، وبوفون ، ورينال ، وموريلليه ، وليلاند ، وهلفتيوس ، وروسو - هؤلاء أيضا أتوا الى انجلترا ، والذين لم يأتوا تعلموا من الانجليزية ما يكفى لجعلهم حملة للأفكار الانجليزية . وقد أجمل فولتير فى تاريخ لاحق هذا الدين فى رسالة بعث بها الى هلفتيوس . قال :

« لقد استعرنا من الانجليز المرتبات السنوية ، وأموال استهلاك الديون ، وبناء السفن وتسييرها ، وقوانين الجاذبية ، ... والألوان الأساسية السبعة ، والتطعيم ، وسنكتسب منهم ، دون ادراك منا ، حرية تفكيرهم الرفيعة ، واحتقارهم العميق لتفاهة المعلومات التى تعطيها المدارس (٩٢) » .

ومع ذلك شعر بالحنين الى فرنسا . لقد أشبهت انجلترا الجعة ، أما فرنسا فلها مذاق النبيذ فى فيه . والتمس المرة بعد المرة أن يؤذن له فى العودة . ويبدو أنه منح الأذن بشرط معتدل هو أن يجتنب باريس أربعين يوما . ولا علم لنا متى غادر انجلترا ، وأغلب الظن أن هذا كان فى خريف ١٧٢٨ . وفى مارس ١٧٢٩ كان فى سان - جرمان - أن - ليه ؛ وفى ٩ أبريل كان فى باريس ، رجلا هذبته المحن ومحصلته دون أن تقضي عليه ، جياشا بالأفكار ، متلهفا على تغيير هذه الدنيا وتبديلها .

المراجع

APOLOGY

1. Brandes, G., *Voltaire*, I, 4.
2. Cousin, Victor, *Histoire de la philosophie*, in Buckle, H. T., *History of Civilization in England*, I, 519n.
3. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 16.

CHAPTER I

1. Brandes, *Voltaire*, I, 10.
2. *Ibid.*, 31; Parton, James, *Life of Voltaire*, I, 26; Campbell, T. J., *The Jesuits*, 354.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au XVIII^e siècle*, I, 32.
4. *Ibid.*, 17-18.
5. Letter of Feb. 7, 1746, to Father Larour, in Desnoiresterres, I, 24; Brandes, I, 44.
6. Parton, I, 53.
7. Hazard, Paul, *European Thought in the 18th Century*, 129.
8. Parton, I, 66.
9. Desnoiresterres, I, 171.
10. Duclos, C. P., *Secret Memoirs of the Regency*, 6.
11. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 329.
12. Duclos, 10.
13. Saint-Simon, II, 326.
14. Desnoiresterres, I, 96.
15. Wormeley, K. P., *Correspondence of Madame, Princess Palatine, . . . Marie Adélaïde de Savoie, . . . and Mme. de Maintenon*, 29.
16. Guizot, F., *History of France*, V, 3.
17. Martin, Henri, *Histoire de France*, XV, 13.
18. Duclos, Louis, *French Society in the 18th Century*, 55.
19. Martin, H., XV, 20-22; Desnoiresterres, I, 164.
20. Strylenski, C., *Eighteenth Century*, 82.
21. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 47.
22. Martin, H., XV, 53.
23. Voltaire, *Works*, XVI, 20.
24. Martin, H., XV, 54.
25. Michelet, J., *Histoire de France*, V, 268.
26. Saint-Simon, II, 232.
27. *Ibid.*, III, 239.
28. Martin, H., XV, 62.
29. Saint-Simon, III, 243.
30. In Lacroix, Paul, *Eighteenth Century in France*, 201.
31. Wormeley, 31.
32. Guizot, V, 42.
33. Duclos, *Secret Memoirs*, 70.
34. Martin, H., XV, 107.
35. Saint-Simon, III, 338.
36. Michelet, V, 133.
37. *Ibid.*, 135.
38. Saint-Simon, III, 69.
39. Voltaire, *Works*, XVIa, 155.
40. Saint-Simon, III, 418.
41. *Cambridge Modern History*, II, 131.
42. Michelet, V, 197; Martin, H., XV, 111.
43. Duclos, *Secret Memoirs*, 8.
44. Ercole, L., *Gay Court Life in France in the 18th Century*, 18-20.
45. Saint-Simon, III, 69.
46. Ercole, 27.
47. *Ibid.*, 10.
48. Duclos, *French Society*, 56.
49. Ercole, 44.
50. *Cambr. Mod. History*, VI, 132.
51. Duclos, *Secret Memoirs*, 131.
52. Ercole, 44.
53. Martin, H., XIV, 552n., and Michelet, V, 160, credit the charge of incest.
54. Martin, XV, 12.
55. Dupuy, *Dialogues sur les plaisirs*, 14, in Crocker, L. G., *Age of Crisis*, 117.
56. Brunetière, F., *Manual of the History of French Literature*, 282.
57. Wormeley, 10.
58. Lacroix, 83.
59. Michelet, V, 251.
60. Martin, H., XV, 339.
61. Batiffol, L., *The Great Literary Salons*, 103.
62. Toth, K., *Woman and Rococo in France*, 107.
63. *Ibid.*
64. Lacroix, 417.
65. Ercole, 56.
66. Louvre.
67. Metropolitan Museum of Art, New York.
68. Louvre.
69. Metropolitan Mus. of Art.
70. Wallace Collection, London.
71. Dresden, Gemäldegalerie.
72. Wallace Collection.
73. There are outstanding collections of Watteau's drawings in the Louvre and in the Pierpont Morgan Library, New York.
74. Goncourt, E. and J. de, *French 18th-Century Painters*, 1.

- 75 Aldington, R., *French Comedies of the 18th Century*, 103.
- 76 Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 81.
- 77 *Ibid.*, 82.
- 78 Lesage, *Adventures of Gil Blas*, prefatory memoir.
- 79 Aldington, 131.
- 80 Lesage, *Gil Blas*, Book VIII, Ch. x.
- 81 *Gil Blas*, last line.
- 82 Sainte-Beuve, *Portraits*, I, 104.
- 83 Saint-Simon, III, 42, cf. 91-94.
- 84 Créquy, Marquise de, *Souvenirs*, 44.
- 85 Michelet, V, 126.
- 86 Faguet, Émile, *Literary History of France*, 474.
- 87 Saint-Simon, III, 376.
- 88 Duclos, *Secret Memoirs*, 326.
- 89 Michelet, V, 155; Martin, H., XV, 80.
- 90 *Ibid.*, 115.
- 91 Saint-Simon, III, 373.
- 92 *Ibid.*, 376.
- 93 77
- 94 In Torrey, N., *The Spirit of Voltaire*, 21.
- 95 Parton, I, 99.
- 96 Desnoiresterres, I, 217.
- 97 Parton, I, 98.
- 98 Brandes, I, 97.
- 99 *Ibid.*, 98.
- 100 99.
- 101 Parton, I, 115.
- 102 Like Desnoiresterres, I, 159, and Brandes, I, 100.
- 103 Créquy, 149.
- 104 Desnoiresterres, I, 157.
- 105 Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 463; Brandes, I, 306.
- 106 Desnoiresterres, I, 190.
- 107 Parton, I, 154.
- 108 Desnoiresterres, I, 242; Faguet, *Literary History*, 469, gives a different version: "Gare que cet écrit in extremis n'aille pas à son adresse."
- 109 Parton, I, 165.
- 110 Voltaire, *Works*, XXIIa, 221.
- 111 Frederick the Great, *Mémoires*, I, 59.
- 112 Desnoiresterres, I, 345.
- 113 Brandes, I, 152.
- 114 *Ibid.*; Parton, I, 185.
- 115 Parton, I, 190.
- day Things in England, 21; Mantoux, P., *Industrial Revolution in the 18th Century*, 165.
5. Quennell, *Everyday Things*, 12.
- 6 Trevelyan, G. M., *English Social History*, 179.
7. Besant, Sir Walter, *London in the 18th Century*, 386.
- 8 Lipson, E., *Growth of English Society*, 212.
9. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 252.
10. Jaurès, *Histoire socialiste de la Révolution française*, I, 67.
11. Usher, A., *History of Mechanical Inventions*, 280.
12. Lipson, 196.
13. Ashton, *Economic History*, 210.
14. *Encyclopaedia Britannica*, VI, 544a.
15. Mantoux, 73.
16. Ashton, 201-4.
17. In Tawney, R. H., *Religion and the Rise of Capitalism*, 190.
18. Ashton, 212; Mantoux, 72.
19. Ashton, 203.
20. Webb, S. and B., *History of Trade Unionism*, 31-50.
21. Mantoux, 119.
22. Chesterfield, Earl of, *Letters to His Son*, letter of Sept. 22, 1749.
23. Mantoux, 102; Taine, H., *Ancient Regime*, 33.
24. Beard, M., *Business Man*, 430.
25. Voltaire, *Lettres sur les Anglais*, No. 10, in Mantoux, 138.
26. Hume, David, *Enquiry concerning the Principles of Morals*, 248.
27. In Beard, M., 435.
28. Lecky, W. E., *History of England*, I, 323.
29. Mackay, C., *Extraordinary Popular Delusions*, 50.
30. *Ibid.*, 55.
31. Quennell, P., *Caroline of England*, 71.
32. *Camb. Mod. History*, VI, 181.
33. Mackay, 73.
34. *Ibid.*, 78.
35. Voltaire, *Works*, XIIIa, 23.
36. Ranke, L., *History of the Reformation in Germany*, 468.
37. Rogers, J. E. T., *Economic Interpretation of History*, 157; Ashton, 2; Ogg, David, *Europe in the 17th Century*, 2.
38. Defoe, *Tour*, I, 337.
39. Besant, *London in the 18th Century*, 352.
40. Trevelyan, *English Social History*, 142.
41. Lecky, *History of England*, I, 482-84.
42. *Ibid.*
43. Letter of Mar. 23, 1752.
44. Besant, 380-81.

CHAPTER II

1. Shakespeare, *Richard II*, II, i.
2. Defoe, *Tour through England and Wales*, I, 1 and *passim*.
3. Voltaire, *Lettres philosophiques*, No. 9; Ashton, T., *Economic History of England: The 18th Century*, 36.
4. Quennell, M. and C., *History of Every-*

45. W. R. Brock in *New Camb. Mod. History*, VII, 266.
46. Besant, 238.
47. Lecky, II, 543-45.
48. James, B. B., *Women of England*, 135.
49. Besant, 138.
50. Markun, L., *Mrs Grundy*, 183.
51. Fay, B., *La Franc-Maçonnerie et la révolution intellectuelle du XVIII^e siècle*, 78-79.
52. Besant, 384.
53. Blackstone, *Commentaries on the Laws of England*, 151n.
54. Congreve, Wm., *Way of the World* III, iii, in Hampden, J., *Eighteenth-Century Plays*.
55. Gay, John, *Beggar's Opera*, I, v, in Hampden.
56. Halsband, R., *Lady Mary Wortley Montagu*, 14.
57. Langdon-Davies, J., *Short History of Women*, 305.
58. Besant, 459; Lecky, I, 522; Quennell, P., *Caroline of England*, 29.
59. George, M. Dorothy, *London in the 18th Century*, 29.
60. Lecky, I, 477.
61. *Ibid.*, 479; Besant, 297 f.
62. Berkeley, George, *Sir*, in Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 122.
63. Besant, 301-2.
64. Turberville, *Johnson's England*, I, 48.
65. Boswell, *Journal of a Tour to the Hebrides*, 84 (Aug. 31, 1773).
66. *Enc. Brit.*, XX, 779d.
67. *Camb. Mod. History*, VI, 187.
68. Ashton, 62-63.
69. Hobhouse, L. T., *Morals in Evolution*, 313.
70. Besant, 342.
71. Lecky, I, 183.
72. *Ibid.*, 367; Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 256.
73. Westermarck, E. A., *Origin and Development of the Moral Ideas*, II, 558.
74. Turberville, I, 72.
75. Some instances in Thackeray, *The Four Georges*, 42-43.
76. Turberville, I, 312.
77. Fielding, H., *Amelia*, Book I, Ch. ii.
78. Turberville, I, 310.
79. Quennell, M. and C., *Everyday Things*, 9.
80. Lecky, I, 507.
81. Turberville, I, 322.
82. *Ibid.*, 319; Lecky, I, 501-2.
83. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 586.
84. Johnson, S., *The Rambler*, 183.
85. Pope, A., *Imitations of Horace*, Epistle II.
86. James, B. B., *Women of England*, 318.
87. Turberville, I, 341.
88. Thackeray, *Four Georges*, 41.
89. Allen, B. S., *Tides in English Taste*, I, 249.
90. Lecky, I, 552.
91. *Ibid.*, 553-54.
92. Walpole, H., *Letters*, I, 309 (June 29, 1744).
93. Weinstock, H., *Handel*, 128.
94. Allen, B. S., *Tides*, I, 94; Chesterfield, *Letters*, Oct. 19, 1748.
95. Clergue, H., *The Salon*, 4.
96. Chesterfield, *Letters*, June 11, 1750.
97. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 25.
98. Wharton, G. and P., *Wits and Beaux of Society*, I, 349.
99. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 29.
100. Chesterfield, letter of July 8, 1739.
101. Letter of June, 1752, in *Letters to His Son*, II, 96.
102. Letter of Apr. 19, 1749.
103. Apr. 13, 1752.
104. Nov. 6, 1747.
105. May 16, 1751.
106. May 23, 1751.
107. Sept. 5, 1748.
108. Apr. 15, 1751.
109. In Sainte-Beuve, *English Portraits*, 41.
110. Dec. 25, 1753.
111. May 17, 1748.
112. Nov. 11, 1752.
113. Oct. 9, 1747.
114. Feb. 22, 1748.
115. Oct. 19, 1748.
116. Jan. 8, 1750.
117. Apr. 13, 1752.
118. Dec. 25, 1753.
119. Stephen, Leslie, *English Literature and Society in the 18th Century*, 150.
120. Krutch, J. W., *Samuel Johnson*, 354.
121. Chesterfield, July 25, 1741.
122. Feb. 24, 1747.
123. Krutch, 354.
124. Parton, II, 551.
125. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 43.
126. Nicolson, H., *Age of Reason*, 201.
127. In Sainte-Beuve, *English Portraits*, 34.
128. Dec. 2, 1746.
129. Oct. 17, 1768.
130. *Letters*, II, 334.
131. Oct. 11, 1769.
132. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 44.
133. *Ibid.*, 45.

CHAPTER III

1. Acton, Lord, *Lectures on Modern History*, 266.
2. Quennell, P., *Caroline*, 22.
3. Halsband, *Lady Mary*, 45.

4. Voltaire, *Works*, XXIIb, 70-72; cf. Laski, H., *Political Thought in England, Locke to Bentham*, 16.
5. Hauser, *Social History of Art*, II, 261.
6. *New Cambridge Modern History*, VII, 261.
7. Voltaire, XIXb, 29.
8. Chidsey, D. B., *Marlborough*, 291.
9. Rowse, A. L., *The Early Churchills*, 131.
10. Martin, H., XV, 76.
11. Lang, A., *History of Scotland*, IV, 226-27.
12. Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 117.
13. Churchill, W. S., *History of the English-Speaking Peoples*, III, 91.
14. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 275.
15. Quennell, *Caroline*, 93; Martin, H., XV, 343.
16. Traill, H. D., *Social England*, V, 139.
17. Walpole, H., *Reminiscences*, in *Letters*, introd., cxxx.
18. Walpole, H., *Memoires of . . . the Reign of George II*, I, 63.
19. Thackeray, *Four Georges*, 33.
20. Wharton, G. and P., *Wits and Beaux of Society*, I, 276.
21. Lecky, *History of England*, I, 465.
22. Mosner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 4; Quennell, *Caroline*, 134.
23. *Camb. Mod. History*, VI, 77.
24. Voltaire, XIXb, 23.
25. Lecky, I, 520.
26. Quennell, *Caroline*, 252.
27. Lecky, I, 326; *Camb. Mod. History*, VI, 181.
28. Macaulay, T., *Essays*, I, 346.
29. Walpole, *Memoires of the Reign of George II*, II, 273.
30. Mosner, *Bishop Butler*, 5.
31. Beard, M., *History of the Business Man*, 477.
32. Macaulay, *Essays*, I, 348; Lecky, I, 367-72; Koven, A. de, *Horace Walpole and Mme. du Deffand*, 13.
33. Lord Hervey in Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 28.
34. Tucker in Lecky, I, 334.
35. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 29.
36. Chesterfield, letter of Dec. 12, 1749.
37. In Lovejoy, *Essays*, 177.
38. Collins, J. C., *Bolingbroke*, 166.
39. *Camb. History of English Literature*, IX, 154.
40. Bolingbroke, *On the Spirit of Patriotism*, 28.
41. Collins, J. C., 172.
42. Bolingbroke, 128.
43. Hearnshaw, F. J., *Social and Political Ideas of Some English Thinkers of the Augustan Age*, 215.
44. *Ibid.*
45. Acton, *Lectures*, 273.
46. See *Camb. Mod. History*, VI, 64 f.; Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 681; Churchill, III, 202.
47. Lecky, I, 385n.; Burke, *Letters on a Regicide Peace*, in *Reflections on the French Revolution*.
48. Altamira, R., *History of Spain*, 435.
49. *Enc. Brit.*, XX, 779c.
50. In Lecky, I, 394.
51. *Ibid.*, 291.
52. *Ibid.*
53. 239.
54. 244.
55. Mantoux, *Industrial Revolution*, 87.
56. Swift, Jonathan, *Short View of the State of Ireland*, in Lecky, II, 208.
57. Lecky, II, 424.
58. *Camb. Mod. History*, VI, 485.
59. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, IV, 531.
60. Lecky, II, 599.
61. D'Alton, IV, 472-73.
62. Lecky, II, 217.
63. *Ibid.*
64. Mosner, *Life of Hume*, 134.
65. Lecky, II, 83.
66. Trevelyan, *English Social History*, 444.
67. Robertson, J. M., *Short History of Free Thought*, II, 168.
68. Traill, *Social England*, V, 159.
69. Lang, A., *History of Scotland*, IV, 425-27.
70. *Ibid.*, 449.
71. 451.
72. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, 14.
73. Lang, A., IV, 512.
74. *Camb. Mod. History*, VI, 117.
75. Lang, A., IV, 519.
76. *Enc. Brit.*, IV, 292d.
77. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, 44.
78. Frederick, *Mémoires*, I, 191.
79. Wingfield-Stratford, 682.
80. Lecky, II, 479-80.
81. *Ibid.*, 476.
82. Churchill, III, 112.

CHAPTER IV

1. *Pensées diverses*, in Lecky, II, 531n.
2. Davidson, John, introd. to Montesquieu's *Persian Letters*, xxi.
3. *Ibid.*
4. Hervey, *Memoirs of the Court of George II*, in introd. to Mandeville's *Fable of the Bees*, x.
5. Besant, *London*, 152.
6. *Camb. Mod. History*, VI, 79.

7. Stephen, L., *History of English Thought in the 18th Century*, I, 217.
8. Thackeray, *Four Georges*, 34.
9. Lecky, II, 468.
10. Hume, D., essay "Of National Character."
11. Besant, 153.
12. Lecky, I, 275-76, 303-4.
13. Trevelyan, G. M., *England under the Stuarts*, 342.
14. Robertson, J. M., *History of Free-thought*, II, 161; Lecky, I, 313.
15. Voltaire, *XIXb*, 218.
16. Voltaire, *Vla*, 188.
17. Woolston, *Discourses*, I, 34, in Stephen, *History of English Thought*, I, 232.
18. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 141; Voltaire, *Philosophical Dictionary*, article "Miracles," in *Works*, *Vla*, 288-93; Robertson, J. M., *Free-thought*, II, 157-59; Stephen, *History of English Thought*, I, 228-38.
19. Benn, A. W., *History of English Rationalism in the 19th Century*, I, 145.
20. Tindal, M., *Christianity as Old as the Creation*, 14, in Stephen, *History*, I, 139.
21. Stephen, I, 162; Robertson, II, 158.
22. In Stephen, I, 266.
23. Collins, J. C., *Bolingbroke*, 183.
24. Stephen, I, 178.
25. Torrey, N. L., *Voltaire and the English Deists*, 149.
26. In Hearnshaw, *English Thinkers of the Augustan Age*, 240.
27. Stephen, *History*, I, 180.
28. Collins, J. C., 180.
29. Goldsmith, O., *Life of Bolingbroke*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 1057.
30. In Stephen, I, 246.
31. *Ibid.*, 345.
32. 349-52.
33. 356.
34. *Enc. Brit.*, IV, 463b.
35. Mosser, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 8.
36. Toynbee, Arnold J., *Study of History*, abridgment of Vols. I-VI by D. C. Somervell, 486.
37. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 21.
38. Turberville, *Johnson's England*, I, 33.
39. Inge, *Christian Mysticism*, 183.
40. *Camb. Mod. History*, VI, 81.
41. Gibbon, *Memoirs*, 22.
42. Bearne, *Court Painter*, 198.
43. Voltaire, essay "Epic Poetry."
44. Besant, 149.
45. McConnell, F. J., *John Wesley*, 13.
46. Wesley, John, *Journal*, 94.
47. *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, XII, 724d.
48. *Ibid.*, 725a.
49. McConnell, 47.
50. Lecky, II, 554.
51. Wesley, *Journal*, 43; Hastings, XII, 725d.
52. *Enc. Brit.*, XXIII, 576.
53. Lecky, II, 565.
54. *Ibid.*
55. 563.
56. 591-94; Lecky, *History of European Rationalism*, I, 45.
57. Turberville, *Johnson's England*, I, 221.
58. Wesley, *Journal* for 1739, in Lecky, *History of England*, II, 584.
59. *Ibid.*, 583.
60. 590.
61. 636; Toynbee, *Study of History*, IX, 459-60.
62. McConnell, 48.
63. *Ibid.*, 66.
64. Wesley, *Journal*, entry for Mar. 30, 1736.
65. *World Christian Handbook*, 5.
66. *Journal* for Jan. 1, 1790.
67. Shaftesbury, 3d Earl of, *Characteristicks*, I, 260.
68. Mandeville, *Fable of the Bees*, 83-85.
69. Hutcheson, F., *Inquiry concerning Moral Good and Evil*, in *Enc. Brit.*, XI, 945c.
70. Buckle, II, 334.
71. *Ibid.*, 336.
72. Hume, D., *Dialogues concerning Natural Religion*, 4.
73. Huxley, T. H., *Hume*, 3.
74. *Ibid.*, 6.
75. Mosser, *Life of Hume*, 51.
76. Huxley, 6.
77. "My Own Life," in Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, 233.
78. Mosser, 82.
79. *Ibid.*, 94.
80. 111.
81. Hume, *Treatise of Human Nature*, Book I, Part II, Sec. 5.
82. *Ibid.*, I, II, 1.
83. I, III, 10 and 7.
84. I, IV, 2 and 6.
85. I, IV, 1.
86. *Ibid.*
87. Appendix.
88. I, IV, 1.
89. I, IV, 7.
90. I, IV, 2.
91. I, IV, 1.
92. II, III, 3.
93. *Ibid.*
94. II, I, 10.
95. II, I, 7.
96. II, I, 8.
97. II, II, 11.

98. "My Own Life," in Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, p. 234.
99. Mossner, p. 139.
100. *Treatise*, III, 1, Sec. 1.
101. III, II, 2.
102. III, III, 6.
103. Mossner, p. 213.
104. *Ibid.*, 215-18.
105. Hume, *Enquiry concerning the Human Understanding*, p. 2.
106. *Ibid.*, Part X, Secs. 91-95 and 100-101.
107. XI, 102.
108. *Enquiry concerning the Principles of Morals*, V, 1, Secs. 174-75, Appendix II; cf. essay "Of the Dignity and Meanness of Human Nature."
109. *Enquiry concerning . . . Morals*, IX, 1, Sec. 226.
110. *Ibid.*, IV, Sec. 166.
111. "My Own Life," *loc. cit.*, p. 236.
112. *Dialogues concerning Natural Religion*, 156.
113. *Ibid.*, 148.
114. 182-83.
115. Essay "On Suicide."
116. *Dialogues*, 210.
117. *Ibid.*, 194.
118. 211.
119. 169.
120. 180.
121. 171.
122. 227.
123. 214.
124. Hume, *Natural History of Religion*, Secs. I, XIII-XV, in Cassirer, E., *Philosophy of the Enlightenment*, p. 181.
125. *Dialogues*, introd., xv.
126. Burton, *Life of Hume*, II, in Lecky, *History of England*, II, 543.
127. *Enquiry concerning . . . Morals*, III, II, Sec. 155.
128. Hume, *History of England*, IV, p. 480.
129. Hume, *Essays Literary, Moral, and Political*, 27, 273.
130. *Ibid.*, 161.
131. Essay "Of National Character."
132. *Enquiry concerning the Human Understanding*, Part VII, Sec. 65.
133. Essay "Of Commerce."
134. Essay "Of Civil Liberty."
135. Essay "Jealousy of Trade."
136. In Black, *Art of History*, p. 80.
137. Mossner, 317.
138. Essay "Of the Study of History."
139. "My Own Life," *loc. cit.*, 236.
140. In Black, 114.
141. Mossner, 318.
142. "My Own Life," *loc. cit.*, 236.
143. *Ibid.*, 137.
144. Mossner, 213.
145. *Ibid.*, 318.
146. 444-45.
147. "My Own Life," *loc. cit.*, 238.
148. *Ibid.*, 239.
149. *Enquiry concerning the Human Understanding*, Part XI, Sec. 108.
150. Mossner, 568.
151. Adam Smith, letter to Wm. Strahan, Nov. 9, 1776, in Hume, *Dialogues*, p. 247.
152. *Treatise of Human Nature*, Book I, Part IV, Sec. 5.
153. Wolf, *History of Science*, 757.
154. Mossner, 478.
155. Hume, *Dialogues*, introd., xxx.
156. Mossner, 588.
157. "My Own Life," *loc. cit.*, 239.
158. Strachey, L., *Portraits in Miniature*, 151.
159. "My Own Life," *loc. cit.*, 244.
160. *Ibid.*, 245.
161. Mossner, 598-600.
162. *Ibid.*, 603.

CHAPTER V

1. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 132.
2. Buckle, I, 312.
3. Johnson, *Lives of the Poets*, II, 143.
4. Pope, "Epistle to Dr. Arbuthnot," lines 127-28.
5. *Essay on Criticism*, lines 214-15.
6. *Ibid.*, line 298.
7. Lines 631-42.
8. 585-87.
9. Stephen, L., *Alexander Pope*, 45.
10. *Rape of the Lock*, Canto II, lines 105-9.
11. *Ibid.*, III, 16.
12. v, 85-86.
13. See "Windsor Forest," lines 41-42.
14. Pope, "Eloisa to Abelard," lines 281-92.
15. *Ibid.*, lines 325-28.
16. Stephen, *Pope*, p. 61.
17. *Ibid.*, 64.
18. Johnson, *Lives*, II, 161.
19. Stephen, *Pope*, 64.
20. *Ibid.*, 78.
21. Pope, "Second Epistle of the Second Book of Horace," lines 68-69, in *Collected Poems*, p. 305.
22. Thornton, J. C., *Table Talk from Ben Jonson to Leigh Hunt*, 112.
23. E.g., see Jefferson, *Eighteenth-Century Prose*, 25.
24. Parton, I, 214.
25. Stephen, *Pope*, 91.
26. Boston Museum of Fine Arts.
27. London, National Portrait Gallery.
28. Stephen, *Pope*, 100.

29. See "Farewell to London," in *Poems*, 368, and Strachey, *Portraits*, 14.
30. Garnett and Gosse, *English Literature*, III, 199.
31. Pope, *Dunciad*, Book II, lines 75-76, 102-8, 155-56.
32. *Ibid.*, Book IV, lines 471-82.
33. Robertson, J. M., in Shaftesbury, *Characteristics*, introd., p. xxv.
34. Collins, *Bolingbroke*, 158.
35. Stephen, *Pope*, 166.
36. *Essay on Man*, Epistle I, lines 1-16.
37. Milton, *Paradise Lost*, I, line 26.
38. *Essay on Man*, I, 81-84.
39. I, 91-96.
40. End of Epistle I.
41. *Essay on Man*, II, 1-17.
42. *Ibid.*, 117-20.
43. III, 303-6.
44. IV, 35-36.
45. 49-50.
46. Taine, H., *History of English Literature*, Book III, Ch. vii, Sec. 4.
47. Voltaire, *Lettres sur les Anglais*, in *Works*, XLXb, p. 94.
48. Johnson, *Lives*, II, 193.
49. "Epistle to Dr. Arbuthnot," lines 305-19.
50. *Satires*, epilogue, lines 208-9.
51. *Dunciad*, IV, 629-55.
52. Johnson, *Lives*, II, p. 199.
53. Thackeray, *English Humourists*, 213.
54. Walt Whitman, in Traubel, H., *With Walt Whitman in Camden*, 116.
55. Lecky, *History of England*, I, 463.
56. Brandes, *Voltaire*, I, 16.
57. Woods, Watt, and Anderson, *Literature of England*, II, 51.
58. Garnett and Gosse, III, 287; questioned by Camb. *History of English Literature*, X, 147.
59. Arnold, M., *Essays in Criticism*, 317.
60. Johnson, *Lives*, II, 391, 388.
61. Allen, R. J., *Life in 18th-Century England*, 16.
62. Brandes, *Voltaire*, I, 32.
63. Lecky, *History of England*, I, 541.
64. Mossner, *Hume*, 357.
65. *Ibid.*, 360.
66. 379.
67. 364.
68. Pope, "Epitaph on Gay."
69. Gay, John, *Beggar's Opera*, I, v.
70. *Ibid.*, I, viii.
71. III, xi.
72. Camb. *History of English Literature*, X, 3.
73. Richardson, S., *Pamela*, 2.
74. *Ibid.*, 179.
75. Richardson, *Clarissa*, 429-31.
76. *Ibid.*, introd., viii.
77. *Ibid.*, ix.
78. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, II, 232 (Mar. 1, 1752).
79. Rousseau, J. J., letter to Duclos, Nov. 19, 1760.
80. Francke, K., *History of German Literature*, 216.
81. Texte, J., J. J. Rousseau and the Cosmopolitan Spirit, 148 f.
82. Fielding, H., introd. to *Amelia*, xxiii; Thackeray, *English Humourists*, 263n.
83. Fielding, *Joseph Andrews*, Book I, Ch. x.
84. Saintsbury, G., introd. to *Pamela*.
85. *Joseph Andrews*, II, xiv.
86. Fielding, *Jonathan Wild*, preface.
87. *Jonathan Wild*, I, i.
88. *Ibid.*, I, v.
89. I, iii.
90. III, vii.
91. IV, xv.
92. Thackeray, *English Humourists*, 266n.
93. Fielding, *Tom Jones*, III, v.
94. *Ibid.*, III, x.
95. XVIII, xii.
96. Besant, *London*, 501 f.; Lecky, *History of England*, I, 487.
97. *Amelia*, IV, ii.
98. *Ibid.*, I, ii.
99. XI, ix.
100. VI, ii.
101. Thackeray, 263.
102. Smollett, T., *Roderick Random*, Ch. xi, pp. 56-58.
103. *Ibid.*, xx, 114.
104. xvii, 95.
105. xxxix, 223.
106. Smollett, *Adventures of Peregrine Pickle*, Ch. II.
107. *Ibid.*, vi.
108. Thackeray, 254n.
109. *Ibid.*, 255n.
110. 254n.
111. Smollett, *Travels through France and Italy*, xxvii.
112. Thackeray, 256.
113. Smollett, *Humphrey Clinker*, 16 (letter of Apr 18).
114. *Ibid.*, 142 (letter of June 8).
115. 218-20 (letter of July 4).
116. 225-37 (letter of July 13).
117. Montagu, Lady M. W., *Letters*, I, 173.
118. Halsband, *Lady Mary Wortley Montagu*, 11.
119. Montagu, *Letters*, I, 174 (Apr. 25, 1710).
120. *Ibid.*, 178.
121. 181.
122. Letter of Aug. 16, 1712, Halsband, 25.
123. Pope, *Collected Poems*, 370.
124. Halsband, 58.

125. Pope, letter of Aug. 18, 1716, in *Montagu*, I, 405-7.
126. *Montagu*, I, 237 (Sept. 14, 1716).
127. Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 170.
128. Halsband, 63.
129. *Montagu*, I, 431, 434.
130. Collection of the Marquess of Bute.
131. Pope, *Poems*, 371.
132. Halsband, 113.
133. *Ibid.*, 130.
134. 141.
135. *Camb. History of English Literature*, IX, 277.
136. Translated from Halsband, 156.
137. *Ibid.*, 157.
138. Walpole, H., *Letters*, I, 57-62 (Sept. 25 and Oct. 2, 1740).
139. Halsband, 204, 218.
140. *Ibid.*, 218.
141. 289.

CHAPTER VI

1. Turberville, *Johnson's England*, II, 75.
2. Allen, B. S., *Tides in English Taste*, I, 73 f.
3. Lecky, *History of England*, I, 530.
4. Tate Gallery, London.
5. Staatsbibliothek, Hamburg.
6. Traill, *Social England*, V, 271.
7. Wilenski, R., *English Painting*, 102.
8. Thackeray, *English Humourists*, 247n.
9. Beckett, R. B., *Hogarth*, 22.
10. Vienna.
11. Collection of Sir Francis Cook.
12. Frick Gallery, New York.
13. Metropolitan Museum of Art, New York.
14. Tate Gallery.
15. *Ibid.*
16. National Gallery, London.
17. Tate Gallery.
18. Thackeray, 247.
19. Quennell, P., *Hogarth's Progress*, 31.
20. Tate Gallery.
21. Thackeray, 245n.; Wilenski, 60.
22. Wilenski, 79 f.; Dobson, *Hogarth*, 23.
23. Wilenski, 72.
24. Beckett, 13.
25. Art Gallery, Birmingham, England.
26. St. Bartholomew's Hospital, London.
27. Collection of Earl of Faversham.
28. Wilenski, 63; Beckett, 18, questions this story.
29. Wilenski, 85.
30. Dobson, 21.
31. Wilenski, 71.
32. Tate Gallery.
33. Wilenski, 68.
34. Craven, Thos., *Treasury of Art Masterpieces*, 210; Quennell, P., *Hogarth*, 7.
35. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 777.
36. Dobson, 31.
37. *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, II, 406.
38. Weinstock, *Handel*, 55.
39. Brockway and Weinstock, *Men of Music*, 60; Turberville, *Johnson's England*, II, 160.
40. This section is especially indebted to Herbert Weinstock's *Handel*.
41. *Grove's Dictionary*, II, 504.
42. Weinstock, 32; Brockway and Weinstock, 57.
43. *Oxford History of Music*, IV, 80; Weinstock, 38.
44. Mainwaring, John, *Life of Handel*, in Deutsch, Otto, *Handel*, 27.
45. Burney, C., *General History of Music*, II, 662.
46. Weinstock, 60.
47. *Ibid.*, 92.
48. 97.
49. *Oxford History of Music*, IV, 209.
50. Burney, II, 721n.
51. *Ibid.*
52. Weinstock, 115.
53. *Ibid.*, 172.
54. McKinney and Anderson, *Music in History*, 438.
55. Weinstock, 207.
56. Burney, II, 817.
57. Weinstock, 212.
58. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 522.
59. Brockway and Weinstock, *Men of Music*, 76.
60. *Oxford History of Music*, IV, 84; Weinstock, 225; Brockway and Weinstock, 76.
61. Weinstock, 232.
62. *Ibid.*, 239.
63. 241.
64. Rolland, R., *Musical Tour through the Land of the Past*, 58.
65. *Oxford History of Music*, IV, 198.
66. Weinstock, 77.
67. Brockway and Weinstock, 81.
68. Rolland, 49.
69. Davison, A., *Bach and Handel*, 46.
70. *Ibid.*, 44.
71. Rolland, 67.
72. Weinstock, 303.
73. *Ibid.*, 305.
74. Davison, A., 41.
75. *Oxford History of Music*, IV, 85-89, 93.
76. Burney, II, 1023.

77. Letter to Thieriot in Strachey, *Books and Characters*, 122.
78. E.g., *Works*, XXIa, 211.
79. *Works*, XIXb, 91.
80. Goldsmith, O., *Life of Voltaire*, in *Miscellaneous Works*, 504.
81. Letter of July 19, 1776, in Desnoires-terres, VIII, 108; article "Dramatic Art" quoted in Holzknicht, *Backgrounds of Shakespeare*, 387.
82. Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 101; Brandes, *Voltaire*, I, 173.
83. Johnson, *Lives of the Poets*, II, 7.
84. *Works*, XIXb, 109.
85. In Buckle, I, 518.
86. *Philosophical Dictionary*, article "Government."
87. Gay, *Voltaire's Politics*, 44.
88. Parton, II, 523.
89. Voltaire, *Correspondance*, ed. Besterman, II, 31.
90. Johnson, *Lives*, II, 176; Collins, J. C., 210.
91. Collins, 230.
92. Brunetière, *Manual of the History of French Literature*, 319.

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهدات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى. واستمتعنا أيضاً استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم. لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ومع أننا كررنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاضم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعيش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرنه تحية الوداع ...

